د. أحمد حجازى السقا

الصابئين

الأمة المقتصدة
فى
التوراة والإنجيل والقرآن



مكتبة النافذة

الصابئين

(الأمة المقتصدة)

في التوراة والإنجيل والقرآن

تأليف

د/ أحمد حجازي السقا

أستاذ مقارنة الأديان

جامعة الأزهر

تقديم

د/ عوض الله جاد حجازي

رئيس جامعة الأزهر الأسبق

الناشر

مكتبة النافذة

الصابئين الأمة المقتصدة

في التوراة والإنجيل والقرآن

تأليف: د/ أحمد حجازي السقا

الطبعة الأولى : (٢٠٠٣)

رقم الإيداع: ٥٨٠١ / ٢٠٠٣

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثيني (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787

Mob: 012 3595973

Email: alnafezah@hotmail.com

تقديم الكتاب

الأستاذ الدكتور

عوض الله جاد حجازي

رئيس جامعة الأزهر الأسبق

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الكريم، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بالخير إلى يوم الدين.

وبعد

فإن ملة الصابئين قد حار العلماء في نشأتها، وفي عقائدها، وشرائعها. وقد هدى الله مؤلف هذا الكتاب إلى القول الحق فيهما، إذ بيّن أن يحيى ـ عليه السلام ـ كان يصبغ في الماء من يتوب من اليهود ويقبل لأن يدخل في ملكوت السموات، الذي سيؤسسه محمد ﷺ وهو بالصبغ يكون مبشراً بسيدنا محمد المصطفى من الله رحمة للعالمين. وتكون هذه الملة مبشرة به من قبل مجيئه ـ والمبشرون به على تقوى من الله ورضوان ـ وأظهر المؤلف مقارنة حسنة بين المأثور عن هذه الملة في العقائد والشرائع والعادات والتقاليد وبين الذي هو مدون في التوراة والإنجيل، وخلص من المقارنة إلى أنهم طائفة من بني إسرائيل آمنت بدعوة يحيى ـ عليه السلام ـ فانفصلت بإيمانها عن اليهود الذين رفضوه.

ووضع في كتابه هذا ما يمت إلى موضوعه بصلة، وما كان يجب.

كرده على الدكتور طه حسين.

وفسر قرآنا بكلام من التوراة والإنجيل أرى أنه أصاب في بعض تفسيره ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ قال: إن الكتاب هو التوراة، وهذا يدل على أن شريعة يحيى كانت هي كل ما في التوراة، أعني أنه كان مصدقا لما بين يديه من التوراة. وقال: إن ﴿ الْحُكْمَ ﴾ هو أنه حكم على من يكفر بالنبي ﷺ أنه سيعاقب منه عقابا أليما، من النبي نفسه.

«يا أولاد الأفاعي. من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي! فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يُقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم. والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجرة؛ فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا؛ تُقطع وتلقى في النار. أنا أعمدكم بماء للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي؛ هو أقوى مني، الذي لست أهلا أن أحمل حذاءه، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار. الذي رفشه في يده، وسينقى بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن. وأما التبن فيحرقه بنار لا تُطفأ»

وذكر المؤلف من حكم يحيى - عليه السلام -: «من له ثوبان؛ فليعط من ليس له. ومن له طعام؛ فليفعل هكذا» ومن حكم عيسى - عليه السلام -: «ليس التلميذ أفضل من معلمه، بل كل من صار كاملا؛ يكون مثل معلمه»

ولم يشرح قول زكريا عن ابنه: «وأنت أيها الصبي؛ نبي العليّ تُدعى؛ لأنك تتقدم أمام وجه الرب؛ لتعدّ طرقه» أي يهيىء الطريق لنبي الرب الآتي.

وفسر قوله ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ بقوله: إن اصطلاح «الكلمة» في التوراة والإنجيل يدل على النبي العربي وهو محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأن يحيى - عليه السلام - صدق بالكلمة وبشر بها من بعده، خلافا لقول من قال إنه كان مصدقا بعيسى - عليه السلام -.

ومؤلف الكتاب يحمل الليسانس من كلية اللغة العربية في النقد الأدبي، وخبرته به؛ طبّقه على نقد النصوص، فالنص على أن إبراهيم - عليه السلام - هاجر من بلده إلى الشام، نقده بقوله: إنه خرج مهاجرا وهو لا يعلم أين يذهب، وهداه الله إلى مكة فهاجر إليها، ثم سار منها إلى بلاد الله للدعاء إلى دينه، واستخرج من التوراة أن إسحق - عليه السلام - ولد بمكة وتزوج فيها ثم ارتحل منها إلى أرض كنعان. فكيف مع هذا ينفي الدكتور طه حسين وجود إبراهيم في مكة؟ وبين أن اليهود وصفوا الصابئين بعبادة النجوم للحط من شأنهم حتى لا يصدقونهم فيما يقولون عن رسول الله ﷺ

إلا منهم، ولو كان هذا الاستنباط ظاهرا للكل؛ لما اختلفوا في أصلهم على عشرة أقوال.

ومما في كتب علمائنا عن جدال المخالفين: أننا من كلامهم الذي لا يشكون في صحته؛ نحاورهم بالتي هي أحسن. وقد قال المؤلف وهو يجادل أهل الكتاب: إن في شريعة الناس في زمان إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أن «السيدة» تعطي زوجها جاريتها لينجب لها منها، وهاجر جارية سارة، وقد أعطتها سارة لإبراهيم؛ فولدت لها إسماعيل، وبحق الشريعة تكون أمه ويرث فيها. ومن قبل أن تنجب إسحق ـ عليه السلام ـ كان إسماعيل ـ عليه السلام ـ وحيد أبيه، فإذا قال في التوراة: إن الذبيح هو الابن الوحيد؛ فإنه يكون إسماعيل لا إسحق، ويترتب على كونه وحيدا أن إسحق ـ عليه السلام ـ ﴿ نَافِلَةً ﴾ وليس أصلا تتم المواعيد فيه.

ويبين المؤلف أن الإنجيل مبني على التوراة، فإن عيسى ـ عليه السلام ـ كان إذا تكلم في مجمع من مجامع اليهود عن رسول الله ﷺ يذكر من التوراة كلاما عنه. ومثال ذلك: أنه لما قال لعلماء بني إسرائيل: إن النبي المنتظر لن يكون من اليهود، استدل على ذلك بآيات من الزبور، فصار في الإنجيل اثنان هما: كلامه ،ودليله عليه من التوراة، وقد يكون الدليل مفهوما معناه للسامع وهو في موضع منها، ولم يذكر في النص.

ففي الإنجيل لبرنابا يقول المسيح ـ عليه السلام ـ: «وكما أن الخمر الجديدة توضع في أوعية جديدة؛ هكذا يترتب عليكم أن تكونوا رجالا جددا إذا أردتم أن تعوا التعاليم الجديدة التي ستخرج من فمي» وهذا المعنى في إنجيل متى وهو: «متى جلس ابن الإنسان على عرش مجده، عند تجديد كل شيء» ما هو دليله ـ عليه السلام ـ على أن محمدا ﷺ سيأتي، وسيكون له عرش عظيم، وسيجدد الشريعة اليهودية؟ إن موسى ـ عليه السلام ـ يقول لبني إسرائيل: سيرسل الله إليكم نبيا من بين إخوتكم مثلي، ويجب عليكم أن تسمعوا له في كل ما يكلمكم به، ومعنى أنهم يسمعون له هو أنه سيجدد الشريعة.

وأرجع كلمة صبأ إلى «صبغ» فقال: إن اللغة العبرانية ليس فيها حرف الغين المعجمة، وينطقون الغين ألفا أو عينا فيقولون في صبغ: صبأ، والصابغون هم الصابئون في اللغة العربية، ووصف اليهودُ العربَ بما وصفوا به الصابئين، فدافع عن العرب كما دافع عن الصابئين.

قوال: إن اليهود هم الذين عبدوا الأصنام، صنم البعل في أيام إلياس - عليه السلام - وأصناما كثيرة في غير زمانه، ووأدوا البنين والبنات للأصنام، وقدموا للأصنام ذبائح بشرية وحيوانية.

واستشهد المؤلف بكبار علمائنا في الرد على أهل الكتاب، وتدل شواهده من كتبهم على أنه تعلم منهم ولم ينفرد عنهم بمميزات، إلا بزيادة بيان. هذا قد قيل في حقه. ولكني أرى مع ذلك أنه تخطَّى هذا القدر قليلا. فقوله إن يحيى - عليه السلام - لم يقتل وإنما مات موتا عاديا؛ يدل على أنه تخطى هذا القدر قليلا، ويعجبني هذا من طلابي الأذكياء.

يعجبني أن يتعلموا من كتب علمائنا، وأن يكون لهم اجتهاد ولو في مسألة واحدة من مسائل العلم طول حياتهم.

وزيادة البيان تدل على اجتهاد، وصياغة العلم بلغة يفهمها الناس تدل بالتأكيد على اجتهاد، فكلنا يعلم أن أنبياء بني إسرائيل مصدقون للتوراة. وقول الله تعالى: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ ﴾ - ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ هما قولان يدلان على أن الكتاب كان مع كل واحد منهما، وهو التوراة، فكيف مع هذا يكون أحدهما مبشرا بالآخر؟ إذاً هما معا يبشران بمن حقه الهيمنة على الكتاب، وليس هو إلا محمد ﷺ فهل هذا الاستنباط يدل على ما لم يكن معروفا من قبل؟ إنه زيادة بيان وإنه من باب الاجتهاد.

وقد استفاضت الكتب بأن الصابئين دفعوا الجزية للمسلمين في بدء الإسلام. ولم يستنبط أحد من دفعهم الجزية أنهم طائفة من طوائف أهل الكتاب. إذ الجزية لا تؤخذ

وقد بشر المسيح - عليه السلام - بهذا المجدّد، وسماه «محمداً» في رواية برنابا عنه، وهو «الفارقليط» في رواية يوحنا، وفي الطبعات المعاصرة «المُعزِّي» «إن كنتم تحبونني؛ فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله؛ لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه؛ لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم»

هذا هو نص من طبعة قديمة فيه «الفارقليط» والنص اليوناني فيه «فِيرِقْليط» وبعد الطاء سين، وليس في اللغة اليونانية تشكيل حروف، والسين في نهاية الكلمة يضعونها لتدل على اسم.

واستطرد فقال: «والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي؛ هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلته لكم».

وذكر المؤلف من التوراة كلاما يدل على أن اليهود كانوا يحجون إلى الكعبة مع المؤمنين بالله من سائر الأمم والشعوب، وأن اليهود انصرفوا عن الكعبة إلى جهتين جعلوا كل واحدة منهما قبلة، من بعد رجوعهم من سبي بابل، ومما في التوراة: «طوبى لمن يسكنون في بيتك؛ فإنهم يُسبِّحونك دائما» المزمور ٨٤ «وإذ يعبرون في وادي البكاء» وهو «بكة»

وتحدث عن كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين. ورد عليه بهجرة إبراهيم الخليل - عليه السلام - إلى مكة، فإن التوراة أفصحت عنها بأرض الجنوب، وأن المسيح - عليه السلام - قال: إن محمدا ﷺ سيظهر من أرض الجنوب «ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله، الذي سيأتي من الجنوب بقوة، وسيبيد عبادة الأصنام»

ومما يلفت النظر في منهج المؤلف: أنه يراجع كلام المفسرين على مثله في كتب أهل الكتاب، ففي قوله تعالى: ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ رجع إلى اللغة العبرية فيها ووجدها محتملة لمعنيين، إما الضم وإما القطع.

وكيف يتهلل إبراهيم ويفرح بمجيء المَسِيّا، الذي هو بلغة أهل الكتاب محمد ﷺ

وهو لم يجيء بعد؟ إن شيخ الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ له رأي في التهلل والفرح، وهو أن التهلل والفرح بمجيء عيسى - عليه السلام - ورد عليه بقوله: إن عيسى مبشر بالمسيا.

وفي مجيء يحيى وعيسى بالحكمة ذكر خواطر شيخ جليل القدر فيها وناقشه مناقشة جادة وهادفة، وبين أن الروحانيات عند أهل الإنجيل هي نفسها الروحانيات عند أهل التوراة، فما هو الجديد عند أهل الإنجيل؟ إن كل الحكم والمواعظ التي هي في الأناجيل منقولة من التوراة. لكن المؤلف قصّر إذ لم يعقد فصلا عن الحكمة.

وتعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ - ﴿ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ﴾ - ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ فنقل أولا كلام المفسرين وركز على ﴿قَائِمَةٌ﴾ بمعنى أنها موجودة في العالم. وتساءل من هي هذه الأمة الموجودة في العالم؟ وخلص إلى أنها لما كانت من أهل الكتاب وهي أمة ممدوحة واليهود والمسيحيون مذمومون، فإنها لا تكون غير أمة الصابئين، وقد أطال النفس في هذا. وفيه نظر. وفسر قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ بمعنى أنه عبد وليس حرا، ورد على قولهم بسفر الزبور. وليس في هذا نظر. ووضح أن في كتب التفسير عند أهل السنة والشيعة إسرائيليات، إن قُرات، تُقرأ للعلم بالشيء، وهذا متفق عليه بين الأئمة. وليس فيه نظر. أما قوله إن «المهدي المنتظر» لن يكون من علامات يوم القيامة؛ فإنه محل خلاف! ويجب إعادة النظر فيه.

ونقل المؤلف عن اليهود قولهم في نشأة عبادة الأصنام، والنجوم والكواكب، وتعليل العبادة بأنها من أجل نزول المطر للزراعة وخصب الأرض، وقولهم: إن الصابئة كانوا يعبدون الأصنام والكواكب لئلا ينقطع المطر وتخرب البلاد.

ورد عليهم بأن نقل من كتب الصابئة عقيدتهم في الخالق جل جلاله، وهو أن الله وحده هو الخالق الرازق وليس معه من إله، وأن اليهود هم الذين ألصقوا هذا العيب بالصابئة لأنهم كانوا يبشرون بمحمد ﷺ: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الذين كانوا يعبدون الأصنام «وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان، وأحرقوا

دما زكيا، دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان»

ونقل عن الصابئين قولهم في القضاء والقدر. وهو أن فاعل الخير والشر هو الإنسان. ونقل عن يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ أن الله قد خلق الإنسان حرا، وهداه النجدين.

وتكلم عن المندائية والحرانية، وذكر اختلافهم في بناء المعابد، وفي طقوس الصلاة، وكيفية عماد الأطفال، وعقيدة الحشر والمعاد، وفي الدفن وتوجيه القبور، وفي قدم العالم، وذكر عادات وتقاليد للحرّانية منها شعائر الزواج والطلاق، واللباس والزينة.

ومما لفت المؤلف النظر إليه هو : «إن أتباع يوحنا كانوا يرفضون نسبة «المسيح» إلى يسوع، ويعتبرون الدعوة لذلك؛ دعوة باطلة» ومعنى ذلك: أن «المسيح المنتظر» عند اليهود ليس هو النبي المكرم عيسى ـ عليه السلام ـ. وهذه حقيقة أظهرها إنجيل برنابا.

ولكن ما هو السبب في خلو إنجيل برنابا من الحديث عن يوحنا المعمدان ودعوته؟ وجاء في كتب الصابئة عدة أصحاب النار، ونقل المؤلفون عنهم قولهم، كما نقله المؤلف، وخطر على باله أن قولهم هذا يفسر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ وهو خاطر حسن، شاء الله إظهاره على يديه.

ويتجلي في هذا الكتاب هدف المؤلف من تأليفه كتبه: وهو إلزام الناس بصحة نبوة محمد ﷺ وإصلاح عادات المسلمين، فهو يقول: إن المسلمين يعتقدون في السحر والرقى، وفي أن الأموات يسمعون وينفعون أو يضرون، ويعزّمون على الجان ويستشيرون الموتى، وهذا لا يصح في دين الله.

وأخيرا. عمل فصلا في أن الله رفض اليهود من السير أمامه، أي لا يكون لهم من بعد محمد ﷺ ملك في العالم ولا نبوة، واستدل على الرفض بسفر إشعياء وتوراة موسى ـ عليه السلام ـ وقال: إن اليهود كانوا أمة مختارة، تأمر بالمعروف وتنهى عن

المنكر بشريعة موسى، ولما ظهر محمد ﷺ نزع الله منهم الملك والشريعة، فأصبحت الأمة المختارة لقيادة الأمم إلى الله هي أمة محمد ﷺ وطابق نبوءة نشيد موسى - عليه السلام - على القرآن الكريم فقال: إن الأمة الآتية التي سيغيظ الله بها اليهود هي أمة بني إسماعيل لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ وحق هذا الفصل الأخير أن يوضع في كتاب البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل، وإني وأنا أناقشه فيها، نقدته في الكلام عن الأمة الآتية إذ قلل الكلام فيها.

والمؤلف ابن بار من أبناء الأزهر الشريف، وقد تخرج من كلية اللغة العربية وتقدم لامتحان المعادلة في كلية أصول الدين، وانتظم في دراسة الماجستير، وقدم بحثا ممتازا عن «المسيح عيسى ابن مريم حياته ودعوته» وسجل للدكتوراه في موضوع «البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل» وكنت أنا عضو مناقشة فيها، وبعدما حصل على الدكتوراه؛ استمر في قراءة كتب أهل الكتاب معتقدا أنه ربما يأتي بزيادة، وحقق كتبا قديمة، وألف كتبا أتى فيها بزيادات مفيدة، واجتهد في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ بشهادات من تقدمه من الأنبياء، وكرر كثيرا من المعاني في كتبه بغية أن يفهم أهل الكتاب بدون عناء. وليس من كتاب له إلا وفيه جديد.

وكتاب «ملة الصابئين» من الكتب التي سيكون لها أثر كبير في إعادة النظر في مناهج المفسرين، وأنا أوصي بقراءته وتداوله، وأدعو الله لنا وله ولكل المسلمين بالتوفيق والسداد.

الأستاذ الدكتور

عوض الله جاد حجازي

رئيس جامعة الأزهر الأسبق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

إن أبرز مـا فى هذا الكتـاب عن الصـابئة : أنهم كـانوا يدعـون الناس إلى الدخول فى دين الإسلام . ودعوتهم هذه محمودة ومشكورة .

وقد شوّش اليهود عليها . وأبى الله إلا أن يظهرها ولو كره المشركون .

واجتهد المؤلف فى تفسير آيات من القـرآن ليدلّ على هذه الطائفة . والتفسـير حمال وجهين . وما من آيات إلا والاجتهاد ظاهر فى تفسيرها من قدامى المفسـرين ، والمعاصـرين ، وكل يدلى بحجـجه على مـا توصل إليه . ومـا أمرنا الله بالتـقليد الأعمى ، وإنما أمرنا بالاسـتنباط . وهو الاجتهـاد . يقول الله تعالى :﴿أم آتيناهم كتابا من قبله ؛ فهم به مسـتمسـكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قـبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمـة ، وإنا على آثارهم مقـتدون . قـال : أو لو جئـتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قـالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقـمنا منهم . فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾

ويقول الله تعالى :﴿ولو ردوه إلى الرسـول وإلى أولى الأمر منهم ؛ لعلمه الذين يسـتنبطونه منهم﴾

ومن مميزات الدين الإسـلامى : أنه يدعو إلى إعمال العـقل والتوصل به إلى الحق . وهى ميزة لا تجدها عند أهل الكتاب ؛ فإنهم يؤمنون بما ألفَوا عليه آباءهم.

مع أن أباهم إبراهيم - صلوات الله عليه - خرج على ذلك ، وجادلهم فى عبادة الأصنام والكواكب ، وبين لهم أن كل ذلك لا ينفع ولا يضر . وأن الإله الذى يجب عليهم أن يعبدوه ؛ هو الله تعالى وحده .

وقد نقل أهل التفسير فى تفاسيرهم آراء المفسرين السابقين عليهم . وقالوا بعد النقل : والله أعلم . ليظل باب الاجتهاد مفتوحا لمن سيأتون من بعدهم . ولقد أحسنوا فيما فعلوه وترتب على ما فعلوه : التقريب بين أهل السنة والشيعة . بإظهار أن علماء الطائفتين علماء مسلمون يبغون رضا الله والدار الآخرة . وأن اختلاف الرأى لا يُخرج أى عالم من علماء الطائفتين من الإسلام .

ففى التفسير الكبير للإمام الرازى - رحمه الله - أن أكثر أهل السنة على أن الأنبياء أفضل من الملائكة ، وقالت المتعزلة :بل الملائكة أفضل من الأنبياء - وهو قول جمهور الشيعة - واختاره ابن الباقلانى ، وأبى عبد الله الحليمى . وهما من أهل السنة . واحتج القائلون بأن الملائكة أفضل من البشر بقوله تعالى : ﴿ ومَن عنده لا يستكبرون عن عبادته ﴾ ووجه الدليل : أنه ليس المراد من هذه العندية ؛ عندية المكان والجهة ؛ فإن ذلك محال على الله تعالى بل عندية القرب والشرف ؛ ولما كانت هذه الآية واردة فى صفة الملائكة ؛ علمنا : أن هذا النوع من القرب والشرف حاصل لهم ، لا بغيرهم .

ويرى الإمام الرازى أن الله تعالى فى السماء والأرض . وليس فى مكان دون مكان . ولذلك فسر العندية بعندية القرب والشرف ، وهو بهذا يرد على القائلين بأن الله على العرش بذاته ، وأنه ينزل فى كل ليلة إلى سماء الدنيا نزول نقلة وحركة وصعود وهبوط . وقد أحسن فى رده ؛ لقوله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ ومن يسجد على الأرض لا يقترب من ذات الله . وإنما يقترب من رحمته .

ومن المأثور عن نبى الله يحيى - عليه السلام - أنه كان يبشر بمحمد ﷺ ويقول: « يأتى بعدى من هو أقوى منى . الذى لست أهلا أن أنحنى ، وأحل سيور حذائه » [مر ١ : ٧] .

ولم يأت من بعده إلا محمد ﷺ ولكن محرفى الإنجيل كتبوا على لسان بُولس:أن الآتى من بعده هو المسيح عيسى عليه السلام . وهذا هو نص كلامه:

« أيها الرجال الإسرائيليون والذين يتقون الله . اسمعوا : إله شعب إسرائيل هذا اختار آباءنا ورفع الشعب فى الغربة فى أرض مصر . وبذراع مرتفعة أخرجهم منها . ونحو مدة أربعين سنة احتمل عوائدهم فى البرية . ثم أهلك سبع أمم فى أرض كنعان ، وقسم لهم أرضهم بالقرعة . وبعد ذلك فى نحو أربعمائة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبى . ومن ثمّ طلبوا ملكا فأعطاهم الله شاول بن قيس ، رجلا من سبط بنيامين أربعين سنة ، ثم عزله وأقام لهم داود ملكا ، الذى شهد له أيضا إذ قال : «وجدت داود بن يَسّى رجلا حسب قلبى ، الذى سيصنع كل مشيئتى » من نسل هذا حسب الوعد ، أقام الله لإسرائيل مخلّصا ، يسوع . إذ سبق يوحنا فكَرَز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل . ولما صار يوحنا يكمّل سعيه ، جعل يقول : من تظنون أنى أنا ؟ لست أنا إياه . لكن هو ذا يأتى بعدى ، الذى لست مستحقا أن أحلّ حذاء قدميه . . » { أ ع ١٣ : ١٦ ـ ٢٥ }

وقد رد المؤلف على هذا التحريف بقوله : أنهما كانا معا ، ودعوا معا باقتراب ملكوت السموات . فلا يكون عيسى هو الآتى من بعده ، ويكون الآتى من بعدهما محمد رسول الله ﷺ .

وجاء فى الأناجيل : أن سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام نفى أنه « المسيح » الذى ينتظره اليهود فى زمانه . يقول لوقا : « وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون فى قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح . أجاب يوحنا الجميع قائلا : أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحل سيور حذائه » { لو ٣: ١٥ ـ ١٦ }

ويجمع أهل الأديان على أن لقب « المسيح » هذا على النبى الآتى من بعده ، يدل على النبى الذى سيخلف موسى عليه السلام فى إقامة الدين . والمسيح فى لغتهم هو الممسوح بالزيت أو الدهن ، ومن بعد انقطاع هذه العادة، دلت كلمة الممسوح على أنه معين من الله ومصطفى ومختار ليؤدى رسالة مهمة ، لغاية سامية . وبهذا المعنى يكون الأنبياء فى بنى إسرائيل والعلماء والملوك ممسوحون حقيقة أو مجازا . فنبى الله موسى ، مسيح وهرون مسيح والياس مسيح

ويحيى مسيح وعيسى مسيح . وبحسب لسانهم يكون النبى الذى سيأتى وهو محمد عليه الصلاة والسلام مسيح . وفى القرآن الكريم عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم ؛ رسول الله﴾ فالمسيح عيسى بن مريم ؛ مبتدأ . وخبره رسول الله ﴿اسمه ؛ المسيح عيسى بن مريم﴾ فاسمه مبتدأ . وخبره المسيح عيسى بن مريم . وبهذا التفسير لا يكون عيسى هو المسيح المنتظر الذى كان ينتظره اليهود فى زمان سيدنا يحيى والذى بادر إلى نفى هذه الصفة عنه بقوله لست أنا إياه ولكن يأتى بعدى من هو أقوى منى . ثم تواضع لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام فقال : لست أهلا أن أحل سيور حذائه .

وفى كتب علم الأديان : أن « المسيح المنتظر » وهو نفسه فى اللغات الخالية من الحاء « المَسِيَّا المنتظر » يُعرف أيضا بالمُهدِى المنتظر - بضم الميم - ويزعم اليهود أن « المُهدِى » سيكون من نسل داود عليه السلام ويزعم السامريون أنه سيكون من نسل يوسف عليه السلام ، وقد جاء فى إنجيل برنابا : أن « المُهدى » سيكون من نسل إسماعيل عليه السلام وسيكون اسمه « محمد » وهو نبى الإسلام ﷺ ومن العقائد اليهودية : أنهم ينتظرون مجئ « المُهدى » إلى هذا اليوم ، ويزعمون أنه إذا جاء سيقيم لهم مملكة عظيمة .

وقد وضع المؤلف معنى هذا الكلام ، وبين أن الله رفض اليهود من السير أمامه ، واستدل على ذلك بنصوص من سفر إشعياء النبى ، وأسفار موسى الخمسة ، ورد على بولُس فى قوله : « ألعل الله رفض شعبه ؟ حاشا وكلا »

والمؤلف لم يجمع فى كتابه هذا عادات هذه الأمة المقتصدة ، ومعتقداتهم وشعرهم ونثرهم ، ولم يعرّف بعلمائهم ، كما هو حال الذين كتبوا حول هذه الطائفة . بل أحال فى هذه الأمور إلى المكتوب . وركز اهتمامه بعد ذكر كلام قليل فى هذه الأمور على ذكر بعض ما جاء فى التوراة والزبور والأناجيل عن سيدنا محمد ﷺ خاصة ما استدل بهه يحيى - صلوات الله عليه - من هذه الأسفار . وفى اعتقادى : أنه يريد أن يفعل كما كان يفعل الصابئة الأقدمون . فى تبشيرهم بسيدنا محمد ﷺ ولأول مرة ينشر نبوءة نشيد موسى - صلوات الله وسلامه عليه - وتهلل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بسيدنا محمد ﷺ وكان حقهما أن يوضعا فى كتاب البشارة . ويردّ على الدكتور طه حسين بردود مفحمة .

وعلى الجملة . فالكتـاب مفيد ، وصالح للتـعليم ، ومؤلفه اجتهد اجتـهادا عظيما فى رد الحق إلى نصـابه ، بعد نحو ألفى سنة من التشويش عليـه . وقد سدّ فراغا هائلا فى علم مقارنة الأديان .

تمهيدات

التمهيد الأول : تصديق أنبياء وعلماء بنى إسرائيل للتوراة

أنزل الله تعالى التوراة على موسى عليه السلام فى جبل طور سيناء وكتب له فيها : أن جميع علماء أمته وأنبيائها يقومون بها إلى أن يظهر نبى مماثل له من وسط إخوتهم أمى لا يقرأ ولا يكتب . وأى عالم أو نبى من أمته يتجرأ عليها ويخالفها فى أى حكم ، فإنه يقتل .

ولم يؤثر عن نبى صادق أنه تجرأ عليها وخالفها فى أى حكم . فآخر نبى فيهم وهو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كان مصدقا لما بين يديه من التوراة .

ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾

وقد ظهر يحيى وعيسى عليهما السلام فى عصر واحد ، وكل منهما كان مصدقا لما بين يديه من التوراة لا يزيد عليها ولا ينقص منها .

وكان كل منهما يحل لبنى إسرائيل بعض ما حرمه العلماء من تلقاء أنفسهم .

أما عن يحيى عليه السلام فإن زكريا أباه كان فى المحراب فى « أورشليم » التى هى « القدس » على شريعة التوراة ، وطلب من الله ولدا يرث علمه الذى علمه من التوراة ويرث من آل يعقوب ، فاستجاب الله له وقال لابنه : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب ﴾ أى التوراة ﴿ بقوة ﴾ ثم قال : ﴿ وآتيناه الحكم ﴾ والحكم : هو أنه حكم على اليهود الذين لن يتبعوا محمدا ﷺ فى حال ظهوره بأنهم سيهلكون على يديه فى حرب لا قبل لهم بها . وقد كان يحيى ﴿ مصدقا بكلمة من الله ﴾ أى موافقا على التبشير بمجئ محمد رسول الله ﷺ الملقب من إشعياء النبى بالكلمة ، وكان ﴿سيدا ﴾ أى فقيها على شريعة التوراة ﴿ وحصورا ﴾ أى راهبا منذورا لله من البطن ﴿ ونبيا من الصالحين ﴾ وأما عن عيسى عليه السلام فإن أمه كانت منذورة لله فى المحراب ، فى « أورشليم » على شريعة التوراة وبشرها ملاك الله به وكان مصدقا لما بين يديه من التوراة ، كيحيى بن زكريا وكان يبشر بمجيئ محمد ﷺ

كان بنو إسرائيل يجاهدون فى سبيل الله لمحو عبادة الأوثان ونشر شريعة التوراة وقد أخبر القرآن الكريم بذلك وبين أنهم فتحوا أرض فلسطين فى زمان طالوت وداود عليهما السلام ، وأن سليمان قد هدّد ملكة اليمن بالحرب إذا لم تدخل فى الإسلام على شريعة التوراة .

وأنها ﴿قالت رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ وفى التوراة : أن جهاد بنى إسرائيل فى سبيل الله يتوقف فى وقت ظهور محمد رسول الله ﷺ لأنه هو الذى سيجاهد مع أمته على شريعته بدل بنى إسرائيل . ففى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية : « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون »

وإذا ظهر هذا النبى فإن بنى إسرائيل يسلّمون له ملكهم على الأمم لأن الدعوة انتقلت منهم إليه . وهذا يعزّ عليهم كما يعز الميت على أهله .

ولأنه يعز عليهم أمر الله أنبياء بنى إسرائيل بأن يعزوا بنى إسرائيل فى ضياع ملكهم ونسخ شريعتهم ، أن يقولوا لهم : إن جهادكم قد كمل مع الله والله يغفر لكم وهذه هى إرادته ولا راد لإرادته وهذا هو حكمه ولا معقب لحكمه .

واعلموا : أن الله وعد بمجئ هذا النبى ليقيم الدين . ووعده عبّر عنه بكلام منه ، ووعده لا يتخلف ، وكلمة وعده تثبت إلى الأبد حتى تصدق المواعيد فى حينها . أما أجسار الناس فإنها تفنى كما أن عشب الحقل يفنى . وجمال الأجساد كجمال الزهور . والزهور تفنى ، لأن الله أمر بذلك .

أما كلمة الله وهى وعده بمجئ النبى الأمى المماثل لموسى ، فإنها تثبت إلى الأبد . والأصحاح الأربعون من سفر إشعياء يتكلم عن تعزية شعب الرب وهم اليهود بمواعيد منه ، وعن تهيئة الطريق لمجئ المسيح[1] وعن عظمة الله وبطالة الأوثان ، وعن أن حكمة الرب وقدرته ظاهرتان فى أعماله ، وعن تشجيع شعبه بذلك .

---

(١) المسيح بلسان بنى إسرائيل هو محمد رسول الله . وسيأتى البيان

ومن الذين عزّوا بنى إسرائيل فى ضياع ملكهم ونسخ شريعتهم : نبى الله يحيى عليه السلام ، ونبى الله عيسى عليه السلام ففى إنجيل متى : أن يحيى صرخ فى البرية بقوله : « أعدوا طريق الرب » أى هيئوا أنفسكم للإيمان برسول الرب الآتى وهو محمد ﷺ وفى إنجيل يوحنا يقول المسيح لتلاميذه : « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب ، فيعطيكم معزيا آخر »

نص نبوءة كلمة الله :

« عزّوا عزوا شعبى يقول إلهكم . طيّبوا قلب أورشليم ، ونادوها بأنّ جهادها قد كمل . أن إثمها قد عُفى عنه . أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها. صوت صارخ فى البرّيّة ، أعدّوا طريق الرب قوّموا فى القفر سبيلا لإلهنا . كل وطاء يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا ، فيُعلن مجد الرب ويراه كل بشر ، معا : لأن فم الرب تكلم . صوت قائل : ناد . فقال : بماذا أنادى ؟ كل جسد عشب ، وكل جماله كزهر الحقل .

يبس العشب ، ذبل الزهر : لأن نفخة الرب هبّت عليه . حقا الشعب عشب. يبس العشب ، ذبل الزهر . وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد .

على جبل عال اصعدى يامبشرة صهيون . ارفعى صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم . ارفعى لا تخافى قولى لمدن يهوذا : هو ذا إلهك . هو ذا السيد الرب بقوة يأتى وذراعه تحكم له . هو ذا أجرته معه ، وعُملته قدامه . كراعى يرعى قطيعه وبذراعه يجمع الحملان ، وفى حضنه يحملها ، ويقود المرضعات . . . » الخ [إش. ٤ : ١ -] .

البيان: فسّر صوت الصارخين بأنهم سيقولون : أعدوا طريق رسول الرب، وبين أن الملك لله يعز من يشاء . ويذل من يشاء وأشار بقوله : « هو ذا السيد الرب بقوة يأتى » إلى أن النبى المنتظر سيأتى بقوة من الله وسيحارب اليهود وينتصر عليهم وأن المتواضعين من خلق لله والضعفاء سيحميهم ويرعاهم .

تصديق يحيى بكلمة من الله :

ولما ظهر يحيى عليه السلام صرخ كما صرخ الذين كانوا من قبله بالإعداد لطريق رسول الرب وقال: إن دانيال النبى قد حدد زمن ظهوره بنهاية أمة الروم ،وها

نحن فى بدايتها . وقد عبر عن زمن ملكه وشريعته بملكوت السموات . ذلك قوله فى الأصحاح السابع من سفره : إن أربع ممالك ستنشأ على الأرض ، وأن « ابن الإنسان» فى حلم الليل قد قربوه إلى الله فأعطاه سلطانا ومجدا وملكوتا . ولما صرخ يحيى عليه السلام باقتراب ملكوت رسول الرب وهو محمد ﷺ استدل على عمله هذا بالتوراة ، ليكسب منطقه قوة . يقول متى فى الأصحاح الثالث من إنجيله : « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلا : توبوا ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات فإن هذا هو الذى قيل عنه بإشعياء النبى القائل : « صوت صارخ فى البرية : أعدوا طريق الرب . اصنعوا سبله مستقيمة »

التمهيد الثالث : ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ :

يقول الصابئون أتباع يحيى عليه السلام : إن يحيى فى ابتداء دعوته كان فى نحو العشرين من عمره ، وأنه حكم على اليهود الذين لن يؤمنوا بمحمد فى حال ظهوره بالهلاك على يديه . وبقولهم قال النصارى القدماء . ففى الأصحاح الثالث من إنجيل متى : « فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم : يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ؟ فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم : لنا إبراهيم أبا ، لأنى أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا ، تقطع وتلقى فى النار . أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه .

هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذى رَفْشه فى يده وسينقى بيدره ، ويجمع قمحه إلى المخزن وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ »

التمهيد الرابع : المعمودية :

فرض الله الجهاد على إبراهيم عليه السلام ولما كانت المعارك الحربية يسقط فيها قتلى من المؤمنين والكافرين ؛ فرض الله الختان على المؤمنين ليتميزوا بالختان عن الكافرين فى أرض المعركة .

واستمر هذا الحكم إلى ظهور محمد ﷺ وليس له فى القرآن من ذكر .

والسبب فى عدم ذكره: هو أن من أعداء المؤمنين يهودا ونصارى مختونين، لنص شريعة التوراة عليه . فلو حدثت معركة فإن أتباع محمد ﷺ لن يتميزوا فيها عن أعدائهم لأن الكل مختونون . وقد أبقى اليهود على هذا الحكم إلى هذا اليوم . أما المسيحيون فإنهم ألغوه ووضعوا المعمودية موضعه . وهى الرش بالماء على مذهب ، والتغطيس فى الماء على مذهب . والمعمودية عند المسيحيين معناها : أنهم أبطلوا الجهاد فى سبيل الله . وقد قال بولس لتيطس فى هذا الشأن: « ذكرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح، ولا يطعنوا فى أحد، ويكونوا غير مخاصمين حلماء مظهرين كل وداعة لجميع الناس » [تيطس ٣: ١-٢] وهى فى الأصل من المعمدان والمسيح علامة تميز بين من يقبل دعوتيهما ومن لا يقبل .

أما معمودية يوحنا :

فهى الصبغ فى الماء دلالة على أن المصبوغ قد قبل دعوته ، وانفصل عن اليهودية وأصبح طاهرا من الذنوب والآثام ليبدأ حياة جديدة مع النبى الآتى الذى يبشر به ، إذا جاء . ذلك قوله :« أنا أعمدكم بماء للتوبة . ولكن الذى يأتى بعدى؛ هو أقوى منى ، الذى لستُ أهلا أن أحمل حذاءه . هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذى رفشه فى يده ، وسينقى بيدره ، ويجمع قمحه إلى المخزن . وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ »

يريد أن يقول : أنا أصبغ فى الماء ليستعد المصطبغ للدخول فى دين النبى الآتى من بعدى ، ويترك دين اليهود . والآتى من بعدى سيكون محاربا وفاتح بلاد. وسيأخذ بلاد اليهود بالقوة وسيهلك المناوئين له فيها. وهو سيحولكم إلى دينه بإلهام من الله وبالحرب . ومثله مثل الذى يدرس القمح . فإنه ينقى القمح الجيد ، ولن يكف يده عن اليهود حتى يظهر دينه على الدين كله .

عندئذ أتى عيسى عليه السلام ليظهر للناس علنا أنه لتفصل عن اليهود ، وأن محمدا لو كان موجودا لدخل فى دينه ، واعتمد من يوحنا أمام الناس لهذا الغرض . يقول متى « حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ؛ ليعتمد منه . ولكن يوحنا منعه قائلا : أنا محتاج أن أعتمد منك، وأنت تأتى إلىّ ؟ فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن . لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بِرّ . حينئذ سمح له »

تحريف الأناجيل فى معمودية المسيح

على يد نبى الله يوحنا المعمدان :

ومحرف الإنجيل قلب غـرض عيسى عليه السلام من المعمـودية . فغرضه هو أن يظهر للناس : أن النبى الآتى من بعده هو محمـد رسول الله . وغرض محرف الإنجيل هو منع النبوة فى محمـد إلى الأبد . فلذلك أتى بنبوأتين من نبوءات التوراة على محمد ، وطبقهما على المسيح عيسى فى أثناء الاعتماد . وقال :« فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء ، وإذا السمـوات قد انفتحت له . فرأى روح الله نازلا مثل حمامة ، وآتيا عليه . وصـوت من السموات قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت»

لاحـظ :

١ ـ هذا هو ابنى الحبيب .

٢ ـ الذى به سررت .

هذا فى أثناء الاعتماد. وابتدع قصة التجلى على جبل طابور وقال :« وفيما هو يتكلم إذا سـحابة نيّرة ، ظللتـهم . وصوت من السـحابة قـائلا : هذا هو ابنى الحبيب، الذى به سررت ، له : اسمعوا » [متى ١٧ : ٣]

فأراد نبوءة « له اسمعوا » وصار بها واضعا ثلاث نبوءات على المسيح .

١ ـ هذا هو ابنى الحبيب .

٢ ـ الذى به سررت .

٣ ـ له اسمعوا .

ثلاث نبـوءات لمحـمد ﷺ وضـعـهم على عـيسى عليـه السـلام . وفى الأناجيل: أن عيسى نفسه قد وضعهم على محمد ﷺ وبيان ذلك :

١ ـ أما عن نبوءة ابنى الحبيب :

فإن داود عليه السلام قال عن محمد ﷺ بظهر الغيب :

« إنى أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك . اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد . . . الخ» وقد فسرها المسلمون على محمد ﷺ فى الأجوبة الفاخرة وتخجيل من حرف الإنجيل وغيرهما . وقد طبقها المحرفون على المسيح فى أعمال الرسل ١٣ : ٣٣ وعبرانيين ١ : ٥ و ٥ : ٥ مع أن المسيح لم يحارب ولم ينتصر على أعدائه . وقد طبقها المعمدان على محمد ﷺ فى قوله : « الذى يؤمن بالابن له حياة أبدية . والذى لا يؤمن بالابن لن يرى حياة ، بل يمكث عليه غضب الله » [يو٣ : ٣١] وطبقها عيسى نفسه على محمد فى أكثر من موضع . ومن ذلك : « لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا . . . الخ» [يو ٥ : ١٩ -]

٢ - وأما عن نبوءة الذى به سررت :

ففى الأصحاح الثانى والأربعين من سفر إشعياء : « هو ذا عبدى الذى أعضده، مختارى الذى سُرَّت به نفسى . وضعتُ روحى عليه فيخرج الحق للأمم لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ . إلى الأمان يخرج الحق . لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته . . .الخ » [إش ٤٢ : ١ +]

وهذه النبوءة طبقها كثيرون من المسلمين على محمد ﷺ وهى تنطبق عليه حقا ، لأنه محارب ومنتصر وصاحب شريعه

وقوله فى النبوءة : « وتنتظر الجزائر شريعته » إشارة إلى محمد ﷺ ففى سفر التكوين : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب » [تك ٤٩ : ١٠] بالشريعة التى معه . وشيلون هو نبى الأمان والسلام . كما سيأتى إيضاحه.

٣ - وأما عن نبوءة له اسمعوا :

ففى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية : « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون »

ومن علامة صدقه : أن يخبر عن غيب ويقع الغيب كما قال .لقوله : « وإن

قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ . . .إلخ »

وقد طبق المسيح هذه النبوءة على محمد ﷺ وهو يتكلم عن« بيرا كليت » فقال:« وأما متى جاء ذاك روح الحق ،فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع ؛ يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » { يو ١٦ : ١٣}

التمهيد الخامس : الصابئون هم أتباع يحيى عليه السلام :

الصابئون فى العربية هى الصابغون فى العبرانية . وأصلها من صبغ بالغين المعجمة ، والعبرانية ليس فيها حرف الغين ، وينطقونها عين أو همزة . وفى الكتب التى تكلمت عن الصابئين : نجد فيها أنهم أتباع يوحنا المعمدان ، وأنهم طائفة من اليهود انفصلوا عنهم بسبب كلام يحيى عن محمد ﷺ فإنه كان يقول : « اقترب ملكوت السموات » وكان يفسر نبوءة كلمة الرب تفسيرا حسنا ، يدل عليه . واعترف بأنه ليس هو « المسيا الذى تفسيره المسيح » وقال : إن من لا يؤمن بالابن حسب نبوءة المزمور الثانى سيمكث عليه غضب الله . ولم يعترف بأن عيسى هو النبى الأمى الآتى إلى العالم ، وأرسل إليه قائلا : « أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ »

أ ـ « وفى الآرامية جاء اشتقاق كلمة « صابئة » من الفعل « صبا » أو «صبع» الذى يعنى الاغتسال أو الارتماس بالماء الجارى ولا زالت كلمة « صابئة » تطلق على « المغتسلة » فى جنوب العراق وغرب إيران»[(١)]

ب ـ ومن كتبهم المقدسة : كتاب « أدراشا أديهيا » أى تعاليم يحيى ـ عليه السلام ـ ويحتوى على وصايا أخلاقية منها :

« ـ يكمن سر السعادة فى أن لا تكون كاذبا أو منافقا .

ـ من يعمل خيرا ، يرى خيرا .

ـ الويل لعالم لم يُعلّم شيئا من علمه لآخرين»[(٢)]

جـ ـ ذهب « نولدكه » إلى أن كلمة « صابئة » مشتقة من صب الماء . إشارة

---

(١) صابئة حران للأستاذ محمد عبد الحميد الحمد ص٢٥

(٢) المرجع السابق ص٣٧

إلى اعتمادهم بالماء ، لأنهم يعتمدون كالنصارى[1]

د ـ وقال غيره : إن الديانة المسيحية اتصلت ببقية الكلدان ، فنشأ منهم مسيحيو ملو يوحنا فى البصرة . وهم الصابئون[2]

هـ ـ ويرى آخرون : أن اسم الصابئة مشتق من كلمة (ص . ب . ع) العبرية بمعنى : غطس ثم أسقطت العين إشارة إلى شعائرهم الرئيسية وهى التعميد والغطس فى الماء الجارى [3]

و ـ وقال زيد فى مقدمة كتاب المصحف المصرى : « من المرجح : أن كلمة الصابئة مشتقة ـ على ما قاله العرب ـ من صبغ أى عمّد وأدخل فى الماء [4]»

ز ـ وقد علق على ذلك الأب « كرملى » بقوله :« وهذا الاشتقاق ليس ببعيد فإن ما كان بالغين المعجمة فى العربية ، فهو فى سائر اللغات السامية بالعين المهملة ولما كانت العين المهملة كثيرا ما تبدل بالهمزة والعكس ، كانت لفظة الصابئة بمعنى الصابغة[5] »

حـ ـ والأستاذ غضبان الرومى ـ وهو من أعيان الصابئة ـ يقول : « ومن المعتقد : أن كلمة « صابئة » أطلقت عليهم من الأقوام المجاورة لهم ، والذين كانوا يعرفون « اللغة المندائية » ـ وهى لغة الصابئة ـ ويعرفون « المصبتا » أى التعميد »

ط ـ ويقول الأستاذ غضبان الرومى : « إن الرأى الأكثر صحة وقبولا لدى المحدثين من الباحثين عربا ومستشرقين أن كلمة صابئة مشتقة من صبًا الآرامية بسكون الصاد وفتح الباء لجوار الابتداء بالساكن فى اللغة المندائية كقولهم : كتَابة ـ دراشة . أى كِتابة ودراسة وكلمة صبًا الآرامية تعنى : التعميد بالذات،أو الصباغة.

(١) مجلة المشرق البيروتية المجلد الرابع ص٩٢٥ مقال للأب أنستاس الكرملى

(٢) المقتطف ج٢٣ ص٨٧ القس صموئيل زويمر .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج١٤ ص٨٨ مادة الصابئة

(٤) نقلا عن الصابئة للأستاذ الدكتور على محمد عبد الوهاب ـ دار ركابى للنشر بمصر

(٥) مجلة المشرق البيروتية ـ المجلد الرابع ص٥١ .

ومنها قولهم « صـابيين » أى المتعمدين . والتعـميد فى المعتقـد الصابئ المندائى قديم جدا(١)»

ى - وفى كتاب « ترسو الفاشيالة » - وهو من الكتب المقدسة لدى الصابئة -: « مّصبنخ متفرقنخ من يهـودوثة إلى منديوثة » أى : عمادك يفرقك من اليهودية إلى المندائية » ويقال :اصبن البوشخ . أى اصبغ ملابسك . وتعنى كلمة « صبا » مجازا : صبغ الشئ ، وتغيير لونه بلون آخر .

التمهيد السادس : عبادة اليهود للأصنام :

بينا فى كتابنا البداية والنهاية لأمة بنى إسرائيل : أن العرب بنى إسماعيل عليه السلام لم يسـجدوا لصنم قط وأن اليـهود هم الذين عبـدوا اللات والعزى ومناة ، وصنم البعل . وأن اليـهود وضعوا مـا كان فيهم فى العـرب ؛ للحط من شأنهم . وكـان أمامى حين تقـرير هذا الرأى وتقويـته ثلاث كـتب الكتاب الأول هو القـرآن والكتاب الثانى هو التـوراة والكتاب الثالث هو كتاب السيـرة . ووجدت القرآن خال من عبادة العرب للأصنام . ووجدت التوارة مليئة بالنصوص التى تدل على أن اليهود قد عبدوها. فـإذا قال القرآن : ﴿ أفـرأيتم اللات والعـزى ومناة ﴾ فإن الضـمير فى ﴿أفرأيتم﴾ لا يعين العرب ولا يعين الـيهود . وعليـه يتعين البحث فى كـتب العرب وفى كتب اليـهود عن العابدين لهـا من هم ؟ وإذ ليس فى كتب العـرب أن العرب عبدوها ، فإنهم يخرجون من عابديها ، وإذ فى كتب اليهود أنهم هم العابدون لها، فإنهم يكونون هم المقصودون بقوله : ﴿ أفرأيتم ﴾ وفى هذه الحالة لا يجب البحث فى كتاب السيرة لأسباب يعرفها أهل الحديث والسير .

وبالبحث والتحرى فى القرآن وجدنا أن القرآن ينفى عن العرب عبادة الأصنام نفيا باتا . ففى العهد المبرم بين الله وبين إبراهيم وإسـماعيل فى تطهير بنى إسماعيل للكعبـة، لا نجد فى القرآن أنهم نقـضوا العهـد . ولو كانوا قد نقـضوه لأهانهم الله بنقضه كـما أهان اليهود بنقـضهم ميثـاقهم . ولما فرغ إبراهيم من رفع قواعـد البـيت الحرام ، طلب من الله طلبين أولهما : أن يجنب بنيه من إسماعيل عبادة الأصنام ، وثانيهما: أن يرسل فيـهم رسولا منهم هو محمد ﷺ ولم يكن لإبراهيم فى ذلك

(١) الصابئة - غضبان الرومى عـكة الناشى الصابى / ص٤٩ - ٥٠ طبعـة ١٩٨٣ مطبعة الأمة ببـغداد .

الوقت غير إسماعيل . واستجابته فى محمد ، تدل على استجابته فى التجنيب ، لأنه لا قائل بالفرق .

أما اليهود ففى سفر الملوك الثانى أنهم عبدوا صنم البعل فى أيام إلياس عليه السلام ، وفى سفر إشعياء عبدوا صنم مناة ، وفى سفر إرمياء عبدوا الكواكب والنجوم، وفى سفر الزبور ذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان .

ففى الأصحاح الخامس والستين من سفر إشعياء : « أما أنتم الذين تركوا الرب ، ونسوا جبل قدسى ، ورتبو للسعد الأكبر مائدة ، وملأوا للسعد الأصغر خمرا ممزوجة . . . » يقول المعلقون على ترجمة دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط : « للسعد الأكبر » : لجاد وهو المشترى « للسعد الأصغر » لمناة وهو الزهرة .

وفى الزبور المائة والسادس : « وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان وأهرقوا دما ذكيا . دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان ، وتدنست الأرض بالدماء » وهذا هو معنى قوله فى القرآن عن اليهود : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت﴾؟ يقول المعلقون على هذه الترجمة :تحت « وذبحوا بنيهم وبناتهم »:[٢مل١٦ : ٣] وإشعياء ٥٧ : ٥ وحزقيال [١٦ : ٢٠ و ٢٠ : ٢٦] وتحت «للأوثان »: [لا ١٧ : ٧ وتث ٣٢ : ١٧ و ٢ أى ١١ : ١٥ و ١ كو ١٠ : ٢٠] وتحت كلمة «بالدماء » : [عدد ٣٥ : ٣٣]

هذا هو حال اليهود من التوراة . أما عن حال العرب من القرآن :

١ ـ ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ، وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة ١٣٧ ـ ١٣٩]

٢ ـ ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ [إبراهيم ٣٥ ـ ٣٦]

وعبّاد الأصنام فى زمان إبراهيم عليه السلام لم يكن يطلق عليهم صابئة . فاسم الصابئة لم يُعرف فى العالم إلا من الصبغ فى الماء بن يحيى عليه السلام . واسم الصابئة يُعرف العالم بمحمد رسول الله . وهذا يغيظ اليهود . فلذلك أطلقوه على عباد الأصنام القدماء للإيهام والخداع واصطحبوه على أتباع يحيى للإيهام والخداع . والراسخون فى العلم قد فرقوا بين عباد الأصنام الذين أطلق عليهم اليهود لقب «الصابئة» وبين أتباع يحيى . يقول الحَبر موسى بن ميمون فى دلالة الحائرين: « وأنا أذكر لك الكتب التى يتبين لك منها كل ما علمته أنا من مذاهب الصابئة ، وآرائهم، حتى تعلم يقينا صحة ما أقوله فى تعليل هذه الشرائع :

أكبر كتاب فى ذلك « الفلاحة النبطية » إخراج « ابن وحشية » وسأخبرك فى فصل يأتى : لأى شئ جعلت الصابئة مذاهبهم مدونة مع فلاحة الأرض . وهذا الكتاب مملوء من هذيانات عابدى الصنم ومما أنفس العوام مائلة إليه ، ومرتبطة به. أعنى : أعمال الطلسمات ، واستنزال الروحانيات ، والسحر والجن ، والغيلان التى تأوى البرارى ، ودُرج أيضا فى ذلك الكتاب : هذيانات عظيمة يضحك منها ذوو العقول . يزعم بها القدح فى المعجزات البينة التى علم بها أهل الأرض أن ثم إلها حاكما على أهل الأرض كما قال : « لكى تعلم أن للرب الأرض » وقال : « إنى أنا الرب فى الأرض » إلى أن قال عن أصنامهم ما قال . ثم قال : « إن كل من يعترف بعبادة الصنم ، يكفر بالتوراة كلها »

هذا عن عباد الأصنام . وأما عن الذين يعبدون الله : فإن الصابئة أتباع نبى الله يحيى يعترفون بالله رب العالمين ، وباليوم الأخر وبالعمل الصالح على وفق شريعة التوراة . فالمندائى يقول حين خروجه من التعميد بالماء الجارى : « بسم الله المتعالى إنى خرجت من الماء الجارى والطاهر بروح طاهرة وأديت مناسك التعميد ، نحمد الله ونعبده عبادة خالية من الأجرام السماوية ، وأن الشمس نور مسخر لنا ، وهى فاقدة لأية قدرة ، وعبادتها باطله [1]»

وفى كتاب « الكنز ربا » : « ولا تسجدوا للشياطين والأصنام وآلهة الكذب[2] »

(١) الصابئة المندائيون ص٨١ سليم برنجى - دار المدى - دمشق ١٩٩٦ م

(٢) الصابئة قديما وحديثا ص٤١ مكتبة الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٣١ عبد الرازق الحسينى

وفى زمن قسطنطين إمبراطور روما توحدت طائفة الصابئين مع طائفة النصارى، وفرض أهل الروم عليهم أن لا يجهروا باسم محمد رسول الله ﷺ ودمجوا إنجيل المعمدان وإنجيل المسيح فى إنجيل واحد . هو الذى مع الجميع إلى هذا اليوم وهو مكون من متى ومرقس ولوقا ويوحنا مع التوراة العبرانية وأسفار الأنبياء .

وليس فى هذه الكتب تصريح أو تلويح بعبادة غير الله . ففى التوراة : « انظروا الآن أنا أنا هو وليس إله معى . أنا أميت وأحيى » [تث ٣٢ : ٣٩ مز ١٠٢ : ٢٧ إش ٤١ : ٤ و ٤٨ : ١٢ تث ٤ : ٣٥ إش ٤٥ : ٥ و١٨ و ٢٢ أيضـا ١ صم ٢ : ٦ و ٢ مل ٥ : ٧ وأى ٥ : ١٨ ومز ٦٨ : ٣٠ وهو ٦ : ١] أى هو الله الذى يميت ويحيى . وفى إنجيل يوحنا : « الذى يؤمن بى ، ليس يؤمن بى ، بل بالذى أرسلنى» [يو ١٢ : ٤٤]

تمت التمهيدات

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة الكتـــــاب

الحمـد لله رب العـالمين ، والصلاة والسـلام على خاتم النبـيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بخير وإحسان إلى يوم الدين .

ويعـــد

فكتـابنا هذا هو فـى معـنى قـوله تعـالى فى القـرآن الكريم :﴿ منهم أمة مقتصدة﴾

﴿من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾

﴿ إن الذين آمنوا ، والـذين هادوا ، والنصـارى ، والصـابئين . من آمن بالله، واليوم الآخر ، وعـمل صالحا ؛ فلهم أجرهم عند ربهم ؛ ولا خـوف عليهم ، ولا هم يحزنون ﴾

﴿ إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصـابئين ، والنصـارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ؛ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . إن الله على كل شيء شهيد﴾

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون[1] والنصارى . من آمن بالله واليوم

---

(١) المعنى : يخبر عز وجل عن طوائف من الناس من قبل الإسلام ، سبق أن أخبر عنهم فى سورتين من سـور القرآن . ثم وضح فى سـورة المائدة - وهى من أواخر مـا نزل من القرآن - أن الصـابئين طائفة من اليهود . على طريق الجمل التفسيرية التى توضع بين شرطتين فى الكلام . يريد أن يقول : إن الذين آمنوا والذين هادوا - والصابئـون منهم - والنصارى . . الخ . فالصابئون مرفوعة على معنى أن ﴿ الصابئون ﴾ من الذين هادوا.

وبنو إسرائيل ينقسـمون إلى عبرانيين وسامريين من بعد عصـر داوود وسليمان - عليهـما السـلام - والمؤرخون يطلقون على السـامريين لقب بنى إسرائيل ، ويطلقون على العبرانيين لقب اليهود . وقد عبّر الله - تعالى - بقوله : ﴿ والذين هادوا ﴾ ليدل علـى أن الصابئين طائفة من العبرانيين ، لا من السـامريين . والسـامريون لا يقـدسون سـوى الأسفـار الخمسـة المنسـوبة لموسى - عليه السـلام - والعبرانيون يقدسون الأسـفار الخمسـة وأسفار الأنبياء .

وقد استدل يحيى فى تبشيـره عن محمد ﷺ بأسفار الأنبيـاء مثل عيسى سـواه بسواء . فنبوءة ملكوت السـموات من دانيال ، وابن الله من الزبور ، وكلمـة الله من إشعياء . كل ذلك يدل على

الآخر ، وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

وقد تبين لنا :

١ ـ أن الله تعالى وعد بنى إسرائيل بنبى مثل موسى عليه السلام هو محمد ﷺ [تثنية ١٨ : ١٥ ـ ٢٢] وقد أعاد علماء بنى إسرائيل وهم فى « بابل » كتابة نصوص التوراة الدالة عليه بصيغة تحتمل أنه سيأتى من بنى إسرائيل ، أو سيأتى من بنى إسماعيل . وأشاعوا فى الأميين :أنه سيأتى من بنى إسرائيل . ولذلك ظنوا أنه لن يكون من بنى إسماعيل .

٢ ـ وقد أرسل الله يحيى عليه السلام ليظهر من التوراة للعلماء وللأميين النصوص الدالة على النبى الأمى على مثال موسى ، ويفسرها تفسيرا حسنا يدل على محمد ﷺ فاظهر وفسر. ولم يلق معارضة من الأميين .

٣ ـ أما علماء بنى إسرائيل الذين يعلمون علم اليقين أن النبى الأمى الآتى هو محمد رسول الله ﷺ فإنه لقى معارضة منهم . ووصفوه بأنه « شيطان » ولم يؤمنوا به .

٤ ـ ومما احتج به على كلامه أمام العلماء والأميين ؛ نبوءة فى سفر دانيآل عن النبى الأمى الآتى . وهى نبوءة « ملكوت السموات » [دا ٧] وقال : إن هذا الملكوت سيتأسس من بعدى .

٥ ـ ومن تاب على يديه فى أمر النبى الأمى الآتى . وهو أنه سيأتى من بنى إسماعيل ؛ كان يأخذه ، ويصبغه فى الماء . فسمى هو وأتباعه بالصابغين (١)؛ لأنهم كانوا يصبغون التائب فى الماء من أجل الاستعداد للدخول فى دين محمد إذا جاء.

= لن الصابغين يقدسون التوراة العبرانية المترجمة إلى اليونانية . فلذلك عندهم :

أ ـ التوراة اليونانية ب ـ والأناجيل الأربعة .

(١) لأن الصابغين قد دخلوا فى مسيحية روما من زمن قسطنطين سنة ٣٢٥ جبرا وقسرا . وحُرِموا من ذلك الحين بالمسيحيين ؛ ظن المؤرخون أن الصابغين قد انقرضوا من العالم ، أو قل عددهم . وهم مثل اليهود القراء . متأقلمون فى المسيحية. وكل فرد منهم يحمل اسمين ودينين وبلدين . وهذا هو السبب فى كثرة تعداد اليهود فى سنة وقلته فى سنة ؛ لأنهم يُعدُّون مع المسيحيين فى بلد ، ولا

= يعدون مع اليهود في بلد . والصابئون مثلهم . يكثر تعدادهم ويقل ؛ لدخولهم مع المسيحيين وخروجهم منهم . والإنجيل مع الفريقين واحد . والتوراة أيضا . وكل ما كان عند الصابئين مما وصلهم عن يحيى عليه السلام هو موضوع باختصار لا يخلّ بالمعنى في الأناجيل الأربعة . وقد خلا إنجيل برنابا من أية إشارة عن يحيى ، وهذا يدل على أنه كان عند الصابئين إنجيل مثله . خلا من أية إشارة إلى عيسى عليه السلام . ووضْعُ ما وصل إليهم من يحيى في الأناجيل الأربعة ، وتشابُه معتقد اتهم في رفض العمل بالتوراة ؛ يدل على أن أهل الروم قد دمجوا الإنجيلين في إنجيل واحد ونسبوه إلى أربعة . وألزموهم بالمسيحية الوثنية ، وحرّموا عليهم العمل بأحكام التوراة . وفي ذلك يقول بولس : « فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت . التي هي ظل الأمور العتيدة » [لوسيّ ٢ : ١٦] « إذاً إن كنتم قد متم مع المسيح عن أركان العالم . فلماذا كأنكم عائشون في العالم ؛ تُفرض عليكم فرائض . لا تمسّ ولا تذُق . ولا تجُسّ » [لوسيّ ٢ : ٢٠]

وقال لي عالم من علماء النصارى : إن المسيح لم يكتب الإنجيل بخط يده . وبعد انتقاله من الدنيا إلى الآخرة جمع برنابا ومتى من مكتوبات التلاميذ ، ومن ألسنة الناس ما وضعه في إنجيله. وتداول هذا الإنجيل مع جميع النصارى إلى زمن مجمع نيقية . وقد قرر المجتمعون أن يكون النبي المماثل لموسى هو المسيح عيسى نفسه لا محمدا . فلذلك أمسكوا بالإنجيل ؛ ومحوا اسم محمد منه . وأبقوا على المصطلحات الدالة عليه ، وعلى المعجزات التي صنعها . وأخفوا الإنجيل الأول، ثم أمسكوا بالإنجيل الذي فيه المصطلحات والمعجزات ، ووضعوا فيه عبارات تلغز المعنى . عبارات تدل على أن المسيح عيسى هو النبي المماثل لموسى . ولخصوا إنجيل المعمدان ولخصوا سيرته، ووضعوهما أيضا . وقسموه إلى قسمين . قسم نسبوه إلى يوحنا . وقسم نسبوه إلى متى ومرقس ولوقا . وكل ذلك فعلوه ليرضوا جميع كنائس النصارى . الكنائس التابعة للمعمدان ، وكنيسة مصر التي أسسها مرقس ، وكنيسة تركيا التي أسسها يوحنا ، وكنيسة أورشليم التي أسسها متى ، وكنيسة روما التي أسسها لوقا مع بُولُس .

والإنجيل الأول المكتوب بيد بَرنابا ومتى ، ما يزال موجودا على حاله بالاسم والمصطلحات والمعجزات . وسمعتُ أن المملكة التي تريد الاطلاع عليه ، لا يأخذه للاطلاع إلا رئيسها ، ولا يُطلع عليه شعبه . وقد استعارته انجلترا من مكانه وردته في الحال إلى مكانه . وإنجيل برنابا المتداول الآن هو الإنجيل الأول . وقد ذكر لي هذا النصراني اسم البلد التي فيها الإنجيل الأول، ولكني نسيته . وقال : إن الاختلاف الواقع بين الأناجيل الثلاثة هو اختلاف متعمد بالنقص أو بالزيادة وقال إن في برنابا عبارات من التي وضعت في مرقس وغيره للتحريف ، وليست متعمدة من أحد النساخ ، وسبب وضعها فيه : هو وجود خروم في بعض الصفحات ، أو نقص فيها ، أو طمس كلمات . والواضع يظن أن ما فعله حسنا ، لأنه ينقل من إنجيله ، وهو لا يدري أنه ينقل من إنجيل محرف عمدا . [انتهى كلام النصراني . وقد ذكرته للعلم بالشيء]

ولما سمع المسيح عيسى عليه السلام بأن يحيى يصبغ فى نهر الأردن ؛ أتى إليه ، وطلب منه أن يصبغه ؛ ليكون قدوة للناس . فصبغه يحيى . ثم إن المسيح نفسه كان يصبغ هو الآخر . هو وأتباعه من طلاب العلم . فـ ﴿الصابئين﴾ هم جماعة من بنى إسرائيل تابوا من الآثام بسبب وعظ نبى الله يحيى عليه السلام وتبشيره بمحمد رسول الله ﷺ .

وأهم فرق بين الصابئين وبين النصارى : هو أن النصارى رضوا بقول بولس وهو تطبيق جميع نبوءات التوراة عن النبى المنتظر ـ الذى هو محمد ﷺ ـ على المسيح عيسى عليه السلام .

ولما لم يجدوا تبريرا لصفات الملك والانتصار على الأعداء وفتح البلاد المذكورة فى النبوءات وذلك لأنه لم يكن ملكا ولم ينتصر ولم يفتح بلاد الكفر .

احتالوا على وضع النبوءات عليه بقولهم : إنها ستنطبق عليه فى مجيئه الثانى المترامن مع يوم القيامة .

أما الصابئون فإنهم رفضوا تطبيق نبوءات التوراة على المسيح عيسى عليه السلام وقالوا لعلمائهم : إنها لمحمد ﷺ .

ومن هذه النبوءات نبوءة « ابن الله » فى المزمور الثانى لداود عليه السلام فإن من عادة اليهود إطلاق لقب « ابن الله » على كل مؤمن ينتسب إلى الله وإطلاق لقب « ابن إبليس » على كل مؤمن به وعامل بإرادته . ففى بدء إنجيل يوحنا : «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله . أى المؤمنون باسمه» [يو ١ : ١٢]

وصرح الصابئون فى كتبهم بأن نبوءة الابن ليست للمسيح . ويقول اليهود والنصارى : إن نبوءة « ابن الله » من النبوءات الدالة على النبى الآتى إلى العالم على مثال موسى . وهى أصل أقنوم الابن عند النصارى ، للغو فى نبوة محمد ﷺ والمسلمون يعرفون أنها نبوءة عن محمد ﷺ واحتجوا بها على اليهود والنصارى

نبوءة ابن الله ، وتطبيق المسلمين
لها على محمد صلى الله عليه وسلم

يقول داود عليه السلام : « لماذا ارتجّت الأمم ، وتفكر الشعوب فى الباطل ؟ قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه ، قائلين : لنقطع قيودهما، ولنطرح عنا ربطهما .

الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزى بهم . حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى .

إن أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك . اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد مثل إناء خزاف تكسّرهم .

فالآن يا أيها الملوك تعقلوا . تأدبوا ياقضاة الأرض . اعبدوا الرب بخوف ، واهتفوا برعدة . قبلوا الابن لئلا يغضب ، فتبيدوا من الطريق ، لأنه عن قليل يتّقد غضبه . طوبى لجميع المتكلين عليه » [مزمور ٢]

يقول مؤلف تخجيل من حرف الإنجيل فى البشرى السادسة عشرة : « قال داود فى المزمور الثانى له ، وتنبأ به على اتّساع خطّة الإسلام : « أنت ابنى ، وأنا اليوم ولدتك . سلنى أعطيك الشعوب ميراثك ، وسلطانك إلى أقطار الأرض . ترعاهم بقضيب من حديد ، ومثل آنية الفخار تسحقهم » اعلم : أنه لا يتصور من عارف صرف هذا المزمور عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ لأنه ـ عليه السلام ـ هو الذى ورث الشعوب كلها ، وبلغ سلطانه إلى أقطار الأرض ، ورعى الأمم ، وأحاطهم بسيفه . ولا يمكن صرف هذا المزمور إلى داود ، لأنه لم يرث سائر الشعوب ، ولا بلغ سلطانه إلى أقطار الأرض . إذ ما ملك سوى ناحية من الأرض وهى « بيت المقدس » ثم خرجت من بعده إلى أمّة هذا النبى مع الأقطار والنواحى.

لقد بلغ سلطان محمد ـ عليه السلام ـ جوانب الدنيا ، وأطراف العالم . فتح الله عليه الحجاز واليمن والحبشة والنوبة والهند والسند إلى الصين ، ودوّخت أمته الشام والعراق وفارس إلى الترك . وافتتحوا أرض مصر ، والمغرب الأقصى إلى بحر طنجة . فقد ورث محمد سائر الشعوب ، وبلغ سلطانه إلى أقطار الأرض .

فصار هذا المزمور مضاهيا لبشرى يعقوب فى التوراة ، بمحمد ﷺ الذى نقلناه .

فأما قوله : فى أول المزمور : « أنت ابنى » فـجرى فيه داود على عادتهم فى إطلاق لفظ البنوة على النـبى والمطيع لله ، فقـد قـال فى التوراة : « إسـرائيل ابنى بكرى » وقال المسيح فى الإنجيل :« أنا ذاهب إلى أبى وأبيكم »

[انتهى كلامه بنصه]

ومن قبل زمان يحيى عليه السلام بنحو ألفى سنة .أى فى زمان إبراهيم عليه السـلام ـ كان أهل «حاران » يعبدون الكواكب والنجوم ، ويبنون لكل كوكب ولكل نجم هيكلا ، ويضعون فيه تمثالا .

وكان إبـراهيم عليه السـلام من أهل « حاران » ونهـاهم عن هذه العـبادة ، وأمرهم بعبادة الله رب العالمين. فمنهم من آمن به.ومنهم من صد عنه . وفى هذا المعنى جاء فى القرآن الكريم : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومـهم : إنا برءاء منكم ، ومما تعبدون من دون الله . كـفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾

ثم تركهم إبراهيم وانطلق إلى أرض مكة الأرض التى بارك الله فيها للعالمين . وبعد نحو أربعمائة وثلاثين سنة ، أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام وأمره أن يلزم قـومه بفتـح بلاد الكفر لنشـر الإسلام فـيها عـلى شريعـة التوراة . فأطـاعوا وجاهدوا فى سبيل الله ودخل أهل حران مع الداخـلين فى شريعة مـوسى وصاروا يهودا .

يهـود جنس ويهـود ديانة . وظلوا على هذا الحـال إلى أن ظهـر يحـيى فى فلسطين ونادى فى اليهود باقتراب ملكوت السـموات وصبغ أتباعه فى نهر الأردن . علامة على أنهم انفـصلوا عن اليهود فى شأن محمـد رسول الله . ذلك لأن اليهود يزعمـون أن النبى الآتى على مثال مـوسى [تث ١٨ : ١٥ ـ ٢٢] سيكون منهم . ويحيى يقول : إنه سيأتى من بنى إسماعيل عليه السلام

ولما ظهر يحـيى وخالف اليهـود فى شأن هذا النبى ، اضطهـد اليهود أتبـاعه وحاربوهم ، وأجبروهم على الفرار إلى «حاران» وعاشـوا مع اليهود السـاكنين فيها. أما اليهود السـاكنون فيها فـإنهم يُعرفون بالمسلمين على شريعة التوراة ، يهود الجنس

ويهود الديانـة . وأتباع يحيى عُرفـوا بلقب المسلمين ، ويلقب الصابـئين . لأن اللغة العبرانية ليس فيها حرف الغين المعـجمة . ولأن الصابئ فى لغة العرب هو من خرج من دين إلى دين - وتابع يـحيى صـابئ - أعطـى بعض الكتّاب لأتبـاع يحـيى لقب الصابئين . بمعنى الخروج عن الدين ، لا بمـعنى الصبغ فى الماء . ويجوز أن يُعطون اللقب بهذا المعنى ؛ لأنهم خرجوا عن اليهودية فى شأن محمد رسول الله ﷺ .

وأما لقب « الصابئة » على عبـاد الأصنام فى زمان إبراهيم عليه السلام . فإن عباد الأصنام كانوا هم أهل القرى والمدن فى العالم أجمع ، وكان دينهم هو الغالب على كل السكان.ولهم أسماؤهم التى يعرفون بها .

وإبراهيم والذين آمنوا مـعه هم الذين خرجـوا عليهم ، وانشقـوا عنهم . فإن كان الصـابئ هو الخارج من دين إلى دين ؛ فإنهم على هذا المعنى يكونون صـابئة . وحـيث أن الصابئـة من الصـبغ بالماء بعـد إبراهيم بألفى سنة . فـإنه لا يطلق على إبراهيم والذين آمنوا معه صابئة ، ولا يطلق على قومه إنهم صابئة .

وبعض الحرانيين يحتالون على الناس بكتب السـحر والتنجيم التى لقيوها عن الوثنيين القـدماء . ولأنهم يجـاورون الصابئين أتـباع يحـيى ؛ ظن الناس أنهم منهم وأطلقوا عليهم لقب صابئة . وهم ليسـوا منهم لأن أتبـاع يحيى يعظمون التوراة وفيها النهى عن السحر والتنجيم والعرافة والرقى [تثنية ١٨ : ٩ - ١٤]

وفى كتاب للصابئين يسمى ديوان حران كوثيا : « أن اليهود قد انقضوا عليهم انقضاض الأسد على فـريسته ، وقتلوا منهم ما لا يعد ولا يحـصى من كثرته . فى مـدينة «أورشليم » وعند الأردن ، ومن تبـقى من القـتلى ، فر هاربا إلى حـران ، وكان ذلك قبل أيشوع بنحو مائة سنة » أ . هـ

وفى هذا الكتاب : « أنه بعد مـوت يحيى بنحو سبعين سنة ، حـارب اليهود فى أورشليم جماعة من الصابئين أتباع يحيى .

ولما لم يقو عليـهم الصابئون ، هاجروا من أورشليم إلى العـراق وعاشوا مع أتباع الذين هاجروا من قبلهم » أ . هـ

وإذْ هذا هو حالهم ، فإنهم يكونون يهودا . انفصلوا عن اليهود بسبب محمد رسول الله . وأنهم يأخذون دينهم من التوراة . فلماذا يقول الأستاذ عباس محمود

العقاد رحمه الله إنهم أخذوا من كل دين شيئا ، وجعلوا الذى أخذوه دينا ؟ ولماذا يحار الناس فى أمرهم . ومن نبيهم يعرفون دينهم ؟

ولغة اليهود هى اللغة العبرانية الحديثة من بعد سبى بابل. سنة ٥٨٦ ق.م واللهجة العامية منها هى السريانية ـ ويقال لها الآرامية ـ وهى شديدة الشبه بالعبرانية . ويتكلم بها الصابئون ويكتبون بها فلماذا الحيرة فى أمرهم وهم واليهود يكتبون بحروف واحدة ويقدسون التوراة

والحروف العبرانية مرتبة فى هذه الكلمات : أبجد ـ هوز ـ حطى ـ كلمة ـ سعفص ـ قرشت .

والحروف السريانية هى أ ـ با ـ جا ـ دا ـ ها ـ وا ـ زا ـ حا ـ طا ـ يا ـ كا ـ لا ـ ما ـ نا ـ سا ـ عا ـ فا ـ صا ـ قا ـ را ـ شا ـ تا .

ومما يدل على أن الصابئة من اليهود : أن الكاهن فيهم لا يتزوج مطلقة . وهذا الحكم فى التوراة .

ففيها : أن الكاهن الهارونى الأعظم لا يتزوج امرأة أرملة أو مطلقة .

ففى سفر اللاويين : « وقال الرب لموسى : كلم الكهنة بنى هرون وقل لهم: لا يتنجس أحد منكم لميت ، فى قومه إلا لأقربائه الأقرب إليه أمه وأبيه وابنه وابنته وأخيه وأخته العذراء القريبة إليه التى لم تصر لرجل . لأجلها يتنجس كزوج لا يتنجس بأهله . لتدنيسه . لا يجعل قرعة فى رءوسهم ولا يحلقوا عوارض لحاهم ، ولا يجرحوا جراحة فى أجسادهم ، مقدسين يكونون لإلههم ، ولا يدنسون اسم إلههم، لأنهم يقربون وقائد الرب طعام إلههم ، فيكونون قدسا . امرأة زانية أو مدنسة لا يأخذوا، ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها لأنه مقدس لإلهه فتحسبه مقدسا ، لأنه يقرب خبز إلهك . مقدسا يكون عندك . لأنى قدوس. أنا الرب مقدسكم .

وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنى فقد دنست أباها ؛ بالنار تحرق . والكاهن الأعظم بين إخوته الذى صُبَّ على رأسه دهن المسحة ، وملئت يده ليلبس الثياب لا يكشف رأسه ولا يشق ثيابه ، ولا يأتى إلى نفس ميتة ، ولا تنجس لأبيه أو أمه ولا يخرج من المقدس لئلا يدنس مقدس إلهه لأن إكليل دهن مسحة إلهه عليه . أنا

الرب . هذا يأخذ امرأة عذراء أما الأرملة والمطلقة والمدنسة والزانية ، فمن هؤلاء لا يأخذ بل يتخذ عذراء من قومه امرأة ، ولا يدنس زرعه بين شعبه ، لأنى أنا الرب مقدسه» [لاويين ٢١ : ١ ـ ١٥]

والمأثور فى الكتب عن أتباع يحيى : أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر .

وقد كتبتُ كتابى هذا لأزيل الوثنية عن الأمة المقتصدة . لأزيل عنهم الوثنية التى ألصقها اليهود بهم ظلما وزورا ، ولأبين أنهم شهدوا شهادة حق لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام .وأنهم تحملوا اضطهادات اليهود لهم من أجله ﷺ ولأوضح للمسلمين وغيرهم من هم الأمة المقتصدة الوارد ذكرها فى القرآن الكريم ، وضوحا جليا .

والله أسألُ أن يوفقنا لخدمة العلم والدين .

٤/ ٤/ ١٤٢١هـ
٦/ ٧/ ٢٠٠٠م
ميت طريف دقهلية

د . أحمد حجازى السقا
درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين فى موضوع :
« البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل »

الفصل الأول
فى
صِبغة الله

تأثير دعوة يوحنا :

قد بين لوقا فى إنجيله : أن دعوة يوحنا المعمدان قد أثرت فى جميع الشعب، إلا العلماء . ذلك قوله :« وجميع الشعب إذ سمعوا ، والعشارون ؛ برّروا الله . معتمدين بعمودية يوحنا . وأما الفَرّيسيون والناموسيون ؛ فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم ، غير معتمدين منه » [لو ٧ :٢٩ ـ ٣٠] أى رافضين كلامه عن محمد ﷺ ووصفوه بأنه « شيطان» ذلك قوله عن المسيح فى شأن يوحنا: « فقد جاء يوحنا المعمدان لا يأكل ولا يشرب خمرا ؛ فقلتم : إن شيطانا يسكنه » [لو ٧ : ٣٣] وفى ترجمة أخرى : « فتقولون : به شيطان »

تلقيب يحيى بالصابغ :

وقد لصق لقب « الصابغ » على يحيى ؛ لأنه هو البادىء بالصبغ(١). ولصق لقب « الصابغين » على أتباعه إلى هذا اليوم .

أما عيسى عليه السلام فقد لصق به لقب « ها نصرى » وهو لقب محتقر فى لسان بنى إسرائيل . يعنون : أنه الرجل الذى لا يُرجى منه خير . وقد تفاخر المسيح عيسى بهذا اللقب ؛ نكاية فى اليهود ؛ ولصق لقب « الهانصريون » على أتباعه إلى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وحرف إلى « الناصريين » ثم إلى النصارى . ولصق بهم لقب « المسيحيون » هم والصابغون . من مجمع نيقية إلى هذا اليوم . ولقب « الصابغين » أيضا فهم يجتمعون فى ألقاب ، وينفصلون فى ألقاب .

---

(١) وقد أشار المؤرخ « فلا فيوس يو سيفوس » ٣٧ ـ إلى ١٠٠ ميلادية ، فى مؤلفه Theantquities of hte Jews « عادات اليهود » إلى أن الكنيس كان يُبنى على مقربة من النهر أو البحر ؛ لتكون هناك فرصة لممارسة الاغتسال فى مكان ملحق بمبنى الكنيسة .

الحكم على الصابئين :

والكلام فى القرآن عن هذه الطوائف هو عنها من قبل نزول القرآن ، . يريد أن يقول : إن الذين آمنوا من الأمم بشريعة موسى . وإن اليهود القائمين على شريعة موسى ، الذين اختارهم الله فى الزمان الأول لهداية الأمم إليه . وإن النصارى الذين عملوا بالتوراة ، وانتظروا محمدا ﷺ طبقا لتعاليم عيسى عليه السلام . وإن الصابئين الذين عملوا بالتوراة ، وانتظروا محمدا ﷺ طبقا لتعاليم يحيى عليه السلام . هؤلاء جميعا يجمعهم الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح على وفق التوراة . وسوف ينالون ثواب أعمالهم فى الدار الآخرة . وأما من مجمع نيقية بتركيا سنة ٣٢٥ م فإن النصارى تركوا العمل بالتوراة . وتركهم العمل لا يدخلهم فى المستحقين للأجر . وسموا أنفسهم بالمسيحيين . أى المعتقدين بأن النبى المنتظر هو المسيح عيسى المكتوب عنه فى التوراة [تث ١٨] لا محمدا رسول الله . وأهل الروم أجبروا الصابئين على الاندماج مع المسيحيين(١) وحرموا عليهم النطق بأن محمدا هو النبى المنتظر . وجعلوا إنجيل يحيى وإنجيل عيسى إنجيلا واحدا . هو الموجود الآن مع النصارى باسم إنجيل متّى ومرقس ولوقا ويوحنا . وتركُهم العمل بالتوراة ، لا يدخلهم فى المستحقين للأجر . كالنصارى سواء بسواء

---

(١) والتثليث عند الأرثوذكس : هو أن الله انقلب إلى مسيح . ثم إن المسيح انقلب إلى الروح . ثلاثة مراحل لذات الله . ويعبر عن كل مرحلة بالأقنوم . والتثليث عند الكاثوليك : هو أن الله غير المسيح . وهما غير الروح . والتثليث كان عند قدماء المصريين . ففى كتاب العقائد الوثنية فى النصرانية . يقول الأستاذ النير :« كان المصريون يعبدون إلها مثلث الأقانيم ، مصورا فى أقدم هياكلهم . ويظن أهل العلم أن الرمز الذى يصورونه ـ وهو جناح ووكر وأفعى ـ إن هو إلا إشارة إلى ذلك الثالوث ، واختلاف صفاته »

وكان التثليث عند الهنود . ويتكلم عنه الأستاذ مالبنر فيقول إن قانون إيمانهم هو:« بسافترى . أى الشمس . إله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض ، وبابنه الوحيد أنى . أى النار . نور من نور . مولود غير مخلوق . تجسد من فايو . أى الروح فى بطن مايا العذراء . ونؤمن بفايو الروح الحيى المنبثق من الأب والابن . الذى هو مع الأب والابن . نسجد له ونمجده »

وهذا موافق لبدء قانون الإيمان عند النصارى

وكان التثليث عند الفرس . يتكون من أورمزد . ومترات . وأهرمان .

لقب النصارى :

ولقب « نصرانى » يُطلق على أتباع المسيح عيسى الأمناء إلى زمان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وقد غيّره النصارى إلى « مسيحى » والمسيحى يفتخر من مجمع نيقية إلى هذا اليوم بلقب « مسيحى » ويقول : وهذا لا يمنع من إطلاق لقب «نصرانى » علىّ ؛ لأنه لقب آبائى الأوائل . ولقب « صابغ » يُطلق على أتباع يحيى الأمناء إلى مجمع نيقية . وقد غيره الصابغون إلى « مسيحى » والصابغى يفتخر من مجمع نيقية إلى هذا اليوم بلقب « مسيحى » ويقول : وهذا لا يمنع من إطلاق لقب «صابغى» علىّ ؛ لأنه لقب آبائى(١) الأوائل .

— ونص قانون الإيمان عند النصارى هو : « نؤمن بالله الآب ضابط الكل . خالق ما يُرى وما لا يُرى، وبالرب الواحد يسوع ابن الله . بكر أبيه وليس بمصنوع . إله حق من جوهر أبيه ، الذى بيده أتقنت العوالم وخلق كل شىء ، الذى من أجلنا معاشر الناس ومن أجل خلاصنا ؛ نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم البتول وأخذ وصلب أيام بيلاطس الرومى ، ومات ودفن وقام فى اليوم الثالث ، كما هو مكتوب . وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ... الخ» .

وفى تفسير إنجيل يوحنا لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور دافيدسن :

(١) السبليسيون : مذهبهم أن التثليث كناية عن ثلاث تجليات مختلفة لإله واحد منفرد الأقنوم . أي أن الألفاظ آب وابن وروح قدس ليست أسماء أقانيم ممتازة بل أسماء مظاهر أقنوم واحد سُمى الآب لأنه خالق وسمى الابن لأنه الفادى وسمى الروح القدس لأنه المعزىّ والمقدِّس .

(٢) الأريوسيون : مذهبهم : أن الآب هو الأصل وأن الابن والروح القدس مخلوقان غير أن لهما المقام الأول بين الخلائق وطبيعتاهما تشبهان طبيعته الإلهية .

(١) يقول المؤرخون عن صابئة حران :

إن من أعيادهم فى شهر كانون أول عيد لهم يقوم الكاهن الأكبر فيه بتذكيرهم بماضيهم ويعرض عليهم المعاناة التى لاقوها من البيزنطيين حينما تنصروا . يقول اليعقوبى : « فلما قهرتهم الروم ، وملكتهم بسطوة شديدة ، وسلطان ؛ أبطلوا ما كانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم . وحملوهم فى بدء أمورهم على شرائع اليونانيين حتى فسدت لغتهم . ومازج كلامهم كلام الروم ـ اللسان اللاتينى ـ ثم تنصرت الروم فحملوهم على التنصر . فدرس ما كان من أمر دينهم وسنتهم »

صبغ فى اللغة العبرية :

وقد رأيت كلمة « صَبغ » فى اللغة العبرانية مكونة من ثلاثة حروف . الحرف الأول تحته تشكيل فتحة ، والحرف الثانى تحته تشكيل كسرة . وحرف الغين لا يوجد فى العبرانية . ويكتب بدله حرف العين المهملة . ومثل ذلك فى اللغة السريانية التى هى الآرامية . والعين فى العبرانية تنطق هاء أو ألف . فالكلمة « عبرى » فى القواميس تنطق « هِبري »

وفى كتب قواعد اللغة العبرية : أن حرف الألف فى العبرانية يقابله فى العربية حرف الألف ، وأحيانا حرف العين . مثل : أب . وتنطق آب. ومثل عريس وتنطق أريس . وحرف الزاى فى العبرية يقابله فى العربية حرف الزاى والذال . مثل زرع فهى فى العبرية والعربية بنطق واحد. لمعنى واحد . ومثل ذبح . وحرف الباء فى العبرانية يقابله فى العربية حرف الياء أو الواو أو الألف . مثل يابس العبرية . فإنها مكونة من الياء والباء والسين ، ومثل يلد. العبرية ومعناها : ولد . وحروفها الياء واللام والدال . ومثل إسرائيل . وحروفه فى العبرية الياء والسين والراء والألف واللام. وتنطق فى العبرانية يسرائيل . وحرف العين فى العبرانية يأتى بنطق العين والغين والهمزة . مثل عبر وحروفه : العين والباء والراء . ومثل عُلام . وحروفه : العين . وتحتهاثلاث نقاط . واللام مثلها . بثلاث نقاط ، والميم . ومثل إصيص. وحروفه: العين والسين والياء والسين . والغين فى العبرية فى مقام الجيم بثلاثة . والعين بسبعين . والحروف الحلقية العبرية هى : الألف والحاء والهاء والعين والراء . والهمزة فى آخر الكلمة العبرية قد لا توضع . مثل برا فى « برأ » بمعنى خلق .

وفى كتب التفسير من نطق ﴿الصابئون﴾ :

قرأ أبى بن كعب وعثمان بن عفان وعائشة والجحدرى وسعيد بن جبير وجماعة : ﴿ والصابئين ﴾ بالياء . وقرأ الحسن البصرى والزهرى : ﴿ والصابيون ﴾ بكسر الباء وبعدها ياء . وهو تخفيف للهمزة ، كقراءة من قرأ : ﴿ يستهزيون ﴾ فى الأنعام الآية الخامسة بالياء ، لا بالهمزة .

قراءة نافع فى ﴿ والصابيين ﴾ فى سورة البقرة :

قرأ نافع : ﴿ والصابيين ﴾ بدون همزة .

وهذا هو السبب فى مجيئها فى القرآن ﴿ الصابئين ﴾ لاختلاف لهجة النطق .

صبغ فى اللغة الآرامية :

« وفى الآرامية . جاء اشتقاق كلمة « صابئة » من الفعل « صبا » أو «صبغ» الذى يعنى الاغتسال أو الارتماس بالماء الجارى . ولازالت كلمة « صابئة » تطلق على المغتسلة فى جنوب العراق وغرب إيران »

هذا هو نص كلام الأستاذ محمد عبد الحميد الحمد .

الصبغة موت :

لكن معنى الصبغ فى الماء فى اللغة العبرانية معناه : الموت . يريدون أن يقولوا : إن الآثم قد غمسه الصابغ فى الماء . ولازمُ الغمس فى الماء ، هو الموت فيه . فكأن الصابغ قد أمات الآثم لما غمسه . ولما فكر فى إخراجه من الماء . كان يريد له أن يخرج للحياة الجديدة التى هى حياة الطهر ، بجسد طاهر . ولما أخرجه واستنشق الهواء ؛ صار كالخارج من بطن أمه . مولودا جديدا بلا خطية .

وعلى هذا المعنى . لو استثينا عمل « الصابغ » ووضعنا بدله « توبة التائب » من تلقاء نفسه . فإن الآثام موت ؛ لأنها تفصل الآثم عن الله . والتوبة هى الأداة التى تزيل الموت ، وبعد التوبة يكون الآثم غير آثم . لأنه قد ولد من جديد ، وصار خلقا جديدا . فالتوبة تفصل بين حياة قديمة وحياة جديدة . وبين خلق قديم وخلق جديد .

الصابئة فى كتب تفسير القرآن الكريم :

جاء فى كتب التفسير : أن أصل كلمة صابئة فى اللغة العربية جاءت من الفعل « صبأ » لقولهم : صبأت إذا خرجت من شىء إلى شىء آخر . والصابئون : هم الخارجون من دين إلى دين آخر .

ولنناقش هذا الكلام فنقول :

إنه من قبل الإسلام لم يكن إلا دين واحد . هو دين موسى(١) المدون فى التوراة . فإذا صبأ عنه صابىء فإلى أى دين سيذهب ؟ ليس إلا دين موسى .

---

(١) لما خرج إبراهيم عليه السلام من أرض آبائه . وهى أراضى الصابئة اليوم أتباع يحيى عليه السلام دخل الوثنيون فى دين الاسلام على شريعة موسى . وملك بنو إسرائيل هذه الأرض ، وعلموا فيها التوراة . وقوم يونس كانوا فى هذه الأراضى وأرسل الله إليهم يونس عليه السلام وهو نبى من أنبياء بنى إسرائيل ليدعوهم إلى التوبة . وعصيانهم يدل على أنهم كانوا مطيعين من قبل العصيان على وفق التوراة . وظلوا على هذا الإسلام . سواء من كان أصلهم من بنى إسرائيل وهاجروا إليه ، أو من كان من المتهودين من أهل البلاد . إلى ظهور يحيى عليه السلام . الذى أرسل إليهم أتباعه ليدعوهم إلى اقتراب « ملكوت السموات » والذى يقبل منهم يصبغونه فى الماء . فقبلوا واتصبغوا . فالمدة من حين قبولهم للإسلام على وفق التوراة إلى ظهور محمد ﷺ لا يطلق عليهم فيها عبّاد أوثان ، ولا يطلق عليهم فيها صابئة وثنيون . وإنما مسلمون لله رب العالمين . ومن زمان يحيى ا يطلق عليهم مسلمون ، ويهود تائبون ، وصابئة مغتسلون مستعدون للدخول فى دين محمد حين يظهر . ولكن اليهود أعاثوهم ، ولم يظهروا حقيقتهم للناس ، لأن اليهود يزعمون أن النبى الآتى على مثال موسى [تث ١٨ : ١٥ - ٢٢] سيظهر من اليهود . وهم قد خالفوهم وقالوا : إنه سيظهر من الإسماعيليين . وينكر اليهود أن التوراة فى البدء كانت نورا وهدى للناس ، وينكرون أنهم ملكوا بلاد الأمم وفتحوها لنشر دين الله . والتاريخ يكذبهم والتوراة والإنجيل والقرآن .

ومن أدلة التكذيب : أن الله اختارهم على علم على العالمين . لماذا اختارهم ؟ إنه اختارهم من الأمم الوثنية لهداية الأمم الوثنية إليه . وقد قاموا بالدعوة إلى الله خير قيام إلى زمن سبى بابل سنة ٥٨٦ ق . م ثم تخلوا عن دعوة الأمم ، وقصروا الشريعة عليهم وحرفوها . وحرفوا حقائق التاريخ ومعانى الكتب المقدسة كالتوراة والزبور والإنجيل . وعلى هذا : لا يصح أن يوثق بقولهم إلا بعد دراسة وبيان .

وقد بيّن لوقا فى إنجيله : أن دعوة المعمدان قد أثرت فى جميع الشعب إلا العلماء . ذلك قوله :« وجميع الشعب إذ سمعوا ، والعشّارون ؛ بروا الله معتمدين بمعمودية يوحنا . وأما الفريسيون والناموسيون ؛ فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم ، غير معتمدين منه » [لو ٧ : ٢٩ - ٣٠] ووصفوه بأنه شيطان [لو٧ : ٣٣]

وقد شتمهم المعمدان بقوله :« يا أولاد الأفاعى من أنذركم ؛ لتهربوا من الغضب الآتى ؟» [متى ٣ : ٧] وعلى ذلك كان رد الفعل من اليهود ضد مخالفة الصابئين لهم فى أمر النبى الآتى ؛ هو أنهم ألصقوا بهم التهم الباطلة ، وحاربوهم .

والعرب بنو إسماعيل كانوا على دين موسى . ولئن صبأ عربى عنه ، فإلى أين يذهب؟ ليس أمامه إلا القتل . لأن المرتد عن دين موسى ؛ يكون جزاؤه القتل بحكم التوراة ، والتارك لحكم من أحكامها كالصوم ؛ يكون جزاؤه القتل بحكم التوراة .

وهذا منصوص عليه فى الأصحاح السابع عشر من سفر التثنية . ومن يترك اليهودية إلى المسيحية - والمسيحية تحث على هجران شريعة موسى - يكون جزاؤه القتل . لأن المسيح ما جاء لنقض التوراة . ومن يترك اليهودية إلى دين محمد ﷺ فإنه يكون مسلما لا صابئا .

وأجر الصابئين على ثلاثة منها العمل الصالح . وهو أن يكون على وفق التوراة . إذ ليس من دين غيرها من قبل الإسلام . وحيث هو يتكلم عن فئة ، وحيث للكلمة أصل فى العبرانية والآرامية ، وطائفة قائمة مقتصدة ؛ فإن القول بأصل عربى لكلمة صبأ ؛ يكون بلا دليل .

ويطلق النصارى على يحيى - عليه السلام - اسم « يُوحنا المعمدان » ويصفونه بالسابق الصابغ . أى السابق على عيسى - عليه السلام - ويترجمون « الصبغة » بالمعمودية . والتغطيسُ فى الماء كان من أجل أن يتوب العالم اليهودى عن عناده وكبره ، وإذا ظهر النبى المماثل لموسى يدخل فى دينه ، ويترك شريعة موسى ؛ لأن العالم اليهودى كان يعلم أنه لن يأتى من اليهود .وإنما سيأتى من بنى إسماعيل . وكان قد وطّن نفسه أنه إن ظهر لن يؤمن به ، وسيظل على يهوديته . وهذا إثم . ومن أجله نادى يحيى بالتوبة من هذا الإثم قائلا : غيّروا أفكاركم عن هذا النبى ، واستعدوا للدخول فى دينه إذا ما جاء . فمن قبل كلامه وتاب ؛ أخذه وعمده بالماء. لكن النصارى يقولون بخلاف ذلك . يقولون : إن الله كان يعلم أن اليهود لن يقبلوا الدخول فى دين عيسى ، ولن يعترفوا بأنه هو النبى الآتى على مثال موسى . فلذلك أرسل إليهم يحيى ليدعوهم إلى الدخول فى دين عيسى ، ويعترفوا به أنه هو النبى الآتى على مثال موسى . فمن قبل كلامه ؛ غطّسه ، ومن لم يقبل كلامه ؛ تركه فى إثمه .

فالفرق بيننا نحن المسلمين وبين النصارى فى المعمودية :

هو فى النبى المنتظر . من هو ؟ والاتفاق حاصل على أنها للإيمان بالنبى المنتظر ، والدخول فى شريعته . وفى هذا المعنى جاء فى القرآن الكريم : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به . فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق . فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم . صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة . ونحن له عابدون ﴾ بمعنى بالصبغة : الموت لبدء حياة جديدة بدل الحياة القديمة . أو لبدء خلق جديد بدل خلق قديم . والخلق القديم كان على التوراة . والخلق الجديد يكون على القرآن .

وفى بعض الكتب الإسلامية : أن القرآن نسخ الإنجيل ، والإنجيل نسخ التوراة .

وهذا خطأ فإن الذى نسخ التوراة هو القرآن . وأما الإنجيل فهو كتاب تبشير بمجىء محمد ﷺ وليس كتاب أحكام فقهية مستقلة عن الأحكام التى فى التوراة، بل فيه الإحالة إلى التوراة . وهى : « ما جئت لأنقض الناموس » { متى ٥ :١٧ } وإذا قلنا بأن القرآن قد نسخ الإنجيل ـ والحال أن الإنجيل كتاب بشرى بالنبى ـ فإن معنى ذلك يكون أن القرآن قد ألغى تبشير عيسى بمحمد . وهذا لا يقول به عاقل . لأن القول به ؛ يُبطل تعب عيسى وأتباعه فى أمر محمد ﷺ . وأيضا : يُبطل تعب يحيى وأتباعه . وهم بشروا بمحمد كما بشر به عيسى وأتباعه .

فالفرق بيننا نحن المسلمين وبين النصارى فى المعمودية :

هو فى النبى المنتظر . من هو ؟ هل هو عيسى ؟ هل هو محمد ؟ ليس هو عيسى عليه السلام وإنما هو محمد ﷺ ويدل على ذلك : كلام كتاب الأناجيل عن المعمودية . ففيه : أن المعمدان كان يدعو إلى اقتراب ملكوت السموات { متى ٣ :١ ـ ٢ } وفيه أيضا : أن عيسى كان يدعو إلى اقتراب ملكوت السموات (متى ٤ : ١٧ } فإذاً هما يدعوان معا بدعوة واحدة . وإذا كان المعمدان يعمد لآخر . فعيسى لتعميده مثل يوحنا ؛ لا يكون هو الآخر . ففى الإنجيل :« وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية ، ومكث معهم هناك . وكان يعمد . وكان يوحنا أيضا يعمد » { يو ٣ : ٢٢ ـ ٢٣ }

لمن كان يعمد عيسى عليه السلام ؟ إنه كان يعمد لصاحب « ملكوت

السموات » الذى يدعو مع يحيى إلى اقترابه . فلماذا يقولون : إن الملكوت لعيسى وأن تعميد يوحنا كان من أجل عيسى ؟

طائفة المندائية :

وفى الكتب التى تحدثت عن الصابئين :« أن طائفة « المندائية » يتبعون وصايا نبى الله يحيى عليه السلام ويقدسون الماء الجارى ، ويتعمدون به » والمندائى: معناه : العارف بالله والداعى إليه . منه الفعل الآرامى « مدعا » أى عرف وعلم .

قال محمد بن إسحق النديم : « وبنواحى دست ميسان قوم يعرفون بالمغتسلة وهم يطلقون على أنفسهم اسم « المندائية » لأن كلمة « مندائى » تعنى : العارف . منه الفعل الآرامى « مدعا » أى عرف وعلم »(١) أ. هـ .

وفى كتاب للمندائية اسمه « حران كويثا » : « أنهم هاجروا من أرض كنعان(٢) إلى شمال سوريا على إثر حروب بينهم وبين اليهود . فهاجروا إلى «حران» واستقروا مدة من الزمن ، ثم هاجروا إلى بطائح « البصرة » من مدينة حران »

ومما يدل على أن الصابئين طائفة من اليهود :

هو أن اليهود فى فلسطين كانوا يتكلمون اللغة العبرانية ويكتبون بها ، ثم إنهم بعد زمان من وجودهم فى فلسطين . تكلموا باللهجة السريانية وكتبوا بها . وهى لهجة عامية من العبرانية وفى زمان يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ كانت الكتابة بالسريانية والعبرانية واليونانية . ويقول الصابئون : إن لغتهم الأولى سريانية ويقولون: إنها هى تشبه لغة التلمود البابلى المكتوب فى القرن الخامس الميلادى (٣).

والأبجدية عندهم تشبه الأبجدية العبرانية ، وهى :

أ ـ با ـ جا ـ دا ـ ها ـ وا ـ زا ـ حا ـ طا ـ يا ـ كا ـ لا ـ ما ـ نا ـ سا ـ عا ـ فا ـ صا ـ قا ـ را ـ شا ـ تا

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٨١ .

(٢) كنعان : أرض فلسطين . وكان فيها يحيى وعيسى عليهما السلام

(٣) المطالعة العربية ـ رايت Wright .

والحروف العبرانية مجموعة فى هذه الكلمات : أبجد ـ هوز ـ حطى ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت .

موت يحيى :

وفى كتب الصابئين : أن يحيى عليه السلام لم يقتل . وذلك لأن الله تعالى أرسل إليه أحد ملائكته الكرام فى صورة طفل . طالباً من يحيى أن يغطسه فى الماء. فأخذ يحيى بيده وأدخله فى ماء نهر الأردن . وبينما هما فى الماء . وقد وضع يحيى يده فى يد الطفل . سقط يحيى ميتاً . فأخرجوه إلى الشاطئ . ونقلوا جثمانه ودفنوه . ولما ذاع خبر موته ، فى بلاد فلسطين ، وعلم به المسيح عيسى عليه السلام ابتدأ فى الدعوة من بعده .

صلاة وصيام الصابئين :

والصلاة عندهم ثلاث كصلوات اليهود .

والصيام عندهم كصيام اليهود فى يوم عاشوراء . وقد ذكر «يونس» أن أيام صيام اليهود قد انقضى . ولا ندرى ما يعنى بصيام اليهود . وعند اليهود صيام يومى الاثنين والخميس صيام سنّة .

الأطعمة والمواريث والأعياد :

والأطعمة عندهم يحرم منها الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به كما هو فى التوراة ،

وعندهم مواريث حسب التوراة وفيها أن لا نصيب للبنت مع الولد . وعندهم تقديس يوم الأحد بدل السبت لأن الرومان فرضوا عليهم ذلك . ومن أعيادهم المقدسة عيد يحيى عليه السلام وهو يوافق التاسع من يونيه كل عام (حزيران) وإذ يحيى مولود قبل عيسى بستة أشهر حسب روايات الإنجيل فإن أعياد ميلاد عيسى عليه السلام عند المسيحين يجب أن تكون فى الصيف لا فى الشتاء .

المحرمات :

والمحرم عليهم هو نفسه ما حرمته التوراة على اليهود . ومن المحرمات :

القتل ظلما وشرب الخمر والزنا وعبادة غير الله تعالى والسرقة والغيبة والنظر بعين الشهوة إلى الأجنبية وكنز المال وعدم إنفاقه فى سبيل الله . والمحرمات من النساء هى المحرمات المذكورة فى التوراة . وتعدد الزوجات مباح . ويحرم على الصابئية أن تتزوج من غير صابئى . كما سن نحميا على اليهود من بعد الرجوع من سبى بابل سنة ٥٨٦ ق . م .

صراخ الأنبياء بمجىء محمد :

وفى التوراة : أن الله تعالى أمر الأنبياء والأحبار والربانيين بتمهيد الطريق لرسول الرب . وهو محمد ﷺ والتمهيد : هو لتعريف الناس به حتى إذا جاء يؤمنون به . ففى سفر إشعياء :« صوت صارخ فى البرية . أعدوا طريق الرب . قوّموا فى القفر سبيلا لإلهنا . كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض . ويصير المعوج مستقيما . والعراقيب سهلا . فيُعلن مجد الرب ، ويراه كل بشر معا. لأن فم الرب تكلم » [إش ٤٠ : ٣ ـ ٥]

ولما ظهر يوحنا المعمدان صرخ فى أرض فلسطين بالإعداد لطريق رسول الرب وصبغ التائبين فى الأردن من أجله . ففى إنجيل متى : « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلا : توبوا ؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات(١). فإن هذا هو الذى قيل عنه بإشعياء النبى القائل : « صوتٌ صارخٍ فى

ا

(١) فى كتاب الأجوبة الفاخرة للإمام القرافى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ :

« فى إنجيل متى . قال المسيح ـ عليه السلام ـ :« تقرأون أن الحجر الذى رذله البناءون ؛ صار رأس الزاوية . من عند الله كان هذا . وهو عجيب فى أعيننا . ومن أجل ذلك أقول لكم: إن ملكوت الله سيؤخذ منكم ، ويدفع إلى أمة أخرى . تأكل ثمرتها . ومن سقط على هذا الحجر ؛ يتشدخ . وكل من سقط عليه ؛ يمحقه » فليت شعرى من هى هذه الأمّة التى دفع لها ملكوت الله تعالى بعد نزعه من النصارى ؟ أتراهم اليهود ؟ كلا . فهم نحن قطعا . ومن ذا الذى من شدخه ، ومن عانده ؛ قتله . إلا محمد ﷺ وأمته ؟ وهو الذى أريد بالحجر ، الذى صار أفضل البشر بكونه رأس الزاوية المشار إليها . ومن المحال أن يقال : إنه عيسى ـ عليه السلام ـ لأنه على زعم النصارى: ربّ . وعندهم وعند اليهود لم يقدر على الانتصار ، ولا ظهرت له صورة الاقتدار على أحد من الأشرار » أ.هـ

تعليق :

قوله التى دفع لها ملكوت الله تعالى بعد نزعه من النصارى . الصواب : بعد نزعه من اليهود . لأن المسيح كان يخاطب اليهود بهذا المثل . قوله ومن المحال أن يقال إنه عيسى . . . توجيهه : لأن عيسى يخاطب اليهود . والنصارى طائفة من اليهود . وهو يعنى أمة بنى إسماعيل ؛ لأن لهم بركة

لبرِّية: أعدُّوا طريق الرب . اصنعوا سبله مستقيمة » ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل ، وعلى حقويه منطقة من جلد . وكان طعامه جرادا وعسلا بريا . حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن ، واعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم » { متى ٣ : ١ ـ ٦ }

يأتى بعدى :

وفى إنجيل برنابا : أن عيسى عليه السلام لما ظهر ؛ صرح فى أرض فلسطين بالإعداد لطريق رسول الرب ، ذلك قوله : « فإن رؤساء الكهنة تشاوروا فيما بينهم ليتسقطوه بكلامه . لذلك أرسلوا اللاويين وبعض الكتبة يسألونه قائلين : من أنت ؟ فاعترف يسوع وقال : الحق : إنى لست المسيّا . فقالوا : أأنت إيلياء أو إرمياء أو أحد الأنبياء القدماء ؟ أجاب يسوع : كلا . حينئذ قالوا : من أنت ؟ قل لنشهد للذين أرسلونا . فقال حينئذ يسوع : أنا صوت صارخ فى اليهودية كلها . يصرخ: «أعدوا طريق رسول الرب » كما هو مكتوب فى إشعياء » {بر ٤٢ : ٣ ـ ١١}

واعترف عيسى عليه السلام بأن رسول الرب سيأتى من بعده ، وأنه ليس أهلا لأن يحل رباطات حذائه . ذلك قوله : « ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ؛ لأنى لست أهلا أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله ، الذى تسمونه مسيّا . الذى خُلق قبلى ، وسيأتى بعدى ، وسيأتى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » { بر ٤٢ : ١٤ ـ ١٧ }

واعترف يوحنا المعمدان باعتراف عيسى . فقال : « أنا أعمدكم بماء للتوبة ، ولكن الذى يأتى بعدى[1] ؛ هو أقوى منى . الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه» {متى ٣ : ١١ } وشتم المعمدان علماء بنى إسرائيل وشتمهم عيسى . فقد أثر عن المعمدان : « فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته ؛ قال

* فقد قال الله لإبراهيم : « استجبت لك فى إسماعيل . وها أنى أباركه ، وأنميه ، وأعظمه جدا جدا، وأصيره لأمة كبيرة »

(١) فى كتاب الأجوبة الفاخرة للإمام القرافى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ:

« قال يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ لأصحابه : « إن الذى يجئ بعدى ؛ هو أقوى منى . وأنا لا أستحق أفك معقد خفه » وهو ـ عليه السلام ـ ابن خالة عيسى ـ عليه السلام ـ وكان فى زمنه لا بعده .فلم يبق غير نبينا ـ عليه السلام ـ»

لهم : يا أولاد الأفاعى . من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى » (متى٣:٧) وأثر عن عيسى قوله : « يا أولاد الأفاعى . كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار؟» (متى١٢ : ٣٤)

الهلاك الآتى :

وحذرهم نبى الله يحيى من الهلاك على يد النبى الآتى من بعده إذا لم يؤمنوا به ، ويدخلوا فى دينه مع الداخلين . ذلك قوله :« فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم : لنا إبراهيم أبا . لأنى أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم . والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر . فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا ؛ تُقطع وتلقى فى النار»(متى٣:٨ ـ ١٠) ونفس التحذير قد نطق به المسيح فى قوله :« لو كنتم أولاد إبراهيم ؛ لكنتم تعملون أعمال إبراهيم » (يو ٨:٣٩) وبين أن الهلاك على يد « ابن الإنسان » صاحب «ملكوت السموات» بقوله :« هكذا يكون فى انقضاء هذا العالم . يُرسل ابن الإنسان ملائكته ؛ فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الإثم ، ويطرحونهم فى أتون النار » (متى ١٣ : ٢٤ ـ) يعنى بانقضاء العالم : انقضاء بركة إسحق التى كانت ملكا ونبوة . وابن الإنسان : هو لقب لمحمد ﷺ فى الأصحاح السابع من سفر دانيال . وذلك واضح فى كتاب البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل.

كلمة « سبعوثا » :

يقول الأستاذ عبد الأحد داود الأشورى الذى كان أستاذا للاهوت وقسيسا للروم الكاثوليك لطائفة الكلدان :

١ ـ إن يحيى وعيسى عليهما السلام بشرا بمحمد ﷺ ولم يبشر يحيى بعيسى.

٢ ـ وأن معمدانية يحيى وعيسى ليست إلا نوعا من صبغة الله .

٣ ـ وكلمة « بابْتِيسْمُوس» اليونانية ܦܩܥܢܨܘܗܠܫܕ تحمل معنى (صبغة ، وتلوين ، وتغطيس) والكلمة المقابلة لها بالآرامية هى (صبا) وبالعربية (صبغ)

٤ ـ وورد اسم ﴿ الصابئين ﴾ فى القرآن مع همزة ، بدل الغين .

٥ ـ ولأن الصابئين يعمّدون باسم يحيى ، استعملوا كلمة « سبعوثا » الآرامية التى تعنى « بابتيسموس» اليونانية ؛ ليتميزوا عن النصارى الذين يعمدون باسم الآب والابن والروح القدس . ثم انتقلت « سبعوثا» إلى النصارى ـ احتمالات ـ وأصبحت كلمة « سبعوثا » تدل على المعمودية .

٦ ـ وتدل « سبعوثا » على الصبغ والتلوين ، ولا تدل على الغسيل أو التغطيس[١] وكما يعطى « الصبّاغ » لونا جديدا للثوب بغمسه فى غلاية الصبغ ؛ فإن يحيى المعمدان كان يعطى التائب أو المعتنق للفكر الجديد لونا روحيا جديدا .

٧ ـ ويقول بعد ذلك : « وهكذا فإن كلمة ﴿ صبغة ﴾ فى القرآن ـ سورة البقرة الآية ١٣٨ ـ قد كشفت الغموض عن نبوءة يحيى ، كما أثبتت أن القرآن تنزيل مباشر من الله ، وأن الرسول الذى أنزل إليه القرآن هو الذى تنبأ به يحيى . لقد كانت معمودية يحيى وعيسى رمزا لدخول التائبين فى المجتمع ، الذى تمهد بالولاء لرسول الله الذى تنبأ كل من يحيى وعيسى بقدومه . وكما كان الختان علامة على دين يحيى وعيسى ـ الذى هو اليهودية ـ كان ذلك تمهيدا ؛ لكى يتوقع الجميع النبى الموعود ، ويدخلوا فى دين الإسلام » أ.هـ

٨ ـ وقال أيضا : « لقد كان الصابئة أو « الصبّاغون » أو « المعمدانيون » هم أتباع يحيى المخلصين . ومن المحتمل أنهم وقعوا ضحية للخطأ والأساطير . ولكنهم كانوا يعلمون تماما : أن عيسى لم يكن الشخص المقصود بنبوءة يحيى ، وهكذا دخلوا الإسلام عندما جاء محمد . أما أهل « حران » فى « سوريا » فلم يكونوا من بقايا الصابئة ـ كما يظن البعض ـ ولكن بما أن المسلمين تسامحوا مع الثلاثة : اليهودية والنصرانية والصابئة ، فقد ادعى الحرانيون أنهم من بقايا الصابئة . ولذلك سمح لهم العثمانيون بممارسة دينهم الغريب دون مضايقة »[٢] أ.هـ

وادعاء الحرانيين أنهم من بقايا الصابئة أفضل من ظن البعض .

والحق : أنهم من بقايا الصابئة ، لأن الاعتراف سيد الأدلة .

---

(١) أصل الكلمة هو التغطيس على الحقيقة . ثم تستعمل مجازا بمعنى تبديل الفكر بفكر آخر . ولعل المعمدان كان على الحقيقة . للغرض المجازى وهو تبديل الفكر .

(٢) محمد ـ تأليف عبد الأحد داود ـ مطبعة نهضة مصر ـ ترجمة محمد فاروق الزين ـ طبعة مصر ١٩٩٦.

تعاليم المعمدان ويسوع :

والحكم والنصائح والتعاليم الخلقية المأثورة عن المعمدان ؛ هي مأثورة عن عيسى عليه السلام بلا فرق . وهما معا نقلوها من التوراة ومن ذلك قوله: « من له ثوبان ؛ فليعط من ليس له. ومن له طعام ؛ فليفعل هكذا » وفي معناه جاء قول المسيح : « بل أعطوا ما عندكم صدقة . فهو ذا كل شيء ؛ يكون نقيا لكم » [لو١١ : ٤١] « بيعوا مالكم وأعطوا صدقة . اعملوا لكم أكياسا لا تفنى ، وكنزا لا ينفد في السموات . حيث لا ينقب سارق ، ولا يُبلي سوس »

وكل منهما قد أخذ المعنى من التوراة . ففي سفر إشعياء: « أليس أن تكسر للجائع خبزك،وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك . إذا رأيت عريانا أن تكسوه» [إش ٥٨ : ٧ ـ]

يحيى وعيسى مصدقان للتوراة :

ولم ينسخ عيسى التوراة ، ولم ينسخها يحيى . وذلك لأنهما كانا يبشران بمحمد ﷺ ويستدلان على مجيئه بنبوءات التوراة عليه ، فنبوءة « ابن الله » في المزمور الثاني طبقها المعمدان على محمد [يو ٦: ٣٦] وطبقها عيسى على محمد [يو٥ :٢٣] ونبوءة « كلمة الله » في الأصحاح الأربعين من سفر إشعياء طبقها المعمدان على محمد [لو ٣ : ٢ ـ] وطبقها عيسى على محمد [متى ٣:٣ ومرقس ١ :٣ يوحنا ١ :٢٣] وطبقاً معا نبوءة «ملكوت السموات» عليه . وفي القرآن الكريم: ﴿يايحيى خذ الكتاب﴾ أي التوراة ﴿ قال ﴾ أي عيسى ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب﴾ أي التوراة . فهما مصدقان للتوراة . ودعوتهما واحدة . وقال عيسى عليه السلام : «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض ، بل لأكمل . فإني الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض ؛ لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى ، وعلم الناس هكذا ، يدعى أصغر في ملكوت السموات . وأما من عمل وعلم ؛ فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات . فإني أقول لكم : إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين ؛ لن تدخلوا ملكوت السموات» [متى٥ :١٧-٢٠]

عباد الأوثان :

وكـان يطلق إبراهيم عليه الـسلام على عـباد الأوثان فى زمـانه لقب «عبـاد الأوثان» ولم يكن يطلق عليـهم لقب الصـابئة لأنهـم السواد الأعظم فى العـالم . والمؤمنون بالله هم الذين ابتعدوا عنهم . لكن لم يكن يطلق على أى واحد منهم إنه صابئ . ولما نزلت التـوراة على موسى ؛ انطلق بها بنو إسـرائيل إلى بلاد الوثنيين وفتحوها بـقوة السيف ، وورثوها من بعد أهلها ، وألزموهم بالإسـلام على شريعة موسى ، ومن البـلاد التى فتحوها «أرض الكلدانيـين» و«أرض حاران» و «أرض ما بين النهرين» الأرض الـتى أظهر الله فيـها مجـده لإبراهيم عليه السـلام وحفظه من شرور عباد الأوثان ، ونجـاه فيها من النار ، وأخرجه منها سليمـا معافى. وقد بقى فيها بنو إسرائيل من بعد الفتح يقـيمون الدين على وفق شريعة موسى . المكتوبة فى سينـاء ـ لا المكتوبة فى «بابل» ـ إلى ظهـور سبى بابل ٥٨٦ ق.م . ولما ظهـر يوحنا المعمدان وبشر به ، وصبغ من أجله ؛ انطلق أتبـاعه إلى أرض ما بين النـهرين . وبشـروا اليـهود الســاكنين فى هذه الأرض بمـحمـد ﷺ . وكـان يطلق عليـهم «الصابغون»[1] فى مقابل «اليهود» وسكنوامع اليهود فى الأرض .

---

(١) ذكرابن كثير فى تفسيره آراء كثيرة من أهل العلم فى الصـابئين . تدل على أن حقيقتـهم لم تتضح للمسلمين . ومن هذه الآراء : الصابئون فرقة من أهل الكتـاب يقرءون الزبور . لهذا قال أبوحنيفة وإسحق : لا بأس بذبائحهم ومناكحتـهم . ومن الآراء : أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ، أو بمعنى أن الله فوّض تدبير أمر هذا العالم إليها ، وهذا القول هو المنسوب إلى الكشدانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام ، رادا عليهم ، ومبطلا لقولهم .

المناقشة :

إن من يقرأ الزبور يقـرأ توراة موسى وإنجيل عيسى ، وقوله لا بأس بذبائحهم ومناكـحتهم يدل على أنهم من أهل الكتاب ، والواجب عليهم دفع الجزية إذا لم يسلموا ، وهذا هو الحق فى شأنهم . لكن لماذا سموا بالصابئين ؟ لم يعرف القدماء من العلماء أنهم أتباع يوحنا المعمدان ، مع علمهم بأنهم دفعـوا الجزية للمسلمين . ودفع الجزية يدل على أنهم مـن أهل الكتاب . ثم إنهم لسكنهم فى « حران » فى مساكن القدماء قوم إبراهيم عليه السلام الوثنيين القدماء الذين كانوا يعملون تماثيل الكواكب ويعبدونها ؛ يظن من نظر إليهم وسمع كلام اليهود فيهم أنهم وثنيون يعبدون الكواكب ، وهذا سبب اختلاف المؤرخين الذين يشاهدونهم فى ديارهم . واليهود يعرفون حقيقتـهم . وقد خدعوا المفسرين فى شأنهم؛لأن حقيقتهم تدل على صدق محمد ﷺ فى دعوى النبوة . لأن المعمدان كان يصبغ التائب من أجله . واليـهود يريدون اللغو فى هذه الحقيقة ﴿ حسـدا من عند

تبشير الصابئون بالمسيحية:

وقد دخل الصابئون أتباع يحيى فى المسيحية بقوة أهل الروم من سنة ٣٢٥ م وقبلوا الأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، مع التوراة اليونانية ؛ وبشروا مع المسيحين أتباع عيسى بالمسيحية . وما يزالون يبشرون بها إلى هذا اليوم ، ويقولون جميعاً : إنا نصارى . ولا يبشرون بإنجيل منسوب إلى يحيى . وذلك لأن المحرفين أدمجوا الإنجيلين فى إنجيل واحد ، وجعلوا الملة واحدة ؛ لأن هدف الملتين فى الأصل واحد.

ولما ظهر إنجيل برنابا فى سنة ١٧٠٩ م باللغة الإيطالية . وفيه اسم « محمد » أربع عشرة مرة . لم يظهر فيه تبشير يحيى ، ولم يظهر فيه ذكر يحيى . وهذا يدل على أن أتباع عيسى عليه السلام لم يكن معهم فى البدء إنجيل من الأناجيل الأربعة وإنما كان معهم إنجيل ، وعلى مثاله إنجيل خاص بالصابئين .

وقد حرف بُولس إنجيل يحيى . على النحو التالى :

١ـ قال : إن يحيى قال : « يأتى بعدى من هو أقوى منى » وهو يقصد بالآتى من بعده : يسوع . لا محمد رسول الله . ففى سفر الأعمال : « إذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل . ولما صار يوحنا يكمل سعيه، جعل يقول : من تظنون أنى أنا ؟ لست أنا إياه . ولكن هو ذا يأتى بعدى ،

* أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾

وفى تفسير ابن كثير فى قول الله تعالى ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ؛ فقد اهتدوا . وإن تولوا ؛ فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون﴾ يقول تعالى: ﴿فإن آمنوا﴾ يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ ياأيها المؤمنون من الإيمان . بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فقد اهتدوا﴾ أى فقد أصابوا الحق ، وأرشدوا إليه ﴿ وإن تولوا ﴾ أى عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فإنما هم فى شقاق . فسيكفيهم الله﴾ أى فسينصرك عليهم، ويظفرك بهم ﴿وهو السميع العليم ﴾ وقوله: ﴿ صبغة الله ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله. . . وانتصاب ﴿صبغة الله ﴾ إما على الإغراء؛ كقوله: ﴿ فطرة الله ﴾ أى: الزموا ذلك عليكم . وقال بعضهم: بدل من قوله ﴿ ملة إبراهيم ﴾ وقال سيبويه ؛ هو مصدر مؤكد ، انتصب عن قوله ﴿ آمنا بالله ﴾ كقوله: ﴿ وعد الله ﴾

وفى تفسير الرازى : صبغة الله قيل :إنها دين الله . وقيل : إنها فطرته . وقيل . : إنها هى الختان . وقيل : إنها حجة الله ، وقيل : إنها سنة الله . والمعنى : اطلبوا صبغة الله وهى الدين والإسلام ، لا صبغتهم .

الذى لست أهلا أن أحل حذاء قدميه » [أع ١٣ : ٢٤ ـ ٢٥] « فحدث فيما كان أبلوس فى كورنثوس. أن بولُس بعدما اجتاز فى النواحى العالية ؛ جاء إلى أفسس، فإذ وجد تلاميذ ، قال لهم : هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم ؟ قالوا له : ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فقال لهم : فبماذا اعتمدتم ؟ فقالوا : بمعمودية يوحنا .

فقال بولس : إن يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلا للشعب : أن يؤمنوا بالذى يأتى بعده ، أى بالمسيح يسوع » [أع ١٩ : ١ ـ٤]

٢ـ وكل نبوءات التوراة عن محمد ﷺ قد فسرها يحيى على محمد ﷺوأى وصف فى أية نبوءة لا ينطبق على عيسى قال : إنه سينطبق عليه فى مجيئه الثانى المتزامن مع يوم القيامة . مع أن عيسى قال بصريح العبارة : « ولستُ أنا بعدُ فى العالم » [يو ١٧ : ١١] « خرجتُ من عند الآب ، وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً : أترك العالم وأذهب إلى الآب » « وأما على برّ ؛ فلأنى ذاهب إلى أبى ، ولاترونني أيضاً » [يو ١٦ : ١٠] ولذلك صدّر برنابا إنجيله بقوله : « أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله(١) ورافضين الختان الذى أمر به الله دائما ،مجوزين كل لحم نجس ، الذين ضلّ فى عدادهم أيضاً بولس ، الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى . وهو السبب الذى لأجله أسطّر ذلك الحق ، الذى رأيته . وسمعته ، أثناء معاشرتى ليسوع ؛ لكى تخلصوا ، ولا يُضلكم الشيطان ، فتهلكوا فى دينونة الله ، فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه ؛ لتخلصوا خلاصا أبدياً .

وليكن الله العظيم معكم ، وليحرسكم من الشيطان ، ومن كل شرّ . آمين »

السبب فى قلة الصابئين :

والسبب فى قلة الصابئين : هو أنهم يحملون اسم المسيحين واسم النصارى . فيظن المؤرخون : أنهم مسيحيون أو نصارى ، ولا يخطر فى بالهم أنهم يحملون

(١) يقصد بابن الله نبوءة المزمور الثانى عن محمد ﷺ .

سم الصابئين أيضاً . وكثيرون منهم فى البدء قد دخلوا فى الإسلام كالسامريين من بنى إسرائيل.

فرض المسيحية من الرومان :

وفى نهاية القرن الثالث الميلادى فرض الرومان على كل أتباع المعمدان وعيسى عبادة الأوثان القديمة ، فى صورة جديدة ؛ لئلا ينفر الناس منها . ،وحرموا عليهم النطق باسم محمد . وعلّموهم أن يقولوا : إن المعمدان كان يبشر بعيسى . وأن عيسى هو الله فى صورة بشرية . وأن الله وروحه وكلمته ؛ ثلاثة ، كما كانت الآلهة فى الزمان القديم ثلاثة ، وأنه لا شريعة للحكم بين الناس ، وإنما شريعة الضمير . فضمير كل إنسان هو الذى يحتم عليه أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وهو الذى يُحكم العلاقة بين الناس . كما كان الحال فى الأمم الأولى من قبل التوراة . وعلى هذه المعانى ، أعيدت كتابة الأناجيل الأربعة . التى كانت مع أتباع عيسى عليه السلام على أن يبقى اسم « محمد » غير واضح للأميين ، وصار أتباع النبيين الكريمين تحت قوة الرومان الوثنية باسم « المسيحيون » وكل طائفة تميز نفسها عن غيرها بالاسم الأصلى « الصابئون » فى مقابل « النصارى » ويجمع الكل فى الظاهر اسم « المسيحية » فى« مقابل « اليهودية »

يقول اليعقوبى : « فلما قهرتهم الروم ، وملكتهم بسطوة شديدة وسلطان ؛ أبطلوا ما كانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم . وحملوهم فى بدء أمورهم على شرائع اليونانيين ، حتى فسدت لغتهم، ومازج كلامهم كلام الروم ـ اللسان اللاتينى ـ ثم تنصرت الروم ؛ فحملوهم على التنصير، فدرس ما كان من أمر دينهم وسنّتهم»

الكتب المقدسة :

ولما تنصّر « قسطنطين » الإمبراطور الرومانى ، وفرض على جميع النصارى ورعايا الإمبراطورية عقائد الرومان الوثنية فى صورة نصرانية مسيحية ، كان من الذين دخلوا فى عقائد الرومان كرها جماعة الصابئين ، وأكرهوهم على دمج إنجيلهم الذى تسلموه من يحيى عليه السلام فى إنجيل للمسيحيين ؛ ليكون الإنجيلان إنجيلاً واحداً . يُضم إلى التوراة اليونانية ، فيكون مجموع الكتب المقدسة التى عند

الصابئين من مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م إلى هذا اليوم هو :

١- التوراة اليونانية .

٢- الأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا . وهذه الكتب هى التى مع المسيحين إلى هذا اليوم . وفيها اسم « أحمد » وأوصافه . لكن ما فى الكتب شيئ وما فى العقائد شيئ آخر.

والراسخون فى العلم من اليهود والصابئين والنصاري يعلمون من الكتب المقدسة التى بين أيديهم أن دين الإسلام حق . وإن لا يكون ذلك صحيحاً فما هو معنى قول المعمدان : « يأتى بعدى من هو أقوى منى ؟ » وما هو معنى قوله: «توبوا فإنه قد اقترب ملكوت السموات ؟» وما هو معنى « بيركليت الروح القدس » الذى يعلم كل شيئ إذا جاء ، ويخبر بأمور آتية . كما قال عنه عيسى وموسى؟ فالصابئون فى زماننا هذا كالمسيحين سواء بسواء فى الكتب المقدسة وفى العقائد المشابهة للوثنية ، مع ما فى كتبهم من النصوص الدالة على محمد ﷺ

ثم انفرط عقد « المسيحية » من قبل الإسلام . فالأرثوذكس قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، والكاثوليك قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . والنساطرة قالوا : إن المسيح إنسان وإله . والصابئون رجعوا إلى أصلهم وهو اليهودية . وانتظروا محمداً .

منشأ اسم الصابئة :

ومنشأ الاسم من أيام يوحنا المعمدان نبى الله . ولكن اليهود زعموا : إنه لما كان الحرانيون يقيمون فى نفس المدينة التى كان يقيم فيها آباء إبراهيم عليه السلام وقد كانوا وثنيين . فإن أى متكلم عن آباء إبراهيم الوثنيين من اليهود يقول عنهم صابئة الزمان القديم ، فى مقابل صابئة الزمان الحديث .

وفى الكتب عما قلنا :

« كان السريان يطلقون اسم الكلدانى على الصابئ الوثنى »

« كان السريان يطلقون على حران « عش الوثنية » لأنها بقيت محافظة على الفكر الهلينستى الوثنى ، وكانت النحلة الحرانية مزيجا من الفلسفة الفيثاغورثية

والأفلاطونية الحديثة . كما كانوا مزيجا من الآراميين واليونان »

« وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة ؛ لما خرج من حاران » [تك١٢ : ٤]

« فخرجوا معا من أور الكلدانيين ؛ ليذهبوا إلى أرض كنعان ؛ فأتوا إلى حاران، وأقاموا هناك » [تك ٤ : ٣١]

وحدانية الله عند الصابئة :

« ويقول الأستاذ عبد الرزاق الحسينى ، عن المندائية : « إنهم قوم يؤمنون بالخالق جل شأنه ، وأنه واحد أزلى ، لا أول لوجوده ، ولا نهاية . منزه عن المادة، لا تناله الحواس ، ولا يفضى إليه مخلوق ، وأنه لم يلد ولم يولد .وهو علة وجود الأشياء ومكونها »

وقال : « ولا يختلف اعتقادهم فى الخالق عن اعتقاد المؤمنين »

اسم محمد فى كتب الصابئة :

تحت كلمة «صابئة» فى « الموسوعة العربية الميسرة » ما نصه :

« صابئة » اللفظة آرامية الأصل ، تدل على التطهير والتعميد ، وتُطلق على فرقتين :

١ـ جماعة المندائيين . وهم أتباع نبى الله يحيى ، الشهير بـ « يوحنا المعمدان»

٢ـ صابئة حرّان ، الذين عاشوا زمنا فى كنف الإسلام ، ولهم عقائدهم وعلماؤهم .

وورد ذكرهم فى القرآن ثلاث مرات بجانب اليهود والنصارى ؛ مما يؤكد أنهم من أهل الكتاب . وهذا ما يصدق على المندائيين . وإن تستر وراءهم صابئة حران الوثنيون[1].

---

(١) الموسوعة جرت فى حكمها على الحرانيين على كلام اليهود فيهم .

والحق : أن الحرانيين بعيدون عن الوثنية بعد المشرقين .

وأن اليهود هم الذين عبدوا الأصنام ، وهم الذين وأدوا الأولاد والبنات كما فى المزمور المائة والسادس وغيره .

وعُنى بهم المؤرخون الإسلاميون ، وخاصة « الشهرستانى » فى « الملل والنحل » و« الدمشقى» فى « نخبة الدهر فى عجائب البحر » ويعدّون بين الروحانيين الذين يقولون بوسائط بين الله والعالم . وهى الأسباب المباشرة للتغير، فهى التى تدبر الكون ، وتفيض عليه الوجود . وتفننوا فى إقامة هياكل لها، وصفها « الدمشقى » بدقة ، ويحرص الصابئة على تطهير أنفسهم من دنس الشهوات ، والارتقاء بها إلى عالم الروحانيات ، ولهم طقوس ثابتة ؛ فيطهرون بالماء إذا لمسوا جسدا ، ويحرمون الختان ، كما يحرمون الطلاق إلا بأمر من القاضى ، ويمنعون تعدد الزوجات ، ويؤدون ثلاث صلوات كل يوم ، وعاشوا متفرقين فى شمال العراق. ومركزهم الرئيسى « حرّان » ولغتهم السريانية ، وخدموا الإسلام عن طريق العلم والسياسة ؛ فكان منهم المترجمون ، والرياضيون والنباتيون والوزراء مثل : «ثابت بن قرة » وابنه « سنان » و« أبو إسحق بن هلال » الوزير ، وابن أخيه . وهمّ « المأمون » - رضى الله عنه - بإبادتهم ، ولكن شفعت لهم علومهم . وكانت منهم فرقة قوية فى « بغداد » واستمرت نحو قرنين ، وخاصة فى عهد « أبى إسحق الصابى » وزير « الطائع » و « المطيع » ثم انقرضوا فى القرن الحادى عشر الميلادى بعد استيلاء الفاطميين على « حران » ولم يبق لهم إلا آثار قليلة » أهـ .

لاحظ :

ولما فرض أهل الروم على أتباع يحيى وعيسى عقائدهم الوثنية فى صورة مسيحية ، وفرضوا عليهم أيضاً عدم العمل بأحكام التوراة ، ومن الأمور المشتركة بين الصابئين والمسيحيين : أنهم يحرمون الختان ، مع أنه مفروض عليهم من التوراة، ويحرمون عليهم الطلاق ، مع أنه مباح فى التوراة ، ويمنعون تعدد الزوجات . مع أن التعدد مباح فى التوراة ،وصلاة اليهود ثلاث كصلوات الصابئة . أما المسيحيون فسبع صلوات .

وفى دوائر المعلوف تحت كلمة المندائية Mandaeans : « أنهم موحدون. والخالق عندهم اسمه الله بصيغته فى العربية ، وهو نور السموات والأرض ، وفاضت منه المخلوقات ، والمندائية يقولون : إنا نصارى ، وينكرون أن يكون المسيح

ابن الله[1]. وكتابهم السفر الكبير أو الجينزا Ginza يطرح نظرية الخلق على مثال ما في سفر التكوين ، ويذكر أسماء موسى ويوحنا وآدم وحواء وغيرهم بنطق يقرب من العربية . وفي كتب المندائية المتأخرة يذكرون النبي محمد ، ولكنه ذكر لا يدل على معرفة بتعاليم الإسلام .وهم ينوهون بيوحنا المعمدان ويسمونه يحيى ؛ لأنه من الزاهدين المغتسلين . والمندائية من المغتسلين ، وتشبه شعائرهم في الصلاة شعائر اليهود »

ولأن نبيهم شتم اليهود بقوله : « ياأولاد الأفاعي » حاربهم اليهود ، كما حاربوا النصارى ، وأطلقوا عليهم لقب « ثنوية »

وتحت كلمة الكسائيون :

« قيل : إن الكسائي هو كتاب مؤسس الطائفة ، وهم موحدون . وشريعتهم هي شريعة موسى . ويؤمنون بالآخرة والبعث والثواب و العقاب . ولأنهم قالوا بالاغتسال في النهر بقصد التطهر ، سموا بالمغتسلين ، وقالوا : إن مثل المسيح كمثل آدم»

وتحت كلمة المغتسلة:

« وهم الصابئة . وقيل : إن المندائية Mandaiia أخذوا عنهم ، ويطبقون شريعة موسى » أهـ .

ويقول الأستاذ عبد الأحد داود الآشوري في كتابه محمد كما ورد في كتب اليهود والنصارى : « ومن الحقائق المعروفة جيداً : أن الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن ، وعند آباء الكنيسة النصرانية القدامى مثل « إيفانوس » وسواه ؛ كانوا من أتباع يحيى » وفي القرآن الكريم : أن أهل الكتاب إذا بقوا على دينهم ؛ يدفعون الجزية للمسلمين . ذلك قوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتو الكتاب . حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ وقد دفع الجزية للمسلمين اليهود والصابئون والنصارى ، وعاشوا بين المسلمين .

---

(١) ابن الله في المزمور الثاني نبوءة عن محمد ﷺ والمعنى أنهم ينكرون وضع نبوءات التوراة التي هي لمحمد وحده ، على عيسى . كما زعم بولس

وعن الصابئة المندائية يقول المؤرخون : إنهم كـانوا يعيشون فى « حران » يقول ياقوت الحموى : قيل : سميت بهاران أخى إبراهيم عليه السلام لأنه أول من بناها.
ويقول الـطبرى : إن نوحـا عليه الســلام خطّها بعد انـقضاء الطـوفان، وخط سورها بنفسه ، وفيها كانت منازل الصابئة .

وخالفه ابن العبرى فقال : إن الذى بناها هو « قينان»

ملاحظة :

اسم « قينان » ســاقط من التوراة العـبرانيـة وموجـود فى اليونانيـة مرتين ، والساقط هو ابن أرفكشـاد . والنسـب هكذا :

آدم - شيث - أنوش - قـينان - مهلليئل - يارد - أخنوخ - متـوشالح - لامك - نوح - سام - عابر - فالج - رعـو - سروج - ناحور - تارح - إبراهيم وناحور وهاران (الثلاثة أخوة وأبوهم تارح)

وقالت الصابئة فى كـتابهم الشهير « حران كويثا » : إنهم يعـيشون فى جبل الماداى . وهذا الجبل يمتد إلى حران .

ولما احـتل الإسكندر الأكبـر مـدينة حران سنة ٣٣٦ م أسـكن فيـها رحـالة مكدونية وعندمـا زارت الراهبة إيجـيريا حران سنة ٣٦٣ م قـالت : وجدت السكان يكرمون قبر « لابان »

وقد ذكرى الطبرى كتاب الجزية على النحو التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب عياض بن غنم ، ومن معه من المسلمين لأهل الرُّها

« إنى أمّنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم. إذا أدوا الحق الذى عليـهم ، وأن يـصلحـوا جسـورنا ، ويهـدوا ضـالنا . شهد الله وملائكته و المسـلمون »

ولما اجتاز الخليفة المأمون - رضى الله عنه وأرضاه - سنة ٢١٨ هـ مدينة حران قال له أهل حران : نحن نؤدى الجزية . وقالوا له : لسنا يهودا ولسنا نصارى، ولسنا بالمجوس

ويقول المؤرخون : إن كثيرين منهم قد دخلوا فى دين الإسلام مع الداخلين. ويلتبس على الناس اليوم الفرق بين الكنائس المعمدانية وكنائس الصابئة أتباع يوحنا المعمدان ، فيظنون أن الكنائس المعمدانية هى كنائس الصابئة . والحق : أن الكنائس المعمدانية كنائس مسيحية . والفرق بينها وبين الكنائس المسيحية : هو فى التعميد ، فالكنائس المعمدانية تعمد البالغ ، الداخل فى الدين بإرادته ، والكنائس المسيحية تعمد الصغير الذى لا يميز بين الخير والشر .

عدم إيمان علماء بنى إسرائيل بدعوة يحيى عليه السلام :

وروى متى فى إنجيله : « قال لهم يسوع : الحق أقول لكم : إن العشّارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله . لأن يوحنا جاءكم فى طريق الحق ؛ فلم تؤمنوا به ، وأما العشارون والزوانى ؛ فآمنوا به . ،وأنتم إذ رأيتم ؛ لم تندموا أخيرا؛ لتؤمنوا به » [متى ٢١ : ٣١ - ٣٢] ثم ضرب لهم مثل الكرامين الأردياء على انتقال « ملكوت الله » إلى أمة أخرى .

البيان :

إن المحاورات بين يحيى وبين أ - علماء اليهود .ب - والأميين -المعبر عنهم فى النص بالعشارين والزوانى - أى جباة الضرائب لصالح الرومان ، والأئمة ؛ كانت عن « ملكوت الله » الذى كان يدعو إلى اقترابه . فمن من الطائفتين قد قبل كلامه ؟ العلماء أم الأميون ؟ المتكبرون أم المتواضعون ؟ إن العلماء لم يقبلوا كلامه ولم يؤمنوا به .

أما المسيح عيسى عليه السلام فقد دعا بدعوة يوحنا . وهى اقتراب ملكوت الله. وضرب الأمثال لمجيئه . وذلك أنه بعد حديثه عن يوحنا قال فى مثل الكرامين الأردياء : « إن ملكوت الله يُنزع منكم ، ويُعطى لأمة تعمل أثماره »

ويقول المؤرخون :

إن اليهود قد شنوا حروبا على الصابئين بسبب إيمانهم بكلام يوحنا عن «ملكوت الله »

ففى كتاب للمندائية اسمه « حران كويثا » : « أنهم هاجروا من أرض كنعان

إلى شمـال سوريا ، على إثر حـروب بينهم وبين اليهـود ، فهاجـروا إلى « حران » واستقروا مدة من الزمن ، ثم هاجروا إلى بطائح « البصرة » من مدينة حران». أهـ

وفى كتب التفسير فى كلمة ﴿ الصابئون ﴾ : [المائدة ٦٩] :

وفى رفعه أوجه :

١ـ أنه على تقـدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا . من آمـن منهم ... إلى آخره . والصابئون كذلك .

٢ـ أن ﴿ إن ﴾ بمعنى نَعَم . ولا محل لها . وما بعـدها مرفـوع المحل على الابتداء ، وما بعده معطوف عليه بالرفع . وخبر الجميع قوله ﴿ من آمن ﴾ إلى آخره .

٣ـ أن يكون معطوفا على الضمـير المستكنّ فى ﴿ هادوا ﴾ أى هادوا هم ﴿والصابئون ﴾

٤ـ أنه مرفوع نسقا على محل اسم ﴿إن﴾ لأنه قبل دخولها مرفوع بالابتداء .

٥ـ أن تضمـر خبر ﴿ إن ﴾ وتبتـدئ ﴿ الصابئون ﴾ والتـقدير : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ يُرحـمون ـ على قول من يقـول : إنهم مسلمـون . ويُعذبون على قول من يقول : إنهم كفار .

٦ـ أن ﴿ الصابئـون ﴾ مرفوع على الابتـداء ، وخبره محذُوف ، إلا أنه لا يُنوى بهذا المبتدأ التأخير .

٧ـ أن ﴿ الصـابئون ﴾ منصـوب ، وإنما جاء على لهـجة بنى الحـارث الذين يجعلون المثنى بالألف فى كل حال .

٨ـ أن عـلامة النصـب فى ﴿ الصابئـون ﴾ فـتحـة النون ﴿والذين﴾ حـرف الإعراب . كهى فى « الزيتون » و« عربون »

٩ـ رفع ﴿ الصابئون ﴾ لأن ﴿ إن ﴾ لم يظهر لهـا عمل فى ﴿ الذين ﴾ فبقى المعطوف على رفعه الأصلى قبل دخول ﴿ إن ﴾ على الجملة .

وفى كتب التفسير عن نطق ﴿ الصابئون ﴾ :

قرأ أبى بن كـعب وعثمـان بن عفان وعائشـة والجحدرى وسـعيد بن جبـير

وجماعة: ﴿ والصابئين ﴾ بالياء .

وقرأ الحسن البصرى والزهرى : ﴿ الصابئون ﴾ بكسر الباء وبعدها ياء . وهو تخفيف للهمزة كقراءة من قرأ ﴿ يستهزيون ﴾ فى الأنعام الآية الخامسة بالياء لا بهمزة.

قراءة نافع ﴿ والصابئين ﴾ فى سورة البقرة :

قرأ نافع ﴿ الصابئين ﴾ بدون همزة وتحتمل وجهين : ١ـ أن يكون مأخوذا من المهموز . فأبدل من الهمزة حرف علّة . إما ياء أو واوا فصار من ابا المنقوص ، مثل قاضى أو غازى . والأصل : صابء ، ثم جُمع كما يجمع القاضى أو الغازى . إلا أن سيبويه لا يرى قلب هذه الهمزة إلا فى الشعر ، والأخفش وأبو زيد يريان ذلك مطلقا.

٢ـ أنه من صبا يصبو ، إذا مال ، فالصابى كالغازى . أصله : صابو. فأُعلّ كإعلال غاز ، وأسند أبو عبيد إلى ابن عباس : « ما الصابون ؟ إنما هى الصابئون . ما الخاطون ؟ إنما هى الخاطئون »

فقد اجتمع فى قراءة نافع : همزه ﴿ النبيين ﴾ وترك همز ﴿ الصابئين ﴾ وقد عرفت أن العكس فيها أفصح .

التعليق :

إن كلمة ﴿ والصابئون ﴾ هى كلمة إلهية من الله . ولكن الرواة قالوا فيها ما قالوا ، وحسابهم على الله . وكلمة ﴿ الصابئين ﴾ هى كلمة إلهية من الله ، وكل كلمة فى موضعها من المصحف هى ترتيب الله ونصه .

والمعنى الصحيح هو : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ ـ ﴿ والصابئون ﴾ منهم ـ ﴿ والنصارى ﴾ .. الخ يريد أن يقول للناس : إننى لما ذكرت ﴿ الصابئين ﴾ فى سورة غير هذه السورة وخفى على الناس أمرهم ؛ لأنهم يتستّرون تحت اسم «المسيحيين» ومن الناس جماعة رأت طائفة فى بلادهم تعبد الكواكب ؛ فظنوا أنهم هم الصابئون . لما خفى على الناس أمرهم ؛ بينتُ أنهم طائفة منشقة عن اليهود ، على طريق الجُمَل الاعتراضية التفسيرية . فالمعنى : إن الذين آمنوا والذين هادوا ـ

والصابئون طائفة منهم ـ والنصارى . هؤلاء جميعا من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا. من قبل ظهور محمد رسول الله ، سأنصبُ له ميزانا وأعطيه حقه بحسب ميزان أعماله . وأما من بعد ظهور الإسلام . فإن من لم يدخل منهم فى الإسلام يكون من الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

فى كتب التفسير فى كلمة ﴿ والمقيمين ﴾ [النساء ١٦٢] :

فى تفسير القرطبى :

« وروى عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها سئلت عن ﴿ المقيمين ﴾ فى قوله تعالى ﴿ لكن الراسخون فى العلم ﴾ وعن ﴿ الصابئون ﴾ وعن ﴿ إن هذان لساحران ﴾ فقالت : هذا خطأ من الكاتب ، وقال عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فى المصحف لحن ، وستقومه العرب بألسنتها . وقال إبان بن عثمان : قرأتُ هذه الآية عند أبى عثمان بن عفان ، فقال : لحن وخطأ ، فقال له قائل : ألا تغيّروه ؟ فقال : دعوه فإنه لا يحرم حلالا ، ولا يحلل حراما » أ . هـ .

قال الزمخشرى ، رضى الله عنه :

« ولا يُلتفت إلى مازعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب ، ومن لم يعرف مذاهب العرب ، ومالهم فى النصب على الاختصاص من الإفتنان ، وغَبِى عليه : أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة، ومثلهم فى الإنجيل ؛ كانوا أبعد همة فى الغيرة عن الإسلام ، وذبِّ المطاعن عنه ؛ من أن يقولوا : ثُلمة فى كتاب الله ؛ ليُسدَّها مَن بَعدهم ، وخُرقا يَرْفوه مَنْ يلحق بهم » أ . هـ .

التعليق :

إن المعنى الصحيح هو : لكن الراسخون فى العلم من اليهود يؤمنون بأن القرآن كلام الله . وأيضاً : المؤمنون من اليهود الأميين ، ولأنهم يؤمنون وأخص من الراسخين فى العلم : المقيمين الصلاة ؛ لأن صلواتهم ستنهاهم عن مخالفة الله ؛ فيؤمنون بمحمد ويتّبعونه . أما غير المصلين من الراسخين فى العلم ؛ فإن علمهم قد

يحملهم على الإيمان بمحمد ، وقد لا يحملهم على الإيمان به . حبًا فى الدنيا وزينتها . فالاختصاص هنا يفرق بين طائفتين من العلماء . طائفة تعلم ولا تعمل، وطائفة تعلم وتعمل . والصلاة هى التى تميز ؛ لأنها ﴿ لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾

فى كتب التفسير فى ﴿ إنّ هذان لساحران ﴾ [طه ٦٣] :

﴿ إنْ﴾ بسكون النون خط المصحف ، وقرأ الزهرى والخليل بن أحمد المفضل وإبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه : ﴿ إنْ هذان﴾ بتخفيف ﴿ إنْ ﴾ قال القرطبى ـ رضى الله عنه ـ : « وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب . ويكون معناها : ما هذان إلا ساحران ». هـ.

التعليق :

خط المصحف هو ﴿ إنْ ﴾ بسكون النون ، وعلى سكون النون ينتفى الإشكال فى الآية . لكن الرواة ابتدعوا رواية هى إنّ بتشديد النون مفتوحة . وبعدما ابتدعوها وأذاعوها فى الناس ؛ قالوا : إن فى القرآن لحنا على قراءة « إنّ » ونسبوا قولهم زورا إلى أصحاب وعلماء لم يصدر عنهم هذا القول .

و المعنى: ﴿ إنْ هذان ﴾ رجلان ﴿ لساحران ﴾ فى اعتقاداتنا ،

﴿ليسوا سواء﴾ :

ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ولو آمن أهل الكتاب ، لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون ، وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم ، يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا ، إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون . ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات . وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين﴾ [آل عمران ١١٠ ـ ١١٥]

فى تفسير الإمام الخازن رضى الله عنه : ﴿أمة قائمة﴾ أى مهدية ، قائمة على

أمر الله تعالى لم يضيعوه ولم يتركوه . وقيل: ﴿قائمة﴾ على كتاب الله عز وجل وحدوده ، وقيل ﴿قائمة﴾ فى الصلاة .

والصحيح: ﴿أمة قائمة﴾ أى موجودة بين الناس وقت نزول القرآن . لها شعائرها الخاصة بها التى تدعو الناس إلى اعتناقها معهم . وستظل موجودة ومستقلة عن غيرها من الجماعات . وقال عطاء : إنهم كانوا جماعة مؤلفة من أربعين رجلاً من أهل نجران من العرب ، واثنين من الحبشة ، وثمانية من الروم ، وعدة نفر من الأنصار . ولما ظهر الإسلام دخلوا فيه ، وعلى رأيه هذا يلزم أنهم أمة كانت قائمة : أى موجودة وزالت . ويردّ رأيه هذا : أن ﴿قائمة﴾ تدل على استمرار الوجود من بعد ظهور الإسلام وإلى أن تقوم القيامة . فمن هى هذه الأمة الموجودة إلى اليوم ؟ ليس إلا أمة الصابئين . وذلك لأنه ذكر ثلاثة هم : اليهود والنصارى والصابئين . وقال : إن اليهود أشرار وقال : إن النصارى إلى زمان التحريف أخيار . وحل محلهم المسيحيون من زمان التحريف من سنة ٣٢٥م وهم أشرار . فلم يبق من الثلاثة إلا الصابئون .

وههنا إشكال . وهو أن هذه الأمة الممدوحة بأنهم يسارعون فى الخيرات وهم من ﴿المؤمنون﴾ إن ظلت على شعائرها ولم تدخل فى الإسلام فإنها تكون خاسرة . وهو قد وصفها بأنها قائمة ، وبأنها ممدوحة مع وجودها مع المسلمين جنباً إلى جنب. فهل يردّ على هذا الإشكال بأنهم أمة أمية جاهلة لا تعرف أن الإسلام حق. إذ لا يعرف من أهل الكتاب أنه حق إلا الراسخون فى العلم ؟ أم يُردّ عليه بأنهم يعرفونه حق المعرفة ولكنهم يخشون غيرهم . فيكون حالهم حال ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ؟

ومثل ذلك فى المسلمين مثل الشيعى الذى يعرف أن الأحاديث النبوية التى هى عنده فيها حق وباطل ، ويعرف أن الأموات لا يسمعون ولا يبصرون ولا يضرون ولا ينفعون ، ويعرف أن أصحاب النبى ﷺ مشهود لهم من الله بالفضل. ومع ذلك لا يريد أن يتخلى عن ما نشأ عليه . ومثله السنى الذى يعرف أنه نشأ على موروثات باطلة ، كالتى هى عند الشيعى .

وقال الله تعالى : ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين

أشركوا﴾ فرق بين اليهود وبين المشركين .

والمراد بالمشركين ههنا : طائفة المسيحيين ، الذين ابتدأ ظهورهم فى الوجود من مجمع نيقية سنة ثلثمائة وخمسة وعشرين من الميلاد . وقد لقبهم الله بالمشركين فى قوله : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو . سبحانه وتعالى عما يشركون﴾

أما أنصار عيسى عليه السلام من زمانه إلى زمان مجمع نيقية فإنهم يلقبون بالنصارى ، ولا يلقبون بالمسيحيين ، والنصارى هم الذين انفصلوا عن اليهود ، وكونوا أمة كانت تبشر بمجئ محمد ﷺ وتعمل بأحكام التوراة حكما حكما .

وعلى ذلك قال الله تعالى : ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ أما اليهود والمسيحيون ، فهم أشد عداوة .

ثم قال الله تعالى : ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا﴾ يريد أن يقول : إن قرب المودة بسبب أن فيهم راسخين فى العلم يعلمون أن محمدا رسول الله حقا وصدقاً ، وكل راسخ فى العلم منهم يعلم أن محمدا رسول الله ، لكن الرسوخ فى العلم شئ ، والايمان بمحمد شئ آخر . ولذلك قال ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ أى أن المتواضع لله منهم وهو راسخ فى العلم يؤمن بمحمد سرا وجهرا ، وإذا سمع ما أنزل إليه يبكى من خشية الله . ذلك قوله: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ، ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ والرسول ههنا هو محمد ﷺ لقوله فى نفس السورة : ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ وهذا المعنى فى المسيحيين إلى هذا اليوم . فإن الراسخ المتواضع من المسيحيين يشبه النصرانى الذى كان من قبل زمان التحريف. وأكثرهم على هذا الإيمان سرا . ويقولون :إن لهم عذرا لقوله : ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾

وجاء فى تفسير ابن كثير : أنه توجد قراءة وهى : «ذلك بأن منهم صدِّيقين ورهبانا» يريد أن يلوح بها إلى معنى وهو أن «القسيس» لقب مبتدع من زمان التحريف . فكيف يصف به النصارى . ولم يكن فيهم إلا الحبر والرِّبى ؟ ولذلك فسر القسيس بالصديق . والمعنى الذى لوح به هو مقصودنا ، لأن الصديق لا يتأتى له الصدق إلا بالرسوخ فى العلم . والرسوخ يتميز به القسيس عن غيره . وإذا ثبت

الرسوخ وثبت التواضع يثبت أن المسيحى المتصف بهما شبيه بالنصرانى الذى كان من قبل التحريف .

واعلم : أن النصارى قد أجبروا على المسيحية من قبل الرومان . والمسيحية معناها : أن النبى المنتظر الذى سيجئ من بعد موسى عليه السلام قد لقبه اليهود بلقب «المسيح» أى المصطفى من الله . وزعم اليهود أنه سيأتى منهم هم أنفسهم . ولكن عيسى عليه السلام بين لهم أنه سيأتى من بعده ، وأنه هو محمد رسول الله ﷺ . فاتفق اليهود وأهل الروم على جعل «المسيح الرئيس» الذى هو محمد . اتفقوا على أن يجعلوه عيسى عليه السلام بقوة السلاح . فدخل النصارى خوفا من الأذى فى المسيحية ، وتستروا بها ، وكان القسيس والراهب فى الظاهر مسيحيا ، وفى الخفاء نصرانيا ، إلى أن ظهر دين الإسلام وأعلنوا انضمامهم إلى المسلمين .

ومن بقى إلى هذا الزمان . فإن الراسخين فى العلم منهم ، والمتواضعين هم على دين الإسلام فى الخفاء ، وإذا وجدوا فرصة سانحة لإعلان إيمانهم ، فإنهم لا يتركونها .

وقال الله تعالى : ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون﴾ ويقول العلماء : إن هذه الآية هى المذكورة فى قوله تعالى ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ ويعلم العلماء من قوله ﴿قائمة﴾ و ﴿يهدون﴾ و﴿يعدلون﴾ أن هذه الأمة موجودة فى الحياة الدنيا ، وستظل موجودة إلى قيام القيامة . ولذلك رووا : أن سبطا من أسباط بنى إسرائيل فتح الله لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين . فهم هناك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا . والرواية ضعيفة ، ولكنها تدل على فهمهم بأن هذه الأمة موجودة فى الحياة الدنيا .

والحق : أن هذه الأمة ؛ قائمة ، وهى تهدى بالحق ، المذكور فى توراة موسى، وهى تعدل به بين الناس . لا بالحق المذكور فى القرآن ، لأنهم لو علموا بالقرآن وهدوا به وعدلوا ، لما كانوا من قوم موسى . وإنما يكونون من قوم محمد . الذين هم المسلمون . ولأن القرآن يفسر بعضه بعضا ولان الصابئين أمة من اليهود ، قوم موسى ، ولان الله لعن اليهود ، وذم المسيحيين لا النصارى ، ولم يلعن

الصابئين ولم يلمهم ، فإن هذه الأمة التى تهدى بالحق على توراة موسى ، لا تكون أمة غير أمة الصابئين .

ولكن هذه الأمة لا يتقبل الله عملها . لأنهم لم يدخلوا فى دين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ . وذلك لأن التوراة قد نسخها الله بالقرآن الكريم . وليس فى الآية ما يدل على أن الله يتقبل عملهم . وذلك لأنه يحكى عن أمة قائمة تعمل عدلا ما حسب اعتقادها . وحكايته عنهم واضحة فى هذه الآية ، وواضحة فى قوله عنهم : ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير ، فلن يكفروه﴾ إنه حكى عن عاداتهم التى تعودوا عليها من كتاب موسى . ثم قال : ومثل أولئك من الصالحين. ولم يقل وهم من الصالحين . يريد أن يقول : إن من يفعل هذه الأفعال التى اتفقت الأديان عليها . يكون من الصالحين . أما هؤلاء بالذات فإن عاداتهم هذه حسنة . أى أنه وصف عاداتهم بالحسن . ولم يصرح بأنهم من أهل الجنة . ولماذا لم يصرح بأنهم من أهل الجنة ؟ لقوله : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا ، فلن يقبل منه . وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ ثم رغبهم فى دين الإسلام وحثهم على الدخول فيه بقوله : ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ وأى خير لهم أحسن من الدخول فى الإسلام الذى يعرف صحته الراسخون فى العلم منهم ؟

وفى سورة التوبة يقول الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون. وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن﴾ ثم يعلن براءته من اليهود ويدلل لهم عليها ببراءة إبراهيم من أبيه . ليظهر للناس : أن الرابط بينهم هو الإسلام والعمل به ، وليس هو النسب والمصاهرة مع الكفر والفسوق والعصيان . ثم يبين لليهود أنه وضح لهم الدلائل الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ ومن يكفر بعد منهم فإنه يكون ضالا عن الهدى ثم عمل مقارنة بين المسلمين وطوائف أهل الكتاب الثلاثة وهم اليهود والمسيحيون والصابئون فى جهادهم مع الله ورسوله . فقال : قد كان عند أهل الكتاب جهاد فى سبيل الله . وقد جاهدوا وفتحوا الأرض المقدسة مما فتحوا من البلاد ، وفى المسلمين أتباع محمد جهاد فى سبيل الله . والجهاد امتهان للجسد ،

وتحقير للمال ، وفيه كلفة ومشقة . والحامل عليه هو تمنى انعيش فى جنة الله من بعد الموت . فهل يستوى فى دخولها من جاهد ومن لم يجاهد ؟ لذلك يقسم أبناء إبراهيم عليه السلام على قسمين . قسم محمد وأتباعه ، وقسم موسى وأتباعه . ويقول عن القسمين : إننى فتحت باب رحمتى لأى مؤمن يجاهد فى سبيلى على دين محمد . فمن يريد أن يدخل فليدخل . ذلك قوله : ﴿لقد تاب الله على النبى﴾ وقوله : ﴿وعلى الثلاثة﴾ الذين لم يدخلوا فى دينه بعد . وهم اليهود والمسيحيون والصابئون . أى أن باب التوبة مفتوح للجميع . أى أن رحمة الله للجميع . لأن الغرض من التوبة لازمها وهو الرحمة .

ثم فرق بين الذين دخلوا وبين الذين لم يدخلوا بعد ، فقال عن الذين دخلوا: ﴿تاب عليهم﴾ أى أدخلهم فى رحمته لأنهم آمنوا وجاهدوا ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ وقال عن الذين لم يدخلوا : ﴿ثم تاب عليهم﴾ أى فتح لهم باب التوبة ليدخلهم فى رحمته ولكنهم لم يتوبوا بعد ، وهو قد فتح لهم باب التوبة أى باب رحمته ﴿ليتوبوا﴾ لأنهم لم يتوبوا بعد ، وظلوا على دينهم . ولم يقل عن الذين تخلفوا : ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ لأنهم ما دخلوا فى الإسلام حتى يستحقوا الرحمة ، وقال عن الذين أسلموا وجاهدوا : ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ لأنهم أسلموا وجاهدوا . وحث أهل الكتاب على التوبة بقوله : ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾ .

هذا هو معنى :

﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم﴾

ولكن الرواة قالوا : إن الثلاثة هم ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ تخلفوا عن حضور غزوة تبوك . وأمر النبى باجتنابهم عقوبة لهم ، ثم نزلت الآيات بالعفو عنهم . مع علمهم بأن المتخلفين كثير . فلماذا نزل العقاب للثلاثة بالذات ؟

إن المعنى الذى يستقيم مع ما فى السورة كلها هو أن الثلاثة المتخلفين عن رسول الله ﷺ هم أهل الكتاب . وهم طوائف ثلاثة اليهود والمسيحيون والصابئون . ومن بعد ظهور الإسلام وانتشاره فى العالم لن يكون لهم وجه عند الناس بسبب عنادهم وبغيهم . وعندئذ ستضيق عليهم الأرض بما رحبت ، ولن يجدوا غير الإسلام ملجأ وملاذا ، ليعيشوا مع المسلمين فى أمان وسلام .

وبعد هذه الآيات . آيات تحث الثلاثة على الإيمان بالإسلام والجهاد فى سبيل الله مع المسلمين .

وهى : ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ..﴾

يقول الرواة : إن ﴿المدينة﴾ هى يثرب . مدينة رسول الله ﷺ والحق : إن ﴿المدينة﴾ بالألف واللام . هى مدينة «أورشليم» فى فلسطين . لأنها كانت عاصمة ملك بنى إسرائيل فى العالم ، وهى معروفة فى العالم بهذا الوصف . يريد أن يقول: لا يصح لبنى إسرائيل ومن حولهم من الأمم التى ليست منهم ولا من بنى إسماعيل أن لا يدخلوا فى الإسلام . وذلك لأن الواحد منهم إذا أصابه ما يكرهه فى سبيل تبليغه إلى الناس ، سوف يجد فى الدار الآخرة جزاء حسنا . ثم حث المؤمنين على العلم والجهاد بقوله : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ ثم أظهر حال الفريقين من أبناء إبراهيم عليه السلام وهم أتباع محمد وأتباع موسى . عند سماع القرآن . فقال : إن أتباع محمد يزدادون إيمانا . وإن أتباع موسى يزدادون رجسا إلى رجسهم ، ذلك قوله : ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون﴾

ثم خاطب الله أتباع موسى وهم بنو إسرائيل الكافرون بمحمد ﷺ بقوله : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم . عزيز عليه ما عنتم . حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ يشير بـ ﴿من أنفسكم﴾ إلى ما فى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية عن النبى الأمى الذى سيأتى على مثال موسى ، وهو : «يقيم لك الرب

إلهك: نبيا من وسطك . من إخوتك مثلى . له تسمعون . . . أقيم لهم : نبيا . من وسط إخوتهم . مثلك . واجعل كلامى فى فمه . فيكلمهم بكل ما أوصيه به»
[تث ١٨ : ١٥ ـ ٢٢]

فقوله : «من وسطك» و «من وسط إخوتهم» يدل على أنه من أنفسهم أى من نسل إبراهيم عليه السلام .

وعلى هذا . فإن ما قبل آية ﴿ و على الثلاثة ﴾ وما بعدها . ليس فى ثلاثة نفر تخلفوا فى « يثرب » عن غزوة تبوك . وإنما هو فى طائفتين من أبناء إبراهيم عليه السلام . طائفة أهل الكتاب المنقسمون من قبل زمان محمد إلى ١ـ يهود ٢ـ ومسيحين ٣ ـ وصابئين . وطائفة المسلمين أتباع محمد ﷺ وسورة براءة من أولها إلى آخرها تتحدث عن العلاقة بين الطائفتين . لكن الرواة استبدلوا طائفة بنى إسرائيل بكفار من العرب . ودلالة الآيات لا تشهد لهم . كما بينا فى كتابنا البداية والنهاية لأمة بنى إسرائيل .

وكتب الصابئة المقدسة هى التوراة والأناجيل الأربعة . أما التوراة : فلأن يوحنا المعمدان الذى هو مقدم الطائفة ورئيسها ،كان على شريعة موسى عليه السلام لم ينسخها ولم ينقضها ، وأما الأناجيل الأربعة : فلأن المجتمعين فى نيقية دمجوا إنجيل يوحنا المعمدان مع إنجيل عيسى عليه السلام فى إنجيل واحد لتشابههما فى الهدف . وفرضوا الإنجيل على الأربعة وأعلنوا عن هدفهما وهو أنهما دعوا معا إلى اقتراب «ملكوت الله»

ثم إن الصابئين لهم تفسيرات للتوراة مستقاة من التلمود ، واجتهادات علمائهم ، هى مكتوبة فى كتب ، وعندهم كتب تواريخ . وعندهم كما هو عند أى طائفة من أهل الأديان كتب مخطوطة فى السحر والتنجيم ومسارات الكواكب . وذلك لأن اليهود قد ملأوا التلمود من مثل هذه الموضوعات . والصابئون يخفون كتبهم ولا يظهرونها لأنها كتب تفسيرية . والتفسير قابل للتغيير وقابل للبقاء . ومن كتبهم التفسيرية كتاب لبخ ددخ شفض وتفسيره الكنز الإلهى وكتاب أدراشا أدبهيا . وتفسيره التعاليم المأثورة عن يحيى عليه السلام . وفيه قصته وعظاته .

ومما هو فيه : أن يحيى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ، وقد جاء هنا

الخبر فى القرآن الكريم . ووضحتُه فى كتابنا يوحنا المعمدان بين الإسلام والنصرانية. ومن كتبهم كتاب العلسنا ، وفيه قوانين النكاح بحسب شريعة نبى الله موسى عليه السلام . وكتاب النفوس وموضوعه أحكام الجنائز . وكتاب الديوان وموضوعه قصص الصالحين . وكتاب البروج والطوالع وموضوعه السحر والتنجيم وحساب الطالع ومعرفة المستقبل ، وكتاب الدعوات أثناء الطهارة والوضوء وكتاب التعزيمات والأحجبة بالحب والكره . وكتاب فى وظائف الجسد وكتاب يشبه كتاب من لا يحضره الفقيه عند الشيعة وهو يحتوى على اثنى عشر ألف سؤال وكتاب قلعة حران وهو يتحدث عن حروب اليهود للصابئين بعد موت يحيى عليه السلام وهجرتهم إلى أرض العراق من فلسطين وكتاب فى أسرار الدهر والأزل . يتكلم عن العالم النورانى وتكوينات العالم السفلى . وكتاب تتويج شيشلام ويبحث فى وظائف الكهنة وواجباتهم . وكتاب تتويج علاب القبر ونعيمه يسمى ديوان أباثر أو كتاب فروستا . فيه عزائم وأقسام لإخراج الجن من أجساد الناس . وكتاب شرح بلرونايا. وهو فى توديع الموتى بكلام حسن .

الفصل الثانى

فى

نبوءات من التوراة عن محمد ﷺ

قال الله تعالى فى القرآن الكريم :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى ؛ فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبة ؛ لعلهم يرجعون . بل متّعتُ هؤلاء وآباءهم ، حتى جاءهم الحق ، ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر . وإنا به كافرون . وقالوا : لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا . ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف ٢٦ ـ ٣٢]

بدأ بذكر إبراهيم عليه السلام . ثم تكلم عن بركته فى الأمم التى قسمها بين بنى إسحق وبنى إسماعيل ـ عليهما السلام ـ وقد قام بنو إسرائيل من نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ ببركة إسحق . وقد متّعهم الله بالملك على الأمم والشعوب إلى أن جاءهم محمد ﷺ الذى ستبدأ منه بركة إسماعيل . ولما جاءهم ؛ كفروا به . لماذا ؟ لأنهم يريدون النبى الأمى المماثل لموسى منهم . إما من السامريين سكان «نابلس» وإما من العبرانيين سكان « أورشليم » وبذلك يظل الملك فى بنى إسرائيل إلى يوم القيامة ، وتظل الشريعة .

وقد أظهر الله لهم عدله وفضله .وذلك ببيانه أنه قسم بالعدل والفضل بركة إبراهيم خليله بين إسحق وإسماعيل . فجعل لإسحق مدة . بملك وشريعة على الأمم ، تبدأ من نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ وتنتهى بظهور محمد ﷺ وجعل لإسماعيل مدة بملك وشريعة على الأمم ، تبدأ من نبى الله محمد ﷺ وتنتهى بقيام القيامة ، وانتهاء الحياة الدنيا . والنسل القائم بالبركة يكون سيدا على كل نسل إبراهيم .وهذا هو معنى ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعض سخريا﴾ وهذا هو البيان :

تقسيم بركة إبراهيم :

فى التوراة : أن الله قال لإبراهيم عليه السلام: ﴿ أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملاً ، فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جداً ﴾[تك ١٧ : ١ ـ٢] أى امش بين الناس وادعهم إلى معرفتى وكن قدوة صالحة لهم فى فعل الخيرات . وحارب عباد الأوثان . فطلب إبراهيم من الله أن يسير نسل إسماعيل أمامه . ويدعو ويحارب . فقال الله : من إسماعيل سيظهر نبى بشريعة . ويبدأ سير نسل إسماعيل أمامى من ظهور هذا النبى . فيدعون بشريعته ، ويحاربون عباد الأوثان ؛ ليعتنقوا شريعته . وأيضاً سأظهر نبى من نسل إسحق لهذا الغرض . ويكون لبنى إسحق ملة، ويكون لبنى إسماعيل ملة . ففى الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين:«وقال الله لإبراهيم : « ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى ، بل اسمها سارة ، وأباركها ، وأعطيك أيضا منها بنا . أباركها ؛ فتكون أمما وملوك شعوب منها، يكونون » لاحظ : « أباركها » ولاحظ تفسير البركة وهو أمم وملوك على الشعوب للتمكين للشريعة . ثم قال الكاتب : « وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك» أى يسير نسله أمام الله بشريعة .ورد الله عليه بقوله : « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثر لا كثيراً جداً اثنى عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمةكبيرة » فإسماعيل مبارك وإسحق مبارك .

إسماعيل ابن سارة:

وفى التوراة : أن السيدة الحرة كانت تعطى جاريتها لزوجها : لعله أن ينجب منها بنين ، وإذا أنجبت ؛ ينسب الابن إلى السيدة الحرة ، ولا ينسب إلى الجارية ، ويتساوى فى الإرث مع ابن السيدة الحرة فى الأم ، وفى الأب . ففى الأصحاح السادس عشر من سفر التكوين : « وأما ساراى امرأة أبرام فلم تلد له .وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر . فقالت ساراى لأبرام : هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، ادخل على جاريتى ، لعلى أُرزق منها بنين . فسمع أبرام لقول ساراى ، فأخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام فى أرض كنعان ، وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له . فدخل على هاجر ؛ فحبلت . . . الخ » [تك ١٦ : ١ـ] لاحظ : « ادخل على جاريتى ؛ لعلى أرزق منها بنين » أى أن إسماعيل بحسب شريعتهم صار ابنا لسارة ويرثها . وعلى هذه الشريعة تجد أولاد يعقوب عليه السلام ، فإن امرأته ليئة وهى حرة أنجبت له : راوبين ـ شمعون ـ

لاوى ـ يهوذا . ثم توقفت عن الولادة ، ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الولادة أخذت زلفة جاريتها ، وأعطتها ليعقوب زوجة . فولدت زلفة جارية ليئة ليعقوب ابنا وسمته جادا وولدت ابنا آخر وسمته أشير ثم إن ليئة أنجبت يساكر وزبولون . فالأولاد الثمانية هؤلاء هم أولاد ليئة الحرة . ستة منها واثنان من جاريتها . وتساووا فى الإرث من يعقوب ومن ليئة .

ومثل ذلك فى أولاد راحيل الزوجة الأخرى ليعقوب . فإنها أنجبت يوسف وبنيامين . ودفعت جاريتها إلى يعقوب فأنجب لها منها : دان ـ نفتالى . وتساووا جميعا فى الإرث من راحيل ومن يعقوب .

إرث إسماعيل :

وفى التوراة : أن سارة طلبت من إبراهيم أن لا يرث إسماعيل فيه . فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه ، ورد الله عليه بأنه وارث . ذلك قوله : « لأنه بإسحق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضا سأجعله أمة ؛ لأنه نسلك » وبذلك يكون إسماعيل له ملك ونبوة كما كان لإسحق ملك ونبوة .

برية فاران :

ولما قال الكاتب إن إسماعيل سكن فى فاران . قال مع السكتى : إن الله بشر هاجر بأن ابنها سيكون أمة عظيمة . أى سيكون له بركة هى أمم وملوك على الشعوب . وذكر مكان سكناه وهو فاران . ثم فى نهاية التوراة أكد على بركة ستظهر على سكان فاران ، كالبركة التى ظهرت على بنى إسحق فى سيناء ، وهذا يدل على نبوة محمد ﷺ وملك بنى إسماعيل على العالم من حين ظهوره ، كما ملك بنو إسحق على العالم من حين ظهور موسى عليه السلام . ففى الأصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين : « فبكر إبراهيم صباحا ، وأخذ خبزا وقربة ماء ، وأعطاهما لهاجر ، واضعا إياهما على كتفها ، وصرفها ، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع . ولما فرغ الماء من القربة ؛ طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس ؛ لأنها قالت : لا أنظر موت الولد . فجلست مقابله ، ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام . ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك ياهاجر . لا تخافى لأن الله قد سمع

لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام ، وشدى يدك به ؛ لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها ؛ فأبصرت بئر ماء .

فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » [تك ٢١ : ١٤ ـ ١٢]

وهذا الساكن فى برية فاران ، مقابل إخوته بنى إسرائيل . يدل على أن فاران مكة المكرمة . وذلك لقوله : إن بنى إسرائيل سكنوا فى فلسطين . وهى شمال مكة . وقوله عن بنى إسماعيل : « وأمام جميع إخوته يسكن » [تك ١٦ : ١٢] فهما اثنان يسكنان فى خط واحد . طرفه بنو إسرائيل وطرفه بنو إسماعيل . وإسرائيل فى الشمال وإسماعيل فى الجنوب .

نبوءة شيلون :

ولأن لإسماعيل بركة . أى ملك ونبوة « دعا يعقوب بنيه . وقال : اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام » أى آخر أيام بركة بنى إسحق ابن سارة ، التى حملها نيابة عنه بنو إسرائيل ـ الذى هو يعقوب ـ وقال لهم : فى آخر أيام بركة إسحق ، سيزول الملك ، وستنسخ الشريعة على يد « الذى هو له » الحكم من بنى إسماعيل ؛ لأن لإسماعيل بركة . ولم يزل الملك من اليهود إلا على يد محمد ﷺ ولم ينسخ التوراة إلا محمد ﷺ . فيكون هو « الذى هو له » الحكم ، فى قول يعقوب عليه السلام : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه؛ حتى يأتى شيلون .وله يكون خضوع شعوب ، رابطا بالكرمة جحشه ، وبالجفنة ابن أتانه، غسل بالخمر لباسه ، وبدم العنب ثوبه . مسود العينين من الخمر، ومبيض الأسنان من اللبن » [تك ٤٩ : ١ +] و« شيلون » هنا « الذى هو له » الحكم . وهو نبى السلام لا يكون من اليهود بنى إسرائيل . وعبر عن ملكه على الأمم والشعوب بقوله « وله يكون خضوع شعوب » يريد أن يقول : كما أن بركة إسحق أمم وملوك على الشعوب . وتبدأ من موسى صاحب التوراة ، تكون بركة إسماعيل من النبى الآتى منه . وبه يكون من بنى إسماعيل ملوك على الشعوب . ثم عبر بأسلوب كنائى بديع عن كثرة الخيرات فى أيام بركة إسماعيل ،

أى فى أيام شريعة محمد . فقال : رابطا بالكرمة جحشه . بدل ربطها أمام التبن والعشب ، وذلك لكثرة العنب . حتى يفيض عن الناس فتأكله الحمير ، وجفنة الثريد واللحم تفيض عن الآكلين بعد شبعهم ، فيضعونها للحيوانات . والخمر الغالية الثمن تكون رخيصة بلا ثمن كالماء كناية عن الرخاء وكثرة الخيرات . حتى أن الناس من كثرتها يغسلون بها ثيابهم . وأشار بسود العينين من الخمر إلى قوة المسلمين ونشاطهم ، وأشار ببيض الأسنان من اللبن إلى القوة والنشاط والحيوية .

وقال حزقيال النبى فى سفره : إن « الذى هو له » فى هذه النبوءة سيجئ لانتهاء الملك والنبوة من بنى إسرائيل . ذلك قوله : « وأنت أيها النجس الشرير رئيس إسرائيل الذى قد جاء يومه فى زمان إثم النهاية ، هكذا قال السيد الرب ، انزع العمامة ، ارفع التاج ، هذه لا تلك ، ارفع الوضيع وضع الرفيع منقلبا ، منقلبا ، منقلبا أجعله . هذا أيضاً لا يكون حتى يأتى الذى له الحكم ؛ فأعطيه إياه» { حز ٢١: ٢٥ }

نبوءة الأمة الأمية :

وأكد موسى على أن الله سيرفض بنى إسرائيل من السير أمامه . وأنه سيختار عوضا عنهم أمة أمية جاهلة . ولا يمكن أن تكون هذه الأمة الأمية الجاهلة إلا بنى إسماعيل ؛ لأن لهم بركة . ولما ظهر منهم محمد ليسير أمام الله ، لم تكن أمة أمية فى زمانه غير أمة العرب ، فإن الفرس أهل حضارة والروم أهل حضارة . ولم يظهر فى أمة أمية غيره فى زمانه . وتأكيد موسى هذا هو فى نشيده الطويل الذى بدؤه: « انصتى أيتها السموات فأتكلم ، ولتسمع الأرض أقوال فمى . يهطل كالمطر تعليمى ، ويقطر كالندى كلامى » إلى أن قال : إن بنى إسرائيل أغاظوا الله بعبادتهم للأصنام . ولذلك : « فرأى الرب ورذل من الغيظ بنيه وبناته وقال : أحجب وجهى عنهم ، وانظر ماذا تكون آخرتهم . إنهم جيل متقلب . أولاد لا أمانة فيهم . هم أغارونى بما ليس إلهاً . اغاظونى بأباطيلهم فأنا أغيرهم بما ليس شعبا . بأمة غبية أغيظهم » وبعد كلام طويل عن هلاك بنى إسرائيل ؛ تكلم عن النبى الأمى الآتى من هذه الأمة الأمية . فقال : « تهللوا أيها الأمم ، شعبه . لأنه ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أضداده ، ويصفح عن أرضه . عن شعبه »

والنص اليوناني هو :

« تهللى معه أيتها السموات ، واسجدوا له يا جميع الآلهة ، تهللى أيتها الأمم مع شعبه . ولتعلُن قوته ملائكة الله جميعا ؛ لأنه يثار لدم عبيده ، ويرد الإنتقام على خصومه ، ويجازى مبغضيه ، ويكفر عن أرض شعبه » { تث ٣٢ : ٤٣ ـ ٤٤ }

تعليق علماء المشرق :

« نتبع هنا النص اليوناني . وهو يختلف عن النص العبرى هنا : « اهتفى لشعبه أيتها الأمم ؛ لأنه يثار لدم عبيده ، ويرد الانتقام على خصومه ، ويطهر شعبه أرضه »

وقد نقل بولس فى الإنجيل هذا النص فقال : « تهللوا أيها الأمم مع شعبه » { رومية ١٥ : ١٠ } يريد أن يقول للأمم · افرحوا أيها الأمم مع شعب هذا النبى بظهوره وانضموا إلى شعبه لتكونوا جماعة واحدة . إمامها هذا النبى الآتى من الأمة الأمية ، لكن بولس يحرف الكلم عن مواضعه بالتأويل الفاسد ، فيقول : إن هذا النبى هو المسيح عيسى بن مريم . كيف والله قد رفض بنى إسرائيل من السير أمامه. وهو من بنى إسرائيل ؟ وأعد قراءة هذا النص : « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ،ها أنا أباركه » وتذكر أن البركة أمم وملوك على الشعوب . ويبدأ الملك من نبى يظهر من نسله . ويسوس الأمم بشريعة الله كما بدأت بركة إسحق من موسى ؛ فإنه لما ظهر ملك بنو إسرائيل على الشعوب ، وساسوهم بشريعة الله . فهما نبيان وشريعتان . وقد كانت شريعة موسى عامة للإنس وللجن .ومثلها شريعة محمد عامة للإنس وللجن . وبشريعة موسى ولأجلها دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة ، وعليها أسلمت ملكة سبأ مع سليمان لله رب العالمين ، وعلى القرآن دخل أهل اليمن فى طاعة محمد ﷺ .

نبوءة فاران :

وفى نهاية التوراة يقسم موسى بركة إبراهيم فى ولديه . فيقول : عن بركة إسحق . إنها ابتدأت من نزول التوراة على موسى فى جبل سيناء ، وفسرها علماء بنى إسرائيل فى جبل ساعير . من أرض فلسطين . حيث عاصمة ملكهم على

العالم عند هذا الجبل فى « أورشليم » وبعدما فرغ من الكلام عن مجئ الله من سيناء . ويعنى به ابتداء نزول التوراة فى جبل طورسيناء ، وعن إشراقه من ساعير . ويعنى به : تفسير التوراة فى هذه البقعة من العالم . قال عن بركة إسماعيل : إن شريعة فى نسله ستأتى من جبال فاران[1] . هى متلألئة وشديدة النور واللمعان . وقال عن النبى الذى سيظهر فيها : إنه سيكون محاربا وفاتح بلاد وملكا . وإنه محب الشعوب . فلذلك يجاهد أعداءه لئلا يمنعوا الضعفاء من الدخول فيها . وإنه سيكون له أتباع . من شدة حبهم له ، سيكونون تحت قدميه . كناية عن التواضع للشريعة، وعن النظر فيها لتفسيرها ولتبليغها للناس، وللعمل بها . وهذا هو النص على تقسيم البركة « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته . فقال: جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ، وعن يمينه نار شريعة لهم . فأحب الشعب ، جميع قديسيه فى يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك » [تث٣٣: ١ـ٣]

من الذى أتى من ربوات القدس ؟ هو نبى فاران. يأتى إلى فلسطين ليملك عليها مع آلاف من جيش الصحابة الطاهرين . وفى التوراة اليونانية مع عشرة آلاف قديس . وقد فتح عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أرض فلسطين وهو من أتباع نبى فاران . ودخل « أورشليم » ساجدا لله ـ عز وجل ـ أى خاضعا متواضعاً .

---

(١) فى الاصحاح الثالث من سفر حبقوق : يتكلم عن ان النبى المنتظر سيأتى من فاران ، وأنه سيحارب اليهود ، وسينتصر عليهم ، ووصفه حبقوق بمسيح الله . أى ان الله اصطفاه لأداء رسالة مقدسة ، ووصفه بالقدوس . فقال :« يا رب سمعتُ بما علمتَ ، فخفتُ . أحده فى أيامنا وعرف به ، وفى غضبك اذكر رحمتك . الله يجئ من تيمان ، القدوس من جبل فاران . غطى جلاله السموات ، وملأت الأرض من التهلل له » إلى أن قال :« خرجت لخلاص شعبك ، لخلاص الملك مسيحك » وفى إنجيل متى الابوكريفى : ان عيسى عليه السلام طبق نبوءة فاران على محمد ﷺ واحال إلى النبوءة بالآية ١٧ ، ١٨ منها وهى :« لو مات الغنم لو لم يمت فى الحظيرة .، وخلت من البقره ، لبقيت اغتبط بالرب وابتهج بالله مخلّصى »

اسم محمد :

ارجع إلى الكلام عن بركة إسماعيل . والنص هو : « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه ، وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد ، واجعله أمة كبيرة » نجد أن الكاتب وضع اسم محمد فى سياق بركة إسماعيل بحساب الجمل . وأشار إليه بكلمة « كثيرا جدا » وهى فى اللغة العبرانية « بماد ماد» وتُنطق « بمُود مُود » ـ وبكلمة « أمّة كبيرة » وهى فى اللغة العبرانية « لجوى جدول » ومجموع كل كلمة : اثنان وتسعون . ومحمد اثنان وتسعون . والحساب هكذا :

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ى	كـ	ل	م	ن	س	ع
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠

ف	ص	ق	ر	ش	ت
٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠

نبوءة النبى الأمى :

ويقول الله فى القرآن الكريم : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾

وموضع هذا فى توراة موسى : هو أن الله تعالى طلب من موسى أن يجمع له بنى إسرائيل عند جبل طور سيناء ؛ ليسمعوا صوته وهو يكلم موسى ، فجمعهم ولما تجلى الله للجبل صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا . وكان جبل سيناء كله يدخن وارتجف كل الجبل جدا . فارتعب بنو إسرائيل وخافوا ، وقالوا لموسى : إذا أراد الله أن يكلمنا مرة أخرى ؛ فليكن عن طريقك ونحن نسمع ونطيع . فرد موسى طلبهم إلى الله . فاستحسنه ، وقال له : بعد مدة من الزمان سأقيم لهم نبيا . أكلمهم عن طريقه . وله يسمعون . ففى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية :

« يقيم لك الرب إلهك : نبيا . من وسطك . من إخوتك . مثلى . له تسمعون . حسب كل ما طلبت من الرب إلهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا : لا أعود أسمع صوت الرب إلهى ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا ؛ لئلا أموت .

قال لى الرب : قد أحسنوا فى ما تكلموا . أُقيم لهم : نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه ؛ فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى ؛ أنا أطالبه . وأما النبى الذى يُطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى؛ فيموت ذلك النبى .

وإن قلتَ فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ؛ فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى ؛ فلا تخف منه » [تث١٨ : ١٥ـ ٢٢]

لاحظ :

١ـ نبيا . وفى القرآن : ﴿يا أيها النبى﴾ بالألف واللام . أى المعروف للعالم عن طريق التوراة والإنجيل .

٢ـ من وسطك . وفى القرآن : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾

٣ـ من إخوتك . هذا الوصف خاص بإسماعيل ؛ لأن له بركة . ويلزم من البركة ظهور نبى من النسل . وفى القرآن: ﴿لا أسألكم﴾ أيها اليهود ﴿ عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾ فنحن وأنتم أولاد عم . وأبونا هو إبراهيم .

٤ـ مثل موسى فى ثلاثة أمور فقط . هى المعجزات والحروب والرئاسة . وفى نهاية التوراة أنه لن يقوم نبى فى إسرائيل مثل موسى . ويلزم على عدم ظهوره من بنى إسرائيل أن يظهر من بنى إسماعيل ؛ لأن له بركة . وفى القرآن : ﴿لولا أوتى مثل ما أوتى موسى﴾

٥ـ له تسمعون . أي ينسخ شريعة موسى . ولم ينسخها إلا محمد . فيكون هو . وفى القرآن :﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر ؛ فاتبعها﴾

٦ـ له تسمعون . تدل على أنه سيكون ملكا على بنى إسماعيل وعلى بنى إسرائيل والعالم . وفى القرآن : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فى ما شجر بينهم﴾

٧ـوأجعل كلامى فى فمه . اي يكون نبيا أميا لا يقرأ ولا يكتب . وفى

القرآن : ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾

٨ـ فيكلمهم بكل ما أوصيه به . أى لا يزيد ولا ينقص فى كلام الله . وفى القرآن : ﴿ولوتقول علينا بعض الأقاويل ؛ لأخذنا منه باليمين﴾

٩ـ والذى لا يسمع لذلك النبى . يحاربه هذا النبى ، ويهلكه الله على يديه .وفى القرآن : ﴿ وينصرك الله نصرا عزيزا﴾

١٠ـ والرجل الذى يدعى النبوة ويقول : إننى المراد من هذه النبوءة ، يقتله الله . وفى القرآن :﴿والله يعصمك من الناس ﴾

١١ـ وآية صدقه على طول الزمان : هو تحقق الغيوب التى أخبر بها ، مثل هزيمة الروم والفرس . وفى القرآن : ﴿وعد الله ، لا يخلف الله وعده ﴾

هذا مما فى توراة موسى عن محمد ﷺ .

تطبيق عيسى عليه السلام هذه النبوءة على محمد ﷺ :

ولما تكلم عيسى عليه السلام عن اسم « أحمد » فى إنجيل يوحنا ، الذى هو « البيركليت » الروح القدس قال فى أوصافه : « وأما متى جاء ذاك روح الحق ؛ فهو يرشدكم إلى جميع الحق ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل مايسمع ، يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » [يو ١٦ : ١٣]

لاينال عهدى الظالمين :

ولنقرأ النص عن بركة إسحق وإسماعيل . وهو :

« وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى . بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . أباركها . فتكون أمما ، وملوك شعوب منها ؛ يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه وضحك . وقال فى قلبه : هل يولد لابن مئة سنة ؟ وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابنا ، وتدعو اسمه إسحق . وأقيم عهدى معه عهدا أبديا ؛ لنسله من بعده .وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه ، وأثمره ، وأكثره كثيرا جدا .اثنى عشر رئيسا ؛ يلد ، وأجعله أمة كبيرة . ولكن عهدى أقيمه مع

إسحق ، الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية » [تك ١٧ : ١٥ـ ٢١]

إن إبراهيم عليه السلام لما عاهده الله بالسير أمامه للدعاء إلى دينه ؛ وهو يعلم أنه سيموت كما هو سبيل كل الناس . قال له : إن العهد فى نسلك من بعدك . وذلك بأن أهبك ابنا من سارة ، وأجعل له مدة من الزمان يسير فيها أمامى بشريعة أنزلها على نبى من نسله . وبها يجاهد نسله عباد الأوثان ويفتحون بلادهم، وينشرون فيها شريعتى . ثم أهبك ابنا من هاجر . وأجعل له مدة من الزمان . يسير فيها أمامى بشريعة تنسخ الشريعة الأولى ، وأنزلها على نبى من نسله ، وبها يجاهد نسله عباد الأوثان ويفتحون بلادهم وينشرون فيها شريعتى . وإلى يوم القيامة .

هذا هو الواضح من النص . والتحريف الذى هو فيه : أن الكاتب جعل العهد بالنبوة الخاص فى إسماعيل فى نسل إسحق إلى يوم القيامة . وإن لم يكن التفسير هكذا : وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدى معه عهد أبديا إلى حين ظهور بركة إسماعيل . ولكن عهدى الأول أقيمه مع إسحق من الآن وإن كان يستحقه إسماعيل أولا .

إن لم يكن التفسير هكذا ؛ فإن الكاتب يكون قد حرف الكلم من بعد مواضعه ، ويكون قد ظلم بنى إسماعيل بأخذ العهد الخاص به ، ووضعه فى نسل إسحق . وقد صحح المسيح عيسى عليه السلام هذا الموضع فقال : إن العهد خاص بإسماعيل .وذلك لأن إسحق لم يكن قد ولد حال تقسيم البركة ، ثم إن الكاتب يقول كذبا : إنه هو الذبيح . فلو فرضنا أنه قد ذبح بالفعل ؛ لكان ذلك خُلفا للموعد .وهذا لا يليق فى وعود الله .

يقول عيسى عليه السلام : « ولكن رسول الله متى جاء ؛ يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم بيده ، فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض ، الذين يقبلون تعليمه ، وسيأتى بقوة على الظالمين ، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزى الشيطان ؛ لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا :« انظر فإنى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيما ؛ هكذا سيفعل نسلك »

أجاب يعقوب : يامعلم ، قل لنا بمن صنع هذا العهد ؟ فإن اليهود يقولون

بإسحق والإسماعيليون يقولون بإسماعيل . أجاب يسوع : ابن من كان داود ؟ ومن اى ذرية ؟ أجاب يعقوب : من إسحق ، لأن إسحق كان أبا يعقوب ، ويعقوب كان أبا يهوذا ، الذى من ذريته داود ، فحينئذ قال يسوع : ومتى جاء رسول الله . فمن نسل من يكون ؟ أجاب التلاميذ : من داود . فأجاب يسوع : لا تغشّوا أنفسكم ؛ لأن داود يدعوه فى الروح ؛ ربا قائلا هكذا : « قال الله لربى : اجلس عن يمينى؛ حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك . يرسل الرب قضيبك ، الذى سيكون ذا سلطان فى وسط أعدائك » فإذا كان رسول الله الذى تسمونه مَسِيًّا ابن داود ؛ فكيف يسميه داود ربا ؟ صدقونى . لأنى أقول لكم الحق : إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحق.

حينئذ قال التلاميذ : يامعلم ، هكذا كُتب فى كتاب موسى : إن العهد صنع بإسحق. أجاب يسوع متأوها : هذا هو المكتوب .ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله . الحق أقول لكم : إنكم إذا أعملتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا ؛ لأن الملاك قال : ياإبراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : هاهو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله . فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا : « خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل ؛ لتقدمه ذبيحة . فكيف يكون إسحق البكر ، وهو لما ولد ؛ كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟ » [برنابا ٤٣:١٥ +]

استدلال المسيح عيسى بالتوراة على مجئ محمد ﷺ :

وكان المسيح عيسى عليه السلام فى بنى إسرائيل كالعالم من علماء المسلمين فى بنى إسماعيل . فإنه كان يستدل بالتوراة على كل مايقول . مثل العالم فى المسلمين فإنه يستدل بالقرآن على كل ما يقول . والفرق بينهما : أن عيسى عليه السلام نبى مرسل من الله ، ومؤيد بالمعجزات . وهو ليس مثله فى هذه الأمور . ومثال ذلك:

نبوءة ملكوت السموات :

فى الاصحاح السابع من سفر دانيال ، يتنبأ دانيال عن قيام أربعة ممالك على الأرض : بابل ـ وفارس ـ واليونان ـ والرومان . ثم يأتى « ابن الإنسان » ليؤسس

لله ملكا على الأرض .ذلك قوله عن « ابن الإنسان » : « كنت أرى فى رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان ، أتى وجاء، فقربوه قدامه. فأعطى سلطانا ومجدا وملكوتا ، لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة ، سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول ، وملكوته مالا ينقرض »

هذا مما فى دانيال عن محمد ﷺ الذى رآه فى رؤيا شبه « ابن إنسان » وكانت المملكة الرابعة تحتل فلسطين فى زمن عيسى عليه السلام . وهذا يدل على أن ابن الانسان يأتى بعدها . ومن المحتمل أن يكون هو محمد أو غير محمد . لذلك أرسل الله يحيى وعيسى عليهما السلام ليقولا للناس : إن ابن الإنسان هو محمد ﷺ . والإناجيل المقدسة عندهم ،وكذلك إنجيل برنابا تدل على ذلك ، ففى إنجيل متى : « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية قائلا : توبوا ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات » [متى ٣:١] « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز، ويقول : توبوا ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات » [متى ٤:١٧] وأمر تلاميذه أن يقولوا لله فى صلواتهم : « ليأت ملكوتك » [متى ٦ : ١٠] وقال لعلماء بنى إسرائيل : إن ملكوت الله يُنزع منكم ، ويُعطى لأمة تعمل أثماره » [متى ٢١: ٤٣] وضرب أمثلة لهذا الملكوت ، ومنها مثل جاء ذكره فى القرآن الكريم . وهو «وقال : بماذا نُشبِّه ملكوت الله ؟ أو بأى مثل نمثله ؟ مثل حبة خردل. متى زرعت فى الأرض ، فهى أصغر جميع البزور التى على الأرض . ولكن متى زرعت ، تطلع وتصير أكبر جميع البقول ، وتصنع أغصانا كبيرة ، حتى تستطيع طيور السماء أن تأوى تحت ظلها » [مرقس « ٤: ٣٠ ـ ٣٢] وفى القرآن الكريم: ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه ، فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾

نص نبوءة التوراة عن مكوت السموات :

« فى السنة الأولى لبيلشاصَّر ملك بابل ، رأى دانيال حلما ، ورؤى رأسه على فراشه . حينئذ كتب الحلم ، وأخبر برأس الكلام . أجاب دانيال وقال : كنت أرى فى رؤياى ليلا ، وإذا بأربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير . وصَعِد من البحر أربعة حيوانات عظيمة . هذا مخالف ذاك . الأول كالأسد وله جناحا نَسر .وكنتُ أنظر حتى انتتف جناحاه ، وانتصب عن الأرض ، وأوقف على رجلين كإنسان ، وأعطى قلب إنسان . وإذا بحيوان آخر ثان شبيه بالدب ، فارتفع على

جنب واحد ، وفي فمه ثلاث أضلع بين أسنانه ، فقالوا له هكذا : قم كل لحما كثيرا، وبعد هذا كنت أرى وإذا بآخر مثل النمر وله على ظهره أربعة أجنحة طائر . وكان للحيوان أربعة رءوس وأعطى سلطانا .

بعد هذا كنت أرى في رؤى الليل ، وإذا بحيوان رابع هائل وقوى وشديد جدا . وله أسنان من حديد كبيرة . أكل وسحق وداس الباقي برجليه ، وكان مخالفا لكل الحيوانات الذين قبله ، وله عشرة قرون . كنتُ متأملا وإذا بقرن آخر صغير طلع بينها ، وقُلعت ثلاثة من القرون الأولى من قدامه . وإذا بعيون كعيون الإنسان في هذا القرن ، وفم متكلم بعظائم .كنت أرى أنه وُضعت عروش ، لباسُه أبيض كالثلج ، وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار ، وبكراته نار متقدة، نهر نار جرى وخرج من قدامه ، ألوف ألوفٍ تخدمه، وربوات ربْواتٍ قدامه .

فجلس الدِّين ، وفتحت الأسفار ، كنتُ أنظر حينئذ من أجل صوت الكلمات العظيمة التي تكلم بها القرن ، كنت أرى إلى أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودُفع لوقيد النار ، أما باقي الحيوانات ؛ فنُزع عنهم سلطانهم ، ولكن أُعطوا طول حياة إلى زمان ووقت .

كنتُ أرى في رؤى الليل ،وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان ؛ أتى وجاء إلى القديم الأيام ؛ فقربوه قدامه . فأعطى سلطانا ومجدا وملكوتا ؛ لتتعبّد له.كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى مالن يزول ، وملكوته مالا ينقرض.

أما أنا دانيآل . فحزنتْ روحي في وسط جسمي ، وأفزعتني رؤى رأسي.فاقتربتُ إلى واحد من الوقوف ، وطلبتُ منه الحقيقة في كل هذا ، فأخبرني وعرفني تفسير الأمور : هؤلاء الحيوانات العظيمة التي هي أربعة . هي أربعة ملوك يقومون على الأرض ، وأما قديسو العليّ فيأخذون المملكة ، ويمتلكون المملكة إلى الأبد ، وإلى أبد الآبدين .

حينئذ رمتُ الحقيقة من جهة الحيوان الرابع ، الذي كان مخالفا لكلها ، وهائلا جدا ، وأسنانه من حديد ، وأظفاره من نحاس ، وقد أكل وسحق ،وداس الباقي برجليه ، وعن العشرة التي برأسه ، وعن الآخر الذي طلع ؛ فسقطتْ قدامه

ثلاثة ،وهذا القرن له عيون وفم متكلم بعظائم ، ومنظره أشد من رفقائه ، وكنتُ أنظر وإذا هذا القرن يحارب القديسين ؛ فغلبهم .

حتى جاء القديم الأيام ، وأُعطى الدِّين لقديسى العلى ، وبلغ الوقت ؛ فامتلك القديسون المملكة .

فقال هكذا : أما الحيوان الرابع ، فتكون مملكة رابعة على الأرض ، مخالفة لسائر الممالك ، فتأكل الأرض كلها ، وتدوسها وتسحقها . والقرون العشرة من هذه المملكة هى عشرة ملوك يقومون . ويقوم بعدهم آخر ، وهو مخالفُ الأولين. ويذل ثلاثة ملوك ، ويتكلم بكلام ضد العلى ، ويُبلى قديسى العلى ، ويظن أنه يغيّر الأوقات والسُّنة ، ويُسلّمون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان ؛ فيجلس الدِّين وينزعون عنه سلطانه ؛ ليفنوا ويبيدوا إلى المنتهى . والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء ؛ تُعطى لشعب قديسى العلى . ملكوته ملكوت أبدى ، وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون . إلى هنا نهاية الأمر » [دانيال ٧ : ١ ـ ٢٨]

البيان :

نبوءة دانيال هذه عن « ابن الإنسان » الذى أعطاه الله « ملكوتا » فسرها يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ على محمد ﷺ فقالا : إن المملكة الرابعة وهى مملكة الروم نحن فى بدئها . والذى سيزيلها ليؤسس ملكوتا لله على الأرض هو «ابن الإنسان » فمن يزيلها ؛ يكون هو النبى الأمى الآتى إلى العالم على مثال موسى . ثم ضرب عيسى أمثلة لملكوت السموات . منه مثل حبة الخردل الذى هو مثل الأمة الإسلامية فى سورة الفتح من القرآن الكريم .وأيضاً : فى القرآن الكريم: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ وأيضا : ﴿غُلبت الروم فى أدنى الأرض﴾. . . الخ.

وإنه يذكر قيام أربعة ممالك على أرض فلسطين . وهى: بابل وفارس واليونان والرومان . ويذكر « مثل ابن إنسان » أتى ووقف قدام الله . فأعطاه « سلطانا ومجدا وملكوتا » والغرض من السلطان والمجد والملكوت هو : أن تعمل جميع الشعوب والأمم بشريعته . وأن هذه الشريعة ستبقى إلى يوم القيامة .

وعبر عن أن « ابن الإنسان » نبي بقوله : « فجلس الدّين ، وفتحت الأسفار» والدين لايجلس . ولكنه شبه الدين فى استقراره إلى الأبد بالرجل المستقر على كرسى مجده . وهذه النبوءة مرتبطة بنبوءات الأسفار الخمسة ـ توراة موسى عليه السلام ـ فالنبى المذكور فيها [تث ١٨] الذى سيأتى على مثال موسى ، هو نفسه «ابن الإنسان » فى هذه النبوءة . وهو نفسه المنبأ عنه فى المزمور الثانى بلقب « ابن الله »

ففى تفسير هذه النبوءة عند المسيحيين : أن نبوءة دانيال هذه هى نفسها : المزمور ٢ :٦ـ٧ والثامن ٦ والمائة والعاشر ١ـ٢ .

نص نبوءة ابن الله من التوراة :

« لماذا ارتجّت الأمم ، وتفكر الشعوب فى الباطل . قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه ، قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما . الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم . حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحتُ ملكى على صهيون ، جبل قدسى . إنى أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك . اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد ، مثل إناء خزاف تكسرهم . فالآن يا أيها الملوك تعقّلوا .تأدبوا ياقضاة الأرض . اعبدوا الرب بخوف ، واهتفوا برعدة . قبّلوا الابن لئلا يغضب ؛ فتبيدوا من الطريق ؛ لأنه عن قليل يتّقد غضبه . طوبى لجميع المتكلين عليه » [مزمور ٢]

البيان :

إنه ينبئ بهيجان أهل الدنيا الباطل ضد « المسيح » الذى هو بحسب لسانهم محمد ﷺ ويحث الملوك على الانضاع له . ويقول المسيحيون فى تفسير هذه النبوءة : إن نبوءة « ابن الله » هذه هى نفسها : المزمور ٤٥ : ٧ والمزمور ٢٢ : ٢٧ و٧٢ : ٨ و ٨٩ : ٢٧ ودانيال ٧: ١٣ ـ ١٤ وتكوين ٤٩ : ١٠وفي الأناجيل : أن يحيى وعيسى طبقا نبوءة ابن الله على النبى الأمى الآتى من بعدهما [تث ١٨]

نص نبوءة كلمة الله من التوراة :

ولما وعد الله تعالى بنى إسرائيل بنبى على مثال موسى . له يسمعون ويطيعون ، عبر عن « وعده » بـ « الكلمة » لأن الوعد لا يُعرف إلابالكلام . وقد عبر إشعياء النبى عن هذا الوعد بقوله على لسان الله تعالى : «عزّوا . عزّوا شعبى . يقول إلهكم . طيّبوا قلب أورشليم . ونادوها بأن جهادها قد كمل : أن إثمها قد عُفى عنه. أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها »

صوت صارخ فى البرية . أعدوا طريق الرب . قوّموا فى القفر سبيلا لإلهنا. كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا . فيُعلن مجد الرب ، ويراه كل بشر معا ؛ لأن فم الرب تكلم .

صوت قائل ناد .فقال : بماذا أنادى ؟ كل جسد عشب ، وكل جماله كزهر الحقل . يبس العشب . ذبل الزهر ؛ لأن نفخة الرب ؛ هبّت عليه . حقا . الشعب عشب ، يبس العشب . ذبل الزهر ، وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد . . »
[إش ٤٠ : ١ +]

البيان :

فى هذه النبوءة تعزية لبنى إسرائيل بمواعيد منه . وتهيئة الطريق لمجئ المسيح الذى هو بحسب لسانهم محمد ﷺ .

ويقول المسيحيون فى تفسير هذه النبوءة : إن نبوءة « الكلمة » هذه من النبوءات الدالة على النبى الأمى الآتى إلى العالم [تث ١٨]

وفى الأناجيل : أن يحيى وعيسى طبقا نبوءة « الكلمة » هذه على النبى الأمى الآتى من بعدهما [تث ١٨] .

فبدء إنجيل يوحنا : « فى البدء كان الكلمة . والكلمة كان عند الله . وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله » .

مصدقا بكلمة من الله :

وقد عبرت التوراة عن وعد الله لبنى إسرائيل بنبى أمى على مثال موسى [تث ١٨] بالكلمة . فقد قال إشعياء : « صوت صارخ فى البرية : أعدوا طريق الرب .

قوموا فى القفر سبيلا لإلهنا . كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا . فيعلن مجد الرب ، ويراه كل بشر معا ؛ لأن فم الرب تكلم . صوت قائل : ناد . فقال : بماذا أنادى ؟ كل جسد عُشب ، وكل جماله كزهر الحقل . يبس العشب ، ذبل الزهر ؛ لأن نفخة الرب هبّت عليه ، حقا . الشعب عشب . يبس العشب ، ذبل الزهر . وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد » [إش ٤٠ : ٣ ـ ٨] وكان كل نبى يصدّق بوعد الله ، ويثق فى حصوله فى مواعيده . ويظهر للناس هنا .

﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ :

ومن أوصاف محمد ﷺ فى التوراة : أن يهلك اليهود الذين لا يسمعون لكلامه ، ويخرجهم من أرضهم بالقوة « فإن موسى قال للآباء : إن نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون فى كل مايكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى ؛ تُباد من الشَّعب » [أع ٣: ٢٢ ـ ٢٣ تث ١٨ : ١٥ـ٢٢] وقد حكم يحيى عليه السلام على اليهود بالإبادة من شعب الله على يد النبى الأمى الآتى من بعده إذا لم يسمعوا لكلامه . ذلك قوله لعلماء بنى إسرائيل : « يا أولاد الأفاعى . من أركم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم : لنا إبراهيم أبا . لأنى أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم . والآن . قد وُضعت الفأس على أصل الشجر . فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا ؛ تُقطع وتُلقى فى النار . أنا أعمدكم بماء للتوبة ، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لستُ أهلا أن أحمل حذاءه . هو سيعمدكم بالروح القدس ، ونار . الذى رفشه فى يده ، وسينقى بيدره ، ويجمع قمحه إلى المخزن ، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » [متى ٣ : ٧ ـ١٢]

ولما أن هذا الحكم كان فى أيام صباه : فهذا هو بيانه :

١ـ إن يحيى مولود قبل عيسى بنصف سنة قمرية . كما فى لوقا .

٢ـ إن مريم رجعت بعيسى من أرض مصر . وهو طفل صغير . كما فى متى ويقال : إنهما مكثا فى مصر سبع سنين

٣ـ ويقول متى : إنه فى حالة رجوعهما كان يوحنا المعمدان قائما بالدعوة .

ذلك قــوله : « وفى تـلك الأيام جـاء يوحنا المـعـمـدان يكْرِز فـى برية اليهودية . .الخ » فلو فرضنا أن رجوع عيسى كان وهو فى الثالثة والنصف من عمره؛ يكون المعمدان بادئا بالدعوة فى الرابعة من عمره ، وهذا لا يعقل .

٤ـ وقد حل مفسرو الإنجيل هذا الإشكال بقولهم : إن عيسى ابتدأ دعوته فى سن الثلاثـين . على ماكان يظن ـ حـسب رواية لوقا ـ وقـبل أن يـبدأ ، ذهب إلى المعمدان فى نهر الأردن ؛ ليعتمد منه ، وقـد عمّده المعمدان ؛ فيكون المعمدان حال تعميده للمسيح فى نحو الثلاثين من العمر . ويكون المراد بقوله « وفى تلك الأيام » أى فى زمان هذه الأحداث . يقول مـفسرو الإنجيل : « وفى تلك الأيام » أى نحـو ثمانى وعشرين أو نحو ثلاثين سنة ، بعد الحوادث التى وُصفت أخيرا »

وعلى هذا يكون يحـيى عليه السلام قـد حكم على اليهود بـالهلاك على يد النبى الأمي الآتى وهو فى سن الصبا .

وقال لوقا فى إنجيله : إن يحيـى كان فى البـرارى والقـفار . يدعـو إلى « ملكوت الله » من قبل أن يظهر لعلماء بنى إسرائيل فى مدينة « القدس » التى هى « أورشليم » ذلك قوله : « أما الصبى فكان ينمـو ويتقوى بالروح . وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل » [لو ١ : ٨٠] أى كـان يدعو إلى « ملكوت الله » فى البرارى . حـيث كان يقيم الرهبـان ، وحيث مخابئ اليـهود التى فيـها جنودهم ، وحيث الطرق الـتى يمر عليها الســائرون إلى القرى والمدن . كـبرية بئـر سبع وبرية فاران وغيرهما .

مثل الكرّامين الأردياء فى رواية برَنابا :

تمهيد :

إن الله تعـالى طلب من إبراهيم عليـه السلام أن يـسيـر أمامـه فى الناس ، لدعوتهم إليـه ، وتعريفهم به ؛ ليعـبدوه ويعظموه ، ويعملوا بكـلامه . وقال له : «وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » وقسم بركته على نسل إسحق ونسل إسماعيل ـ عليهما الـسلام ـ هذا له مدة من الزمان ، يسير فيها بين الناس بشريعة ، وملك على الأمم ، وهذا يكون له مدة بشـريعة وملك على الأمم . وابتدأت بركـة نسل إسحق

فى الأمم من موسى عليه السلام فقد اصطفاه الله على الناس برسالاته وبكلامه ، وجاهد الأمم ، وفتح بلادهم ، وانتشر علماء بنى إسرائيل فى جميع الأمم ليعلموا الناس أحكام الله .

ومن بعد سبى بابل ، تخلّى معظم العلماء عن نشر الشريعة ، وامتنع ملوك بنى إسرائيل عن الجهاد فى سبيل الله ، وكذبوا على الأمم فى قولهم : إن النبى الآتى على مثال موسى سيكون من بنى إسرائيل . وتركوا الأمم فى طغيانهم يعمهون. وإذا كان هذا هو حالهم ، فلماذا تظل الشريعة معهم ؟ ولماذا يظل الملك معهم ؟ إنهم حملوا أمانة الدعوة إلى الله ، ولم يقوموا بها ، وكلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم . فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحرفوا شريعة الله وأزادوا فيها وأنقصوا منها. وسفكوا الدماء الزكية ، وأكلوا الربا ، وعوّجوا أحكام القضاء بالرشاوى وشهادات الزور . وهذا كله يجعلهم كالملح الذى إذا فسد ، فإنه يُلقى فى الشارع وتدوسه المارة بأرجلها .

وقد سجّل المسيح عيسى عليه السلام أحوالهم هذه ، فى إنجيله ، وبنى عليها هدفه من التبشير بمحمد ﷺ فقال : لأنكم ختم الشريعة ولم تعلّموها للناس ؛ فإن الله يأخذها منكم . و يعطيها لغيركم . ها هو محمد سيأتى لهذا الغرض ، وهاهم أتباعه سيقومون بها . ولئن فكرتم فى أنفسكم : أنكم ستحاربونه وتغلبونه ، كما حاربتم أنبياء الله من قبل ، وقتلتم بعضا ورجمتم بعضا . فإن أفكاركم لا جدوى من ورائها ؛ لأن الله ناصره ومعينه ، وسيُمدّ دينه إلى أقصى الأرض .

« قال أندراوس : لقد حدثتنا بأشياء كثيرة ؛ فتكرم بالتصريح لنا بكل شئ . فأجاب يسوع : كلُّ من يعملُ ؛ فإنما يعمل لغاية يجد فيها غناء ، لذلك أقول لكم: إن الله لما كان بالحقيقة كاملا ، لم يكن له حاجة إلى غناء ؛ لأن الغناء عنده نفسه . وهكذا لما أراد أن يعمل ، خلق قبل كل شئ نَفَس رسوله ، الذى لأجله قصد إلى خلق الكل ؛ لكى تجد الخلائق فرحا وبركة بالله ، ويسر رسوله بكل خلائقه ، التى قدّر أن تكون عبيدا له . ولماذا ؟ وهل كان هذا هكذا ، إلاّ لأن الله أراد ذلك ؟

الحق أقولُ لكم : إن كل نبى متى جاء ؛ فإنه إنما يحمل لأمّة واحدة فقط علامة رحمة الله . ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أُرسلوا إليه ولكن رسول الله متى جاء يُعطيه الله ماهو بمثابة خاتم يده ؛ فيحمل خلاصا ورحمة لأمم

الأرض الذين يقبلون تعليمه . وسيأتى بقوة على الظالمين . ويبيد عبادة الأصنام ، بحيث يخزى الشيطان . لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا : « انظر فإنى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض . وكما حطمت ياإبراهيم الأصنام تحطيما ، هكذا سيفعل نسلك » أجاب يعقوب : يامعلم قل لنا بمن صُنع هذا العهد . فإن اليهود يقولون بإسحق . والإسماعيليون يقولون بإسماعيل .

أجاب يسوع : ابن مَنْ كان داود؟ ومن أىّ ذرية ؟ أجاب يعقوب : من إسحق . لأن إسحق كان أبا يعقوب ويعقوب كان أبا يهوذا ، الذى من ذريته داود .

فحينئذ قال يسوع : ومتى جاء رسول الله . فمن نسل من يكون ؟ أجاب التلاميذ من داود . فأجاب يسوع ؛ لا تغشّوا أنفسكم . لأن داود يدعوه فى الروح؛ ربًا قائلا هكذا :« قال الله لربى : اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك . يرسل الرب قضيبك الذى سيكون ذا سلطان فى وسط أعدائك » فإذا كان رسول الله الذى تسمونه مَسِيًّا ابن داود ، فكيف يُسميه داود ربا ؟ صدقونى لإنى أقول لكم الحق : إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحق .

حينئذ قال التلاميذ : يامعلم هكذا . كُتب فى كتاب موسى : أن العهد صُنع بإسحق . أجاب يسوع متأوها : هذا هو المكتوب . ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع . بل أحبارنا الذين لا يخافون الله . الحق أقول لكم : إنكم إذا أعملتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله . ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقا يجب عليك أن تفعل شيئا ، لأجل محبة الله . أجاب إبراهيم : ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل مايريد الله . فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا : « خذ ابنك بكرك إسماعيل ، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة » فكيف يكون إسحق البكر وهو لما وُلد كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟ فأجاب حينئذ التلاميذ : إن خداع الفقهاء لجلىّ . لذلك قل لنا أنت الحق ، لأننا نعلم أنك مرسل من الله ، فأجاب حينئذ يسوع : الحق أقول لكم : إن الشيطان يحاول دائما إبطال شريعة الله . فلذلك قد نجس هو وأتباعه ، والمراءون ، وصانعو الشر ، كل شيئ اليوم . الأولون بالتعليم الكاذب، والآخرون بمعيشة الخلاعة . حتى لا يكاد يوجد الحق تقريبا . ويل للمرائين لأن مدح هذا العالم سينقلب عليهم إهانة وعذابا فى الجحيم .

لذلك أقول لكم : إن رسول الله يَسُرّ كل ما صنع الله تقريبا ؛ لأنه مُزدان بروح الفهم والمشورة ، روح الحكمة والقوة . روح الخوف والمحبة . روح التبصر والاعتدال . مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى . روح اللطف والصبر ، التى أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه ، ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم . صدقونى أنى رأيته ، وقدمت له الاحترام . كما رآه كل نبى ؛ لأن الله يعطيهم روحه نبوة . ولما رأيته امتلأتُ عزاء قائلا : يامحمد . ليكن الله معك وليجعلنى أهلا لأن أحل سير حذائك ؛ لأنى إذا قلت هذا ، صرتُ نبيا عظيما ، وقدوس الله ؟ و لما قال يسوع هذا ؛ شكر الله . ثم جاء الملاك جبريل إلى يسوع ، وكلمه بصراحة ، حتى أننا نحن أيضا سمعنا صوته يقول : قم ، اذهب إلى أورشليم . فانصرف يسوع وصعد إلى أورشليم ، ودخل يوم السبت الهيكلَ ، وابتدأ يعلم الشعب . فأسرع الشعب إلى الهيكل مع رئيس الكهنة الذين اقتربوا من يسوع قائلين : يامعلم . قيل لنا : إنك تقول سوءا فينا ، لذلك احذر من أن يحل بك سوء .

أجاب يسوع : الحق أقول لكم : إنى أقول سوءا عن المرائين ، فإذا كنتم مرائين ؛ فإنى أتكلم عنكم . فقالوا : من المرائى ؟ قل لنا صريحا .

قال يسوع : الحق أقول لكم : إن كل من يفعل حسنا ؛ لكى يراه الناس ؛ فهو مرائى . لأن عمله لا ينفذ إلى القلب الذى لا يراه الناس ؛ فيترك فيه كل فكر نجس ، وكل شهوة قذرة .

أتعلمون من هو المرائى ؟ هو الذى يعبد بلسانه الله ، ويعبد بقلبه الناس . إنه بغىّ . لأنه متى مات ، يخسر كل جزاء . لأن فى هذا الموضوع يقول النبى داود : « لا تثقوا بالرؤساء ، ولا بأبناء الناس ، الذين ليس لهم خلاص ؛ لأنه عند الموت تهلك افكارهم » بل قبل الموت يجدون أنفسهم محرومين من الجزاء . لأن الإنسان كما قال أيوب نبى الله : « غير ثابت فلا يستقر على حال » فإذا مدحك اليوم ، ذمّك غدا ، وإذا أراد أن يجزيك اليوم . سلبك غدا .

ويل إذاً للمرائين ؛ لأن جزاءهم باطل . لعمر الله الذى أقف فى حضرته : إن المرائى لص ، ويرتكب التجديف ؛ لأنه يتذرع بالشريعة ، ليظهر صالحا ، ويختلس مجد الله ، الذى له وحده الحمد ، والمجد إلى الأبد .

ثم أقول لكم أيضا : إنـه ليس للمرائى إيمان . لأنه لو آمن بأن الله يرى كل شئ ، وأنه يقاص الإثم بدينونة ؛ لكان ينقى قلبه ، الذى يبـقيه ممتلئا بالإثم ؛ لأنه لا إيمان له .

الحق أقـول لكم : إن المرائى كـقبـر أبيض من الخارج ، ولـكنه مملوء فـســادا ودیدانا . فـإذا كنتم أيهـا الكهنة تعبـدون الله ؛ لأن الله خلـقكم ، ويطلب ذلك منكم؛ فلا أُندد بكم ؛ لأنكم خدمة الله . ولكن إذا كنتم تفعلون كل شئ ؛ لأجل الربح ، وتبيعون وتشترون فى الهيكل ، كما فى السوق ، غير حاسبين : أن هيكل الله ؛ بيت للصلاة لا للتجارة ، وأنتم تحـولونه مغارة لصوص . و إذا كنتم تفعلون كل شئ ؛ لترضوا الناس وأخرجتـم الله من عقلكم ؛ فإنى أصيح بكم : إنكم أبناء الشيطان ، لا أبناء إبراهيم ، الذى ترك بيت أبيه حبا فى الله راضيا أن يذبح ابنه ؛

ويل لكم أيها الكهنة والفقهاء إذا كنتم هكذا ، لأن الله يأخذ منكم الكهنوت.

« وتكلم يسوع قائلا : أضرب لكم مثلا :

غرس رب بيت كـرما وجعل له سيـاجا ؛ لكى لا تدوسه الحـيوانات . وبنى وسطه معـصرة للخـمر . وأجّره للكرامين . ولما حان الوقت لـيجمع الخـمر أرسل عـبـيده، فلما رآهم الكرامون ؛ رجـموا بعضا ، وأحـرقوا بعضا ، وبقـروا الآخرين بمدية . وفعلوا هذا مرارا عديدة . فقولوا لى : ماذا يفعل صاحب الكرم بالكرامين؟ فأجاب كل واحد : إنه ليهلكهم شر هلكة ، ويسلّم الكرم لكرامين آخرين .

لذلك قال يسوع : ألا تعلمون : أن الكرم : هو بيت إسرائيل . والكرامين: شعب يهوذا وأورشليم . ويل لكم ؛ لأن الله غاضب عليكم ؛ لأنكم بقرتم كثيرين من أنبياء الله ، حتى أنه لم يوجـد فى زمن أخآب ، واحد يدفن قدِّيسى الله . ولما قال هذا ، أراد رؤساء الـكهنة أن يمسكوه ؛ لكنهم خافوا العامـة ، الذين عظّموه ؛ [بر ٤٣ : ٥]

علامات ظهور ملكوت الله :

يقول لوقا :

خراب الهيكل واورشليم :

« وقال بعضهم فى الهيكل إنه مزين بالحجارة الحسنة . وتحف النذور . فقال: « هذا الذى تنظرون إليه ، ستأتى أيام لن يترك منه حجر على حجر من غير أن ينقض» فسألوه : « يا معلم ، متى تكون هذه ؟ وماتكون العلامة أن هذه كلها توشك أن تحدث ؟ » فقال : إياكم أن يضلكم أحد فسوف يأتى كثير من الناس منتحلين اسمى، فيقولون : أنا هو ! قد حان الوقت ! .فلا تتبعوهم ، وإذا سمعتم بالحروب والفتن ، فلا تفزعوا ، فإنه لا بد من حدوثها أولا ، ولكن لا تكون النهاية عند ئذ. ثم قال لهم : ستقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة .، وتحدث زلازل شديدة وأوبئة ومجاعات فى أماكن كثيرة ، وستحدث أيضا مخاوف تأتى من السماء وعلامات عظيمة . وقبل هذا كله يبسط الناس أيديهم إليكم ، ويضطهدوكم، ويسلمونكم إلى المجامع . والسجون ، وتساقون إلى الملوك والحكام . من أجل اسمى . فيتاح لكم أن تؤدوا الشهادة . فاجعلوا فى قلوبكم أن ليس عليكم أن تعدوا الدفاع عن أنفسكم . فسأوتيكم أنا من الكلام . والحكمة . ما يعجز جميع خصومكم عن مقاومته أو الرد عليه . وسيسلمكم الوالدون والإخوة والأقارب والأصدقاء أنفسهم ، ويميتون أناسا منكم . ويبغضكم جميع الناس من أجل اسمى ولن تفقد شعرة من رءوسكم . إنكم بثباتكم تكسبون أنفسكم .

حصار أورشليم :

« فإذا رأيتم أورشليم قد حاصرتها الجيوش ، فاعلموا أن خرابها قد اقترب . فمن كان يومئذ فى اليهودية فليهرب إلى الجبال .، ومن كان فى وسط المدينة فليخرج منها ، ومن كان فى الحقول فلا يدخلها ، لأن هذه الأيام أيام نقمة . يتم فيها جميع ماكتب . الويل للحوامل والمرضعات فى تلك الأيام ، فستنزل بهذا البلد وينزل الغضب على هذا الشعب ، فيسقطون قتلى بحد السيف ، ويؤخذون أسرى إلى جميع الأمم . وتدوس أورشليم أقدام الوثنيين إلى أن ينقضى عهد الوثنيين .

مجئ ابن الإنسان :

وستظهر علامات فى الشمس والقمر والنجوم . وينال الأمم كرب فى الأرض وقلق من عجيج جيشانه ، وتزهق نفوس الناس من الخوف ومن توقع ما ينزل بالعالم ، لأن أجرام السماء تتزعزع . وحينئذ يرى الناس ابن الإنسان آتيا فى الغمام فى تمام العزة والجلال . وإذا أخذت تحدث هذه الأمور ، فانتصبوا قائمين وارفعوا رءوسكم لأن افتداءكم يقترب .

مثل التينة :

وضرب لهم مثلا قال : « انظروا إلى التينة وسائر الأشجار فى أن تخرج براعمها حتى تعرفوا بأنفسكم من نظركم إليها أن الصيف قريب . وكذلك أنتم إذا رأيتم هذه الأمور تحدث ، فاعلموا أن ملكوت الله قريب . الحق أقول لكم : لن يزول هذا الجيل حتى يحدث كل شئ . السماء والأرض تزولان وكلامى لن يزول .

السهر والصلاة :

« فاحذروا أن يثقل قلوبكم السكر والقصوف وهموم الحياة الدنيا ، فيباغتكم ذلك اليوم . كأنه الفخ يأتى ، لأنه على جميع من يسكنون وجه الأرض كلها . فاسهروا مواظبين على الصلاة لكى توجدوا أهلا للنجاة من جميع هذه الأمور التى ستحدث والثبات لدى ابن الإنسان »

البيان :

١ـ ينذر المسيح عيسى عليه السلام بخراب « أورشليم » و« هدم هيكل سليمان» وأورشليم رمز للملك لأنها عاصمة مدن بنى إسرائيل ، والهيكل رمز للشريعة ، فكأنه ينذر بنسخ الشريعة وضياع الملك ، والسبب فى ذلك : هو أن بنى إسرائيل استبعدوا الأمم من الدخول فى شريعة موسى ، وقتلوا الأنبياء بغير الحق ، ونقضوا عهد الله وميثاقه وهو أنهم يسيرون أمامه فى جميع البلاد ، ويحطمون الأوثان بالقوة ، ويبنون المساجد ، ويقولون للناس حسنا . وفى مقابل السير ، يورثهم أراضى الأمم ، ويجعلهم ملوكا ، ويجعلهم من أهل الجنة فى الدار الآخرة . وكان بعض الأنبياء قد أنذروا بخراب المدينة والهيكل ؛ للدلالة على أن الله

سينقض العهد والميثاق ، وسيقيم عهدا جديدا وميثاقا جديدا مع أمة أخرى . وهى أمة النبى الأمى المماثل لموسى . فقد قال ميخا : « لذلك بسببكم تُفلح صهيون كحقل . وتصير أورشليم خرِبًا ، وجبل البيت شوامخ وعر » وقال : إن خراب المدينة والهيكل سيكونان فى آخر أيام بركة بنى إسحق فى الأمم : « ويكون فى آخر الأيام : أن جبل بت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجرى إليه شعوب كثيرة .. » [مى ٣: ١٢ ـ] ويقوله قال إرمياء ٧: ١ـ ١٥و ٢٦ : ١ـ ١٩

ويقول النصارى : إن المدينة قد خربت فى حرب تيطوس الرومانى سنة سبعين بعد الميلاد ومائة واثنان وثلاثين فى حرب ادريانوس . وأن الهيكل قد تهدم أثناء خراب المدينة . وبذلك تكون النبوءة قد تحققت من بعد المسيح .

وغرضهم من هذا القول : هو اللغو فى نبوءة محمد ﷺ بقولهم : إن ملكوت الله : هو ملكوت يسوع المسيح ، وأنه قد تأسس بعد خراب المدينة وهدم الهيكل فى سنة ٧٠ و ١٣٢ م والحق : أن النبوءة تدل على أن الذى يخرب المدينة ويهدم الهيكل هو محمد ﷺ صاحب الملكوت . وذلك لأنه يخربها ؛ ليؤسس له ملكا فيها ، ويهدم الهيكل ؛ ليبنى له فيه مسجدا ، يُعلّم فيه شريعته . ودانيال يشهد بذلك فى الأصحاح التاسع . كما روى متى عن المسيح فى الأصحاح الخامس والعشرين . وقد تمت هذه المعركة الشرسة فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ٦٣٨م وبها انتهى ملك اليهود فى العالم

٢ـ فى إنجيل لوقا ومتى ومرقس يدور السؤال حول « تاريخ خراب الهيكل » و « علاماته» وهى علامات نهاية عصر الملكوت فى بنى إسرائيل ، ومجئ « ابن الإنسان » ليؤسس الملكوت الجديد على الأرض . وهذا يدل على أن حرب تيطس وحرب ادريانوس ليستا من العلامات . لأن العلامات المذكورة تحدث فى العالم من قبل خراب أورشلم وهدم الهيكل .

والعلامات المذكورة ههنا هى :

١ـ ظهور أنبياء كذبة . وكل واحد منهم يدعى أنه صاحب ملكوت الله .

٢ـ قيام حروب بين الأمم .

٣ـ انقسام الأمم والممالك بالحروب .

٤ـ حدوث زلازل شديدة ، وأوبئة ، ومجاعات فى أماكن كثيرة .

٥ـ اضطهاد الأمم لأتباع عيسى عليه السلام .

٦ـ استشهاد كثيرين من أتباع المسيح بسبب قولهم الحق فى ملكوت الله .

٧ـ ثم بعد ذلك كله « فإذا رأيتم أورشليم قد حاصرتها الجيوش ؛ فاعلموا : أن خرابها قد اقترب » ويقول المفسرون : إن اقتراب الخراب مأخوذ من الأصحاح التاسع من ـ نمر دانيال الآية السابعة والعشرون .

وفى أثناء خراب المدينة : يحدث قتال بين اليهود أصحاب المدينة المقدسة عندهم أورشليم ، وبين صاحب الملكوت الآتى لتأسيسه فيها ، ويسقط اليهود قتلى بحد السيف ، ويؤخذون أسرى إلى جميع الأمم .

وينال الأمم كرب : كناية عن هول المعركة .

وأجرام السماء تتزعزع : كناية عن هول المعركة .

وحينئذ يرى الناس « ابن الإنسان » آتيا فى الغمام ، وفى تمام العزة والجلال: كناية عن الظفر بأعدائه .

وإذا حدثت هذه العلامات ، فاعلموا : أن ملكوت الله قريب

وقد وعد الله به ، ووعده لا يتخلف « السماء والأرض تزولان ، وكلامى لن يزول »

وبين أن الملكوت قد اقترب أوانه بقوله : « لن يزول هذا الجيل ، حتى يحدث كل شئ »

وحذر من الغفلة عن ظهور الملكوت ، ودعا إلى الاستعداد له . ثم قال : «فاسهروا مواظبين على الصلاة ، لكى تُوجدوا أهلا للنجاة من جميع هذه الأمور ، التى ستحدث ، وللثبات لدى ابن الإنسان»

الفصل الثالث
في
دَعْوَة يَحْيى عَلَيه السَّلام

قال موسى عليه السلام لبنى إسرائيل فى كتاب التوراة : إن الله سيرسل لكم من بعدى نبيا مثلى . يكلمكم بكل وصاياه . ومن لايسمع له منكم ؛ فإنه سيعاقبه بالإبادة من شعبه . ذلك قوله : « أُقيم لهم : نبيا من وَسْط إخوتهم . مثلكَ ، واجعلُ كلامى فى فَمه ؛ فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به . ويكونُ أنّ الإنسان الذى لا يسمعُ لكلامى ، الذى يتكلم به باسمى ؛ أنا أطالبه . وأما النّبى الذى يُطغى ؛ فيتكلمُ باسمى كلاما ، لم أوصه أنْ يتكلم به ، أو الذى يتكلمُ باسم آلهة أخرى ؛ فيموتُ ذلك النبىُّ . . » [تث ١٨ : ١٨ ـ]

ولقب النبى دانيآل مملكة هذا النبى الآتى بـ « ملكوت السموات » لأن فيها ستسود شريعة إلهية من رب السماء ، لا شريعة من وضع البشر فى الأرض . فقال: إنه بعد مملكة الروم على الأرض « كنتُ أرى فى رؤَى الليل ، وإذا مع سُحُب السماء ، مثلُ ابن إنسان ، أتى ، وجاء إلى القديم الأيام ؛ فقربّوه قدّامه ؛ فأعطىَ سُلطانا ومجدا وملكوتا ؛ لتتعبّد له كلُّ الشعوب والأمم والألسنة . سلطانُهُ سلطان أبدىّ ، ما لن يزولَ ، وملكوته مالا ينقرضُ » [دا ٧ : ١٣ ـ ١٤]

وقد أرسل الله النبيين الكريمين ، يُوحَنا المعمدان ، ويسوع المسيح ، للدعوة إلى اقتراب ملكوت السموات . فدعَوَا معا إلى اقترابه ؛ فقد قال متّى فى إنجيله : «وفى تلك الأيام جاء يوحنا المَعْمَدَان ؛ يكْرِزُ فى بَرِيّةِ اليهودية . قائلا : توبوا ؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات . فإن هذا هو الذى قِيل عنه بإشَعْياء النبى القائل : صوتُ صارخ فى البَرِّية ؛ أعِدّوا طريق الرب . اصنعوا سبله مستقيمة » [مت ٣ : ١ ـ ٣] .

يقول المعمدان : يابنى إسرائيل غيّروا أفكاركم عن هذا النبى الآتى . ولا تقولوا : إنه سيأتى من بنى إسرائيل ، واتركوا الكِبر والعناد ، وادخلوا فى مُلكه إذا ما جاء ، واعملوا بشريعته . ولست أنا وحدى الذى أكْرِز به ، فقد كرز به الأنبياء من زمان إشعياء ، وصرخوا فى مدن بنى إسرائيل قائلين : استعدوا لقبول رسول

الرب . وصرحوا بأنه لن يكون من بنى إسرائيل . ففى سفر إشعياء : « عَزُّوا شَعْبى. يقول إلهكم . طيِّبوا قلب أورشليم ، ونادوها بأن جهادها قد كَمُل » إنه شبههم بالموتى الذين انتهى دورهم فى الحياة . وعبر بالتعزية عن انتهاء أجلهم . وذلك تصريح بأنه مدة بنى إسرائيل قد أوشكت على الانتهاء ، وأن مدة بنى إسماعيل قد أوشكت على الظهور ، فإن لإسحق بركة ، ولإسماعيل بركة ، ثم قال إشعياء : « صوتُ صارخ فى البَرِّية . أعدوا طريق الرب . قوِّموا فى القفر سبيلا لإلهنا . كلُّ وَطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا . فيُعلَنُ مجدُ الرب ، ويراه كلّ بشر جميعا ؛ لأن فم الرب تكلم » [إش ٤٠ : ١ -]

قد كمل الزمان :

ولما انتقل يوحنا إلى رحمة الله تعالى ؛ قام من بعده يسوع المسيح بالدعوة إلى اقتراب ملكوت السموات . فقد روى مرقس : « وبعدما أُسلِم يوحنا جاء يَسُوع إلى الجليل ؛ يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول : قد كَمُل الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » [مر ١ : ١٤ - ١٥] أي بما أقوله لكم عن النبى الآتى .

بشير بالزمان إلى بركة إسحق - عليه السلام - فإن الله - تعالى - قال لإبراهيم - عليه السلام - : « سِر أمامى وكن كاملا » [تك ١٧ : ١ -] أى امش فى جميع البلاد ، لدعوة الناس إلى معرفتى ، والعمل بشريعتى ، وكن قدوة لهم فى الجهاد ، وفعل الخيرات « وقال الله لإبراهيم : سارای امرأتك لا تدعو اسمها سارای ، بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . أباركها فتكون أمما . وملوك شعوب منها يكونون » [تك ١٧ : ١٥ - ١٦] « وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله . . . وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه . ها أنا أباركه »[تك ١٧ : ١٨ -]

فقد قسم السير أمامه بين بنى إسحق وبنى إسماعيل . وجعل نسل إسحق أمم وملوك على الشعوب وجعل نسل إسماعيل أمم وملوك على الشعوب . وهذا يدل على أن الشريعة التى سيعطيها الله للنسل ؛ شريعة عالمية . وقد بدأت بركة إسحق

من نبى الله موسى عليه السلام ، وبدأت بركة إسماعيل ، من نبى الله محمد ﷺ وقد فسّر يوحنا المعمدان البركتين بقوله : « قد كمل الزمان » زمان بركة إسحق ، ليبدأ زمان جديد . هو زمان بركة إسماعيل .

شهادة يسوع للمعمدان :

وقد شهد عيسى عليه السلام بأن المعمدان أعظم من نبى . فقد قال لبنى إسرائيل عنه : « ماذا خرجتم إلى البَرِّيَّة ، لتنظروا ؟ أقصبة تحركها الريح ؟ بل ماذا خرجتم لتنظروا؟ أنساناً لابساً ثياباً ناعمة ؟ هو ذا الذين فى اللباس الفاخر والتنعُّم ، هم فى قصور الملوك . بل ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبياً ؟ نعم أقول لكم : وأفضلُ من نبى . فإن هذا هو الذى كُتب عنه : « ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى ، الذى يهيئ طريقك قدامك » لأنى أقول لكم : إنه بين المولودين من النساء ، ليس نبى أعظم من يوحنا المعمدان. ولكنّ الأصغرَ فى ملكوت الله ، أعظمُ منه » [لو ٧ : ٢٤ _ ٢٨]

لاحظ : أن شهادته للمعمدان معناها أنه استحسن تبشيره بمحمد ﷺ

ويريد أن يقول : إن المعمدان ثابت فى آرائه ، وليس متزعزعا كقشة فى مهب الرياح ، وأنه رجل ناسك ، وزاهد فى متع الحياة الدنيا ، وأنه نبى من أنبياء الله . وقد أرسله الله ليعد طريق رسول الرب ، كما قال إشعياء وملاخى وأنه نبى عظيم، ولكن النبى الذى يبشر به ،هو خاتم النبيين،وهو أعظم منه. ففى ملاخى:«ها أنذا أرسل ملاكى ، فيهيئ الطريق أمامى ، ويأتى بغتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه ، وملاك العهد الذى تسرُّون به . هو ذا يأتى . قال رب الجنود . ومن يحتمل يوم مجيئه ؟ ومن يثبت عند ظهوره ؟ لأنه مثل نار الممحص ، ومثل أشنان القصار ، فيجلس ممحصا ومنقيا للفضة فينقى بنى لاوى ، ويصفيهم كالذهب والفضة ، ليكونوا مقربين للرب ، تقدمة بالبر » [ملا ٣ : ١-٣]

لقد شبه النبى الصالح بالملاك ، فى الطهر والعفاف . وبين أن ملاخى الطاهر، يمهد الطريق للسيد ، وهو النبى الأمى المماثل لموسى . وفى يوم ظهوره ستكون حرب بينه وبين بنى إسرائيل وأن منهم بقية ستؤمن به ، بعد حرب وقتال .

وهل «الأصغر فى ملكوت الله» هو يسوع ؟ وهل هو أى قس أو راهب ؟

وهل هو أقل رجل محتقر عند النصارى ؟ وهل هو محمد رسول الله ﷺ ؟ ليس إلا محمد رسول الله ﷺ وذلك لأن المسيح عيسى قد دعا بمثل ما دعا به ، ولأنه يفاضل بين نبي ونبي .

وكان من عادة علماء بني إسرائيل أن يطلقوا لقب «مسيح الله» على أي :

(أ) نبي

(ب) أو عالم

(جـ) أو ملك .

للدلالة على أنه مصطفى من الله لأداء رسالة مقدسة .

واصل كلمة «مسيح» من المسح بالزيت المقدس أو الدهن . وبمرور الزمان اصبحت كلمة «مسيح» تدل على المختار والمصطفى من الله ولو لم يمسحه أحد . ولقب «مسيح الله» هو نفسه لقب «مَسِيًّا الله» في بعض اللغات . وقد أطلقه علماء بني إسرائيل على النبي الأمي الآتي على مثال موسى . بلقب «المسيح» و «المَسِيًّا» لا مَسِيا . وكان بنو إسرائيل ينتظرون هذا النبي إلى زمان المعمدان . ففي إنجيل يوحنا: « قالت له المرأة :أنا أعلم : أن مَسِيا ، الذي يقال له المسيح ، يأتي . فمتى جاء ذاك ، يخبرنا بكل شيء» [يو ٤ : ٢٥] وقد سارع المعمدان ، فنفى عن نفسه أنه هو المسيا الذي يقال له المسيح . وقال : إنه سيأتي من بعدي . وذكر من أوصافه التي قالها موسى عنه أوصافا . وهي أنه سيكون ملكا وسيكون محاربا ، ومنتصرا على أعدائه . يقول لوقا: «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم ، عن يوحنا ، لعله المسيح(١) ؟ أجاب يوحنا الجميع قائلا: أنا أعمدكم بماء. ولكن يأتي

(١) مما يدل على أن اليهود ما يزالون في انتظار هذا النبي الملقب بالمسيح . وهو محمد ﷺ ما يلي :
كان يحيى . بن زكريا بن سعديه الظهيري اليمني شاعرا مطبوعا قوي الشخصية خصب الإنتاج . ونسج على منوال مقامات الحريري . وكان رحالة إلى معرفة الحساب الدقيق لموعد ظهور «المسيح المرتقب» في كل آن وحين . وقد نزح إلى مصر حوالي سنة ١٥٦٢ أو ١٥٦٣ ثم أعلم بعد ذلك : =

من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحلّ سيور حذائه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره، ويجمع القمح إلى مخزنه . وأما التّبن ، فيحرقه بنار لا تطفأ » [لو ٣ : ١٥ - ١٧]

وسأله علماء بنى إسرائيل هذا السؤال : لماذا تدعو إلى «المسيا الرئيس» ؟ Messiah Christ فإنك تعمد الناس ؛ لتهيئهم لاستقباله والإيمان به . وأنت تعلم أنه لن يظهر من جنسنا . ورد عليهم بأن علماء بنى إسرائيل دعوا له ، وأنتم استفتحتم به على الذين كفروا . ففى سفر ملاخِى :

«ها أنذا أرسل ملاكى ، فيهيئ الطريق أمامى . ويأتى بغتة إلى هيكله ، السيد الذى تطلبونه ، وملاك العهد الذى تُسرون به . هو ذا يأتى . قال رب الجنود . ومن يحتمل يوم مجيئه ؟ . . . »

فلقد بين أنه فى الأيام التى سيظهر فيها : ستكون حرب بينه وبين بنى إسرائيل. ولن يحتملها الكافرون من بنى إسرائيل ، من شدتها . وقال إشعياء : «صوت صارخ فى البرية : أعدوا طريق الرب . قوموا فى القفر سبيلا لإلهنا . . . » [إ ٤٠ : ٣] وقال داود: « غنوا لله ، رنموا لاسمه ، أعدوا طريقا للراكب فى القفار . . . » [مز ٦٨ : ٤] وقال النبى حجى : «وأزلزل كل الأمم ، ويأتى مشتهى كل الأمم ؛ فأملأ هذا البيت مجدا ، قال رب الجنود » [حج ٢ : ٧] فهذا «السيد» الذى تطلبونه ، الراكب فى القفار ، والذى هو مشتهى كل الأمم ، ورسول الله ؛ لم يأت من قبلى ؛ وأنا أذكركم به وأدعوكم إلى الإيمان به ، وهو لن يظهر من جنسكم ؛ لأن موسى قال إنه مثلى . وقال : إنه لن يقوم مثلى من بنى إسرائيل . وقال : إن الله رضى بأن يسير نسل إسماعيل أمامه فى دعوة الناس إليه . فلماذا تحتجون علىّ ؟

عداء علماء بنى إسرائيل للمعمدان :

ويدل ذم المعمدان لعلماء بنى اسرائيل بقوله : « يا أولاد الأفاعى » على أنهم

ـ ان كل نبوءات التوراة عن «المسيح المرتقب» الذى هو محمد ﷺ قد سرقها النصارى وطبقوها على عيسى عليه السلام ظلما وعدوا وهم يعلمون ان عيسى «مسيح» ولكن ليس هو «المسيح» ونحن المسلمين نعتقد ان عيسى «مسيح» ولكن ليس هو «المسيح» وليس عن عيسى عليه السلام نبوءات فى التوراة . وقد بينا هذا فى كتابنا «البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل» وغيره

استاءوا من كلامه ، الذى هو : أن النبى الأمى الآتى لن يأتى من جنسهم . وهو نفس الذم الذى ذمهم به عيسى عليه السلام فإنه قال لهم : « يا أولاد الأفاعى . كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار؟ » [متى ١٢ : ٣٤] ولو أنهما كانا يوافقان العلماء فيما يقولونه عن النبى الآتى لما أنكر العلماء عليهما ، ولما أطلقا ألسنتهما فيهما بالذم . وقد حدث الإنكار والذم لما صرح المعمدان باقتراب ملكوت السموات ، وهذا يدل على أن نقطة الخلاف هى فى صاحب الملكوت . من نسل من سيأتى ؟ ويين لهم : أنه فى مجيئه سيصب الله غضبه عليهم وذلك لإهلاكهم على يديه . ففى إنجيل متى : « وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان ، يكرز فى برية اليهودية قائلا : توبوا ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات . فإن هذا هو الذى قيل عنه بإشعياء النبى القائل : صوت صارخ فى البرية . . . .

«فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته ، قال لهم: يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ؟ فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم : لنا إبراهيم أبا ، لأنى أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم . والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر . فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا ، تقطع وتلقى فى النار ، أنا أعمدكم بماء للتوبة ، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه .هو سيعمدكم بالروح القدس ، ونار . الذى رفشه فى يده ، وسينقى بيدره ، ويجمع قمحه إلى مخزنه وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » [متى ٣ : ١ - ١٢] وقد ردوا عليه بعدم إيمانهم [متى ٢١ : ٢٥ ، ٣٢] والبعض عامله معاملة من به شيطان [متى ١١ : ١٨ لوقا ٧ : ٣٣]

شهادة يسوع فى يوحنا :

وجاء فى الأناجيل : أن المعمدان أرسل اثنين من تلاميذه إلى عيسى عليه السلام ليسألاه: هل أنت النبى الأمى الآتى على مثال موسى أم ننتظر خلافك ؟ وهذا السؤال يدل على أن النبى الآتى ، لم يكن قد أتى إلى زمانه . وإذ هو لم يأت إلى زمانه . وعيسى معاصر له ، وهو لم يحارب ولم ينتصر . ومن أوصاف النبى الآتى أن يحارب وينتصر ، فإن عيسى لا يكون هو النبى الآتى من بعدهما . والذى أتى من بعدهما وملك وحارب وانتصر هو محمد ﷺ فيكون هو النبى الآتى.

يقول متى : « أما يوحنا فلما سمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه . وقال له : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ فأجاب يسوع وقال لهما : اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران . العمى يبصرون والعرج يمشون ، والبرص يطهّرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون . وطوبى لمن لا يعثر فىّ.

وبينما ذهب هذان ابتدأ يقول للجموع عن يوحنا : ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا ؟

أقصبة تحركها الريح ؟ لكن ماذا خرجتم لتنظروا ، أإنسانا لابسا ثيابا ناعمة ؟ هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة فى بيوت الملوك . لكن ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبيا ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبى . فإن هذا هو الذى كتب عنه : « ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيئ طريقك قدامك» الحق أقول لكم : لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان . ولكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه ، ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السموات يغصب والغاصبون يختطفونه . لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا. وإن أردتم أن تقبلوا ، فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى . من له أذنان للسمع فليسمع » [متى ١١ : ٢ - ١٥]

لم يصرح المسيح عيسى عليه السلام فى هذه الشهادة بأنه النبى الأمى الآتى إلى العالم . وعمل معجزات أمام الاثنين ، كما كان يعمل من قبل . وقال لهما : اذهبا وأخبرا يوحنا بما شاهدتما . ثم مدح يوحنا وأثنى عليه بعد انصراف الاثنين بأنه زاهد فى متع الحياة الدنيا ، وبأنه ثابت على آرائه ، وبأنه أعظم من نبى . وشهادته تدل على أنه موافق على تبشيره بمحمد رسول الله .

ثم قسم زمان الملكوت ، فقال : إن شريعة الله على الأرض كانت فى بنى إسرائيل من زمان موسى . وهذا هو الملكوت الأول . وسوف تأتى شريعة بعدها مع النبى الآتى ويقوم بها قوم آخرون ، وهذا هو الملكوت الآخر .

فانظر فى رواية متى . تجد إنّ مدة الملكوت الأول هى من أيام المعمدان إلى يسوع . كيف يصح هذا ؟

كيف وهو يقول : إن جميع أنبياء بنى إسرائيل ، والتوراة نفسها من زمان

موسى ؛ تبين أن نبيا سيأتى ليقيم ملكا لله على الأرض ؟ هذا تناقض .

وقد صحح لوقا رواية متى فقال : « كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا . ومن ذلك الوقت يبشر بملكوت الله . وكل واحد يغتصب نفسه إليه ، ولكن زوال السماء و الأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» [لو ١٦ : ١٦ - ١٧] يريد أن يقول : إن توراة موسى التى هى الناموس وأسفار الأنبياء . يُظهرون : أن نبيا مماثلا لموسى ؛ سيأتى ليقيم ملكوت الله على الأرض . والعبرانيون يغتصبونه لأنفسهم ، والسامريون كذلك . ولا يمكن أن ينقض المكتوب فى التوراة وأسفار الأنبياء عن مجيئ هذا النبى من بنى إسماعيل الذى سكن فى فاران. وقد وضح لوقا: أن مدة الملكوت الأول هى من أيام موسى لا من أيام المعمدان .

وقال عيسى عليه السلام : إن أردتم أن تقبلوا نبيا لتعملوا بشريعته . فهذا هو نبى بعدى سيأتى ؛ فاسمعوا منه ، واعملوا . وسماه «إيليا» أى أنه سيأتى بروح إيلياء - الذى هو إلياس عليه السلام - وقوته . وحساب إيلياء هو نفسه حساب «أحمد» بالجمّل .

إ = ١، ى : ١٠ ، ل = ٣٠ ، ى = ١٠ ، أ = ١ ، ء = ١ المجموع = ٥٣

أ = ١ ، ح = ٨ ، م = ٤٠ ، د = ٤ المجموع = ٥٣

وإيلياء أيضا تكتب « إلياهو » وهى تساوى ٥٣

تمهيد المعمدان لمحمد ﷺ :

يقول لوقا : إن النبى زكريا عليه السلام قال عن ابنه : إن موسى نبى الله قد أخبر عن ظهور نبى على مثاله ؛ وأن هذا النبى سيخلّص بنى إسرائيل بالحرب من تملك أمم الكفر عليهم . وأن يوحنا قد اصطفاه الله ليعد الناس لاستقباله والإيمان به، قال لوقا : « وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس ، وتنبأ قائلا : مبارك الرب إله إسرائيل ، لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه . وأقام لنا قرن خلاص فى بيت داود فتاه ، كما تكلم بفم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر . خلاص من أعدائنا ، ومن أيدى جميع مبغضينا .ليصنع رحمة مع آبائنا ،ويذكر عهده المقدس. القسم الذى حلف لإبراهيم أبينا أن يعطينا : إننا بلا خوف منقذين من أيدى أعدائنا ، نعبده بقداسة وبر قدامه ، جميع أيام حياتنا . وأنت أيها الصبى ، نبى العلى ؛ تدعى؛لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه ، لتعطى شعبه معرفة الخلاص بمغفرة

خطاياهم . بأحشاء رحمة إلهنا، التى بها افتقدنا المشرق من العلاء، ليضىء على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت، لكى يهدى أقدامنا فى طريق السلام » [لو ١ : ٦٧ - ٧٩]

ويقول مرقس : إن المعمدان كان قبل يسوع ومعه فى تهيئ طريق رسول الرب. ففى بدء إنجيله : « كما هو مكتوب فى الأنبياء : « ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى ، الذى يهيئ طريقك قدامك» - «صوت صارخ فى البرية : أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة » كان يوحنا يعمد فى البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا .

وخرج إليه جميع كورة اليهودية وأهل أورشليم ، واعتمدوا جميعهم منه ، فى نهر الأردن ، معترفين بخطاياهم . وكان يوحنا يلبس وبر الإبل ، ومنطقة من جلد على حقويه ، ويأكل جرادا وعسلا بريا . وكان يكرز قائلا : يأتى بعدى من هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه . أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس .

وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل ، واعتمد من يوحنا فى الأردن، [مر ١ : ٢ - ٩] يريد أن يقول : فى أسفار الأنبياء نبوءتان عن ظهور ممهدين للنبى الآتى على مثال موسى . هما فى سفر ملاخى ، وسفر إشعياء . وأنا أمهد له بهاتين النبوءتين.

وأن يسوع قد اعتمد من يوحنا ، وهل هو كان من الخطاة والمذنبين حتى يعتمد ويتوب ؟ كلا فإنه اعتمد منه ، وعمد معه ، واتفقا سويا على التمهيد للنبى الآتى . وذلك لأن يوحنا لما منعه أن يعتمد منه . رد عليه بقول : «اسمح الآن ، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل برٍّ ، حينئذ سمح له » [متى ٣ : ١٣ -] أى أنهما اتفقا على تكميل كل بِر . فما هو هذا البر ؟ هو الدعوة الى اقتراب ملكوت السموات .

تلاميذ يوحنا للمعمدان :

تظهر الأناجيل : أنه كان للمعمدان تلاميذ يساعدونه فى الدعوة إلى اقتراب ملكوت السموات . وهذه نصوص تدل على ذلك :

«كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه » [يو ١ : ٣٥] « وكان تلاميذ يوحنا والفريسيون يصومون » [مر ٢ : ١٨] «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا : أن يسوع يصيّر ويعمد تلاميذ أكثر من يوحنا ... » [يو ٤ : ١-]

شهادة المعمدان لمحمد ﷺ :

في بدء إنجيل يوحنا كلام عن محمد ﷺ مقتبس من نبوءات في التوراة عنه . نصه : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله »

ومعنى « في البدء كان الكلمة» هو أن موسى عليه السلام قال عن الله تعالى: إنه سيرسل نبيا مثلي إلى العالم . ووعده هذا هو كلمته في البدء . وقد قال عنها إشعياء : « وأما كلمة إلهنا ؛ فتثبت إلى الأبد » بعد حديثه عن الصوت الصارخ في البرية [إش : ٤ : ١-]

ويعبر بنو إسرائيل عن الحكمة . وهى أيضا كلمة الله . بأنها منذ القدم . ففي سفر الأمثال : «الرب قناني أول طريقه . من قبل أعماله . منذ القدم ، منذ الأزل مُسحت . منذ البدء ، منذ أوائل الأرض ... » [أم ٨ : ٢٢ -]

وقوله «والكلمة كان عند الله » هو تصوير للكلمة بإنسان ، كتصوير الحكمة بإنسان قد مسحه الله بالزيت أو بالدهن منذ أوائل الأرض . والحكمة شيئ معنوى، لا يمسح . وعبروا عنها بقولها : «كنت عنده صانعا » [أم ٨ : ٣٠]

والحكمة لا تصنع ، وهو يريد أن يقول : إن عندى علم ما كان وما يكون ، ومن هذا العلم إيجاد النبي الآتي في حينه .

وقوله « وكان الكلمة الله» هو إظهار أن من يطع الله فقد أطاع الرسول . ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، وذلك لأنهما متحدان في الهدف .

ولذلك قال المفسرون : إن المراد بالكلمة في يوحنا « في البدء كان الكلمة» هو «المسيا» الآتي إلى العالم . ومن ألقابه في كتب أهل الكتاب «الكلمة(١) »

---

(١) وقد بينا هذا في كتابنا « البشارات كتاب الأناجيل من التوراة » وغيره .

نص الشهادة :

« وهذه هي شهادة يوحنا ، حين أرسل اليهود من أورشليم ، كهنة ولاويين، ليسألوه : من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر ، وأقر : أني لست أنا المسيح ، فسألوه : إذاً ماذا ؟ إيليا أنت ؟ فقال : لست أنا ، أالنبي أنت ؟ فأجاب لا . فقالوا له : من أنت ، لنعطي جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا صوت صارخ في البرية : « قوموا طريق الرب» كما قال إشعياء النبي » [يو ١ : ١٩ - ٢٣] إنه بادر فنفى عن نفسه ، أنه هو «المسيح» الآتي إلى العالم . والمسيح هو «المسيا» وهو «النبي» وهو «سيد الحياة» وهو «الكلمة» وهو «القدوس البار » و «رئيس الحياة» ألقاب كثيرة لواحد ، ثم نفى عن نفسه أنه «إيليا» ويقول النصارى : إن «إيليا» هو النبي إلياس عليه السلام وله قصة طويلة مذكورة في سفر الملوك الثاني وأن النبي سيأتي بروحه وقوته . وهم يسألون المعمدان هل أنت الآتي بروح إيليا وقوته ؟ وأجاب بقوله : لا . ثم سألوه هل أنت النبي الذي وعد به موسى في سفر التثنية ، الذي قال عنه : « يقيم لك الرب إلهك : نبيا . . . » ؟ وأجاب بقوله : لست أنا إياه .

وهذا النفي يدل على أن النبي الأمي الآتي على مثال موسى لم يكن قد أتى إلى زمان المعمدان والمسيح عيسى بن مريم ،وأنه سيأتي من بعدهما ، كما قالا .

ويقول النصارى : إن «المسيح» و «النبي » في ظاهر هذه الشهادة ، اثنان . وفي الحقيقة هما واحد . وذلك لأن «المسيح» فيها هو نفسه «النبي» وكان بنو إسرائيل يطلقون عليه تارة «المسيح» وتارة «النبي» وهذا يوهم أنهما اثنان . ولذلك رفعوا هذا الوهم من نفوس الأميين بالسؤال عن هذا الواحد ، باللقب الأول وهو «المسيح» واللقب الآخر وهو «النبي» ذلك هو قولهم كلهم . ثم يقولون : إن «المسيح» هو يسوع ، و «النبي» هو يسوع . وكما قالوا : إن المعمدان أتى بروح إيليا ، قال المسيح عيسى عليه السلام إن الآتي سيأتي باسم إيليا ، في قوله : «وإن أردتم أن تقبلوا ، فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي»

والحق : أن عيسى عليه السلام ؛ مسيح . ولكن ليس هو «المسيح» وهو نبي ولكن ليس هو «النبي» ولو كان هو «المسيح» لما كان ينهى بطرس ويوبخه ، لما قال

له : أنت المسيح ، ففى إنجيل مرقس : « فقال لهم : أنتم من تقولون : إنى أنا ؟ فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح . فانتهرهم كى لا يقولوا لأحد عنه» [مر٨: ٢٩-٣٠]

ومن بعد رفع المسيح عيسى إلى السماء ، نادى بطرس بأن يسوع كان هو «المسيح المنتظر» أى النبى الأمى الآتى إلى العالم على مثال موسى ، مع أن يسوع كان قد انتهره فى حياته على هذا القول . يقول بطرس : « فليعلم يقينا جميع بيت إسرائيل : أن الله جعل يسوع هذا ، الذى صلبتموه أنتم ، ربا ومسيحا » [أع ٢ : ٢٦] وهذا التناقض يدل على أن محرف سفر الأعمال نسب إلى بطرس ما لم يقله. وسار على نهجه بولس . فإنه فى سفر الأعمال : « وأما شاول فكان يزداد قوة ، ويحير اليهود الساكنين فى دمشق ، محققا : أن هذا هو المسيح » [أع ٩ : ٢٢]

وقال كاتب سفر الأعمال : « ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولا» [أع ١١ : ٢٦]

خطايا العالم :

ومن أوصاف النبى الآتى إلى العالم : أن يحارب أعداءه ، وينتصر عليهم ، ويخلص المؤمنين به من شرّهم ؛ لئلا يكونوا وثنيين مثلهم . وليس هذا الوصف متحققا فى عيسى عليه السلام . الذى أراد النصارى وضع نبوءات التوراة عليه زورا، ليصدوا الناس عن محمد ﷺ فلذلك قالوا : إنه سيدفن فى التراب ، وسينتصر على الموت ، ويصعد إلى السماء ، وقالوا إنه قتل وصلب ليكون كفارة عن خطايا بنى آدم ، ونسبوا التكفير فى الأناجيل إلى المعمدان .

ففى لوقا عن الخلاص : «خلاص من أعدائنا ، ومن أيدى جميع مبغضينا » [لو ١ : ٧١]

وفى صَفَنْيا : «الرب إلهك فى سكك ، جبار ، يخلّص » [صف ٣ : ١٧] وفى إشعياء : « الرب ملكنا ، هو يخلصنا » [إش ٣٣ : ٢٢] «وفى إرمياء : « ها أيام تأتى يقول الرب ، وأقيم لداود غصن بر؛ فيملك ملك ، وينجح ، ويجرى حقا وعدلا فى الأرض ، فى أيامه ، ويخلص » [إر ٢٣ : ٥ - ٦]

وفى متى عن مسئولية كل إنسان على أعماله : يقول عيسى عليه السلام :

«إن كل كلمة بطالة ، يتكلم بها الناس ، سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين ، لأنك بكلامك تتبرر ، وبكلامك تدان » [مت ١٢ : ٣٦ - ٣٧]

وقد نسبوا إلى يوحنا المعمدان أنه قال عن عيسى عليه السلام : «هو ذا حَمَل الله الذي يرفع خطية العالمَ » [يو ١ : ٢٩] وهذا تحريف ؛ لأن كل امرئ بما كسب رهين .

وفي سِفر الحكمة : أن آدم ـ عليه السلام ـ تاب ، وقبل الله توبته ، وأنقذه من زلته ، ذلك قوله : « والحكمة هي التي خلَّصت كل من أرضاك يارب منذ البدء. وهي التي حفظت أول من جبل أبا للعالم ؛ لما خلق وحده ، وأنقذته من زلته، وآتته قوة ؛ ليتسلط على الجميع » [حكمة ٩ : ١٩ -]

والصابئة أتباع يوحنا المعمدان يقولون بنعيم أو بعذاب بحسب أعمال المرء .
وهم بقولهم هذا يكذبون محرف الإنجيل في قوله : إن يسوع قد حمل خطايا العالم. ولكنهم يوافقون النصارى الكاثوليك في قولهم بالمطهر ، ويوافقون جميع النصارى في قولهم بالبعث الروحاني . فإنه مات الميت ووضع في القبر ، يستقبله ملكان يسمى أحدهما « صاروويل شرويه » ويسمى الآخر « قماميزريوا » ويحاسبانه على ما عمله في دنياه . فإن كانت الروح شريرة ، تعذب على قدر شرها في عالم الظلام ثم بعد ذلك توضع في محل كوكب الميزان . مع أرواح الأخيار في عالم الأنوار . إلى أن يأتي يوم القيامة . وهم يقولون بالبعث الروحاني للغو في حقيقة « ملكوت السموات » كما بينا في كتابنا « حياة القبور »

صَدِيق العريس:

وقال يحيى عليه السلام : إن العريس هو الذي له العَرُوس ، وإن صديق العروس ليست هي له . ودائما له الفرح بفرح صديقه . والعروس والعريس وصديق العريس هم ثلاثة ، وقد رمز بهم يوحنا المعمدان إلى :

(أ) نفسه .

(ب) وإلى محمد ﷺ .

(جـ) وإلى ملكوت السموات .

وقال : «من له العروس ؛ فهو العريس »

فقد روى يوحنا ما نصه :

«وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا ، مع اليهود ، من جهة التطهير ، فجاءوا إلى يوحنا ، وقالوا له :

يا معلم ، هو ذا الذى كان معك فى عَبْر الأردن ، الذى أنت قد شهدت له ، هو يعمّد والجميع يأتون إليه . أجاب يوحنا وقال : لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئا ، إن لم يكن قد أعطى من السماء ، أنتم أنفسكم تشهدون لى : أنى قلت : لست أنا المسيح ، بل إنى مرسل أمامه .

مَنْ له العروس ؛ فهو العريس ، وأما صَدِيق العريس ، الذى يقف ويسمعه : فيفرح فرحا من أجل صوت العريس . إذاً فرحى هذا ، قد كَمَل ، ينبغى أن ذلك يزيد ، وأنى أنا أنقص . الذى يأتى من فوق ؛هو فوق الجميع ، والذى من الأرض، هو أرضىٌ ، ومن الأرض يتكلم . الذى يأتى من السماء ؛ هو فوق الجميع ، وما رآه وسمعه ، به يشهد ، وشهادته ليس أحد يقبلها . ومن قبل شهادته؛ فقد ختم أن الله صادق ، لأن الذى أرسله الله ، يتكلم بكلام الله ، لأنه ليس بكيل يعطى الله الروح .

الآب يحب الابن(١) ، وقد دفع كلَّ شيئٍ فى يده ، الذى يؤمن بالابن ، له حياة أبدية .

والذى لا يؤمن بالابن ، لن يرى حيَاة ، بل يمكث عليه غضب الله » [٣ : ٢٥ - ٣٦]

البيان :

١- هل يشهد يوحنا المعمدان لعيسى عليه السلام بأنه النبى الآتى إلى العالم؟

الشهادة مفقودة من الأناجيل . ويزعم النصارى بأن المعمدان شهد بأن يسوع هو النبى الآتى إلى العالم ، وهى شهادة قد كتبوها بأيديهم . وذلك لأن يسوع كان

---

(١) الابن : لقب لمحمد ﷺ فى المزمور الثانى لداود عليه السلام

مع المعمدان في الدعوة إلى اقتراب ملكوت السموات ، وتحدثا معا عن النبي الآتي بلقب «الابن»

٢- وقد شهد المعمدان بأنه ليس هو «المسيح الرئيس» وقال : «إني مرسل أمامه»

٣- فمن هو «المسيح الرئيس» ؟ الذى له الملكوت . الذى شبهه المعمدان بالعروس ، وشبه ملكوته بالعروسة ؟

٤- ولقد قال المعمدان عن « المسيح الرئيس » إنى أفرح لفرحه ، وأسر لسروره .

٥- وفرق بين المسيح الرئيس وأدعياء النبوة ، فقال : « الذى يأتى من السماء هو فوق الجميع »

٦- فمن هو «المسيح الرئيس» ؟ هو الذى قال المعمدان عنه : « الآب يحب الابن ... » فمن هو الابن ؟ هو «المسيح الرئيس» نفسه . وهما لقبان لواحد . لقب «المسيح الرئيس » من دانيآل ، ولقب «الابن» من داود ، وهما لقبان لمحمد ﷺ ونص كلام داود عنه في المزمور الثانى هو . « لماذا ارتجت الامم ، وتفكر الشعوب في الباطل . قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا ، على الرب ، وعلى مسيحه ، قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما ، الساكن في السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم . حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون ، جبل قدسى .

إنى أخبر من جهة قضاء الرب ، قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك ، اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد ، مثل إناء خزاف تكسرهم .فالآن يا أيها الملوك تعقلوا ، تأدبوا ياقضاة الأرض ، اعبدوا الرب بخوف ، واهتفوا برعدة ، قبلوا الابن ، لئلا يغضب ، فتبيدوا من الطريق ، لأنه عن قليل يتّقد غضبه . طوبى لجميع المتكلين عليه » [مز٢]

السراج المنير :

وقد شهد عيسى عليه السلام ليحيى عليه السلام بأنه «كان هو السراج الموقد

المنير ، وأنتم لم تبتهجوا بنوره ساعة » كما شهد له بقوله : «لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان ، ولكن الأصغر فى ملكوت الله أعظم منه »

وقال فى شهادته عن «الابن» كما قال يحيى سواء بسواء

تطبيق عيسى نبوءة «ابن الله »

فى المزمور الثانى على محمد :

النص :

« فأجاب يسوع ، وقال لهم : الحق الحق أقول لكم : لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا ، إلا ما ينظر الآب ، يعمل ، لأن مهما عمل ذاك ، فهذا يعمله الابن كذلك . لأن الآب يحب الابن ، ويريه جميع ما هو يعمله ، وسيريه أعمالا أعظم من هذه ، لتتعجبوا أنتم .

لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ، ويحيى . كذلك الابن أيضا يحيى من يشاء، لأن الآب لا يدين أحدا ، بل قد أعطى كل الدينونة للابن ، لكى يكرم الجميع الابن ، كما يكرمون الآب . من لا يكرم الابن ، لا يكرم الآب الذى أرسله.

الحقّ الحق أقول لكم : إن من يسمع كلامى ، ويؤمن بالذى أرسلنى ، فله حياة أبدية ، ولا يأتى إلى دينونة ، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة (١) الحق الحق أقول لكم : إنه تأتى ساعة . وهى الآن ، حين يسمع الأموات صوت ابن الله ، والسامعون يحيون ، لأنه كما أن الآب له حياة فى ذاته ، كذلك أعطى الابن أيضا

---

(١) راجع تفسير إنجيل يوحنا ـ لمتى هنرى .

(٢) أشار النصارى الى المزمور ١٤٣ فى شواهدهم على هذا النص . ونصه :

« يا رب اسمع صلاتى واصغ إلى تضرعاتى . بأمانتك استجب لى بعدلك ، ولا تدخل فى المحاكمة مع عبدك ، فإنه لن يتبرر قدامك حىّ ، لأن العدو قد اضطهد نفسى ،سحق إلى الارض حياتى ، أجلسنى فى الظلمات ، مثل الموتى ، منذ الدهر ، وأعيت فى روحى ، تحير فى داخلى قلبى ، تذكرت أيام القدم ، لهجت بكل أعمالك ، بصنائع يديك ، أتأمل . بسطت إليك يدى ، نفسى نحوك كأرض يابسة ، سلاه

أن تكون له حياة فى ذاته ، وأعطاه سلطانا أن يدين أيضا ، لأنه ابن الإنسان(٢) .

لا تتعجبوا من هذا ، فإنه تأتى ساعة ، فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته *؛ فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة ، أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئا ، كما أسمع أدين . ودينونتى عادلة ؛ لأنى لا أطلب مشيئتى، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى .

إن كنت أشهد لنفسى ؛ فشهادتى ليست حقا ، الذى يشهد لى ، هو آخر . وأنا أعلم أن شهادته التى يشهدها لى ، هى حق . أنتم أرسلتم إلى يوحنا ، فشهد للحق ، وأنا لا أقبل شهادة من إنسان ، ولكنى أقول هذا لتخلصوا أنتم . كان هو السراج الموقد المنير ، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة ، وأما أنا فلى شهادة أعظم من يوحنا ، لأن الأعمال التى أعطانى الآب ، لأكملها . هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها ، هى تشهد لى : أن الآب قد أرسلنى .

والآب نفسه الذى أرسلنى ، يشهد لى ، لم تسمعوا صوته قط ، ولا أبصرتم هيئته ، وليست لكم كلمته ثابتة فيكم . لأن الذى أرسله هو ، لستم أنتم تؤمنون به» [يو ٥ : ١٩ -]

البيان :

إنه يتكلم عن النبى الأمى الآتى ، الملقب من داود عليه السلام بلقب «الابن» ويقول : إن هذا النبى لن يخالف الله فى شيئ ، وإنه لا يقدر أن يعمل شيئا إلا بإذن الله . فهل «الابن» الآتى هو يسوع ؟ لا يمكن أن يكون هو يسوع . وذلك لأنه لم يقل : لا أقدر أن أعمل ـ فهنا أعمله ـ لأن الآب يحبنى . وإنما قال عن غيره: « لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا » ويدعى الأرثوذكس أنه هو الله، ولو كان هو ، لعمل باستقلال ، وقدر على ما يعمل .

---

* أسرع أجبنى يارب ، فنيت روحى . لا تحجب وجهك عنى ، فأشبه الهابطين فى الجب ، أسمعنى رحمتك فى الغداة ، لأنى عليك توكلت ، عرفنى الطريق التى أسلك فيها ، لأنى إليك رفعت نفسى أنقذنى من أعدائى . يا رب إليك التجأت علمنى أن أعمل رضاك ، لأنك أنت إلهى . روحك الصالح يهدينى فى أرض مستوية . من أجل اسمك يا رب ، تحيينى ، بعدلك تخرج من الضيق نفسى ،و برحمتك تستأصل أعدائى ، وتبيد كل مضايقى نفسى ، لأنى أنا عبدك » [مز ١٤٣ : ١ - ١٢]

وغاير بين الله وبين الابن ، وتكلم عن العاملين وشبههم بالأحياء ، وشبه الرافضين بالأموات ، وقال : كما كانت شريعة موسى حياة ؛ فشريعة الابن الآتي هي حياة مثلها وفي أيام ظهوره لن يحارب الله الرافضين بسيفه ، وإنما سيجعل الابن سببا لهلاكهم ، وسيعينه بمدد من عنده ، وهو قد أعطى الدينونة للابن ، لأنه قال له : سلني فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصي الأرض ملكا لك ، تحطمهم بقضيب من حديد. . . »

وصرح بأنه رسول الله في قوله : « إن من يسمع كلامي ، ويؤمن بالذي أرسلني ؛ فله حياة أبدية »

وعبر عن اقتراب زمان هذا النبي الملقب من داود بالابن فقال : « إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون » يعني أن الجهل بالحقائق هو موت ، وأن السماع من النبي الآتي واجب ، وذلك بأن شريعته هي حياة .

وما قاله المعمدان عن النبي الآتي من أنه سيهلك الأشرار ، بنار لا تطفأ ، قاله المسيح عيسى عليه السلام فقد قال : إن ابن الإنسان سيسمع جميع بني إسرائيل صوته . الأميون منهم والعلماء . والعاملون بشريعة موسى ، والرافضون لها في حال ظهوره ؛ أولئك هم الأخيار وسيتبعون ابن الإنسان ، وستكون لهم حياة . والذين هم أشرار سيخرجون إلى قيامة الدينونة ، فإنه سيدينهم بكلامه ، وسيهلكهم بالحروب والقتال.

وقال المسيح : إن كلامي عن النبي الآتي ، هو إدانة للرافضين له ، لأنه لن يكون لهم عذر في تركه لعدم معرفتهم له ، فأنا قد كتبت عنه ما فيه الكفاية وفي أناجيل تلاميذي ما يشهد بذلك .وذلك لأنني ﴿كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم﴾

وقال المسيح : إن شهادة المرء لنفسه غير مقبولة ، وذلك لأن التوراة تنص على شاهدين أو ثلاثة « على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود ، يقوم الأمر » [تث ١٩ : ١٥] والمعجزات التي أعملها هي تدل على صدقي فيما أقول ،وأيضا : الله يشهد لي . وذلك بأنني إذا طلبت منه شيئا ، يعطيني إياه ، فأنا هو الشاهد لنفسي ، ويشهد لي الله الذي أرسلني ، فنحن اثنان « أنا هو الشاهد لنفسي،ويشهد

لى ، الآب الذى أرسلنى » [يو ٨ : ١٨] وعلى ذلك فشهادة المعمدان لى بأنى مرسل من الله ؛ تكون هى الشهادة الثالثة .

وقال المسيح : إن الله لم يره أحد قط ، كما قال عنه موسى فى سفر الخروج، وهذا القول منه يهدّ عقيدة التثليث هدا ، وذلك لأن الناس قد رأوا المسيح وتحدثوا معه ، فكيف يكون هو الله ؟

خبر قتل يوحنا المعمدان :

روى مرقس :

«فسمع هيرودس الملك . لأن اسمه صار مشهورا ، وقال إن يوحنا المعمدان قام من الأموات ولذلك تُعمل به القوات ، قال آخرون إنه إيليا ، وقال آخرون إنه نبى أو كأحد الأنبياء . ولكن لما سمع هيرودس قال : هذا هو يوحنا الذى قطعت أنا رأسه ، إنه قام من الأموات .

لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه فى السجن من أجل هيروديّا امرأة فيلبس أخيه . إذ كان قد تزوج بها لأن يوحنا كان يقول لهيرودس : لا يحل لك أن تكون لك امرأة أخيك . فحنقت هيروديا عليه ، وأرادت أن تقتله ولم تقدر لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالما أنه رجل بارّ وقديس وكان يحفظه . وإذ سمعه فعل كثيرا وسمعه بسرور . وإذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس فى مولده عشاء لعظمائه وقواد الألوف ووجوه الجليل ، دخلت ابنة هيروديا ورقصت ، فسرت هيرودس ، والمتكئين معه . فقال الملك للصبية : مهما أردت ، اطلبى منى فأعطيك. وأقسم لها : أن مهما طلبت منى ، لأعطينك حتى نصف مملكتى ، فخرجت وقالت لأمها : ماذا أطلب ؟ فقالت : رأس يوحنا المعمدان . فدخلت للوقت بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة : أريد أن تعطينى حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق . فحزن الملك جدا ، ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها ، فللوقت أرسل الملك سيافا، وأمر أن يؤتى برأسه ، فمضى وقطع رأسه فى السجن وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبيّة .

والصبية أعطته لأمها . ولما سمع تلاميذه ، جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها فى قبر » [مر ٦ : ١٤ - ٢٩]

وروى متى :

«فى ذلك الوقت سمع هيرودس رئيس الربع خبر يسوع ، فقال لغلمانه : هذا هو يوحنا المعمدان . قد قام من الأموات ولذلك تعمل به القوات .

فإن هيرودس كان قد أمسك يوحنا وأوثقه وطرحه فى سجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه ـ لأن يوحنا كان يقول له لا يحلّ أن تكون لك ـ ولما أراد أن يقتله خاف من الشعب لأنه كان عندهم مثل نبى ، ثم لما صار مولد هيرودوس ، رقصت ابنة هيروديا فى الوسط فسرت هيرودس ، من ثم وعد بقسم أنه مهما طلبت يعطيها. فهى إذ كانت تلقنت من أمها قالت : اعطنى ههنا على طبق رأس يوحنا المعمدان، فاغتم الملك ، ولكن من أجل الأقسام والمتكئين معه ، أمر أن يعطى. فأرسل وقطع رأس يوحنا فى السجن فأحضر رأسه على طبق ، ودفعه إلى الصبية . فجاءت به إلى أمها . فتقدم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه . ثم أتوا وأخبروا يسوع »
{ متى ١٤ : ١ - ١٢ }

البيان :

إنه لما صار اسم يسوع المسيح على كل لسان بسبب المعجزات التى كان يعملها، فإنه كان يشفي المرضى ، ويحيى الموتى بإذن الله ، ظن هيرودس الملك أن الذى يعمل هذه المعجزات هو يوحنا المعمدان ، لا يسوع . ثم تحير فى ظنه . كيف يكون هو المعمدان ، وأنا قد قتلته ؟

ولماذا قتل ؟ لأن «هيروديا » كانت امرأة لفيلبس أخيه وأرادت أن تفارقه ، وتتزوج هيرودس فى حياة فيلبس ، وهو لم يطلقها . وشريعة موسى لا تصرح بذلك ، فإن فى سفر الأحبار : «عورة امرأة أخيك لا تكشفه» {لا ١٨ : ١٦ } ولذلك امتنع المعمدان عن إعطاء فتوى لها بحسب رغبتها ، وهذا يدل على أن المعمدان كان مصدقا لما بين يديه من التوراة .

أما أنه قد قتل بسبب امتناعه عن هذه الفتوى : فإن هذا السبب ضعيف ، وذلك لأن مخالفة الشريعة ، لا يقدم عليها إلا من سفه نفسه . والدليل على كذب هذه الحكاية : هو أن «هيرودس» ميت من قبل ولادة يحيى وعيسى ، بحسب روايات الأناجيل . وأن الصابئين يقولون بأن يحيى « مات » ولم يقتل .

وقد صرح القرآن الكريم بأن يحيى عليه السلام لم يقتل ، وإنما مات موتا عاديا ، كما هو سبيل كل الناس ، وذلك فى المقارنة بينه وبين عيسى عليه السلام فقد قال تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ، ولم يكن جبارا عصيا ، وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه ، قالوا: كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ قال : إنى عبد الله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ، ذلك عيسى بن مريم ﴾

وقد فرق الله تعالى بين الموت والقتل ، فقال : ﴿ أفإن مات ، أو قتل﴾ وبين أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب فى قوله : ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾

ولماذا قالوا بقتل المعمدان وهو لم يقتل ؟

إنهم يريدون مشابهته بيسوع المسيح فى العقاب لكى يكون عبرة لغيره فلا يجرؤ أحد على مثل ما قال . وذلك لأنه بشر بمحمد ﷺ وهو ليس من بنى إسرائيل، وشتم العلماء بقوله : « يا أولاد الأفاعى»

رسالة يحيى عليه السلام :

لم يؤثر عنه أنه خالف شريعة موسى عليه السلام لا هو ولا أبوه . وأثر عنه أنه كان يعظمها غاية التعظيم . وكان يستدل منها على مجيئ محمد ﷺ فقد فسر نبوءة ملكوت السموات المذكورة فى سفر دانيال على محمد ، وفسر عليه أيضا نبوءة الابن المذكورة فى سفر المزامير ، وخوّف بني إسرائيل من رفضه ، فقال : «يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم :لنا إبراهيم أبا لأنى أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم ، والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر ، فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا ، تقطع وتلقى فى النار ، أنا أعمدكم بماء للتوبة »

ويقول الصابئة : إن يحيى عليه السلام ـ لما دنت ساعة وفاته ، أرسل الله إليه

ملكا ، فتراءى له على هيئة طفل وطلب منه أن يصبغه ، فاصطحبه إلى نهر الأردن. إلى المكان الذى يعمد فيه ، ولما هما بالدخول فى الماء ، ووضع يحيى يده فى يد الطفل . خر ميتا على شاطىء النهر . فنقله تلاميذه إلى مكان التعميد . ودفنوه . ويعتقد الصابئون المندائيون : أن جسده ورأسه مدفونان معا فى مدينة «ششتر» فى «إيران» ويقال : إنه مدفون فى المسجد الأموى بمدينة «دمشق» ويقول بعض النصارى : إن جسده مدفون فى «وادى النطرون» بمصر . ويقول بعضهم : إن رأسه مدفون فى «القدس» ويقول بعضهم : إن رأسه مدفون فى مدينة «نابلس»

وفى الكتب :أن اسم الصابئة مأخوذ من «صبغ» العبرانية . والغين تنطق همزة أو عين . وأول من قام بالصبغ نبى الله يحيى. من أجل محمد صلى الله عليه وسلم . فتكون رسالة يحيى إلى بنى إسرائيل هى :

١ ـ التصديق بالتوراة الموجودة فى زمانه .

٢ ـ والتبشير بمحمد رسول الله .

وعلى ذلك فإنه لا يصح لباحث أن يبحث فى عقائد الصابئين وشرائعهم فى غير كتب التوراة والأناجيل . وفى القرآن كلام كثير عن هذا المعنى ، منه ﴿ مصدقا بكلمة من الله . وسيدا . وحصورا . ونبيا من الصالحين ﴾ وكلمة الله التى صدق بها ودعا إليها هى نبوءة عن محمد رسول الله بلقب الكلمة فى الأصحاح الأربعين من سفر إشعياء . والعالم الدينى فى اليهود يطلق عليه «سيد» والحصور هو المنذور لله . وهو نبى من أنبياء بنى إسرائيل . ولا يحق لأحد منهم أن يخرج عليها . فلماذا مع بيان القرآن عن أن يحيى كان نبيا من أنبياء بنى إسرائيل ، على شريعة التوراة ، واعتراف الصابئين أنفسهم بأنهم أتباعه ؛ يجهد الناس أنفسهم فى التعرف على معتقداتهم وشرائعهم ؟ وهى معروفة لهم مما تركه يحيى نفسه ، ووافق عليه وعلّمه لأتباعه من قبل وفاته . وهو مدون فى التوراة والأناجيل إلى هذا اليوم . .

والصابئون أنفسهم يقولون : إن كلمة صابئة أطلقت علينا من للمجاورين لنا ، الذين كانوا يعرفون اللغة الآرامية ، ويعرفون التصبيغ وهو التعميد . وليست من «صبا» التى تعنى الخروج من دين إلى دين ، مع أننا خرجنا على اليهود فى شأن

النبى المنتظر ، كما علمنا يحيى عليه السلام . ومن المأثور عندنا : « مصبنغ متغرقنخ من يهودونة إلى منديونة » وتفسيره : « الصبغة لك تخرجك من اليهودية إلى المندائية »

وعند الصابئين كتب كما عند النصارى ، وكما عند اليهود كتب ، وكما عندنا نحن المسلمين كتب فيها أساطير وخرافات . مثل شمس المعارف الكبرى ، ورجوع الشيخ إلى صباه فى قوة الباه ، ومجربات الديربى الكبير والباحثون يظنون حينما يعثرون على مثل هذه الكتب عند الصابئة ؛ أنهم عثروا على كتب عقائدهم وشرائعهم . وهذا ظن يجب أن يتنزه عنه العاقل ولا يسعى إلى معرفته ، كما لا يحق له أن يسعى فى البحث عن السر المكتوم ومنبع أصول الحكمة وكتب ابى معشر الفلكى . واستخدام المزامير فى علم السحر(1) ودليل الدلال . وغير ذلك .مما هو عندنا نحن المسلمون . ويقول : إننى عثرت على كتب عقائد المسلمين وشرائعهم.

نسب يوحنا المعمدان وعيسى بن مريم :

وقد جاء فى التوراة : أن يعقوب عليه السلام أنجب اثنى عشر ولدا هم :

١- رأوبين	٢- شمعون	٣- لاوى
٤- يهوذا	٥- زبولون	٦- يساكَر
٧- دان	٨- جاد	٩- أشير
١٠- نفتالى	١١- يوسف	١٢- بنيامين

وأمر الله أن يكون سبط لاوى لحمل التوراة وحفظ طقوسها . واصطفى الله هارون عليه السلام من سبط لاوى ، ليكون من نسله الأئمة والفقهاء . ولما كثر نسله فى عهد داود ـ عليه السلام ـ نظم داود عملهم فى الهيكل وخارجه ، وجعلهم فرقا ، وكانت فرقة «أبيا» هى الفرقة الثامنة .

وكان زكريا النبى عليه السلام من فرقة أبيا ، من نسل هرون من سبط لاوى. أى أنه كان مصدقا للتوراة . وشريعة التوراة تحرم الإرث فى إسرائيل على البنت ، التى تتزوج فى غير سبطها [عدد ٣٦ : ٨] فلذلك كان كل رجل يتزوج في سبطه ،

---

(1) نشر مكتبة مدبولى الصغير بالقاهرة .

وكل بنت تتزوج فى سبطها ، وكانت امرأة زكريا تسمى «أليصابات» وفى بعض اللغات «أليزابث» من نسل هرون ، وزكريا رجلها كان من نسل هرون .

وكان لها قريبة لها من نسلها ، ومن سبطها هى «مريم العذراء» وكانا معا من قرية واحدة . وكانا فى زمان حكم «هيرودس» على بلاد فلسطين .

وقد ولدت « أليصابات » يحيى عليه السلام وهى عاقر ، وولدت «مريم» عيسى عليه السلام وهى غير مقترنة برجل . وكان زكريا عليه السلام هو وامرأته ، يسارعان فى الخيرات ، أو كما قال لوقا : « كانا كلاهما بارّين أمام الله ، سالكين فى جميع وصايا الرب وأحكامه ، بلا لُوْم » وقال لوقا : إن يحيى عليه السلام كان حصورا ، أى منذورا لله تعالى من بطن أمه ، لخدمة الله تعالى على وفق شريعة موسى [عدد ٦ : ٣ وقضاة ١٣ : ٤] والمنذور لا يتزوج طوال حياته ، ويعيش كراهب فى صومعته .

وقال : إن الغرض من دعوة يحيى عليه السلام هى : «لكى يهيئ للرب شعبا مستعدا» بدل شعب بنى إسرائيل الذى كان مستعدا فى الماضى لشريعة موسى ، ثم تركها.

ومع هذا يقول المحرفون : إن يسوع من نسل داود ، من سبط يهوذا ، وأنه سيجلس ملكا على كرسى داود ، وسيعيد لأورشليم مجدها وعزّها . كيف وهو لم يجلس لحظة من ليل أو من نهار ؟ كيف وأمه قريبة ونسيبة لأليصابات ؟ كيف وهو يدعو مع المعمدان باقتراب ملكوت الله ؟ كيف ولم يتفق متى ولوقا علي إظهار نسبه وكيف ينسبونه إلي داود وهو لم يكن له أب ؟

نص إنجيل لوقا عن ولادة يحيى عليه السلام :

« إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة ، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيئ من الأول بتدقيق ، أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس ، لتعرف صحة الكلام الذى علمت به »

البشارة بميلاد يوحنا المعمدان :

« كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا ، وامرأته من بنات هارون واسمها أليصابات . وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم . ولم يكن لهما ولد إذ كانت أليصابات عاقرا . وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما .

فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله ، حسب عادة الكهنوت ، أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر . وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور . فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور . فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف . فقال له الملاك : لا تخف يا زكريا ، لأن طلبتك قد سمعت ، وامرأتك أليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج ، وكثيرون سيفرحون بولادته ، لأنه يكون عظيما أمام الرب ، وخمرا ومسكرا لا يشرب ، ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم . ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ، ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار ، لكي يهيئ للرب شعباً مستعدا . فقال زكريا للملاك : كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال له : أنا جبرائيل الواقف قدام الله ، وارسلت لأكلمك وأبشرك بهذا . وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم ، إلى اليوم الذي يكون فيه هذا ، لأنك لم تصدق كلامي الذي يكون في وقته. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل. فلما خرج لم يستطع ان يكلمهم ، ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل . فكان يومئ إليهم ويبقى صامتاً »

وفي إنجيل لوقا :

« ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته . وبعد تلك الأيام حبلت أليصابات امرأته ، وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة : «هكذا قد فعل بي الرب في الأيام التي فيها نظر إليّ لينزع عاري بين الناس »

الناصورائى :

هو الشخص الحاذق فى الأمور الدينية . ويقول الصابئون : « إن يحيى كان معلما عظيما وأنه كان يمارس وظيفة التعميد ككاهن ، وأن تغيرات دينية معينة تنسب إليه كتقليل أوقات الصلاة من خمسة إلى ثلاثة يوميا . وكان ضليعا ذا معجزات ، تشفى أبدان الناس وأرواحهم »

تعاليم يحيى عليه السلام :

يقول الصابئون : « إنه كان على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه . وكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب . وكان صوته المداوى يصيح بالوفود المجتمعة حوله بقوله : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وكان يعمدهم ـ أى يغسلهم ـ فى نهر الأردن للتوبة من الخطايا . ولقد اعتمد منه أيشوع المسيح »

نشأة يحيى عليه السلام :

يقول الصابئة : « وفى بعض الأخبار : أنه لما ولد يحيى رفع إلى السماء ، فتغذى بأنهار الجنة ، حتى فطم ، ثم أنزل إلى أبيه ، وكان يضئ البيت لنوره وحسن وجهه وجماله . وفى بعض الأخبار ، وفى كتاب « ادراشا أيهيا » ـ أى تعاليم يحيى ـ أنه بعد ولادته مباشرة أخذ من أمه خوفا من أن يقتله اليهود ، وأرسل إلى مسكن الناصورائى ـ وهو كل صابئى متبحر فى الديانة الصابئية ـ فى طور أدميديا ـ جبال ميديا ـ ونشأ هناك حتى بلغ العشرين من العمر ، ثم أعيد إلى « أورشليم » ـ القدس ـ بصحبة أحد ملائكة الله « إنش اترا » وبدأ يعمد الناس للتوبة من الخطايا »

شريعة الصابئين :

يقولون : « إن النبى يحيى لم يأت بجديد للصابئة ، وإنما خفف من بعض التعاليم الدينية السابقة »

البشارة بميلاد يسوع :

فى إنجيل لوقا :

« وفى الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة ، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف . واسم

العذراء مريم فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها . الرب معك مباركة أنت فى النساء . فلما رأته اضطربت من كلامه ، وفكرت : ما عسى أن تكون هذه التحية . فقال لها الملاك : لا تخافى يا مريم ، لانك قد وجدت نعمة عند الله . وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع . هذا يكون عظيما ، وابن العلى يدعى ، ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية »

فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً ؟ فأجاب الملاك وقال لها : الروح القدس يحل عليك ، وقوة العلى تظللك ، فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله . وهوذا أليصابات نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها ، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا ، لأنه ليس شيئ غير ممكن لدى الله . فقالت مريم : هوذا أنا أمة الرب ، فليكن لى كقولك . فمضى من عندها الملاك .

العذراء مريم تزور أليصابات :

فقامت مريم فى تلك الأيام وذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا ، ودخلت بيت زكريا وسلمت على أليصابات . فلما سمعت أليصابات سلام مريم ارتكض الجنين فى بطنها ، وامتلأت أليصابات من الروح القدس ، وصرخت بصوت عظيم وقالت : مباركة أنت فى النساء ومباركة هى ثمرة بطنك . فمن أين لى هذا ان تأتى أم ربى إلىّ ؟ فهوذا حين صار صوت سلامك فى أذنى ، ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنى . فطوبى للتى آمنت أن يتم ما قيل لها من قبل الرب .

تسبحة مريم :

فقالت مريم : تعظم نفسى الرب ، وتبتهج روحى بالله مخلصى ، لأنه نظر إلى اتّضاع أمَته . فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبنى ، لان القدير صنع بى عظائم ، واسمه قدوس ، ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتقونه . صنع قوة بذراعيه . شتت المستكبرين بفكر قلوبهم . أنزل الأعزاء عن الكراسى ورفع المتضعين. أشبع الجياع خيرات ، وصرف الأغنياء فارغين . عضد إسرائيل فتاه ، ليذكر رحمة، كما كلم آباءنا. لإبراهيم ونسله إلى الأبد فمكثت مريم عندها نحو

ثلاثة أشهر ، ثم رجعت إلى بيتها .

مولد يوحنا المعمدان :

وأما أليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظّم رحمته لها ، ففرحوا معها ، وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبى ، وسموه باسم أبيه زكريا .

فأجابت أمه وقالت : لا . بل يسمى يوحنا . فقالوا لها : ليس أحد فى عشيرتك تسمى بهذا الاسم . ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمى ؟ فطلب لوحا وكتب قائلا : اسمه يوحنا . فتعجب الجميع . وفى الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم ويبارك الله . فوقع خوف على كل جيرانهم ، وتحدث بهذه الأمور جميعها فى كل جبال اليهودية ، فأودعها جميع السامعين فى قلوبهم قائلين : أترى ماذا يكون هذا الصبى ؟ وكانت يد الرب معه .

تسبحة زكريا :

وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس ، وتنبأ قائلا : مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه ، وأقام لنا قرن خلاص فى بيت داود فتاه . كما تكلم بفم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر ، خلاص من أعدائنا ومن أيدى جميع مبغضينا . ليصنع رحمة مع آبائنا ويذكر عهده المقدس ، القسم الذى حلف لإبراهيم أبينا : أن يعطينا إننا بلا خوف ، منقذين من أيدى أعدائنا ، نعبده بقداسة وبر قدامه جميع أيام حياتنا . وأنت أيها الصبى نبى العلى تدعى ، لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه . لتعطى شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم ، بأحشاء إلهنا التى بها افتقدنا المشرق من العلاء ليضيئ على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت ، لكى يهدى أقدامنا فى طريق السلام .

أما الصبى فكان ينمو ويتقوى بالروح ، وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل » ا هـ

معمودية يوحنا :

العماد : هو التصبيغ بالماء . إما تغطيس . كما تقول بعض الكنائس ، وإما

رش بالماء . وتفرض التوراة في العديد من حالات النجاسة(1) ، اغتسالات طقسية ، تطهر وتؤهل للعبادة . منها الغسل من الجنابة [تث ٢٣ : ١٠ ـ ١١] ومنها حرق بقرة حمراء، ذبيحة خطية [عدد ١٩ - ٢ - ١٠]

وفي أسفار الأنبياء نبوءات عن النبي الأمي الآتي :

١- فيها : أن الله يظهر ينبوع ماء دائم ليطهر بني إسرائيل من آثار الذنوب ، إذا قبلوا النبي الآتي . وهو يكنى بينبوع الماء عن طهارة قلوب المؤمنين بالنبي الأمي الآتي . لا أنه سيظهر من الأرض ينبوعا ، وقد حسب بنو إسرائيل أن المعنى على الظاهر ، فلذلك طلبوا من محمد ﷺ أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا ﴿وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ وهذا النص في سفر زكريا هو نبوءة . وقد أخذها النصاري لعيسى عليه السلام بعدما حرفوا لفظها ومعناها .

ومن النص : « وأفيض على بيت داود ، وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات ، فينظرون إليَّ - بتشديد الياء مفتوحة - الذى طعنوه وينوحون عليه » إلى أن قال : «في ذلك اليوم يكون ينبوع مفتوحا لبيت داود ولسكان أورشليم ، للخطية وللنجاسة ، ويكون في ذلك اليوم قال رب الجنود : أنى أقطع أسماء الأصنام من الأرض ... » [زكريا ١٢ : ١٠ -]

يريد أن يقول الله : إنهم لما رفضوا الشريعة ، صرت في نظرهم كمطعون في جنبه بسكين . ولذلك سأسلب الملك منهم والشريعة ، ومحرف إنجيل يوحنا قد حرفها بقوله : « فينظرون إلي الذى طعنوه» أى، ينظرون إلي يسوع المسيح وهو مطعون بالحربة على الصليب . وقد بينا هذا في كتاب « اقتباسات كتاب الأناجيل من التوراة »

٢- وفي سفر حزقيال يبين أنه سيكون لبني إسرائيل زمان يكثر فيه الخير ، ويعم فيه السلام وأنه سيجمعهم من كل الأمم ، ويأتى بهم إلى فلسطين ، لتعظيم اسمه القدوس ، وليس ذلك إلا في زمان النبي الآتي ، ويبين أنه في الزمان الجديد،

(١) لاحظ : أن كلامه يدل على أن التعميد لا سند له من التوراة . فيكون أصل التعميد «علامة» مميزة لمن يقبل الإيمان بمحمد عمن لا يقبل .

سيغير قلوبهم القاسية بقلوب رحيمة . وسيرش عليهم ماء طاهرا ، كناية عن تغير زمان سئ بزمان حسن .

من النص : «وآخذكم من بين الأمم ، وأجمعكم من جميع الأراضى ، وآتى بكم إلى أرضكم ، وأرش عليكم ماء فتطهرون من كل نجاساتكم ، ومن كل أصنامكم ، أطهركم ، وأعطيكم قلبا جديدا ، وأجعل روحا جديدة فى داخلكم ، وأقلع قلب الحجر من لحمكم ، وأعطيكم قلب لحم ، وأجعل روحى فى داخلكم وأجعلكم تسلكون فى فرائضى ، وتحفظون أحكامى وتعملون بها ، وتسكنون الأرض التى أعطيت آباءكم إياها ، وتكونون لى شعبا وأنا أكون لكم إلها ، وأخلصكم من كل نجاساتكم ، وأدعو الحنطة ، وأكثرها .

ولا أضع عليكم جوعا وأكثر ثمر الشجر ، وغلة الحقل ، لكيلا تنالوا بعد عار الجوع بين الأمم . . .

فيقولون : هذه الأرض الخربة ، صارت كجنة عدن . . . » [حزقيال ٣٦ : ٢٢ -]

ولذلك قالوا لمحمد ﷺ : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ﴾

٣- ويتحدث النبى الأمى عن نفسه وعن أمته التى ما جاءها من نذير . فيقول على لسان داود عليه السلام « ارحمنى يا ألله حسب رحمتك ، حسب كثرة رأفتك، امح معاصى ، اغسلنى كثيرا من إثمى ، ومن خطيتى طهرنى ، لأنى عارف بمعاصى ، وخطيتى أمامى دائما . إليك وحدك أخطأت ، والشر قدام عينيك صنعت؛ لكى تتبرر فى أقوالك ، وتزكو فى قضائك . ها أنذا بالإثم صورت ، وبالخطية حبلت بى أمى.

هاقد سررت بالحق فى الباطن ، ففى السريرة تعرفنى حكمة ، طهرنى بالزوفا، فأطهر. اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج ، أسمعنى سرورا وفرحا ، فتبتهج عظام سحقتها . استر وجهك عن خطاياى ، وامح كل آثامى .

قلبا نقيا اخلق فى يا ألله ، وروحا مستقيما جدد فى داخلى . لا تطرحنى

من قدام وجهك ، وروحك القدوس لا تنزعه منى . ردّ لى بهجة خلاصك ، وبروح منتدبة اعضدنى ، فأعلم الأثمة طرقك ، والخطاة إليك يرجعون .

نجنى من الدماء يا أ الله ، إله خلاصى ، فيسبح لسانى ببرك . يارب افتح شفتى فيخبر فمى بتسبيحك ، لأنك لا تسر بذبيحة وإلا فكنت أقدمها ، بمحرقة لا ترضى ، ذبائح الله هى روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره .

أحسن برضاك إلى صهيون . ابن أسوار أورشليم . حينئذ تسر بذبائح البر . محرقة، وتقدمة تامة ، حينئذ يصعدون على مذبحك عجولا » [مزمور ٥١]

والغسل ههنا كناية عن تطهير القلوب من العناد والكبر ، لتستعد للدخول فى ملكوت النبى الآتى ، ولذلك يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون﴾

ولماذا كتبوا فى الأناجيل : أن المعمدان صبغ بالماء ، وهما مصدقان للتوراة ، وليس فيها ما يوجب على العاصى إذا أراد التوبة أن يغتسل بالماء بنفسه أو بغيره ؟

إن المعمدان ويسوع قد صبغا . والصبغ هو علامة مميزة لمن صار معهما ولمن بقى من اليهود فى اليهود . ففعلهما تميز لمن سيؤمن بمحمد ولمن لا يؤمن به حال ظهوره . ومن يؤمن به حال ظهوره يلزمه أن يعرف الناس به من الآن . ومن بعد التحريف :

يريدن أن يجعلوا النبى الآتى هو يسوع ، ويريدون أن يجعلوا المؤمنين به من اليهود والأمم هم الشعب الجديد ، الذى قال زكريا وحزقيال وداود عنهم إنهم سيطهرون . فماذا فعلوا ؟

ادعوا : أن المعمدان وتلاميذه ، ويسوع وتلاميذه قد اجتهدوا فى تطهير الشعب الجديد بالماء ، فى نهر الأردن . وبذلك يكون النصارى هم الشعب الجديد ، الآتى عوضا عن شعب بنى إسرائيل .

وادعوا : أن المعمدان عمد يسوع فى نهر الأردن . أى غسله بالماء . وذلك لكى يقنعو الناس بأن يسوع هو النبى الأمى ، الذى قال عن نفسه لله بفم داود : «اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج » - «اغسلنى كثيرا من إثمى » ويؤكد ذلك : أن

للمحرفين قد ألصقوا نبوءة الابن يسوع حال صعوده من الماء ، وهى ليست له وإنما هى لمحمد ﷺ فقد روى متى : « حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن ، إلى يوحنا ؛ ليعتمد منه ، ولكن يوحنا منعه قائلا : أنا محتاج أن أعتمد منك ، وأنت تأتى إلى ؟ فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن ، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر ، حينئذ سمح له ، فلما اعتمد يسوع ، صعد للوقت من الماء ، وإذا السموات قد انفتحت له ؛ فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه . وصوت من السموات قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » [متى ٣ : ١٣ - ١٧]

هل روح الله يتجسد ، وينزل من السماء ويستقر على رأس يسوع ؟ وهل حال استقراره ، يظهر من السماء صوت ؛ ليعلن : أن يسوع هو ابن الله الآتى إلى العالم ؟ لو كان روحه قد فارق جسده ، لكان جسدا بلا روح . ولو كان جسدا بلا روح ، ما كان ينادى . وإذا كان قد نادى ، فمن سمعه ؟

ومن يقرأ نص نبوءة الابن لا يجدها تنطبق على عيسى عليه السلام . وهنا يكفى فى بيان أن المعمودية لم تكن له ، وإنهم قد أذاعوها على ما هى عليه الآن للغو فى نبوة محمد ﷺ وفيها : «لماذا ارتجت الأمم ، وتفكّر الشعوب فى الباطل ، قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا ، على الرب وعلى مسيحه . . . »

فهل تآمرت الشعوب على يسوع ؟ وفيها أنه ملك ، فهل كان ملكا ؟ وفيها : « اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد » فهل كان عيسى محاربا ؟ وهل انتصر على أعدائه ؟

تحيير المسيح لعلماء بني إسرائيل فى معمودية يوحنا :

وروى كتاب الأناجيل : أن يسوع المسيح حيّر علماء بنى إسرائيل فى معمودية يوحنا ، هل هى من السماء أم هى من الأرض ؟

يعنى : أنه إذا ثبتت عندكم نبوة يحيى ، يثبت أن معموديته من السماء . ويكون تمييز المؤمن به عن الكافر به بالصبغ فى الماء من إلهام الله له . وأنا أعمل عمله فى الصبغ فلماذا ترفضوننى ؟ وقد تحيروا ، لأنهم قبلوا نبوة يحيى ومعموديته . وروى متى : أنه عقب تحيرهم ، ذكر لهم ثلاثة أمثال عن ملكوت السموات . المثل الأول مثل الابنين وهو يدل على أن الابن الأول رمز لبنى

إسماعيل عليه السلام والابن الآخر رمز لبنى إسرائيل . والمثل الثانى هو مثل الكرامين الأردياء . والمثل الثالث هو مثل عرس ابن الملك

والغرض من الأمثال الثلاثة : هو انتقال الشريعة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ، لأنهم فى نظر اليهود من الامم .

يقول متى : « ولما جاء إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، وهو يعلّم قائلين : بأى سلطان تفعل هذا ؟ ومن أعطاك هذا السلطان ؟ فأجاب يسوع وقال لهم : وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة ، فإن قلتم لى عنها أقول لكم : وأنا أيضا بأى سلطان أفعل هذا . معمودية يوحنا من أين كانت ؟ من السماء أم من الناس ؟ ففكروا فى أنفسهم قائلين : إن قلنا من السماء يقول لنا : فلماذا لم تؤمنوا به ؟ وإن قلنا : من الناس ، نخاف من الشعب ، لأن يوحنا عند الجميع مثل نبى . فأجابوا يسوع وقالوا : لا نعلم . فقال لهم أيضا : ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا.

ماذا تظنون ؟ كان لإنسان ابنان فجاء إلى الأول وقال : يا ابنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فأجاب وقال ما أدرى . ولكنه ندم أخيرا ومضى ، وجاء إلى الثانى وقال كذلك فأجاب وقال : ها أنا يا سيد ولم يمض ، فأى الاثنين عمل إرادة الأب ؟ قالوا له : الأول . قال لهم يسوع : الحق أقول لكم : إن العشّارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله ؛ لأن يوحنا جاءكم فى طريق الحق فلم تؤمنوا به، وأما العشّارون والزوانى فآمنوا به . وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيرا لتؤمنوا به . اسمعوا مثلا آخر : كان إنسان رب بيت ، غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه إلى كرامين وسافر . ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره ، فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا ، وقتلوا بعضا ورجموا بعضا . ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين . ففعلوا بهم كذلك. فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا : يهابون ابنى . وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث . هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه . وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ قالوا له: أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين ، يعطونه

الأثمار فى أوقاتها ، قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية . من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ؟ لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يُنزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه .

ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله ، عرفوا أنه تكلم عليهم . وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه ، خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبى .

وجعل يسوع يكلمهم أيضا بأمثال قائلا : يشبه ملكوت السموات إنسانا ملكا صنع عرسا لابنه ، وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس ، فلم يريدوا أن يأتوا. فأرسل أيضا عبيداً آخرين قائلا : قولوا للمدعوين : هو ذا غدائى أعددته . ثيرانى ومسمناتى قد ذبحت وكل شيئ مستعد ، تعالوا إلى العرس ، ولكنهم تهاونوا ومضوا ، واحد إلى حقله . وآخر إلى تجارته والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم . فلما سمع الملك ، غضب وأرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم . ثم قال لعبيده : أما العرس فمستعد وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين فاذهبوا الى مفارق الطرق ، وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس ، فخرج أولئك العبيد إلى الطرق وجمعوا كل الذين وجدوهم ، أشرارا وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين. فلما دخل الملك لينظر المتكئين ، رأى هناك إنسانا لم يكن لابسا لباس العرس ، فقال له : يا صاحب كيف دخلت إلى هنا ، وليس عليك لباس العرس ؟ فسكت . حينئذ قال الملك للخدام : اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه فى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون » [متى ٢١ : ٢٢ -]

السنة النبوية :

وفى زمان يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ كان علماء بنى إسرائيل يتمسكون بالتوراة، ويفسرون أحكامها للناس ، ويحثونهم على العمل بها ، وكانوا يقولون للناس : إن نبى الله موسى قد علمنا كلاما مماثلا لها . هو مكمل لأحكامها ، ومبين لما أجمل منها ، وأن ما تركه موسى واجب علينا أن نعلّمه للناس ليعملوا به ، ولم يترك غير التوراة والسنة ، وأطلقوا على السنة لقب «التلمود» أما المسيح عيسى

عليه السلام فإنه أطلق عليها لقب « سُنَّة البَشَر » و «تقاليد الشيوخ » وصرح بأنها من كلام العلماء الفسقة وليست من كلام موسى .

وفي الأناجيل كلام كثير عن نزاع قد حصل بين المسيح عيسى عليه السلام وبين علماء بني إسرائيل في السنة النبوية ، واستدل على زيفها بآيات من سفر إشعياء، ففي الأصحاح الخامس عشر من إنجيل متى :

« حينئذ جاء إلى يسوع كتبة وفريسيون الذين من أورشليم ، قائلين : لماذا يتعدى تلاميذك تقليد الشيوخ ، فإنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا ؟ فأجاب وقال لهم : وأنتم أيضا لماذا تتعدون وصية الله بسبب تقليدكم ؟ فإن الله أوصى قائلا : « أكرم أباك وأمك» و «من يشتم أبا أو أما ، فليمت موتا» وأما أنتم فتقولون: من قال لأبيه أو أمه : قربان هو الذي تنتفع به مني ، فلا يكرم أباه أو أمه. فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم ، يامراءون ، حسنا تنبأ عنكم إشعياء قائلا : « يقترب إليَّ هذا الشعب بفمه ، ويكرمني بشفتيه ، وأما قلبه فمبتعد عني بعيدا وباطلا يعبدونني ، وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس » [متى ١٥ : ١ -]

وفي الأصحاح الثاني عشر من إنجيل برنابا :

« حينئذ وبخ يسوع الشعب بأشد عنف ، لأنهم نسوا كلمة الله ، وأسلموا أنفسهم للغرور فقط ، ووبخ الكهنة لإهمالهم خدمة الله ولجشعهم ، ووبخ الكتبة لأنهم علموا تعاليم فاسدة ، وتركوا شريعة الله ، ووبخ العلماء لأنهم أبطلوا شريعة الله بواسطة تقاليدهم . وأثر كلام يسوع في الشعب حتى أنهم بكوا جميعهم من صغيرهم إلى كبيرهم ، يستصرخون رحمة الله ، ويضرعون إلى يسوع لكي يصلي لأجلهم ، ما خلا كهنتهم ورؤساءهم الذين أضمروا في ذلك اليوم العداء ليسوع ، لأنه تكلم هكذا ضد الكهنة والكتبة والعلماء ؛ فصمموا على قتله ، ولكنهم لم ينبسوا بكلمة ، خوفا من الشعب الذي قبله نبيا من الله » [بر ١٢ : ١٨ - ٢٤]

ملاحظة :

توبيخ المسيح للشعب في متى ١٣ : ١٣ ـ ٣٣ وتصميمهم على قتله في متى ٢١ : ٤٦ ومرقس ١٢ : ١٢ ويوحنا ١١ : ٥٣ .

لت الملاحظة .

وقد تبين مما تقدم : أن المسيح عيسى عليه السلام كان مصدقا للتوراة ، ورافضا للسنة . فهل كان يحيى عليه السلام رافضا للسنة مثله ؟ ليس فى الأناجيل ما يدل على أن يحيى قد رفض السنة ، المعبر عنها بتقاليد الشيوخ ، وإنما فيها : أنه صام كثيرا .وفيها أن عيسى رفض السنة ، وصرح بقوله : « فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم »

وكان من السنة عند اليهود صيام يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وأما الفرض فإنه

« أما العاشر من هذا الشهر السابع ، فهو يوم الكفارة ، محفلا مقدسا يكون لكم . تذللون نفوسكم ، وتقربون وقودا للرب . عملا ما لا تعملوا فى هذا اليوم عينه . لأنه يوم كفارة ، للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم . إن كل نفس لا تتذلل فى هذا اليوم عينه ، تقطع من شعبها » [لا ٢٣ : ٢٦ - ٢٩]

والتذلل : هو الصيام ومن لا يصوم وهو قادر عليه ، فجزاؤه القتل ، أى القطع من بين شعبه .

وكان عيسى ويحيى - عليهما السلام - ملتزمان بصيام الفرض ، ثم افترقا. فيحيى صام الفرض وصام أياما كثيرة حسب السنة ، وعيسى صام الفرض ولم يصم أياما كثيرة حسب السنة . وذلك لأن السنّة من تقاليد الشيوخ وليست من موسى نفسه ، فقد اشتركا الاثنان فى صوم أيام ، وافترقا فى الكثير من الأيام . والقليل والكثير من السنة . وهذا يدل على أن رفض المسيح للسنة هو للسنة المكملة لتشريعات التوراة ، وللسنة المعارضة . وقد جاء فى القرآن عن المسيح : ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾ من العلماء . وهم لا يحرمون إلا من دليل منسوب زورا إلى موسى . ولا يمكن أن يصدر عن موسى تحليل وتحريم للشئ الواحد . فإن أحل وهم قد حرموا ، يكون الحديث الذى استدلوا عليه فى التحريم معارضا لا مكملا . ويدل على ذلك :

« حينئذ أتى إليه تلاميذ يوحنا قائلين : لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيرا ، وأما تلاميذك فلا يصومون ؟ » [متى ٩ : ١٤] فى ترجمة البروتستانت وردت كلمة «كثيرا»

إن الاعتراض الموجه هو فى «الصوم الكثير» لا مطلق صوم . فإن صوم الفرض متفق عليه وهما يؤديانه ، فماذا كان رد المسيح علي هذا الاعتراض ؟

وفى إنجيل مرقس : «لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيون ، وأما تلاميذك فلا يصومون» {مر ٢ : ١٨ - }

لاحظ : أن « كثيرا » لم ترد فى إنجيل مرقس فى ترجمة البروتستانت .

لمت للملاحظة .

وفى إنجيل لوقا : « وقالوا : لماذا يصوم تلاميذ يوحنا كثيرا ، ويقدمون طلبات ، وكذلك تلاميذ الفريسيين أيضا ، وأما تلاميذك فيأكلون ويشربون » {لو ٥ :٣٣ - } ووردت «كثيرا» فى ترجمة البروتستانت .

و « كثيرا » حذفت من إنجيل متى فى ترجمة كتاب الحياة ١٩٨٢م عربى - انجليزى . ولم تحذف من إنجيل لوقا فى نفس الترجمة .ونص لوقا هو :

They said to him, John's disciples often fsts and pray . and so do the disciples of the pharisees .

اقرأ هذا النص من لوقا :

« وقالوا له : لماذا يصوم تلاميذ يوحنا كثيرا ، ويقدمون طلبات ، وكذلك تلاميذ الفريسيين أيضا .وأما تلاميذك فيأكلون ويشربون ؟ فقال لهم : أتقدرون أن تجعلوا بنى العرس يصومون ما دام العريس معهم ؟ ولكن ستأتى أيام حين يرفع العريس عنهم ، فحينئذ يصومون فى تلك الأيام .

وقال لهم أيضا مثلا : ليس أحد يضع رقعة من ثوب جديد على ثوب عتيق. وإلا فالجديد يشقه ، والعتيق لا توافقه الرقعة التى من الجديد . . . »

اقرأ هذا النص من متى :

« حينئذ أتى إليه تلاميذ يوحنا قائلين : لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيرا ، وأما تلاميذك فلا يصومون ؟ فقال لهم يسوع : هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا مادام العريس معهم ؟ ولكن ستأتى أيام حين يرفع العريس عنهم ، فحينئذ يصومون.

ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق ؛ لأن الملء يأخذ من الثوب فيصير الخرق أردأ . . . »

١- ما هي المناسبة بين صوم بنى العرس وصوم تلاميذ المعمدان والفريسيين ؟

٢- وما هي المناسبة بين الرقعة الجديدة وبين الصيام ؟

نبوءة تجديد الشريعة :

اقرأ هذا النص من إنجيل برنابا :

« وجمع يسوع ذات يوم تلاميذه ، وصعد إلى الجبل . فلما جلس هناك ، دنا منه التلاميذ ، ففتح فاه وعلمهم قائلا : عظيمة هى النعم التى أنعم بها الله علينا، فترتب علينا من ثم أن نعبده بإخلاص قلب ، وكما أن الخمر الجديدة توضع فى أوعية جديدة ، **هكذا يترتب عليكم أن تكونوا رجالا جددا**(١) ، **إذا أردتم أن تعوا التعاليم الجديدة التى ستخرج من فمى** ، الحق أقول لكم : كما أنه لا يتأتى للإنسان أن ينظر بعينه السماء والأرض معا فى وقت واحد ، فكذلك يستحيل عليه أن يحب الله والعالم .

لا يقدر رجل أبدا أن يخدم سيدين ، أحدهما عدو للآخر ، لإنه إذا أحبك أحدهما أبغضك الآخر ، فكذلك أقول لكم حقا : إنكم لا تقدرون أن تخدموا الله والعالم ، لأن العالم موضوع فى النفاق والجشع والخبث . . لذلك لا تجدون راحة فى العالم ، بل تجدون بدلا منها اضطهادا وخسارة . إذاً فاعبدوا الله ، واحتقروا العالم . إذ متى تحبون الله تجدون راحة لنفوسكم .

اصيخوا السمع لكلامى ، لأنى أكلمكم بالحق » [بر ١٦ : ١ - ١٢]

واقرأ هذا النص من إنجيل متى :

« لا يقدر(٢) أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ، ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » [متى ٦ : ٢٤]

---

(١) روى متى عن هذا التجديد : « متى جلس ابن الإنسان على عرش مجده ، عند تجديد كل شئ » فالتجديد لمحمد صاحب ملكوت السموات [مت ١٩ : ٢٨] وهو تجديد الشريعة .

(٢) ورد هذا النص فى إنجيل توما القبطى

اقرأ هذا النص من إنجيل لوقا :

« لا يقدر خادم أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » [لو ١٦ : ١٣]

ملاحظة :

النص فى رواية برنابا ، مصدر بقوله : «وجمع يسوع ذات يوم تلاميذه ، وصعد إلى الجبل . . . »

والنص الذي أورده متى وهو : « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . . . » هو من خطبة المسيح على الجبل ، وبدؤها : « ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل ، فلما جلس ، تقدم إليه تلاميذه ، ففتح فاه ، وعلمهم قائلا . . . »

تمت الملاحظة .

وعلى ضوء ما ذكرناه من النصوص ، نعيد السؤالين :

١- ما هى المناسبة بين صوم بنى العرس وصوم تلاميذ المعمدان والفريسيين ؟

٢- وما هى المناسبة بين الرقعة الجديدة وبين الصيام ؟

غرض المسيح :

وغرض المسيح : هو أن يبين للناس أن علماء بنى إسرائيل قد ملأوا قلوبهم بتعاليم فاسدة . أكبرها استعدادهم لرفض محمد ﷺ فى حالة ظهوره وأنتم يا أتباعى يجب عليكم تغيير ما فى قلوبكم وذلك بوضع تعاليمى الجديدة مكان التعاليم الفاسدة . وأكبرها هو استعدادكم لقبول محمد فى حالة ظهوره . وفى اليهود منافقون يضمون التعاليم القديمة مع الجديدة ، وذلك لانتفاعهم بالدنيا وزينتها . أما أنتم فلا أريد لكم النفاق . إما الله وإما المال .

والدليل على أن عيسى عليه السلام يعنى بالتعاليم الجديدة : الاستعداد لقبول محمد رسول الله: ١ ـ هو أن خطبته على الجبل تبدأ بالحديث عن ملكوت السموات . وهو الملكوت الذى أنبأ دانيال بأنه سيتأسس بعد مملكة الروم . ذلك قوله : « ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل ، فلما جلس تقدم إليه تلاميذه ، ففتح

فاه وعلمهم قائلا : طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات. . . ، {متى ٥ : ١ +} «ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المساكين ، لأن لكم ملكوت الله. . » {لو ٦ : ٢٠ +} ٢ ـ ونسب التجديد إلى ابن الإنسان صاحب ملكوت السموات فقال : « متى جلس ابن الإنسان على عرش مجده عند تجديد كل شئ ... » {متى ١٩ : ٢٨}

وغرض محرفي الإنجيل :

هو أن يحيى عليه السلام وهو يبشر بمحمد ﷺ قال لعلماء بنى إسرائيل :

« أنتم أنفسكم تشهدون لى : أنى قلت لست أنا المسيح(١) ، بل إنى مرسل أمامه ، من له العروس فهو العريس ، وأما صديق العريس الذى يقف ويسمعه فإنه يفرح فرحا من أجل صوت العريس . إذاً فرحى هذا قد كمل ، ينبغى أن ذلك يزيد، وإنى أنا أنقص .

الذى يأتى من فوق ، هو فوق الجميع والذى من الأرض ، هو أرضى ومن الأرض يتكلم . الذى يأتى من السماء هو فوق الجميع ، وما رآه وسمعه ، به يشهد، وشهادته ليس أحد يقبلها ، ومن قبل شهادته ، فقد ختم أن الله صادق ، لأن الذى أرسله الله ، يتكلم بكلام الله ، لأنه ليس بكيل يعطى الله الروح .

الآب يحب الابن ، وقد دفع كل شئ فى يده . الذى يؤمن بالابن ، له حياة أبدية ، والذى لا يؤمن بالابن ، لن يرى حياة ، بل يمكث عليه غضب الله » {يو ٣: ٢٨ - ٣٦}

البيان :

١- أنه ليس هو المسيح المرتقب ، النبى الأمى الآتى إلى العالم {تث ١٨} الذى هو محمد رسول الله ﷺ .

٢- لقبه بالعروس .

٣- يوحنا المعمدان هو صديق العريس . الذى يفرح لمقدمه .

٤- صرح المعمدان بمحمد بلقب « الابن» حسب نبوءة المزمور الثانى عليه .

---

(١) راجع كتابنا «المسيا المنتظر» نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة .

٥- من لا يؤمن بالابن سيمكث عليه غضب الله .

ومحرف الإنجيل وضع عبارة «هل يستطيع بنو العريس أن ينوحوا ما دام العريس معهم ، ولكن ستأتى أيام حين يرفع العريس عنهم ، فحينئذ يصومون » ليبين أن «العريس» هو عيسى عليه السلام وأنه سيرفع على الصليب ويقتل ويصلب.

يقول مفسرو الإنجيل برئاسة فرنسيس دافيدسن :

« حين يرفع العريس عنهم » عدد ١٥ هذه إشارة إلى موته هو، وصعوده . في عدد ١٦ ، ١٧ المبدأ المعبر عنه : هو أن يسوع المسيح قد جاء ليأتى بتدبير إلهى جديد كلية ، لا يمكن أن ينسجم مع صورة التدبير اليهودى القديم . إن حكم الناموس ينبغى أن ينتهى حتى يكون للنعمة تصرف حرّ »

والرد عليه : هو أن المسيح لم يمت ولم يصلب ، لأن الغرض من موته وصلبه عندهم هو التكفير عن خطيئة آدم ، وفى سفر الحكمة أن آدم تاب وتاب الله عليه ، وأنقذه من زلته . ذلك قوله : « والحكمة هى التى خلصت كل من أرضاك يارب منذ البدء . هى التى حفظت أول من جبل أبا للعالمَ لما خلق وحده وأنقذته من زلته ، وآتته قوة ، ليتسلط على الجميع » { حك ٩ : ١٩+ }

وليسأل بعد ذلك عن تدبيره الإلهى الجديد ما هو ؟ هل هو شريعة مستقلة عن شريعة موسى ؟ كلا فإنه قد قال بصريح العبارة : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس» فالتدبير الإلهى إذاً هو التوبة التى دعا إليها . وهى تغيير العقلية عن النبى الأمى الآتى .

الفصل الرابع

من أمثال ملكوت الله فى الإنجيل

تمهيد :

مثل الكرامين الأردياء أو القتلة :

فى رواية لوقا :

«غرس رجل كرما ، فأجره بعض الكرامين ، وسافر مدة طويلة ، فلما حان وقت الثمر ، أرسل خادماً إلى الكرامين ، ليؤدوا إليه نصيبه من ثمر الكرم ، فضربه الكرامون وصرفوه فارغ اليدين ، فأرسل خادماً آخر ، وذلك أيضاً جرّحوه وطردوه .

فقال رب الكرم : ما أصنع ؟ سأرسل ابنى الحبيب ، لعلهم يهابونه، فلما رآه الكرامون ، تشاوروا فيما بينهم قائلين : هو ذا الوارث ؛ فلنقتله ، ليعود الميراث إلينا ، فألقوه فى خارج الكَرْمِ ، وقتلوه .

فماذا يفعل بهم رب الكَرْمِ ؟ سيأتى ويُهلك هؤلاء الكرامين ، ويُعطى الكرم لآخرين فلما سمعوا ذلك قالوا : حاش ، فحدّق إليهم وقال :

فما معنى هذه الآية : «الحجر الذى رذله البناءون : هو الذى صار رأس الزاوية » كل من وقع على ذلك الحجر : تهشّم ، ومن وقع عليه هذا الحجر ، حطّمه ؟ فحاول الكتبة وعظماء الكهنة أن يبسطوا أيديهم إليه فى تلك الساعة ، لكنهم خافوا الشّعب ، فقد أدركوا أنه بهم عرّض فى هذا المثل»

مثل الكرامين الأردياء أو القتلة :

فى رواية مَرْقس :

«وأخذ يكلمهم بالأمثال ، قال : غرس رجل كرما ، فسيّجه ، وحفر فيه معصرة ، وبنى برجاً ، وآجره بعض الكرامين ،ثم سافر ، فلما حان وقت الثمر ، أرسل خادماً إلى الكرامين ، ليأخذ منهم نصيبه من ثمر الكرم ، فأمسكوه وضربوه وأرجعوه فارغ اليدين ، فأرسل إليهم خادماً آخر ، وهذا أيضاً شجوا رأسه وأهانوه، فأرسل آخر ، وهذا أيضاً قتلوه ، ثم أرسل كثيرين غيرهم ، فضربوا

بعضهم، وقتلوا بعضهم : فبقى عنده واحد ، وهو ابنه الحبيب ، فأرسله إليهم آخر الأمر ، وقال : سيهابون ابنى ، فقال أولئك الكرامون بعضهم لبعض : هو ذا الوارث ، هلموا نقتله : فيكون الميراث لنا ، فأمسكوه وقتلوه ، وألقوه فى خارج الكرم ، فماذا يفعل رب الكرم ؟ يأتى ويهلك الكرامين ، ويُعطى الكرم لآخرين ، أو ما قرأتم : «الحجر الذى رذله البناءون : هو الذى صار رأس الزاوية ، من عند الرب كان ذلك وهو عجيب فى أعيننا » فحاولوا أن يُمسكوه ، ولكنهم خافوا الجمع ، وكانوا قد أدركوا أنه يُعَرّض بهم فى هذا المثل ، فتركوه وانصرفوا »

لاحظ :

١ـ من هم المتّهمون بعدم إخراج الثمار التى ينتظرها الله ؟ والمراد بإخراج الثمار : هداية الأمم إلى الله ، ودخولهم فى الإسلام على شريعة موسى عليه السلام ، هل المتهمون هم بنو إسرائيل جميعاً ، أم هم علماء بنى إسرائيل ؟ إن المتهمين هم علماء بنى إسرائيل ، ويمثلهم فى النص : عظيم الكهنة ، والكتبة ، والشيوخ [الآية ١٢ ، وراجع ١١ :٢٧و١٤ :٤٣و٥٣]

٢ـ ما هو المراد بالحجر المرفوض من البنائين ؟

إن داود عليه السلام فى سفر الزبور ، قال مزمورا عن نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم هو المزمور المئة والثامن عشر ، وجاء فيه : «الحجر الذى رذله البناءون . . » كناية عن أن المرفوض من بنى إسرائيل هو الذى سيكون إماما وقائدا .

٣ـ ما هو الابن فى النص ؟

٤ـ لماذا لم يذكر بَرْنابا فى روايته وجود الابن وقتله ؟

٥ـ ذكر لوقا أنهم ثلاثة .

٦ـ فى إنجيل مرقس ١٢ : ٨ يُقتل الابن ، ويُلقى فى الخارج ، وفى متى ولوقا : يُلقى فى الخارج ، ويقتل .

٧ـ انفرد لوقا بذكر احتجاج العلماء على نزع الملكوت من بنى إسرائيل ، بقولهم : حاش .

وقد بينا : أن ملكوت الله هو سيادة شريعته على المؤمنين به من جميع

الامم، وأن الدعاة إلى ملكوته فى البدء هم بنو إسرائيل بشريعة موسى عليه السلام، وفى شريعته : أن بنى إسماعيل سيدعون إلى الله من بعدهم ، وأن النبى الذى سيظهر فيهم مثل موسى ، سيعطيه الله سلطانا ومجدا وملكوتا ، لتخضع الأمم لشريعته ، وأن سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول ، وملكوته مالا ينقرض . وعبّر بالسلطان عن الملك ، وعبر بالملكوت عن الشريعة ، وأوضحت جميع الأناجيل ، أن المسيح عيسى عليه السلام قال لعلماء بنى إسرائيل : إن السبب فى نزع الملكوت منكم : هو أنكم تقتلون أنبياء الله ، ولا تحكمون بالعدل ، ولا تنشرون شريعة الله بين الأمم .

وأوضحت جميع الأناجيل : أن المسيح عيسى عليه السلام أظهر حقيقة الملكوت القديم ، والملكوت الجديد ، وقال : إن ملكوت الله قريب ، واقتبس عبارات من نصوص التوراة وأسفار الأنبياء عن النبى الأمى الآتى ، ووضعها فى الأمثال التى ضربها عن مجئ ملكوت الله ، ووضعها أيضاً فى خطبه ووعظه وحديثه عنه .

وسنذكر من أمثاله أمثالاً ، وسنوضح مغزاها ومرماها :

[تم التمهيد]

مثل الزارع :

«خرج الزارع ليزرع زرعه ، وفيما هو يزرع ، سقط بعض على الطريق ، فانداس ، وأكلته طيور السماء وسقط آخر على الصخر ، فلما نبت ، جفّ ، لأن لم تكن له رطوبة ، وسقط آخر فى وسط الشوك ، فنبت معه الشوك وخنقه ، وسقط آخر فى الأرض الصالحة ، فلما نبت ، صنع ثمراً ، مئة ضعف .قال هذا ، ونادى: من له أذنان للسمع فليسمع .

فسأله تلاميذه قائلين : ما عسى أن يكون هذا المثل؟ فقال : لكم قد أعطى أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ، وأما للباقين ، فبأمثال ، حتى إنهم مبصرون لا يبصرون، وسامعين لا يفهمون »

وهذا هو المثل:

الزرع : هو كلام الله ، والذين على الطريق : هم الذين يسمعون ثم يأتى

إبليس ، وينزع الكلمة من قلوبهم ؟ لئلا يؤمنوا ، فيخلُصوا ، والذين هم على الصخر : هم الذين متى سمعوا ؟ يقبلون الكلمة بفرح ، وهؤلاء ليس لهم أصل ، فيؤمنون إلى حين ، وفى وقت التجربة يرتدُّون ، والذى سقط بين الشوك : هم الذين يسمعون ، ثم يذهبون ، فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولذاتها ولا ينضجون ثمرا ، والذى فى الأرض الجيدة : هم الذين يسمعون الكلمة، فيحفظونها فى قلب جيد صالح، ويثمرون بالصبر. وليس أحد يوقد سراجا ، ويغطيه بإناء أو يضعه تحت سرير ، بل يضعه على منارة لينظر الداخلون النور ، لأنه ليس خفىّ لا يُظهر، ولا مكتوم لا يُعلم ويُعلَن ، فانظروا كيف تسمعون ؟ لأن من له « سيُعطى، ومن ليس له ، فالذى يظنه له[1] ، ويؤخذ منه » [لو ٨ : ٥ -]

الشرح والبيان :

البذار : - وهو كلامه - عليه السلام - وكلام علماء بنى إسرائيل الذين آمنوا به عن ملكوت الله -:

١- سقط منه بعض على الطريق من قبل أن يوضع فى الحقول .

٢- وسقط منه بعض على الأرض الصخرية .

٣- وسقط منه بعض على الشوك ، و على من لم تهيئ جيداً للزراعة ، وفيها شوك وحسك وعشب كثير .

٤- وسقط منه بعض على الأرض الجيدة الصالحة للزراعة .

والذى يسقط على الطريق ، يشبه العلماء الذين يسمعون كلام الله عن الملكوت الملقى إليهم منه ، أو بواسطة الحواريين، ثم يصرفهم «إبليس» عن الاهتمام به ، والدعوة إليه . وهؤلاء لا يأتون بثمر ؟ لأنهم لا يجذبون غيرهم إلى الملكوت ولا يهتمون به .

والذى يسقط على الأرض الصخرية ، يشبه العلماء الذين يسمعون كلام الله عن الملكوت ، ويتحمسون للدعوة به ، وإذا أوذوا فى الله ، يتركون الكلام ولا

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب﴾ فى شأن محمد ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أن النبى الأمى الآتى سيكون من اليهود .

يدعون به، خوفا من الأذى ، وهؤلاء لا يأتون بثمر ؛ لأنهم خافوا من الناس ، فلم يدعوا .

والذى يسقط بين الشوك ، يشبه العلماء الذين يسمعون الكلام ، ويدعون به، ثم ينشغلون بالسعى على الأرزاق ، ويهتمون به ،أكثر من اهتمامهم بالدعوة ، ثم تأتى عليهم أيام ينسون فيها كلام الدعوة إلى الملكوت ، ويجدّون فى الحياة الدنيا ، فيكونون مع المال ، ولا يكونون مع الله ، وهؤلاء لا يأتون بثمر ؛ لأنهم تركوا الدعوة .

والذى يسقط على الأرض الجيدة ، يشبه العلماء الذين يسمعون كلام الله،وينادون بها ، ويتحملون الأذى فى سبيلها ، وهؤلاء يأتون بثمر كثير ، إذا صبروا على الدعوة ، ولم يخافوا من الناس .

ومراده بالثمر : إيمان الكثيرين بدعوتهم .

ثم قال عيسى عليه السلام :

إن الملكوت الآتى مع النبى الآتى ، هل سيكون فى بنى إسرائيل أم فى بنى إسماعيل ؟

إن بنى إسرئيل يظنون أنه سيكون فيهم ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، وهو لن يكون فيهم ، لأن الله تعالى سيضعه فى موضعه .

ووجه الاستدلال من هذا المثل :

أنه يتكلم عن «ملكوت الله » الآتى من بعده ، ويقول : إن كلامىِ عن الملكوت الآتى: من الناس من يقبله ، ومن الناس من لا يقبله . ثم يطلب من أتباعه: أن يتفرغوا لدعوة الناس إلى الدخول فى الملكوت من الآن ، وإذا ما جاء ، وأن يتحملوا الأذى فى سبيل الدعوة ، لأن بنى إسرائيل لا يريدونه فى بني إسماعيل عليه السلام ، يوضح هذا : أنه قال لواحد من بنى إسرائيل : اتبعنى ، فقال له : «يا سيد ، ائذن لى أن أمضى أوّلا ، وأدفن أبى ، فقال له يسوع : دع الموتى ، يدفنون موتاهم ، وأما أنت فاذهب وناد بملكوت الله ، وقال آخر أيضاً : أتبعك يا سيد ، ولكن ائذن لى أولا : أن أودّع الذين فى بيتى ، فقال له يسوع :

ليس أحـد يضع يده على المحـراث ، وينظر إلى الوراء ، يصلـح لملكوت الله» [لو ٩ :٥٩ـ]

وقال للدعـاة إلى الملكوت : اتركوا أموالكم ، وهاجروا فى سـبيل الله ،ولا تهتموا بالأكل ولا الشرب ، فإن الله سيعولكم .

وقد ظن كـثيـرون : أنه ينادى الناس جميعاً بالزهد فى الدنيا . وهذا ظن باطل، وذلك لأنه لا ينادى كل الناس بالزهد فيها وإنما هو يخصّ صنفـا من سبط لاوِى ، الذين هم علمـاء بنى إسرائيل ، للدعـوة معـه إلى اقتـراب ملكوت الله ؛ لأنهم مثله فى معرفة نبوءات التوراة عن النبى الآتى ، وإذا دخلوا بلدا فيها يهود ، يتكلمون عن الملكوت بنبـوءات التوراة عنه ، ويقول لهم : إن اليهـود سيطردونكم من أجل« ابن الإنسـان » من الوظائف الدينية ، فلا تهتموا بهم ، فإن الله سيعطيكم من فضله ، كما أعطى آباءكم المنّ والسلْوى من قبل ، فى زمان نبى الله موسى .

«وقال لتلاميـذه : من أجل هذا أقول لكم : لا تهتمـوا لحياتكم بما تأكلون ، ولا للجسد بمـا تلبسون ، الحياةُ أفـضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ، تأمّلوا الغِربان ، إنها لا تزرع ولا تحصد وليس لها مخدع ولا مخزن ، والله يُقيتها، كم أنتم بالحرىّ أفـضلُ من الطيور ؟ ومن منكم إذا اهتم يـقدر أن يزيد على قامـته ذراعاً واحدة ؟ فإن كنتم لا تقدرون ، ولا على الأصغر ، فلماذا تهتمون بالبواقى ؟ تأملوا الزنابق كيف تنمو ؟ لا تتعبُ ولا تغزلُ ، ولكن أقول لكم : إنه ولا سُليمان، فى كل مجـده كان يلبس كـواحدة منهـا ، فإن كـان العشْب الذى يُوجـد اليوم فى الحـقل، ويُطرح غدا فى التّنور ، يُلبِـسه الله هكـذا ، فكم بالحرىّ يُلبِـسكم أنتم يا قليلى الإيمان.

فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون ، وما تشربون ، ولا تقلقوا ،فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم ، وأمـا أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحـتاجون إلى هذه ، بل اطـلبوا ملكوت الله، وهذه تُزاد لكم»

وبين عيـسى عليه السلام : أن ملكوت الله ليس له ، وإنما هو لغـيره ، من بعده، فـقد روى لوقا : أنه عـيّن سبعين بعـد الاثنى عشر ، وأرسـلهم للدعوة إلى اقتراب ملكوت الله ، وميّز عليـه السلام بين أ ـ الداعى ب ـ والمدعو ، وقال : إن

الدعاة قليلون ، وإنهم لو كثروا وأخلصوا : لآمن كثيرون بما يقولون .

«وبعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضاً ، وأرسلهم اثنين ، اثنين ، أمام وجهه ، إلى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزمعا أن يأتى ، فقال لهم : إن الحصاد كثير ، ولكن الفعلة قليلون ، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده ، اذهبوا ، ها أنا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب ، لا تحملوا كيسا ، ولا مزودا ولا أحذية ولا تسلموا على أحد فى الطريق ، وأى بيت دخلتموه ، فقولوا أولا : سلام لهذا البيت ،فإن كان هناك ابنُ السلام ، يحلُّ سلامكم عليه ، وإلا فيرجع إليكم ، وأقيموا فى ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم ، لأن الفاعل مستحق أجره ، لا تنتقلوا من بيت إلى بيت ، وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم ، فكلوا مما يقدم لكم ، واشفوا المرضى الذين فيها . وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله ، وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم ، فاخرجوا إلى شوارعها ، وقولوا: حتى الغبارُ الذى لصق بنا من مدينتكم ، ننفضه لكم ، ولكن اعلموا هذا: أنه قد اقترب منكم ملكوت الله ...» [لو ١٠ : ١ ـ]

وفى إنجيل بَرنابا : اثنان وسبعون ، وفى ترجمة دار المشرق : «وبعد ذلك أقام الرب اثنين وسبعين» حسب النص اليونانى ، لا النص العبرى الذى يترجم بسبعين» ولماذا كتبوا : أنه كان للمسيح اثنا عشر ثم كان له سبعون ؟ لأنهم يريدون كذبا تشبيهه بموسى عليه السلام وذلك لأن موسى كان ملكا على أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر، وقال : إن نبيا مثلى سيأتى ليقيم الدين ، وهو يعنى به : نبيا من إخوتهم بنى إسماعيل ، وهم يريدون تطبيق قوله على عيسى عليه السلام ليختموا به النبوة فى بنى إسرائيل إلى الأبد ، فلذلك نسبوا له اثنا عشر حواريا ، كما كان لموسى اثنا عشر سبطا ، وموسى لما صعد إلى جبل طور سيناء لتلقى الشريعة كان معه سبعون من مشايخ بنى إسرائيل ، وقد جعلوا لعيسى نفس العدد ، ليقولوا : إن عيسى هو المماثل لموسى ولا نبى بعده .

الصلاة لله من أجل الملكوت :

وطلب عيسى عليه السلام من أتباعه أن يصلّوا لله تعالى : وأن يقولوا فى صلواتهم لله : «ليأت ملكوتك» كما كان يَعلَم الأنبياءُ : أن الله سينصرهم ، سواء دعوه أن ينصرهم ، أم لم يدعوه ، ومع ذلك كان الواحد منهم يقول : «اللهم

فنصرك الذى وعدتنى» وقولهم لله : «ليأت ملكوتك» هو دليل على ظهور الملكوت من بعده ، وهو دليل أيضاً على أن الملكوت إذا ما ظهر ، وصلى مصلى وقال : «ليأت ملكوتك » فإن صلاته تكون باطلة ، لأنها تكون فى غير زمانها ووقتها .

فقد روى لوقا : «وإذ كان يصلى فى موضع ، لما فرغ ، قال واحد من تلاميذه : يا رب ، علمنا أن نصلى ، كما علم يوحنا أيضاً تلاميذه [1] ، فقال لهم : متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السموات : ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك ، كما فى السماء كذلك على الأرض ، خُبْزَنا : كفافنا ، أعطنا كل يوم ، واغفر لنا خطايانا ، لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يُذنب إلينا ، ولا تُدخلنا فى تجربة ، لكن نجنا من الشِّرير» [لو ١١ : ١ ـ]

مثل الوكيل الأمين :

وهو مثل يبين أن ملكوت الله قريب ، وعبر عن قُربه

أ ـ بقوله عليه السلام : «لا تكمّلون مدن إسرائيل ، حتى يأتى ابن الإنسان» كناية عن سرعة مجيئه ، واقتراب زمانه .

ب ـ وبقوله «لا تخف أيها القطيع الصغير : لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت» وفى ترجمة : «لا تخف أيها القطيع الصغير : فقد حَسُن لدى أبيكم ، أن يُنعم عليكم بالملكوت»

يريد أن يقول : أن الملكوت سيدركه الصغار ، لأنه سيظهر وهم فى حالة الكبر . وذلك كناية عن اقتراب زمانه . ولذلك جاء فى بعض الأناجيل : «ليأت ملكوتك فينا» أى لندركه ، ونتمتع بخيراته ، وجاء فى إنجيل لوقا : «وبينما هم يُصغون إلى هذا الكلام ، أضاف إليه مثَلا ، لأنه قَرُب من أورشليم ، وكانوا يظنون أن ملكوت الله يوشك أن يظهر فى ذلك الحين» [لو ١٩ : ١١] وجاء فى سفر الأعمال : أن الحواريين كانوا ينتظرون الملكوت عاجلا [أع ١ :٦]

واستعارة الخراف هذه مألوفة فى التوراة ، لتمثيل بنى إسرائيل بأنهم شعب الله ، والمسيح يتحدث بلغتهم . فلذلك عبر عن الصغار بالخراف [تك ٤٨ : ١٥ هو

---

(١) لاحظ : كما علم يوحنا أيضا تلاميذه

١٦:٤ و ١٣ :٤ـ٦ ص٢:٦ـ٧ و ٧:١٤ صف ٣:١٩ إر ٣١:١٠ و ٥٠:١٩ حز ٣٤ إش ٤٠:١١ و٤٩:٩ـ١٠ وطبقها المسيح على بنى إسرائيل فى مت ٩:٣٦ مر ٦:٣٤ وعلى اليهود الخاطئين فى مت ١٠:٦ و١٥:٢٤ ولو ١٥:٤ـ٦ وعلى فريق التلاميذ متى ٢٦ :٣١ مر ١٤:٢٧ يو ١٠:١ـ١٦

ولأنه قال : «لا تخف أيها القطيع الصغير : لأن أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت» والملكوت حسب كلام النصارى لم يظهر بعد ، تجد مفسرى الإنجيل متحيرين فى إيجاد معنى لهذا القول .

كان علماء بنى إسرائيل يزعمون : أن الملكوت سيظهر فى بنى إسرائيل ، ويضطهدون من يقول بظهوره فى بنى إسماعيل ، وكان عيسى عليه السلام يعمل المعجزات أمامهم ، ليبين لهم : أنه رسول من الله ، وهو قد أرسله ليقول : إن الملكوت سيظهر فى بنى إسماعيل ، ومن أجل ذلك اضطهدوه ، وقالوا له : إن هذه المعجزات التى تعملها ليست من الله ، وإنما هى من الشيطان الرجيم الذى نلقّبه «بَعلَ زبّول» ورد عليهم بقوله : إن كنتُ أعمل المعجزات بواسطة بعلز بول : فإن ملكوت الله لن يأتى فيكم ، ولا فى غيركم ، وإن كنت أنا أعملها بواسطة الله ، فإن كلامى عن الملكوت صحيح ، فانظروا، وتأملوا فيه إذا جاء ، واحكموا أنتم ، حال ظهوره فى كلامى وكلامكم ، ثم قال : إن الشيطان إذا حلّ فى جسد رجل أوجسد امرأة ، فإنما يحلّ فيه لإرهاقه وهدّ قواه ، وهذا هو غرض الشياطين من بنى آدم ، فلو أننى استعنتُ بشيطان على إخراج شيطان ، لبطل غرض الشياطين، وانقسموا على أنفسهم ، هذا يحلّ فيه للضرر ، وهذا يريد إخراجه منه للنفع ، ومملكة الشياطين قائمة على الضرر ، لا على النفع ، وإذا انقسم الشياطين على أنفسهم ؛ بطل عملهم .

يقول لوقا : « وكان يُخرج شيطاناً ، وكان ذلك أخرس ، فلما أخرج الشيطان، تكلم الأخرسُ ، فتعجب الجموع ، وأما قوم منهم فقالوا : ببعلز بول رئيس الشياطين : يُخرج الشياطين . وآخرون ، طلبوا منه آية من السماء ، يُجرّبونه، فعلم أفكارهم ،وقال لهم : كل مملكة منقسمة على ذاتها ، تخربُ ، وبيت منقسم على بيت ، يسقط ، فإن كان الشيطان أيضاً ينقسم على ذاته ، فكيف تثبتُ مملكته ؟ لأنكم تقولون : إنى ببعلز بول أُخرج الشياطين ، فإن كنت أنا ببعلز

بول أخرج الشياطين ، فأبناؤكم بمن يُخرِجون ؟ لذلك هم يكونون قضاتكم ، ولكن إن كنت بإصبع الله أخرج الشياطين، فقد اقبل عليكم ملكوت الله» [لو ١١ : ١٤ـ] وفى رواية متى : «ولكن إن كنت أنا بروح الله ، أخرج الشياطين ، فقد أقبل عليكم ملكوتُ الله» [مت ١٢ : ١٧]

وروح الله وأصبع الله بمعنى واحد . وهو الكناية عن قدرة الله .

نص مثل الوكيل الأمين :

«لتكن أحقَاؤكم مُمنطَقَة ، وسُرُجكم مُوقدة ، وأنتم مثلُ أناس ينتظرون سيدهم ، متى يرجع من العُرس ، حتى إذا جاء وقرع ، يفتحون له ، للوقت ، طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيّدهم : يجدهم ساهرين ، الحقَّ أقولُ لكم : إنه يتمنطق ويُتّكئهم ، ويتقدم ويخدمهم ، وإن أتى فى الهزيع الثانى ، أو أتى فى الهزيع الثالث ، ووجدهم هكذا ، فطوبى لأولئك العبيد ، وإنما اعلموا هذا : أنه لو عرف ربّ البيت فى أية ساعة يأتى السارق ، لسهر ولم يدع بيته يُنقب ؟ فكونوا أنتم إذاً مستعدين ، لأنه فى ساعة لا تظنون ، يأتى ابن الإنسان .

فقال بطرس : يا ربُّ ألنا تقول هذا المثل ، أم للجميع ايضاً ؟

فقال الرب : فمن هو الوكيل ، الأمينُ الحكيم الذى يُقيمه سيّده على خدمه، ليعطيهم العُلُوفة فى حينها ؟ طوبى لذلك العبد ، الذى إذا جاء سيده ، يجده يفعلُ هكذا ، الحق أقول لكمْ : إنه يُقيمه على جميع أمواله ، ولكن إن قال ذلك العبد فى قلبه : سيدى يبطئ قدومه ، فيبتدئ بضرب الغلمان والجوارى ويأكل ويشرب ويسكر ، يأتى سيد ذلك العبد فى يوم لا ينتظره ، وفى ساعة لا يعرفها ، فيقطعه ويجعل نصيبه مع الخائنين ، وأما ذلك العبد الذى يعلم إرادة سيده ، ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته ، فيُضرب كثيرا ، ولكن الذى لا يعلم ويفعل ما يستحق ، ضربات يُضرب قليلا ، فكل مَنْ أعطى كثيرا ، يطلب منه كثير ، ومن يُودعونه كثيرا يطالبونه بأكثر » [لو ١٢ : ٣٥ ـ]

مغزى المثل :

واضح من قوله : «فكونوا أنتم إذاً مستعدين ، لأنه فى ساعة لا تظنون يأتى ابن الإنسان» أن « ابن الإنسان » هو صاحب ملكوت الله ، والوكيل الأمين : رمز

للعالِم الذى لا يخون دينه ، ويُعلِّم عن الملكوت باجتهاد شديد .

والسيد : رمز للنبى الآتى صاحب ملكوت الله .

والعبد الكافر الذى لا يؤمن بظهور الملكوت : رمز لعلماء اليهود الخونة .

والعبد الكسلان : رمز للذى يعلم ، ولا يعلّم .

وقد ذكر متى هذا المثل وهو يتحدث عن علامات مجئ ابن الإنسان ، ولم يذكر فيه شيئاً عن العبد الكسلان ، ولم يذكر سؤال بطرس ، ومن أول : «وأما ذلك العبد» إلى آخر النص غير موجود فى متى ، وذكر متى بعده مثل العذارى العشر ومثل الوزنات ، وهما للاستعداد لمجئ الملكوت .

مثل الشجرة الجدباء :

«وقال هذا المثل : كانت لواحد شجرة تين مغروسة فى كرمه ، فأتى يطلب فيها ثمرا ، فلم يجد ، فقال للكرام : هو ذا ثلاث سنين آتى ، أطلب ثمرا فى هذه التينة ولم أجد ، إقْطعها ، لماذا تُبطِّل الأرض أيضاً ؟ فأجاب وقال له : يا سيد ، اتركها هذه السنة أيضاً ، حتى أنقُب حَوْلها ، وأضع زِبْلا ، فإن صنعت ثمرا ، وإلا ففيما بعد : تقطعها» [لو ١٣: ٦-٩]

البيان :

هذا المثل عودة إلى الإنذار الذى سبق أن وجهه لعلماء بنى إسرائيل هو ويوحنّا المَعْمَدان ، فى قوله : «ما من شجرة جيدة تثمر ثمرا رديا ، ولا شجرة ردية تثمر ثمرا جيدا ، لأن كل شجرة تُعرف من ثمرها ، فإنهم لا يجتنون من الشوك تينا ، ولا يقطفون من العلّيق عِنبا» [لو ٦: ٣ - ٤٤] «فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا ، تقطع وتلقى فى النار» [لو ٣: ٩] وهذا يدل على أنهم لم يقوموا بواجب الملكوت الأول ، وأنهم لن يكونوا أصحاب الملكوت الآخر ، ومغزى المثل : هو التوبة والاستعداد لقبول ملكوت الله الآتى ، وإلا يتوبوا ، فإنهم يهلكون .

وقال بَرْنابا :

إن المسيح حذر الحواريين من الكسل فى الدعوة إلى اقتراب ملكوت الله ، وقال لهم : إذا تكاسلتم فإن الله وحده هو الذى سيعطيكم الجزاء على الكسل «لأن كل شجرة لا تثمر ثمرا صالحا : تُقطع وتلقى فى النار»

وقال المسيح : إن السّنة المهملة فى شجرة التين ، ستنجى الشجرة من القطع، لأنها ستثمر ، وغرضه من ذلك : أن الله لن يهلك علماء بنى إسرائيل فى زمانه، لأن منهم «بقية» آمنت به ، ودعت بدعوته ، ونابوا عن الكل فى الدعوة ، والدعوة عمل والإنسان مخلوق للعمل ، وإذا لم يعمل ، فإنه يهلك .

ففى الأصحاح الثالث عشر بعد المئة :

«ولما جاء التلاميذ ، أحضروا حقّ صنوبر ، ووجدوا بإذن الله مقداراً ، ليس بقليل من الرطب ، وبعد صلاة الظهر ، أكلوا مع يسوع ، فلما رأى من ثَمّ الرسل والتلاميذ مع من يكتب عنه كالح الوجه ، خشوا أن يكون قد وجب على يسوع الانصراف من العالم سريعا ، فعزّاهم من ثَمّ يسوع قائلا: لا تخافوا ، لأن ساعتى لم تحن حتى الآن ، لكى أنصرف عنكم ، فسأمكث معكم زمانا يسيرا بعدُ ، فلذلك يجب أن أعلّمكم الآن ـ كما قد قلت وسط كل إسرائيل ـ لتبشروا بالتوبة ، ليرحم الله خطيئة إسرائيل ، وليحذر كل أحد الكسل ، وخصوصا من يستعمل العقوبة البدنية، لأن كل شجرة لا تثمر ثمرا صالحا ، تقطع وتُلقى فى النار .

كان لأحد الأهالى كرم ، فى وسطه بستان ، فيه شجرة تين ، ولما لم يجد فيها صاحبها ثمرا ـ عندما كان يجئ ـ مدة ثلاث سنين ، ولما كان يرى أن كل شجرة أخرى ، أثمرت قال لكرّامه : اقطع هذه الشجرة الرديئة ، لأنها تثقل علىّ الأرض.

فأجاب الكرام : ليس كذلك يا سيدى ، لأنها شجرة جميلة ، فقال له صاحب الأرض : صه ، فإنه لا يهمنى الجمال بغير جدوى ، وأنت يجب أن تعرف أن النخل والبلسان ، هما أجمل من التينة ، ولكنى غرستُ سابقا فى صحن دارى فسيلا من النخل ، ومن البلسان ، وأحطتهما بجدران نفيسة ، ولكنهما لما لم يحملا ثمرا ، بل أوراقا تراكمت ، وأفسدت الأرض أمام الدار ،أمرتُ بنقلهما كليهما ، أفاعفو إذاً عن شجرة تين بعيدة عن الدار ، تثقل علىّ بستانى ، وعلىّ كرمى ، حيث كل شجرة أخرى تحمل ثمرا ؟ إننى لا أحتملها فيما بعد .

فقال حينئذ الكرّام : يا سيد إن التربة لمخصبة جداً ، فانتظر إذاً سَنَة أخرى ، فإنى أشذّب أغصان شجرة التين ، وأزيل عنها التربة المسمدة ، وأضع تربة فقيرة وحجارة . أجاب صاحب الأرض : فاذهب إذاً ، وافعل هكذا ، فإنى منتظر ،

وستحمل التينة ثمرا . أفهمتم هذا المثل ؟ أجاب التلاميذ : كلا ، يا سيد ، فسره لنا .

أجاب يسوع : الحق أقول لكم : إن صاحب الملك : هو الله ، والكرّام : شريعته ، فكان عند الله إذاً في الجنة النخل والبِلْسان ، لأن الشيطان هو النخل ، والإنسان الأول هو البلسان ، فطردهما كليهما ، لأنهما لم يحملا ثمرا من الأعمال الصالحة ، بل فاها بألفاظ غير صالحة كانت قضاء على ملائكة وأناس كثيرين ، ولما كان الله قد وضع الإنسان في وسط خلائقه التي تعبده كلها بحسب أمره ، فإذا كان كما قلتُ : لايحمل ثمرا ، فإن الله يقطعه ويدفعه إلى الجحيم ، لأنه لم يعف عن الملاك والإنسان الأول فنكّل بالملاك تنكيلا أبدياً وبالإنسان إلى حين . فتقول من ثَمّ شريعة الله : إن للإنسان طيبات أكثر مما يجب في هذه الحياة ، فوجب عليه إذاً أن يحتمل الضيق ويحرم من الطيبات العالمية ، ليعمل أعمالا صالحة ، وعليه فإن الله يمهل الإنسان ليتوب ، الحق أقول لكم : إن إلهنا قضى على الإنسان بالعمل ، للغرض الذي قاله أيوب خليل الله ونبيه : « كما أن الطير مولودة للطيران ، والسمك للسباحة ، هكذا الإنسان مولود للعمل»(١)

وهكذا يقول داود أبونا نبي الله : «لأننا إذا أكلنا تعب أيدينا ، نُبارك ، ويكون خير لنا»(٢)

لذلك يجب على كل أحد أن يعمل بحسب صفته ، ألا فقولوا لي : إذا كان أبونا داود ، وابنه سليمان ، اشتغلا بأيديهما ، فماذا يجب على الخاطئ أن يفعل؟ [بر ١١٤ : ١ -]

وليس من المصادفة أن يضرب المثل بسنين أربعة ، وذلك لأن المدة من موسى إلى عيسى حسب حسابهم ألف وخمسمائة وأحدى وسبعون سنة ، فالمدة بالتقريب ألفان ، لكل خمسمائة سنة ، أعطى بالمثل سنة .

مثل حبة الخردل :

وهو الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ومثلهم في

(١) أيوب ٥ : ٧ والنص هو : «ولكن الإنسان مولود للمشقة ، كما أن الجوارح لارتفاع الجناح»

(٢) مزمور ١٢٨ : ٢ والنص هو : «لأنك تأكل تعب يديك ، طوباك ، وخير لك»

الإنجيل كزرع ، أخرج شطئه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ﴾

ولم يرد هذا المثل فى يوحنا وبَرْنابا ، وإنما ورد فى مـتّى ومَرْقس ولوقـا ، ونصّه فى لوقا هو : «ماذا يُشبه ملكوت الله ؟ وبماذا أشبـهه ؟ يشبه حبة خَرْدل ، أخذها إنسان ، وألقاها فى بستانه : فنمت ، وصـارت شجرة كبيرة ، وتآوت طيور السماء فى أغصانها» [لو ١٣ : ١٨ ـ ١٩]

البيان :

أخذ عيسى عليه السلام تشبيه ملك محمد صلى الله عليه وسلم بالشجرة ، من التوراة من سفر النبى المعظم دانيال ، ففى تفسيره لحلم «بَلْطشاصَّر» الملك ، قال له : «الشـجرة التى كبـرت وقويت وبلغ علّوها إلى السـمـاء ، ومنظرها إلى كل الأرض ، وأوراقها جـميلة ، وثمرها كثـير ، وفيهـا طعام للجميع ، وتحتها سكَن حيوان البـر ، وفى أغصانها سكنت طيور السـماء : إنما هى أنت يا أيها الملك الذى كبرت وتقويت ، وعظمتك قـد زادت ، وبلغت إلى السماء ، وسلطانك إلى أقصى الأرض» [دا ٤ : ٢٠ ـ ٢٢] وأيضاً : هذا التشبيه الذى يدل على قدرة الملوك العظماء مـوجود فى حـزقـيال ١٧:٢٣ و٣١:٦ وهو يدل على انتـشـار الملكوت الآتى بين شعوب العالم . ويقول النصارى : إنه يدل على انتشار الإنجيل بين شعوب العالم ، وقولهم باطل ، لأن الإنجيـل يبشر باقتراب الملكوت ، وليس هـو كتاب الملكوت ، فإن للملكوت كتابه المهيمن على كـتاب موسى ، وهو كتاب القرآن الكريم ، والمثل يبين بداءة الإسلام ونموه رويدا رويدا ، حتى ملأ الأرض كلها .

أمثال الرحمة للخاطئين :

تمهيد :

كان علماء بنى إسرائيل من طائفة الفَرِيّسيين ، يكرهون عيسى عليه السلام ، لأنه خالفـهم فى أمر النبى المنتظر ولأنه شـتمـهم لسوء سلوكهم ، وتكـبرهم على خلق الله ، وكـان يقول للحواريين عـنهم: «الا قولوا لى : هل فَرِّيسـيُّو اليوم هم فريسـيُّون؟ هل هم خدم الله ؟ لا ، لا ، ألبتَّة ، بل الحق أقـول لكم : إنه لا يوجد هنا على الأرض شرٌ من الا يسـتر الإنسان نفـسه بالعلم ، ووشاح الدين ١ لـيخفى خبثه»

وحكى لوقا فى إنجيله : إن الفَرِّيسى ، كان يتجنب مخالطة الخطاة والفسقة ، ولا يقترب منهم ، لوعظهم وتخويفهم من الله ، فكان الخطاة يزدادون خطأ ، وكان الفريسى يخطئ مثلهم خطأين : الخطأ الأول : أنه إذا خلا بنفسه ، وابتعد عن أعين الناس ، سرق وزنا وعمل كل شر ، والخطأ الآخر : أنه لما ابتعد عن وعظ الخطاة ، تسبب فى ترويع الآمنين بالخطاة ، وضياع ثرواتهم ، وأظهر لهم : أنه بخيانته لدينه، هو معهم فى فعل الشر ، لأن من يجرم فى واحدة من مناهى الله ، كان قد أجرم فى الكل .

ومن كلامه لهم : « أيها الفريسيون ، إنكم تطهّرون ظاهر الكأس والصحفة، وباطنكم ممتلئ نهبا وخبثا . أيها الأغبياء ، أليس الذى صنع الظاهر قد صنع الباطن أيضاً ؟ فتصدقوا بما فيهما ، يكن كل شئ لكم طاهرا ..الويل لكم ، أنتم أشبه بالقبور التى لا علامة عليها ، يمشى الناس عليها ، وهم لا يعلمون»

وفى ترجمة أخرى : «أنتم الآن أيها الفريسيون تُنقّون خارج الكأس والقصعة ، وأما باطنكم فمملوّ اختطافا وخبثا ، يا أغبياء ، أليس الذى صنع الخارج صنع الداخل أيضاً ، بل أعطوا ما عندكم صدقة ، فهو ذا كل شئ يكون نقيا لكم ..»{لو ١١ : ٣٩ ـ }

وتنص التوراة على أن رجل الدين إذا قصّر فى الدعوة ، يحمل ذنبين ، ذنب التقصير ، وذنب مساوى لذنب الخاطئ ، ففى سفر النبى حزقيال :

«إذا قلتُ للشّرير : موتا تموتُ ، وما أنذرتَهُ أنت ، ولا تكلمت إنذارا للشرير من طريقه الرديئة ، لإحيائه ، فذلك الشرير ، يموت بإثمه . أما دمه ، فمن يدك أطلبه ، وإن أنذرتَ أنت الشرير ، ولم يرجع عن شره ، ولا عن طريقه الرديئة ، فإنه يموت بإثمه ، أما أنت ، فقد نجيتَ نفسك . والبارُّ إن رجع عن بره ، وعمل إثما، وجعلتَ معثرة أمامه ، فإنه يموت ، لأنك لم تنذره ، يموت فى خطيته ، ولا يذكر بره الذى عمله ، أما أنا فمن يدك أطلبه ، وإن أنذرتَ أنت البار من أن يخطئ البار ، وهو لم يخطئ ، فإنه حياة يحيا ، لأنه أُنذر ، وأنت تكون قد نجيت نفسك» {حز ٣ : ١٨ ـ ٢١}

اليهود والأمم :

اليهودى العبرانى المتظاهر بالغيرة على الشريعة ، يكره اليهودى السامرى ،

ويكره اليهودي العبراني المتظاهر بالفسق ، ويكره الأعمى ، ويكره الإسماعيلي ، ويكره المصري ، والكنعاني ، والأعجمي ، واليوناني والروماني ، ويقول : ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي : يحل لليهودي أكل أموال الأمم ، والاستعلاء عليهم، والتعدي على حرماتهم ، وهم يُعدون بني إسماعيل عليه السلام من الأمم، الذين هم في نظرهم كالكلاب النجسة ، ويقولون : إن ملكوت الله الآتي لن يكون للأمم فيه نصيب ، يعنون : أنه لن يظهر في بني إسماعيل عليه السلام[1] ويرد النصارى عليهم :بأن الأمم سيكون لهم فيه نصيب ، ولكن صاحبَ الملكوت سيكون من اليهود ، وهم يعنون بالأمم كل من يدخل في النصرانية سواء أكان من بني إسماعيل أم من اليهود ، أم من العجم ، فكلمة «الأمَم» عند اليهود ، في الملكوت الآتي ، لها معنى ، وهو استبعاد جميع الأمم منه ، وعند النصارى لها

---

(١) والدليل على أنهم يعنون بني إسماعيل عليه السلام : هو أن بني إسرائيل كانوا يدعون الأمم بشريعة موسى من أيامه إلى سبي بابل ، بالجهود المنظمة ، ومن سبي بابل إلى عيسى عليه السلام بواسطة الملبه بقبط ، وقد سجل عيسى عليه السلام ذلك في قوله : «تطوفون البر والبحر لتكسبوا دخيلا واحدا. . .» فإذا ظهر الملكوت فيهم فما هي الفائدة منه ، وقد كان معهم ملكوت ولم يقوموا به؟ وإذا ظهر في الأمم ، فإما أن يكون في بني إسماعيل أو في غيرهم ، ولا يمكن أن يكون في غيرهم، لأن بني إسماعيل يعرفون الله ، ويعظمون الكعبة ، ولهم بركة كبركة بني إسرائيل ، ففي التوراة يقول الله تعالى لإبراهيم عليه السلام : «وأما إسماعيل ، فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه. . .»

وفي الإنجيل : يقابل المسيح بين جيلين ، جيل أبناء الدهر ، وهم اليهود ، وجيل أبناء النور . وهم الإسماعيليون المبارك فيهم .

فيقول :

مثل وكيل الظلم :

«وقال أيضاً لتلاميذه : كان إنسان غني له وكيل ، فوُشي به إليه : بأنه يبذّر أمواله ، فدعاه ، وقال له : ما هذا الذي أسمع عنك ؟ أعط حساب وكالتك ، لأنك لا تقدر أن تكون وكيلا بعد» إلى أن قال : « فمدح السيد وكيل الظلم إذ بحكمة فعل . لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم » ثم قال :« وأنا أقول لكم : اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم ، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية ، الأمينُ في القليل : أمين أيضاً في الكثير ، والظالم في القليل ، ظالم أيضاً في الكثير ، فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم ، فمن يأتمنكم على الحق » ؟[لوقا ١٦]

معنى ، وهو دعوة الأمم إليه فى المسيح ، والكل يتفق على أمرين : الأمر الأول : أن صاحب الملكوت الآتى سيكون من بنى إسرائيل ، سواء أكان هو المسيح عيسى أم غيره ، والأمر الآخر : أن اليهود يريدون استبعاد الأمم من الدخول فى دين النبى الآتى صاحب الملكوت ، وأن النصارى لا يستبعدونهم .

وعلى هذا ، فإنه إذا قال عيسى عليه السلام لليهود : إن ملكوت الله يُنزع منكم ، ويُعطى لأمة غيركم تقوم به ، وتهوى إليه الأمم ، يقول اليهود : حاشا ، أى لن يكون ذلك ، لأنهم يعلمون أن مراده بالأمة الأخرى : أمة بنى إسماعيل ، لا جميع الأمم ، ويقول النصارى : حقا إن الملكوت سيُعطى لأمة أخرى : لكنها ليست أمة بنى إسماعيل ، بل جميع أمم الأرض . فالكل متفق على إبعاد الملكوت عن بنى إسماعيل ، وإلصاقه باليهود بهتانا وزورا .

وعلى هذا المعنى ، يشرحُ النصارى الإنجيل ، ويجعلون المقابلة بين بنى إسرائيل والأمم ، ويشرحه المسلمون ، ويجعلون المقابلة بين بنى إسرائيل وبنى إسماعيل فقط ، ثم وهم يلزمون النصارى بما يألفون ويعتقدون .

يقولون لهم : سنجعل المقابلة بين بنى إسرائيل والأمم ، فإن بنى إسماعيل من الأمم ، وبنو إسماعيل والأمم ـ عندكم ـ سواء فى الضلال ، من قبل محمد صاحب الملكوت ، وهذا من المسلمين استدراج لهم بما يألفون ويعتقدون ، وفى الحقيقة يجعل المسلمون المقابلة بين اليهود وبين الإسماعيليين فقط ، ويوضح هذا :

مثل الابن الضال ، فهو يبين أنه كان لأب ولدان ، أحدهما : ترك بيت أبيه وأسرف على نفسه ، والآخر بقى معه وكان معتلا ، ولما تاب المسرف ورجع إلى أبيه، فرح به ، ولم يفرح برجوعه الابن ، وهذا المثل يوضح أن الله يقبل التوبة من عباده ، سواء أكان التائب من اليهود أم كان من الأمم ، ويوضح أيضاً : أن الابنين هما رمزان عن إسحق وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ فإذا قال مفسر : إن الله يقبل التوبة من عباده ،أى من جميع الأمم ، فبنو إسماعيل منهم ، لأنهم كانوا ضالين ، فهداهم الله ، وإذا قال مفسر : إنهما رمزان للنبى الذى أتى من إسحق وهو موسى وللنبى الذى سيأتى من إسماعيل وهو محمد ، فإسماعيل له بركة .

وأمثال الرحمة للخاطئين :

وهي ١ـ مثل الخروف الضال ٢ـ والدرهم المفقود ٣ـ والابن الضال .

تبين : أن علماء بني إسماعيل لما تكاسلوا في نشر الشريعة ، ظهر في كل الأمم خطاة ، والله تعالى لا يُسر بهلاك الخاطئ ، وإنما يُسر برحمته ، وهو من أجل رحمته بهم، يريد دعاة لهم ، يفرحون بتوبة الخطاة ، كما يفرح بها الله ، وإذا ظهر الملكوت الآتي ونشط الدعاة في الدعوة ، فإنهم سيجذبون إلى الأخيار كثيرين من فعلة الشر ،وذلك عكس ما يفعله علماء بني إسرائيل ، فإنهم يترفعون عن مخالطة الخطاة ، ويتجنبون عن مخالطة الأمم ، وعلى ذلك لايفرح علماء بني إسرائيل بتوبة الخاطئ ، ويفرح بها علماء الملكوت الآتي .

فكان المسيح عيسى عليه السلام يعزى بني إسرائيل في نزع الملكوت منهم بقوله : إن رحمة الله للخاطئين ، هي السبب في نزع الملكوت منكم . ذلك قوله : «لأن للكلمة قوة على أن تحمل نفسا على التوبة ، على حين أن الأموال لا تقدر أن ترد الحياة للميت ، وعليه ، فإن من له قدرة على مساعدة فقير ، ثم لم يساعده ، حتى مات الفقير جوعا ، فهو قاتل ، ولكن القاتل الأكبر : هو من يقدر بكلمة الله على تحويل الخاطئ للتوبة ، ولم يحوله ، بل يقف كما يقول الله ككلب أبكم . ففي مثل هؤلاء يقول الله : أيها العبد الخائن منك أطلب نفس الخاطئ الذي يهلك، لأنك كتمت كلمتي عنه .

فعلى أية حال إنما يكون الكتبة والفريسيون ، الذين معهم المفتاح ، ولا يدخلون ، بل يمنعون الذين يريدون الدخول في الحياة الأبدية ؟ »

ملائكة الله :

وملاك الله على الحقيقة: هو جسم نوراني لطيف قادر على التشكّل بالأشكال الحسنة ، وملاك الله على المجاز: هو الإنسان الطاهر ، على حدّ قوله تعالى: ﴿ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم﴾ وفي التوراة عن النبي الأمي الآتي ، أن أتباعه ملائكة ، أي : رجال طاهرون ، كما في نبوءة البركات الثلاث ، وفي الإنجيل: تجد أن عيسى عليه السلام وهو يذكر علامات مجئ ابن الإنسان يقول: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده ، وجميع الملائكة القديسين معه» [مت ٢٥ : ٣١]

وفى أمثال الرحمة للخاطئين : يقول عيسى عليه السلام : إن النبى الآتى صاحب الملكوت ، سيفرح أتباعه ـ وكلهم متعلمون من الله ـ بتوبة الخطاة ، كما يفرح الزارع بزرعه ، وذلك لأنهم يعظونهم ويهدونهم إلى الله ، الذى يفرح بتوبتهم أيضاً ، وهذا واضح من النصوص الآتية :

١ـ فى مثل الخروف الضال :

«حينئذ اجتمع الكتبة والفريسيون ، فقال لهم يسوع : قولوا لى : لو كان لأحدكم مئة خروف وأضاع واحدا منها ، ألا ينشده تاركا التسعة والتسعين ؟ ومتى وجدته ، ألا تضعه على منكبيك ؟ وبعد أن تدعو الجيران ، تقول لهم : افرحوا معى : لأنى وجدت الخروف الذى فقدته ، حقا إنك تفعل هكذا .

ألا قولوا لى : أيحب الله الإنسان أقل من ذلك ، وهو لأجله قد خلق العالم؟ لعمر الله ، هكذا يكون فرح فى حضرة ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب ، لأن الخطاة يُظهرون رحمة الله .

قولوا لى : من هم أشد حبا للطبيب ؟ الذين لم يمرضوا مطلقا ، أم الذين شفاهم الطبيب من أمراض خطرة ؟ قال له الفرّيسيون ، وكيف يحب الصحيح الطبيب ؟ حقا إنه لا يحبه ، لأنه ليس بمريض ، ولما لم تكن له معرفة بالمرض ، لا يحب الطبيب إلا قليلا ، حينئذ تكلم يسوع بحدة الروح قائلا : لعمر الله إن لسانكم يدين كبرياءكم ، لأن الخاطئ التائب يحب إلهنا أكثر من البار ، لأنه يعرف رحمة الله العظيمة به ، لأنه ليس للبار معرفة برحمة الله ، لذلك يكون الفرح عند ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين بارا» [بر ١٠٢: ١٤ ـ]

وجاء فى لوقا : أن المسيح قال لعلماء اليهود : أنتم مثل الملح ، لا يستغنى عنكم أحد ، ولكن إذا فسد الملح ، فإنه يُلقى فى الشوارع ليداس بأرجل المارة ، لأنه إذا فسد ، لا يمكن إصلاحه ، ولا يمكن وضعه فى الأراضى الزراعية ليقوى النباتات ، ولا يمكن وضعه فى سماد أو زبل لتقوية الأراضى .

وغرضه من هذا التشبيه : أن ملكوت الله سينتقل إلى أمة أخرى ، لأنه لا يمكن إصلاح قلوب علماء بنى إسرائيل . و كانوا يتذمّرون منه ، لأنهم يعرفون : أن الكلام عليهم ، وأنهم لن يتواضعوا مع الخطاة .

يقول عيسى عليه السلام : «الملح جيّد ، ولكن إذا فسد الملح ، فبماذا يُصلح؟ لا يصلُح لارض ولا لمزبلة ، فيطرحونه خارجا ، من له أذنان للسمع ، فليسمع ، وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ، ليسمعوه ، فتذمّر الفريسيون والكتبة ، قائلين : هذا يقبل خطاة ويأكل معهم ، فكلمهم بهذا المثل قائلا :

أىُّ إنسان منكم له مئة خروف ، وأضاع واحدا منها ، ألا يترك التسعة والتسعين فى البرية ، ويذهبَ لأجل الضالّ حتى يجده ؟ وإذا وجده ، يضعه على منكبيه فرحا ، ويأتى إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران قائلا لهم : افرحوا معى ، لأنى وجدت خروفى الضال ، أقول لكم : إنه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا ، لا يحتاجون إلى توبة »

١ ـ مثل الدرهم المفقود :

« أو أيّة امرأة لها عشرة دراهم إن أضاعت درهما واحدا ، ألا توقد سراجا وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده ، وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلة : افرحن معى ، لأنى وجدتُ الدرهم الذى أضعته ، هكذا أقول لكم : يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب» [لو ١٤ : ٣٤ ـ]

انظر إلى قوله عليه السلام : «إنه هكذا يكون فرح فى السماء» وقوله : «يكون فرح قدام ملائكة الله» هذا فى رواية لوقا ، وفى الرواية السابقة : «الفرح عند ملائكة الله» ـ «فرح فى حضرة ملائكة الله»

فهل الفرح فى السماء أم الفرح عند ملائكة الله ؟ وعقب رواية مثل الابن الضال : «لعمر الله هكذا يكون فرح بين ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب»

وفى مثل الدرهم المفقود فى ترجمة دار المشرق : «هكذا يفرح ملائكة الله» أى أن الفرح يكون من الملائكة فقط ، وفى تعليقهم على العبارة يقولون : «الترجمة اللفظية : «هكذا يُفرح أمام ملائكة الله» المقصود : هو فرح الله [راجع ١٢ : ٨+] وهو يُشرك فيه ملائكته» أ هـ .

ويعنون براجع ١٢ : ٨+إلى أن المسيح قال للحواريين عن ملكوت الله : «وأقول لكم : كل من شهد لى أمام الناس ، يشهد له ابنُ الإنسان أمام ملائكة الله، ومن أنكرنى أمام الناس ، يُنكر أمام ملائكة الله» [١٢ : ٨ ـ ٩]

يريد أن يقول : إن من يذيع كلامى على وجهه الصحيح عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن محمدا إذا جاء يشهد له أمام أتباعه الأطهار بأنه أذاع الحق . وقد حدث هذا . فإن الذين كتبوا أناجيلهم على الحق ، تدل أناجيلهم ـ وهى تنوب عن أشخاصهم ـ على أنهم قالوا الحق ، ومن يسمع القرآن ـ وهو ينوب عن النبى ـ يجد فيه : أن محمدا ، قد مدح الذين كتبوا عنه ، وأثنى عليهم ، وشهد لهم بالصدق، وحث أتباعه على التشبه بهم ، وذلك مذكور فى سورة الصفّ .

٢ـ مثل الابن الضال :

« كان لأب ابنان ، فقال أصغرهما : يا أبت أعطنى نصيبى من المال ، فأعطاه أبوه إياه ، فلما أخذ نصيبه ، انصرف وذهب إلى كورة بعيدة حيث بذّر كل ماله على الزانيات بإسراف ، فحدث بعد ذلك جوع شديد فى تلك الكورة ، حتى أن الرجل التعيس ذهب ليخدم أحد الأهالى ، فجعله راعيا للخنازير فى ملكه ، وكان وهو يرعاها يخفف جوعه بأكل ثمر البلوط ، مع الخنازير ، ولكنه لما رجع إلى نفسه، قال : كم فى بيت أبى : من فى سعة عيش ، وأنا أهلك هنا جوعا ، لذلك فلأقم ولأذهب إلى أبى ، وأقل له : يا أبت أخطأت فى السماء ، إليك ، فاجعلنى كأحد خدمك .

فذهب المسكين وحدث أن أباه رآه قادما من بعيد ، فتحنن عليه ، فذهب لملاقاته ، ولما وصل إليه ، عانقه وقبّله ، فانحنى الابن أمام أبيه ، قائلا : يا أبت لقد أخطأت فى السماء ، إليك ، فاجعلنى كأحد خدمك ، لأنى لست مستحقا أن أدعى ابنك .

اجاب الأب : لا تقل يا بنى هكذا ، فإنك ابنى ، ولا أسمح أن تكون عبدا لى ، ثم دعا خدمه وقال : أخرجوا الحُلَل ، وألبسوا ابنى إياها ، وأعطوه سراويل جديدة ، واجعلوا الخاتم فى إصبعه ، واذبحوا حالا العجل المسمّن ، فنطرب ، لأن ابنى هذا كان ميتا ، فعاش ، وكان ضالا فوّجد .

وحينما كانوا يطربون فى البيت ، إذ بالبكر جاء إلى البيت ، فلما سمعهم يطربون فى الداخل ، تعجب ، فدعا أحد الخدم وسأله : لم كانوا فى مثل هذا الطرب ؟

أجاب الخادم : لقد جاء أخوك ، فذبح العجل المسمّن ، وهُمْ فى طرب ، فلما سمع البِكر هذا تغيظ تغيظًا شديدا ، ولم يدخل البيت ، فخرج أبوه إليه ، وقال له : يا بنى لقد جاء أخوك فتعال إذاً وافرح معنا .

أجاب الابن بغيظ : لقد خدمتك خير خدمة ، فلم تعطنى قط حَمَلا لأفرح مع أصدقائى ، ولكن لما جاء هذا الخسيس ، الذى انصرف عنك مبذرا نصيبه كله على الزانيات ، ذبحت العجل .

أجاب الأب : يا بنى أنت معى فى كل حين ، وكل مالى ، فهو لك ، ولكن هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوُجد ، فازداد الكبير غضبا وقال : اذهب، وفز ، فإنى لا آكل على مائدة الزناة ، وانصرف عن أبيه دون أن يأخذ قطعة واحدة من النقود .

ثم قال يسوع: لعمر الله ، هكذا يكون فرح بين ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب» [بر ١٢٦ : ٧ -]

الخطاة والأبرار فى الملكوت الأكى :

كان رجل يسمى زَكّا فى بنى إسرائيل ، وكان قصير القامة ، وكان من فئة العشّارين ، وهم المرابون الذين يأخذون من الناس أموالا بغير حق .وهم فى نظر الناس خُطاة ومذنبون ، هذا لما أراد أن يرى المسيح عيسى عليه السلام وهو قصير القامة ، تسلّق شجرة جميز ، وانتظر مروره وهو عليها ، فلما مر عليه ، رفع عينيه نحوه ، وقال : انزل يا «زكا» لأنى سأقيم فى بيتك ، فنزل الرجل وقبله بفرح وصنع له وليمة عظيمة . فتذمّر الفَرّيسيون قائلين لتلاميذه : لماذا يذهب معلمكم ليأكل مع العشّارين والخطاة ؟ فأجاب وقال : لأى سبب يذهب الطبيب إلى بيت المريض ؟ قولوا لى : أقل لكم لماذا ذهبت إلى هناك ؟ أجابوا : ليشفى المرضى .

فقال يسوع : لقد قلتم الحق : فإنه لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب ، بل المرضى فقط ، لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته : إن الله يرسل أنبياءه وخدامه إلى العالم ، ليتوب الخطاة ، ولايرسلهم لأجل الأبرار ، لأنه ليس بهم حاجة إلى التوبة ، كما أنه لا حاجة بمن كان نظيفا إلى الحمام .

وعندئذ قال زكّا لعيسى عليه السلام : يا سيد ، انظر ، فإنى أعطى حبا فى

الله أربعة أضعاف ما أخذتُ بالربا ، ورد عليه بقوله : «اليوم حصل خلاص لهذا البيت ، حقا ، حقا ، إن كثيرين من العشارين والزوانى والخطأة ، سيمضون إلى ملكوت الله ، وسيمضى الذين يحسبون أنفسهم أبرارا إلى اللهب الأبدية»

فلما سمع الفريسيون هذا ، انصرفوا حانقين ، ثم قال عيسى عليه السلام للذين تحولوا إلى التوبة ولتلاميذه : «كان لأب ابنان[1]، فقال أصغرهما : يا أبت أعطنى نصيبى من المال ، فأعطاه أبوه إياه . . الخ»

وبعدما فرغ من ذكر مثل الابن الضال ، قال : «لعمر الله هكذا يكون فرح بين ملائكة الله بخاطئ واحد ، يتوب»

---

(١) مثل الابن الضال فى رواية لوقا ١٥ :

«إنسان كان له ابنان ، فقال أصغرهما لأبيه : يا أبى أعطنى القسم الذى يصيبنى من المال ، فقسم لهما معيشته ، وبعد أيام ليست بكثيرة ، جمع الابن الأصغر كل شئ ، وسافر إلى كورة بعيدة ، وهناك بذّر ماله بعيش مُسرف ، فلما أنفق كل شئ ، حدث جوع شديد فى تلك الكوره . فابتدأ يحتاج ، فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورة ، فأرسله إلى حقوله ليرعى خنازير ، وكان يشتهى ان يملأ بطنه من الخُرنوب ، اللى كانت الخنازير تأكله ، فلم يعطه احد ، فرجع إلى نفسه وقال كم من اجير لابى يَفْضل عنه الخبز ، وانا اهلك جوعا ، اقوم و اذهب إلى ابى واقول له يا ابى اخطأت إلى السماء وقدامك ، ولستُ مستحقا بعد ان ادُعى لك ابنا ، اجعلنى كأحد أجراك ، فقام وجاء إلى ابيه ، وإذْ كان لم يزل بعيدا ، رآه ابوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله ، فقال له الابن : يا ابى اخطأت إلى السماء وقدامك ولستُ مستحقا بعدُ أن أدعى لك ابنا ، فقال الأب لعبيده : اخرجوا الحلة الاولى والبسوه واجعلوا خاتما فى يده وحذاء فى رِجليه ، وقدموا العجل المسّمن واذبحوه ، فنأكل ونفرح ، لأن ابنى هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد ، فابتدأوا يفرحون ، وكان ابنه الأكبر فى الحقل ، فلما جاء وقرب من البيت، سمع صوت آلات طرب ورقصا ، فدعا واحدا من الغلمان وسأله ما عسى ان يكون هذا ؟ فقال له : اخوك قد جاء فذبح ابوك العجل المسمن ، لأنه قبله سالما ، فغضب ولم يرد ان يدخل ، فخرج ابوه يطلب إليه ، فأجاب وقال لأبيه : ها أنا أخدمك سنين ، هذا عددها ، وقط لم اتجاوز وصيتك وجديا لم تعطنى قط ، لأفرح مع اصدقائى ولكن لما جاء ابنك هذا الذى اكل معيشتك مع الزوانى ذبحت له العجل المسمن ، فقال له : يا بنى أنت معى فى كل حين وكل مالى فهو لك ، ولكن كان ينبغى ان نفرح ونسر ، لأن اخاك هذا كان ميتا فعاش، وكان ضالا فوجد» [لو ١٥ : ١١ ـ ٣٢]

ثم نظر إلى الفريسيين ، وقال لهم : «أنتم تزكّون أنفسكم فى نظر الناس ، لكن الله عالم بما فى قلوبكم لأن الرفيع عند الناس ،رجس فى نظر الله»

فههنا ثلاثة أمور :

١ـ الأبرار ٢ـ والخطاة ٣ـ وملكوت الله .

ويدعى علماء بنى إسرائيل الفريسيين : أنهم أبرار ، ويقول عيسى عليه السلام : إنهم ليسوا من الأبرار . فهم أ ـ خطاة ب ـ والفسقة خطاة . ج ـ وهم فى ملكوت موسى . وأمامهم ملكوت.

يقول عيسى عليه السلام : إن العلماء لن يدخلوا فيه وهم يتكبرون ، وإنهم إذا تواضعوا وتابوا وقبلوا الحق ، فإنهم يتساوون مع الفسقة التائبين فى قبول الملكوت.

ويقول عيسى عليه السلام : إن الفسقة أسرع منهم إلى التوبة ، ولذلك سيسبقونهم إلى الدخول فى الملكوت إذا جاء . ذلك قوله : «الحق أقول لكم : إن العشارين والزوانى ، يسبقونكم إلى ملكوت الله» (مت ٢١ : ٣١]

وقال: إن الفسقة الذين سيسبقونهم إلى الملكوت ، هم من جميع أمم الأرض، ذلك قوله : «إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات ، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية» [متى ٨ : ١١ـ١٢] ويقول المفسرون: إن «بنى الملكوت» الذين سيهلكون: هم اليهود، لأن الملكوت القديم ما زال معهم ، وهم يريدون قتل المبشِّر بالملكوت الجديد .

وروى لوقا فى ١٣ :

أن المسيح عيسى عليه السلام ضرب مثلا لملكوت السموات.هو مثل الخميرة، ونصه :

«وقال أيضاً : بماذا أُشبّه ملكوت الله ؟ يُشبه خميرة أخذتها امرأة ، وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق ، حتى اختمر الجميع» والغرض منه : كالغرض من مثل حبة الخردل ، وهو أن الخميرة الصغيرة اختمرت عجينا ضخما ؛ فكذلك الإسلام فى بدئه تجذب الكلمة من فم الداعى ، أنصارا كثيرين .

وإن سائلا سأله : «يا سيد ، أقليل هم الذين يخلصون» ؟ ورد عليه بقوله : «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق ، فإنى أقول لكم : إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون ، من بعد ما يكون رب البيت ، قد قام وأغلق الباب ، وابتدأتم تقفون خارجا وتقرعون الباب قائلين : يا رب ، يا رب . افتح لنا ، يجيب ويقول: لا أعرفكم ، من أين أنتم ؟ حينئذ تبتدئون تقولون : أكلنا قدامك ، وشربنا ، وعلَّمتَ فى شوارعنا فيقول : أقول لكم : لا أعرفكم ، من أين أنتم ؟ تباعدوا عنى يا جميع فاعلى الظلم ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان .

متى رأيتم إبراهيم وإسحق ويعقوب وجميع الأنبياء فى ملكوت الله ، وأنتم مطروحون خارجا ، ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشَّمال والجنوب ، ويتكئون فى ملكوت الله . وهو ذا آخرون يكونون أولين ، وأولون يكونون آخرين» [لو ١٣ : ٢٠ ـ]

وغرض السائل من سؤاله هو : فى حالة ظهور الملكوت مع ابن الإنسان وأصحابه الشبيهين بالملائكة ، هل سيفنى كثيرون من اليهود على يديهم ؟ وقد رد بقوله : ولماذا السؤال ؟ اجتهدوا من الآن فى الاستعداد للدخول فى الملكوت ، فإنه سيكون لجميع أمم الأرض .

الأكبر فى ملكوت الله :

«فى تلك الساعة ، تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين : فمن هو أعظم فى ملكوت السموات ؟ فدعا يسوع إليه ولدا ، وأقامه فى وسطهم ، وقال : الحقَّ أقول لكم : إن لم ترجعوا ، وتصيروا مثل الأولاد ، فلن تدخلوا ملكوت السموات ، فمن وضع نفسه مثل هذا الولد ، فهو الأعظم فى ملكوت السموات ، ومن قبل ولدا واحدا مثل هذا باسمى : فقد قبلنى ، ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار ، المؤمنين به ، فخير له أن يعلَّق فى عنقه حجر الرحى ، ويُغرق فى لُجَّة البحر ، ويل للعالم من العثرات ، فلابد أن تأتى العثرات ، ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة . .» [مت ١٨ : ١ ـ]

يريد أن يقول : إن الأولاد الصغار ، لأنهم لم يعرفوا الحسد والكبر ، يتخاصمون وبعد لحظات ينسون الخصام ، ويلعب بعضهم مع بعض ، وإذا لم

يتشبه بهم علماء بنى إسماعيل ، فإنهم لن يقدروا على الدخول فى الملكوت إذا جاء، لأن الملكوت لا يكون فى جنسهم ، وهم يذهبون فى الصغار وفى الكبار ، أن الملكوت سيكون فى جنسهم ، ليشككوا الناس فيه إذا ما جاء ، والمسيح يحذرهم من التشكيك فيه ، لئلا يحملوا أوزار الذين يضلونهم بغير علم .

وقد نقلت الأناجيل هذا المعنى وأكدت عليه : ففى لوقا : إن المسيح سخر من الفريسيين بمثل الفريسى والعشار ، ذلك قوله : «وقال لقوم واثقين بأنفسهم أنهم أبرار ، ويحتقرون الآخرين ، هذا المثل : إنسانان صَعِدا إلى الهيكل ، ليصلّيا ، واحد فَرِيسىّ ، والآخر عَشّار ، أما الفريسى فوقف يصلى فى نفسه هكذا : اللهم أنا أشكرك أنى لستُ مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا مثل هذا العشّار، أصوم مرتين فى الأسبوع ، وأعشر كل ما أقتنيه ، وأما العشار فوقف من بعيد ، لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء ، بل قرع على صدره قائلا : اللهم ارحمنى أنا الخاطئ . أقول لكم : إن هذا نزل إلى بيته مُبررا دون ذاك ، لأن كل من يرفع نفسه ، يتضع ، ومن يضع نفسه ، يرتفع .

فقدموا إليه الأطفال ، ليلمسهم . فلما رآهم التلاميذ ، انتهروهم ، أما يسوع فدعاهم وقال : دعوا الأولاد يأتون إلىّ ، ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله ، الحق أقول لكم : من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد ، فلن يدخله» [لو ١٨ : ٩ ـ ١٧]

ملكوت الله ، ومجئ ابن الإنسان :

وقال عيسى عليه السلام : إن «ابن الإنسان» وهو محمد صلى الله عليه وسلم سيؤسس ملكوت الله الآتى ، بالحرب ، وإن حروبه ستكون شديدة الوطأة على بنى إسرائيل ، وشبه أتباع ابن الإنسان بنسور العدل الإلهى ، وشبه بنى إسرائيل المتكبرين الملاعين بالجيف ، الملقاة على الأرض . وقال إن الجيفة فى أى مكان، تحوم النسور حولها ، وكذلك يكون اليهود مع أتباع ابن الإنسان .

حيثما يوجد اليهود ، يوجد أتباع ابن الإنسان ، ليهلكوهم وليمحو من الأرض ذكرهم .

وقال عيسى عليه السلام : إن خراب ديار بنى إسرائيل سيكون كغرق

الكافرين بنوح عليه السلام وسيكون كهلاك قوم لوط ، ووصف الرهبة من هول المعارك الحربية بقوله : «فمن كان فى ذلك اليوم على السطح وأمتعته فى البيت ، فلا ينزل ليأخذها»

وقال للحواريين : إن ابن الإنسان لن يظهر فى أيامكم ، بل من بعدكم «ستأتى أيام تشتهون فيها أن تروا يوما واحدا ، من أيام ابن الإنسان ، ولن تروا» وقال : إنه من قبل أن يستقر الملكوت فى فلسطين ، سيعانى ابن الإنسان آلاما شديدة ؛ لأن اليهود القريبين من دياره ، لن يقبلوه .

ولما سأله الفريسيون عن الوقت الذى سيظهر فيه ملكوت الله ، أجاب بقوله: «إنه فى متناولكم» أى : قريب منكم ، وفى ترجمة : «فها إن ملكوت الله بينكم» ويقول بعض المفسرين : «هناك من يترجم «فيكم» لكن من عيب هذه الترجمة أنها تجعل من ملكوت الله حقيقة باطنية ، مع أنه فى نظر يسوع يعنى : شعب الله كله، إنه فى متناولكم»[1] أ ،هـ .

يقول لوقا [2]: «وسأله الفريسيون : متى يأتى ملكوت الله ؟»

فأجابهم : « لا يأتى ملكوت الله على وجه يُراقب ، ولن يقال : ها هو ذا هنا، أو ها هو ذا هناك ، فها ملكوت الله بينكم .

وقال للتلاميذ : ستأتى أيام تشتهون فيها أن تروا يوما واحدا من أيام ابن الإنسان ، ولن تروا . وسيقال لكم : ها هو ذا هناك ، ها هو ذا هنا ، فلا تذهبوا ولا تندفعوا ، فكما أن البرق يبرق ، فيلمعُ من أفق إلى أفق آخر ، فكذلك يكون ابن الإنسان ، يوم مجيئه ، ولكن يجب عليه قبل ذلك ، أن يُعانى آلاما شديدة ، وأن يرذله هذا الجيل .

وكما حدث فى أيام نوح ، فكذلك يحدث فى أيام ابن الإنسان ، كان الناسُ يأكلون ويشربون ، والرجال يتزوجون والنساء يتزوّجْن ، إلى يوم دخل نوح السفينة فجاء الطوفان ، وأهلكهم أجمعين ، وكما فى أيام لوط إذ كانوا يأكلون ويشربون

(١) تعليق دار المشرق على إنجيل لوقا .

(٢) النص من ترجمة دار المشرق بلبنان

ويشترون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن يوم خرج لوط من سدوم ، أمطر الله نارا وكبريتا من السماء ، فأهلكهم أجمعين ، فكذلك يكون الأمر ، يوم يظهر دين ابن الإنسان .

فمن كان فى ذلك اليوم على السطح ، وأمتعته فى البيت ، فلا ينزل ليأخُذها، ومن كان فى الحقل ، فلا يرتدَّ إلى الوراء . تذكروا امرأة لوط .

من أراد أن يحفظ حياته ، يفقدها ، ومن فقد حياته ، يُخلِّصها ، أقول لكم: سيكون فى تلك الليلة رجلان على سرير واحد ، فيُقبض أحدهما ويترك الآخر ، وتكون امرأتان تطحنان معا ، فتُقبض إحداهما ، وتترك الأخرى ، فسألوه: أين يا رب ؟ فقال لهم : حيث تكون الجيفة ، تتجمع النسُور» [لو ١٧ : ٢٠ - ٣٧]

البيان :

إن معنى متى يأتى ملكوت الله ؟ أى متى يظهر محمد صلى الله عليه وسلم؟

إن تاريخ ملكوت الله هو المسألة الكبرى فى الدين اليهودى ، فالربانيون وكتب الرؤى يبحثون عن علامات ، تمكن من تحديده ، والأصحاح التاسع من سفر دانيال : يؤكد عددا من السنين ،يأتى الملكوتُ بعدها . ولو كان عدد السنين معلوما على وجه اليقين من هذا الأصحاح ، لما سأل علماء اليهود هذا السؤال ، وهو غير واضح لأنه قال بعد سبعين أسبوعا ، أى أربعمائة وتسعين سنة : يظهر «المسيح الرئيس» الذى يؤسس ملكوت الله ، ثم قال : من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى «المسيح الرئيس» سبعة أسابيع ، واثنان وستون أسبوعا ، ثم قال : بعد اثنين وستون أسبوعا يُقطع المسيح ، ثم قال : وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس ، وفوق ذلك كله : يختلفون فى بدء الحساب هل هو من رجوع اليهود من بابل ، أم من حين تدوين السفر ؟ أم من تشتيت إدريانوس الرومانى لليهود سنة ١٣٢م ؟ أم من أى وقت آخر ؟ فلذلك سألوا عيسى عليه السلام عن السنين بالضبط ، ولم يذكر عددا محددا ، بل ذكر علامات ، واستشهد بهذا الأصحاح وهو يذكرها فى متى ٢٤: ١٥ ومرقس ١٣ : ١٤ . ولوقا ٢١

ففى سفر دانيال[1]: «وبينما أنا أتكلم وأصلى وأعترف بخطيتى وخطية شعب إسرائيل ...» [دا ٩]

(١) فى الأصحاح التاسع من سفر دانيال الذى يحدد السنة التى سيظهر فيها ملكوت الله :

«فى السنة الأولى لداريوس بن أحشويروش، من نسل الماديين الذى مُلّك على مملكة الكلدانيين فى السنة الأولى من ملكه ، أنا دانيال فهمتُ من الكتب عدد السنين التى كانت عنها كلمة الرب ، إلى إرميا النبى ، لكمالة سبعين سنة على خراب أورشليم ، فوجهتُ وجهى إلى الله السيد طالبا بالصلاة والتضرعات بالصوم والمسح والرماد ، وصليت إلى الرب إلهى واعترفت وقلت : أيها الرب الإله العظيم المهوب ، حافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظى وصاياه . أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمردنا وحدنا عن وصاياك وعن أحكامك ، وما سمعنا من عبيدك الأنبياء الذين باسمك كلموا ملوكنا ورؤساءنا وآباءنا وكل شعب الأرض، لك يا سيد البر ، أما لنا فخزى الوجوه كما هو اليوم لرجال يهوذا ولسكان أورشليم ولكل إسرائيل القريبين والبعيدين فى كل الأراضى التى طردتهم إليها ، من أجل خيانتهم التى خانوك إياها ، يا سيد لنا خزى الوجوه لملوكنا لرؤساءنا ولآبائنا ، لأننا أخطأنا إليك ، للرب إلهنا المراحم والمغفرة لأننا تمردنا عليه، وما سمعنا صوت الرب إلهنا لنسلك فى شرائعه التى جعلها أمامنا عن يد عبيده الأنبياء ، وكل إسرائيل قد تعدّى على شريعتك ، وحادوا ، لئلا يسمعوا صوتك فسكبت علينا اللعنة والحلف المكتوب فى شريعة موسى عبد الله ، لأننا أخطأنا إليه ، وقد أقام كلماته التى تكلم بها علينا ، وعلى قضاتنا الذين قضوا لنا ليجلب علينا شرا عظيما ، ما لم يُجر تحت السموات كلها كما أجرى على أورشليم، كما كتب فى شريعة موسى قد جاء علينا كل هذا الشر ، ولم نتضرع إلى وجه الرب إلهنا : لنرجع من آثامنا ونفطن بحقك ، فسهر الرب على الشر ، وجلبه علينا ، لأن الرب إلهنا بارّ فى كل أعماله التى عملها إذ لم نسمع صوته ، والآن أيها السيد إلهنا الذى أخرجت شعبك من أرض مصر ، بيد قوية ، وجعلت لنفسك اسما كما هو هذا اليوم ،قدْ أخطأنا . عملنا شرا ، يا سيد حسب كل رحمتك ، اصرف سخطك وغضبك عن مدينتك أورشليم ، جبل قدسك إذ لخطايانا ولآثام آبائنا صارت أورشليم وشعبك عارا عند جميع الذين حولنا ، فاسمع الآن يا إلهنا صلاة عبدك وتضرعاته وأضئ بوجهك على مقدسك الخرب من أجل السيد . أمل أذنك يا إلهى واسمع . افتح عينيك ، وانظر خربنا ، والمدينة التى دعى اسمك عليها، لأنه لا لأجل برنا نطرح تضرعاتنا أمام وجهك ، بل لأجل مراحمك العظيمة ، يا سيد اسمع يا سيد أغفر يا سيد أصغ واصنع ، لا تؤخر من أجل نفسك يا إلهى ، لأن اسمك دعى على مدينتك وعلى شعبك . وبينما أنا أتكلم وأصلى وأعترف بخطيتى وخطية شعبى إسرائيل وأطرح تضرعى أمام الرب إلهى عن جبل قدس إلهى ، وأنا متكلم بعد الصلاة إذا بالرجل جبرائيل الذى رأيته فى الرؤيا فى الابتداء مطارا واغفا ؛ لمسنى

وفى إنجيل متى : «فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس . . .» [مت ٢٤]

وقد بينا هذا فى كتابنا «البشارة بنبى الإسلام فى التوراة والإنجيل»

ولماذا نصح بالهروب من هول المعارك ؟

إن الدعوات إلى «الهرب» كثيرة فى التوراة عند الحديث عن نزول غضب الله على اليهود فى اليوم العظيم والمخوف ، وهو يوم ظهور المسيا . ونزول غضبه يدل على هلاكهم ، والهرب لا يمنع من الهلاك ، فلماذا نصح المسيح والنبيون من قبله بالهرب من هول المعارك وهو لا يجدى نفعا ؟ يقول المفسرون : إن الهرب لا يعنى إمكانية الإفلات من الدينونة ، بل تشير إلى طابعها الرهيب [إر ٤ :٦ و ٦ :١ و ٤٨ :٦ و ٤٩ :٨ . ٣٠ و ٥١ :٦]

ولماذا ذكر انقضاض الجوارح على الجثث ، أو على الجيف ؟

يقول المفسرون : كثيرا ما نرى «الجوارح» فى وصف مشاهد الدينونة فى

عند وقت تقدمة المساء ، وفهمنى وتكلم معى وقال : يا دانيال إنى خرجت الآن لأعلمك الفهم ، فى ابتداء تضرعاتك خرج الأمر ، وأنا جئت لأخبرك لأنك أنت محبوب . فتأمل الكلام وافهم الرؤيا ، سبعون أسبوعا قضيت على شعبك ، وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية، وتتميم الخطايا ، ولكفارة الإثم ، وليؤتى بالبر الأبدى ، ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين ، فاعلم وافهم : أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس ، سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعا يعود ويبنى سوق وخليج فى ضيق الأزمنة ، وبعد اثنين وستين أسبوعا يُقطع المسيح وليس له . وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة وإلى النهاية حرب وخرب قضى بها ، ويثبت عهدا مع كثيرين فى أسبوع واحد وفى وسط الأسبوع يبطل الذبيحة والتقدمة وعلى جناح الأرجاس مخرب حتى يتم ويصب المقضى على المخرب» [دانيال ٩]

وقال الإمام القرافى أحمد بن ادريس المالكى فى كتابه الأجوبة الفاخرة :«قال دانيال ، عليه السلام : سألت الله تعالى ، وتضرعت إليه أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ، ويعيد إليهم ملكهم ، ويبعث فيهم الأنبياء - عليهم السلام - أو ينقل ذلك فى غيرهم ؟ فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه ، فقال : السلام عليك يا دانيال ، إن بنى إسرائيل أغضبونى ، وتمردوا علىّ ، وعبدوا من دونى آلهة أخر . . الخ» يشير إلى الأصحاح التاسع من سفر دانيال .

العهد القديم [إش ١٨: ٦ و ٣٤: ١٥ ـ ١٦ و إر ٧: ٣٣ و ١٢: ٩ و ١٥: ٣ وحز ٣٩: ١٧] وفى هذا السياق من الكلام ، تعنى هذه الاستعارة : أنه ما من أحد يُفلت من الدينونة ، وفى متى ٢٤: ٢٨ تهدف إلى الدلالة على وجود «ابن الإنسان» وأتباعه نواب عنه، فى كل مكان عند مجيئه .

مثل القاضى والأرملة :

تبين التوراة : أنه فى وقت ظهور النبى الأمى الآتى إلى العالم سيؤمن به من بنى إسرائيل قليلون ، هم «مختارى الله» وهم سينجون من الهلاك على يديه ، وذلك لأنهم لما رأوا أن الظلم قد عم البلاد ، صلوا لله لكى يعجل بإرسال رسوله ، رحمة للعالمين . وقد عقد المسيح مقارنة بين الله العادل ، وبين قاضى ظالم ، وقال: إذا كان القاضى وهو ظالم ، يسمع للمظلومين ، فهل الله عز شأنه وهو عادل ، لا يسمع للمصلين ؟ وإذا كان القاضى الظالم ينصف ، فهل الله العادل لا ينصف ؟

ثم قال المسيح : إن ابن الإنسان وهو النبى الآتى إلى العالم إذا ظهر ، فإنه فى حالة ظهوره لن يجد من المؤمنين إلا قليلا ، وغرضه من ذلك : أن يستمر أتباعه فى طلب الملكوت من الله ، ليعجل بإرسال رسوله إلى العالم .

النص : «وقال لهم أيضاً ، فى أنه ينبغى أن يُصَلَّى كل حين ولا يمل ، قائلا: كان فى مدينة قاض لا يخاف الله ، ولا يهاب إنسانا ، وكان فى تلك المدينة أرملة ، وكانت تأتى إليه قائلة : أنصفنى من خَصمى ، وكان لا يشاء إلى زمان ، ولكن بعد ذلك قال فى نفسه ، وإن كنتُ لا أخاف الله ، ولا أهابُ إنسانا ، فإنى لأجل أن هذه الأرملة تُزعجنى ، أُنصفها ، لئلا تأتى دائما ، فتقمعنى .

وقال الرب : اسمعوا ما يقول قاضى الظلم .

أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهارا وليلا ، وهو متمهل عليهم ؟ أقول لكم : إنه ينصفهم سريعا ، ولكن متى جاء ابن الإنسان . ألعلّه يجد الإيمان على الأرض ؟» [لو ١٨: ١ ـ ٨]

لاحظ قوله :

١ـ « وهو متمهل عليهم» وفى ترجمة : «وهو يتمهل فى أمرهم» أو «حتى

لوتمهل فى أمـرهم» أو «مع أنه صابر عليـهم» أو المقصـود : هو أن النبى الأمى لم يكن قد ظهر فى أيامه ، وليس هو المسيح عيسى عليه السلام لأنه إلى زمانه «متمهل عليهم» ولأن ابن الإنسان وهو لقب للنبى الأمى لم يكن قدجاء ، على حد كلامه ، وإذا جاء فـإنه لن يجد إيمانا على الأرض ، وكـان داود عليه السـلام يصلى لله من أجله مع المختـارين ، ويقول فى المزمور الرابع والأربعين : «لماذا تتـغافى يا رب ؟» «لماذا تحجب وجهك ؟»

٢ـ «إنه ينصفهم سريعا» أى : يظهر حربا فى حال ظهوره لتخليص المختارين من أيدى اليهود المتكبرين الملاعين،وقد أكد المسيح عليها فى [مر ٩ :١و١٣ : ٣٠ـ]

مثل الأمناء العَشَرة :

تمهيد :

أ ـ البار ب ـ والخاطئ .

هل شـريعة الله للأبرار أم للخطاة ؟ هـل هى لليهـود اللذين يفاخـرون بأنهم أبرار، وأنهم أبناء إبراهيم عليه السلام وبأن لهم الهيكـل وشريعة الله، أم هى لجميع نسل إبراهيم . الأبرار منهم، والخاطئون ؟

يقول المسيح عيسى عليه السـلام: هى لجميع نسل إبراهيم . الأبرار منهم والخاطئون ، وأن «ابن الإنسان» جاء ليبحث عن الخاطئ ، لكى يهديه، وذلك لأنه من نسل إبراهيم .

وقد أيَّد قولَه بفـعله ، وضرب مثلا يبين به سبب انتـقال دعوة الامم إلى الله من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل .

يقول لوقـا : «ودخل أريحا ، وأخذ يجتـازها ، فإذا رجل يُدعى زَكَّا ، وهو رئيس للعشارين ، غنى ، قد جاء يحاول أن يرى من هو يسوع ، فلم يستطع لكثرة الزحام ، لأنه كان قـصير القامة ، فـتقدم مسـرعا ، وصعد جمـيزة ، ليراه ، لأنه اوشك أن يمر بها ، فلما وصل يسـوع إلى ذلك المكان ، رفع طرفه ، وقال له : يا زَكَّا انزل على عجل ، فـيجب علىّ أن أُقـيم اليوم فى بيتك ، فـنزل على عجل ، واضافه مسرورا ، فلما رأوا ذلك . قـالوا كلهم متذمرين : دخل منزل رجل خاطئ ليبيت عنده ، فوقف زكـا ، فقـال للرب : يارب ، ها إنى أُعطى الفقـراء نصف

أموالى ، وإذا كنتُ قد ظلمتُ أحدا شيئا ، أرده عليه أربعة أضعاف .

فقال يسوع : اليوم حصل الخلاص لهذا البيت ، فهو أيضاً ابن إبراهيم ، لأن ابن الإنسان جاء ليبحث عن الهالك ، فيخلصه .

وبينما هم يُصغون إلى هذا الكلام ، أضاف إليه مثلا ، لأنه قرب من أورشليم ، وكانوا يظنون أن ملكوت الله يوشك أن يظهر فى ذلك الحين ، قال : ذهب رجل شريف النسب إلى بلد بعيد ، ليحصل على الملك ، ثم يعود . . »

روى هذا لوقا وبرنابا ، واتفقا معا : على أن المسيح قد قبل مخالطة الخطاة ، وأكل معهم ، وأنه بتوبته ، قد حصل خلاص لبيته ، وقال المسيح : إن هذا الخاطئ لا يصح أن ينبذ «فهو أيضاً ابن إبراهيم» ولماذا قال عنه : «فهو أيضاً ابن إبراهيم ؟» لأن النبى الآتى إلى العالم «هو أيضاً ابن إبراهيم» وإنه «جاء ليبحث عن الهالك ، فيخلّصه» ولأنه «ابن إبراهيم» لا يجب على اليهود ، رفضه ، بحجة أنه من الأمم .

ويبين النص : أن اليهود كانوا يتوقعون ظهور ملكوت الله فى زمان عيسى عليه السلام ، وأن المسيح ضرب لهم مثلا يبين به أنه سيظهر من بعده ، وأن الشريعة ستنتقل من اليهود إلى أمة أخرى هى أمة صاحب الملكوت ، وأنهم سيهلكون على يديه .

وضرب مثل الأمناء العشر ، ليبين به تقصير علماء بنى إسرائيل فى دعوة الأمم إليه ولتقصيرهم نزع منهم الملكوت وعاقبهم أشد العقاب .

ورموز المثل :

أ ـ الرجل الشريف النسب : رمز إلى الله تعالى ، وأنه يريد سيادة شريعته على الأرض . وسيادة الشريعة تدل على الملك وعلى الطاعة له .

ب ـ والخدام : رمز لعلماء بنى إسرائيل ، فإن منهم من دعا إلى الله ، ومنهم من لم يدعو .

ج ـ والذين رفضوا ملكه : رمز لليهود وللأمم ، الذين لا يريدون تقييد حرياتهم بشريعة .

د ـ والذى أخفى فضة سيده : رمز لعلماء بنى إسرائيل الذين أهملوا دعوة الأمم .

هـ ـ وضرب الملك للذين رفضوا ملكه : هو حرب الله للأمم بواسطة النبى الآتى ، صاحب الملكوت .

نص المثل :

«ذهب رجل شريف النسب إلى بلد بعيد ، ليحصل على الملك ، ثم يعود ، فدعا عشرة خدام له ، وأعطاهم عشرة أمناء وقال لهم : تاجروا بها إلى أن أعود ، وكان أهل بلده يبغضونه ، فأرسلوا وفدا فى أثره يقولون : لا نريد هذا ملكا علينا ، فلما رجع ، بعدما حصل على الملك ، أمر بأن يدعى هؤلاء الخدم الذين أعطاهم المال ، ليعلم ما بلغ مكسب كل منهم ، فمثل الأول أمامه ، وقال : يا مولاى ، ربح منّاك عشرة أمناء ، فقال له : أحسنت أيها الخادم الصالح ، كنت أمينا على القليل ، فليكن لك السلطان على عشر مدن ، وجاء الثانى فقال : يا مولاى ، ربح مناك خمسة أمناء ، فقال لهذا أيضاً : وأنت كن على خمس مدن ، وجاء الآخر ، فقال : يا مولاى ، هو ذا مناك قد حفظتهُ لى منديل ، لأنى خفتك ، فأنت رجل شديد ، تأخذ ما لم تستودع ، وتحصد ما لم تزرع ، فقال له بكلام فمك ، أدينك. أيها الخادم الشّرير ، عرفتنى رجلا شديدا ، آخذ ما لم أستودع ، وأحصد ما لم أزرع ، فلماذا لم تضع مالى فى بعض المصارف وكنت فى عودتى ، أسترده مع الفائدة ؟

ثم قال للحاضرين : خذوا منه المنا ، وأعطوه لصاحب الأمناء العشرة ، فقالوا له : يا مولانا ، عنده عشرة أمناء ، أقول لكم : كل من كان له شئ ، يُعطى، ومن ليس له شئ ، يُنتزع منه حتى الذى له ، أما أعدائى أولئك الذين لم يريدونى ملكا عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا ، واضربوا أعناقهم أمامى[1]» {لو ١٩ : ١٢ـ٢٧ }

فى هذا المثل :

إن المنا : وزن يساوى واحد على ستين من الوزنة ، أى نحو رطلين ، وفى الحسابات النقدية يساوى مائة درهم ، وقد ذكر لوقا أنه أعطاهم عشرة أمناء وذكر

متى : أنه أعطى واحدا خمس وزنات ، وهم أكبر بكثير من العشرة أمناء ، لأن الوزنة نحو خمسة وعشرين كيلو من الذهب .

٢ـ قوله : «فمثل الأول أمامه ، وقال : «يا مولاى» ، وفى ترجمة : «ياسيد» ، كلمة «مولاى» تترجم فى إنجيل متى : «يا معلّم» أو «يا سيّد»

٣ـ ويبين هذا المثل : أن الرجل الذى أخفى المنا ، عاتبه سيده بقوله: «فلماذا لم تضع مالى فى بعض المصارف ، وكنتُ فى عودتى ، أسترده مع الفائدة؟» يعنى: أنك مؤتمن على الشريعة ، لتنشرها بين الناس ، فلماذا أخفيتها ؟ ما كان يجب عليك أن تخفيها ، فإنه كان بإمكانك أن تسلمها إلى أمى ، وهو يتولى ترجمتها ونشرها ، بدلا منك .

٤ـ وقوله : «كل من كان له شئ ؛ يُعطى ، ومن ليس له شئ ؛ يُنزع منه ، حتى الذى له» يريد به : أن الملكوت صائر إلى أهله ، وهم بنو إسماعيل عليه السلام ، لأن لإسماعيل بركة .

٥ـ وقوله «واضربوا أعناقهم أمامى» يريد به : أنه ستكون حرب شديدة فى وقت ظهور الملكوت ، وإن اليهود سيُهزمون فيها .

مثل الوزنات العشر :

ومثل الوزنات العشر الذى يشبه مثل الأمناء العشرة ، ضربه المسيح عيسى عليه السلام للاستعداد لملكوت السموات ، وعدم التغافل عنه ، وقال بعده : «وإذا جاء ابن الإنسان فى مجده ، تواكبه جميع الملائكة ، يجلس على عرش مجده . .»

النص : «فمثل ذلك كمثل رجل أراد السفر ، فدعا خدمه ، وسلّم إليهم أمواله ، فأعطى أحدهم خمس وزنات ، والثانى وزنتين ، والآخر وزنة واحدة ، كلاً منهم على قدر طاقته ، وسافر ، فأسرع الذى أخذ الوزنات الخمس إلى المتاجرة بها ، فربح خمس وزنات غيرها ، وكذلك الذى أخذ الوزنتين ، فربح وزنتين غيرهما ، وأما الذى أخذ الوزنة الواحدة ؛ فإنه ذهب وحفر حفرة فى الأرض ، ودفن مال سيده .

---

(١) ترجمة دار المشرق بلبنان سنة ١٩٨٩م ، ولم يذكر هذا المثل إلا لوقا وحده ، وذكر متى شبيهابه . هو مثل الوزنات الخمس .

وبعد مدة طويلة ، رَجَعَ سيد أولئك الخدم وحاسبهم ، فدنا الذى أخذ الوزنات الخمس ، وأدّى معها خمس وزنات ، وقال : يا سيد ، سلمتَ إلىّ خمس وزنات ، فإليك معها خمس وزنات ربحتها ، فقال له سيده : أحسنت أيها الخادم الصالح الأمين ، كنتَ أمينا على القليل فسأقيمك على الكثير ، ادخل نعيم سيدك ، ثم دنا الذى أخذ الوزنتين ، فقال : يا سيد ، سلّمت إلىّ وزنتين ، فإليك معها وزنتين ربحتهما ، فقال له سيده : أحسنت أيها الخادم الصالح الأمين كنتَ أمينا على القليل ، فسأقيمك على الكثير ، أدخل نعيم سيدك ، ثم دنا الذى أخذ الوزنة الواحدة فقال : سيدى عرفتك رجلا شديدا تحصد منْ حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم توزع ، فخفتُ وذهبت ، ودفنتُ وزنتك فى الأرض . فإليكَ مالَك .

فأجاب سيده : أيها الخادم الشّرير الكسلان ، عرفتنى أحصدُ من حيث لم ازرع ، واجمع من حيث لم أوزّع ، فكان عليك أن تضع مالى عند أصحاب المصارف ، وكنتُ فى عودتى ، أسترد مالى مع الفائدة ، فخذوا منه الوزنة ، وأعطوها للذى معه الوزنات العشر ، لأن كل من كان له شئ ! يُعطى ، فيفيض ، ومن ليس له شئ ، يُنتزع منه حتى الذى له ، وذلك الخادم الذى لا خير فيه ، ألقوه فى الظُّلمة البرانية ، فهناك البكاء ، وصريفُ الأسنان» [متى ٢٥ : ١٤ - ٣٠]

فلما سمع ذلك واحد من المتكئين ، قال له : طوبى لمن يأكل خبزاً فى ملكوت الله ، فقال له : «إنسان صنع عشاء عظيما ودعا كثيرين» والغرض منه : هو نزع الملكوت من اليهود ، وبيان أن الملكوت الآتى سيكثر فيه الخبر ، ويعم فيه السلام والأمن .

النص : «إنسان صنع عشاء عظيما ودعا الكثيرين وأرسل عبده فى ساعة العشاء ليقول للمدعوين : تعالوا الآن كل شئ قد أُعد ، فابتدأ الجميع برأى واحد يستعفون ، قال له الأول : إنى اشتريت حقلا وأنا مضطر ان أخرج وأنظره ، أسألك ان تعفينى ، وقال الآخر : إنى اشتريت خمسة أزواج بقر ، وأنا ماض لأمتحنها ، أسألك أن تعفينى ، وقال آخر : إنى تزوجت بامرأة فلذلك لا أقدر أن أجئ ، فأتى ذلك العبد وأخبر سيده بذلك ، حينئذ غضب رب البيت وقال لعبده : اخرج عاجلا إلى شوارع المدينة وأزقتها ، وأدخل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمى ، فقال العبد : يا سيد قد صار كما أمرت ، ويوجد أيضاً مكان ، فقال

السيد للعبد : اخرج إلى الطرق والسياجات ، وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي ، لأني أقول لكم : إنه ليس واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائي » [لوقا ١٢:١ ـ ٢٤]

مثل عرس ابن الملك :

النص : «يشبه ملكوت السموات إنسانا ملكا ، صنع عرسا لابنه ، وأرسل عبيده ليدعو المدعوين إلى العرس ، فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل أيضاً عبيدا آخرين، قائلا : قولوا للمدعوين : هو ذا غذائي ، أعددته ، ثيراني ومسمناتي قد ذبحت، وكل شئ معد ، تعالوا إلى العرس ، ولكنهم تهاونوا ، ومضوا ، واحد إلى حقله، وآخر إلى تجارته ، والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم ، وبينما سمع الملك ؛ غضب ، وأرسل جنوده ، وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم، ثم قال لعبيده : أما العرس فمستعد ، وأما المدعوين فلم يكونوا مستحقين ، فاذهبوا إلى مفارق الطرق ، وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس ، فخرج أولئك العبيد إلى الطرق ، وجمعوا كل الذين وجدوهم ، أشرارا وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك لينظر المتكئين ، رأى هناك إنسانا لم يكن لابسا لباس العرس ، فقال له : يا صاحب كيف دخلت إلى هنا ، وليس عليك لباس العرس؟ فسكت حينئذ . قال الملك للخدام : اربطوا رجليه ويديه وخذوه في الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، لأن كثيرين يدعون ، وقليلين ينتخبون» [متى ٢٢: ٣٠ ـ ١٤]

مغزى المثل :

هو الاستعداد والترقب لملكوت السموات ، وقد ضربه بعد مثل عرس ابن الملك ، وقال بعده : « ومتى جاء ابن الإنسان في مجده ، وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسي مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب ، فيميز بعضهم عن بعض ، كما يميز الراعي الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف على يمينه ، والجداء على يساره ، ثم يقول الملك للذين على يمينه : تعالوا يا مباركي أبي ، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» [متى ٢٥: ٣١ ـ ٣٤] وهذا يدل بوضوح على أن ابن الإنسان الذي أشار إليه دانيال النبي ، متى جاء في عظمته وبصحبته أتباعه الأطهار المشبهين بالملائكة ، ويتم له السلطان على الأرض ؛ سيميز الأخيار من

الأشـرار ، كمـا يميز الراعى الخـراف من الجداء ، وسـوف يهلك الأشرار ، وأمـا الأخيار فـيجلسـهم معه ، ويقول لهم : رثوا الملكوت المعد لكم من زمان طويل .

وينوب عنه من بعده أتباعه ، السـائرون على سنته والعاملون بشريعته .

ويعرض متى هنرى وجهة نظر النصارى ، فيقول : «فى هذا المثل نرى :

١ ـ أن السـيـد هو المسيح ، الذى هـو صـاحب حق الملك المطـلق ، لكل الأشخاص والنفوس ، سيما لكنيسته ، فكل الأشياء سلمت ليديه

٢ ـ والعبيد : هم المسيحيون »

ونرد عليه : أن السيد رمز لله عز وجل ، وعيسى عبد من عباده الصالحين ، والعبيد رمز لعلماء بنى إسرائيل المرسلون للأمم قـبل عيسى ، وقوله : إن العبيد هم المسيحيون : قول ظاهر الخطأ ، لأن المثل مـضروب لما قبل عيـسى ، ومغزاه : لمن يأتى من بعده ، والعبيـد هم : ١ ـ من أخذ خمس وزنات ، وربح مثلهن ٢ ـ ومن أخذ وزنتين ، وربح مثليـهما ٣ ـ ومن أخذ وزنة واحدة ، وأخفـاها . أما صاحب الخمس وصاحب الوزنتين : فرمز للعلماء الذين ذهبوا إلى الأمم من قبل سبى بابل ، ففى القـرآن الكريم : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيـها نذير﴾ والعبـد الذى أخذ الوزنة وأخفاها : رمز للعلماء اليهود من بعد بابل ، فقد أنزل الله عليهم التوراة ، وأمرهم أن يعملوا بها ، وأن يهدوا بتعاليمها ، فقصروها اليهود على أنفسهم ، من زمان سبى بابل ، بالرغم من أنه مـكتوب فـيـها : «وإذا نزل عندكم غـريب فى أرضكم فـلا تظلموه ، كالوطنى منكم ، يكون لكم ، الغـريب النازل عندكم ، وتحبه كنفسك ، لأنكم كنتم غـرباء فى أرض مصـر» [لاويين ١٩ : ٣٣ ـ ٣٤] ومعنى وضـعهـا عند الصيارفة : إشارة إلى أن يضع اليهود علمهم الإلهى فى أماكن العلم لدى المشتغلين به ، كسائر الكتب التى تدرس .

ونجد فى محاسبة العبد الكسـول ما ينم عن طباع اليهود :

أ ـ فهو قد اعتذر عن نفسه ، وهذا الاعتذار ينم عن عواطف عدو ، واليهود أعداء الله ، والدليل على ذلك من المثل : قول العبد الشرير : «عرفت أنك إنسان قاس» وهذا يشبه القول السئ الذى صرح بـه بيت إسرائيل . فقد جاء فى التوراة : «وبيت إسرائيل يقول : ليـست طريق الرب مـستوية ، أطرقى غـير مـستقـيمة يا بيت

إسرائيل ؟ أليست طرقكم غير مستقيمة ؟ من أجل ذلك أقضى عليكم يا بيت إسرائيل ، كل واحد كطرقه ، يقول السيد الرب» {حزقيال ٢٨: ٢٩ ـ ٣٠ }

ب ـ وأنه تكلم بجرأة ووقاحة على الله : إذ قال : «عرفت أنك . .» ولذلك نظير فى التوراة ، يقول الله لليهود على لسان إرمياء : «ماذا وجد فىّ آباؤكم من جور ، حتى ابتعدوا عنى وساروا وراء الباطل ، وصاروا باطلا . . الكهنة لم يقولوا أين هو الرب ؟ وأهل الشريعة لم يعرفونى» { إرمياء ٢: ٥ ـ ٧ }

ولقد وجهت إليه تهمتان :

١ـ الكسل «أيها العبد الشرير والكسلان»

ب ـ إهانته لله واتهامه اياه ، بأنه يأخذ ماليس له ، ويرد الله عليه بما يشاكل تفكيره ـ ولله المثل الاعلى ـ فيقول : «عرفت أنى أحصد حيث لم أزرع . . فكان ينبغى أن تضع فضتى عند الصيارفة» ويمكن فهم هذه العبارة على ثلاثة أوجه حسب ظاهر النص الذى يظهر تقاليد اليهود فى المعاملة :

الأول : هب أننى سيد قاسى ، أما كان ينبغى من أجل هذا أن تكون أكثر اجتهادا ، وأوفر حرصا على إرضائى ، إن لم يكن لأنك تحبنى ، فعلى الأقل لأنك تخشانى ، ومن أجل هذا أفما كان ينبغى أن تلتفت إلى عملك ؟

الثانى : إن كنت تظن أننى سيد قاس ، ولذلك لم تجرؤ على المتاجرة بأموالى ، خشية أن تخسر فيها ، ثم تطالب بتعويض الخسارة ، فإنه كان فى إمكانك أن تضعها عند الصيارفة أو المصارف ، وعند مجيئ ، كنت آخذ أقل ربح من تشغيلها عند الصيارفة ، وبذا آخذ الذى لى مع ربا ، إن لم يكن ممكنا أن أحصل على أكثر ربح بتشغيلها فى التجارة ، كما كان الحال فى أمر الوزنات الأخرى .

الثالث : هب أننى حصدت ما لم أزرع ، ولكن هذا لا يعنيك ، فإننى زرعت فيك ، والوزنة التى اؤتمنت عليها ، هى ملكى ، وأنت لم تأخذها لكى تحفظها ، بل لكى تنميها .

والغرض من العبارة : هو وضع التوراة عند المشتغلين بالعلم من الأمم

كالفلاسفة والمصلحين ، و غيرهم ليتداولوا معانيها كتداول الصيارفة للنقود ، إذا لم يريدوا دعوة الأمم بها .

ولقد حكم على العبد الكسلان ـ وهو رمز لعلماء اليهود ـ بحكمين :

الأول : الحرمان من وزنته ، فقد قال : «فخذوا منه الوزنة » إن الله عز وجل له مطلق التصرف فى الكون ، وقد أخذ الوزنة من العبد الكسلان ، كمالك حر التصرف فى ملكه ، وليس أخذها منه ظلم للعبد ، فهو لم يؤد بها الحق المطلوب ، الذى ينبغى أن يكون ، وهذا ينطبق على اليهود ، فإن الله أعطى الشريعة لهم ، ليس ليقصروها على أنفسهم ويحرموا غيرهم من الفوز برضوان الله، بل أعطاها لهم ليكونوا معلمين فى الأرض ، فلما أخذ الوزنة من العبد الكسلان أعطاها لغيره . أعطاها للعبد النشيط ، وهذا ما حدث . فإن الله عز وجل سلب الشريعة من بنى إسرائيل وسلمها لبنى إسماعيل عليه السلام كما فى الإنجيل : «هكذا يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين ، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون» [متى ٢٠ ـ ١٦]

وجاء فى حيثيات الحكم : «كل من له يعطى فيزداد ، ومن ليس له ، فالذى عنده يؤخذ منه » أى من سيدعى أنه صاحب الملكوت فسيؤخذ منه رغم أنفه ، ويعطى لصاحبه ، ثم يزيده الله من فضله . وقد ادعى النصارى أنهم أصحاب الملكوت ، وهم ليسوا بأصحابه لأن عيسى عليه السلام من اليهود وهو يضرب مثل العبد الكسلان لسلب الملكوت من اليهود .

والحكم الثانى على العبد الكسلان : هو « أخرجوه إلى الظلمة الخارجية » وهذا التعبير كناية عن العذاب الذى يصيب اليهود فى نهاية مجدهم على يد نبى الإسلام ﷺ والتاريخ يقول : إنه لما جاء حارب اليهود فى شبه الجزيرة العربية . وانتصر عليهم ، وفى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ استولى المسلمون على بلاد الشام وأقاموا المسجد الأقصى.

الفصل الخامس
فى
الحج إلى الكعبة من قبل الإسلام

لاحظ :

من المزامير التى تتكلم عن الحج: (أ)١٥ ـ ٢٤ (ب) ٨٤ ـ ٩١ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ

(جـ) ٤٦ ـ ٤٨ ـ ٧٦ ـ ٨٧ ـ ١٣٢ · راجع الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط ـ لبنان ـ سنة ١٩٩٥ م .

يقول الله تعالى : ﴿إن أول بيت وُضع للناس ، للذى ببكة ، مباركا ، وهدى للعالمين . فيه آيات بينات ، مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت ، من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾

وفى الإنجيل عن يحيى عليه السلام : «أما الصبى ، فكان ينمو ويتقوى بالروح ، وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل» [لو ١ : ٨٠]

وفى التوراة عن سكنى إسماعيل عليه السلام : « وسكن فى برية فاران » وكان الناس يحجون إلى الكعبة من قبل محمد ﷺ وليس ببعيد أن يكون يحيى قد حج ،وجاور وارتحل منه وعاد إليه، وأعلم الناس بمحمد الآتى من بعده .

البيان : ﴿ وُضع ﴾ بالبناء للمجهول ، يدل على واضع من قِبل الله عز وجل. وفى التوراة : أن نوحا عليه السلام من بعد استقرار الفلك ، بنى بيتا لله ، والبيت فى لسان بنى إسرائيل هو «المذبح» على معنى أن الناس عند هذا البيت يذبحون الأنعام تقربا إلى الله ، وطلبا لرضاه ، ففى الأصحاح الثامن من سفر التكوين : «وبنى نوح مذبحا للرب ، وأخذ من كل البهائم الطاهرة ، وأصعد محرقات على المذبح» [تك ٨: ٢٠]

Then Nouk built an altar to the LORD

وهذا البيت كان فى أرض «مكة المكرمة» ويدل على ذلك : ارتحال المؤمنين شرقا إلى أرض « العراق » والعراق شرقى «مكة» ولو كان استواء الفُلك فى

«أرلواط» أو « سرنديب » لكان يقول : ارتحلوا غربا ، ذلك قوله : «وكان أهل الأرض جميعا يتكلمون أولا بلسان واحد ، ولغة واحدة ، وإذْ ارتحلوا شرقا ؛ وجدوا سَهْلا فى أرض شِنعار ، فاستوطنوا هناك» [تك ١١ : ١ ـ ٢]

As men moved eashnard, they fourd a plain in Shinar and sattled there .

والآيات البينات : هى ١ ـ وجود مقام إبراهيم عند الكعبة ٢ ـ والأمن للملتجأ إلى الحرم ٣ ـ والحج إليه من بنى إسرائيل .

أما مقام إبراهيم : فإنه ما يزال إلى هذا اليوم بجوار الكعبة ، وأما الأمن : فإنه من سنّة إبراهيم عليه السلام من حين تجديده لبناء الكعبة هو وإسماعيل ، ومعناه : أن الملتجأ إلى الحرم لا يقصده أحد بسوء حتى يُنظر فى أمره ، ويُفصل فى دعواه إن كان له دعوى ، وأما الحج إلى الكعبة : فإن نوحا لما بنى الكعبة علامة على نجاته من الغرق ، أمر المؤمنين بأن يأتوا إليها فى كل عام ، من يستطيع منهم ، ليشكر الحاج الله على أن نجاه من الغرق ، وهداه إلى الإيمان . وصارت من بعده سنّة وطريقة ، ولما جدد إبراهيم بناءها ، أذّن فى الناس بالحج والمراد بالناس نسل إسحق ومنهم سيكون بنى إسرائيل، وأمر أتباعه به ، من يستطيع منهم كل سنة ، وألزم نسله من «إسماعيل» بتطهير «الكعبة» من الأصنام ، على طول الزمان ، وبإكرام الحجاج والركع السجود .

وأرّخ الناس ، وعدّوا سنينهم بمرات الحج كل سنة . تلك قوله تعالى : ﴿على أن تأجرنى ثمانى حجج﴾ أى : ثمانى سنوات .

ولما أنزل الله التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ لم يكتب فيها له : أن يتجه المصلّى قسرا إلى الكعبة ، وإنما كتب له فيها : أن أى جهة يتجه إليها المصلى ، فإن الله يسمعُ ويرى ، إذ له المشرق والمغرب ، فاتجه المصلون من المؤمنين ومن بنى إسرائيل إلى الكعبة ، على أنها جهة من الجهات ، وحجوا إليها كل سنة ،ـ كإعلان إبراهيم فيهم ـ إلى ما بعد داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وإلى ما بعد سبى بابل سنة ٥٨٦ ق.م ، وكان داود قد بنى بيتا لوضع تابوت العهد فيه ، وقال اليهود : إن سليمان قد أكمله ، وجعله عوضا عن الكعبة . وقالوا : إن نبوخذ ناصّر قد هدمه. وأنهم لما رجعوا من سبى بابل أسسوا هيكل سليمان بإذن من قوروش الفارسى . ثم

كذبوا وقال : إن داود قد وضع أساس «المسجد الأقصى» المشهور بهيكل سليمان سنة ألف قبل الميلاد، ووضع فيه تابوت العهد ،ولو سلمنا نحن بذلك جدلا ، فإنه لم يُلزم أحدا بجعله قبلة له فى صلاته ، وذلك لأنه متّبع لشريعة موسى ، التى فيها : «فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكرا ، آتى إليك وأباركك » { خر ٢٠ : ٢٤}

Make an alter . f earth for me and sacrifice on it your burnt offerinys and fellowskip offerinys, your sheep and goats and your cattle, wherever I couse my name to be honored , I will come to you and bless you .

وقد ابتدأ بنو إسرائيل فى صرف الناس عن الحج إلى الكعبة من بعد الرجوع من سبى بابل التى ظلوا فيها مائة عام ، وحببوهم فى الحج إلى «هيكل سليمان» فى القدس «أورشليم» أو إلى هيكل «سُنبلّط» الحُورونى فى « نابلس» ولما لم يقدروا على صرف الناس عن الحج إلى الكعبة ، تركوا كثيرين من علمائهم عند الكعبة لإقامة الشعائر الدينية للحجاج ، وتركوا كثيرين من علمائهم عند هيكل سليمان وهيكل نابلس لإقامة الشعائر الدينية للحجاج من بنى إسرائيل ، وظلوا على هذا الوضع إلى سنة ظهور محمد ﷺ الذى طردهم من «مكة» عن أمر الله تعالى وهو : ﴿إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ والمشركون هم اليهود لاتخاذهم أحبارهم أربابا من دون الله .

والدليل من التوراة على أن الحج كان إعلانا من إبراهيم للناس ، وعلى أنه كان فى مكة :

أن داود عليه السلام فى سفر الزبور تكلم عن «بكة» بالباء لا بالميم ، وقال : إن «بكة» ديار الرب ، وأنه يحن إلى ديار الرب ، وأن «بكة» بلد الأمن .

وكنّى عن الأمن بقوله : « إن العصفور أيضا وجد له وكرا ، واليمامة عثرت لنفسها على عشّ تضع فيه فراخها» لاحظ : كلمة «أيضاً» فإنها تدل على سابق - لم يذكر فى النص - وجد أمنا قبل أن يجد «العصفور» له أمنا ، وقبل أن تجد «اليمامة» لها أمنا .

ثم قال داود : «طوبى لمن يسكنون فى بيتك ، فإنهم يسبحونك دائما» أى أن الأمن والرخاء وسعة الأرزاق ورحمة الله. كلّ ذلك عند «بيت الله» فطوبى للذى يسكن فى جواره ، لأنه سيطعم من جوع ويأمن من خوف .

ثم تكلم عن مَنسك الحج ، فقال : «طوبى لأُناس أنت قوتهم» لأن الرّمل فى أشواط السعى بين الصفا والمروة ، والإفاضة من جبل عرفات ، والمبيت فى منى، والانحدار إلى الكعبة ؛ كل ذلك يحتاج إلى قوة من الله تحل فى جسد الحجاج، وهم خارجون من كل فج عميق ، يتلهفون لسلوك الطرق السهلة المؤدية إلى بيت الله المقدس ، وهو الكعبة البيت الحرام ، ذلك قوله : «طوبى لأناس أنت قوتهم، المتلهفون لاتباع طرقك المفضية إلى بيتك المقدس»

والطرق المفضية إلى بيته المقدس ، منها طرق عبور فى «وادى بكة» و ها هى الترجمة الإنجليزية(١) مع النص العربى :

المزمور الرابع والثمانون

« ما أحلى مساكنك يا رب الجنود . تتوق بل تحن نفسى إلى دهار الرب ، قلبى وجسمى يرنمان بفرح للإله الحى . العصفور أيضاً وجد له وكرا ، واليمامة عثرت لنفسها على عش تضع فيه فراخها ، بجوار مذابحك يا رب الجنود ، يا ملكى وإلهى، طوبى لمن يسكنون فى بيتك ، فإنهم يسبحونك دائما .

طوبى لأناس أنت قوتهم ، المتلهفون لاتباع طرقك . المفضية إلى بيتك المقدس ، وإذ يعبرون فى وادى البكاء الجاف ، يجعلونه ينابيع ماء ،ويغمرهم المطر الخريفى بالبركات ، ينمون من قوة . إلى قوة . إذ يمثل كل واحد أمام الله فى صهيون، يا رب إله الجنود اسمع صلاتى ، واصغ إلىّ يا إله يعقوب ، يا الله مجتنا، انظر بعين الرحمة إلى من مسحته ملكا(٢) ، إن يوما واحداً أقضيه داخل دهارك خير من ألف يوم خارجها ، اخترت أن أكون بوّابا فى بيت إلهى على السكن فى خيام الأشرار ، لأن الرب الإله شمس وترس ، الرب يعطى نعمة ومجداً ، لا

---

(١) مُولِي بايبَل - عربى / انجليزى - كتاب الحياة - مطبعة بريطانيا العظمى ١٩٩٩م .

(٢) من هو الممسوح ملكا ؟ من هو من أهل بكة ؟ هو محمد ﷺ

يمنع أي خير عن السالكين بالاستقامة ، يا رب الجنود طوبى للإنسان المتكل عليك »

Psalm 84

How lovly is your dwelling plass, O lord almighty ! My soul yearns, even faints, for the courts of the LORD My heart and my flesh cry out for the living god, even

The sparrow has found a home, and the swallow a nest for herself, where she mv have her young - a place near your altar, O LORD almighty, my King and god. Blessed are those who dwell in your house, they are ever praising you .

Blessed are those whose strength is in you, who lave set their hearts on pilgrimage. As they pass through the Valley of Baca, they make it a place of springs, the autumn rains also cover it with pools. they go from strength to strength, till each appears before God in Zion. Hear my prayer, O LORD God Almighty, listen to me, O God of lacod. Look upon our shield, O Gos, look with lavor on your anointed one. Better is one day in your courts than a thousand elsewhere, I woud rather be a doorkeeper in thee house of my God than dwell in the tents of the wicked. For the LORD God is a sun and shield, the LORD bestows favor and honor, no good thing does he withhold from those whose walk is blameless.

O LORD almighty, blessed is the man who trusts in you .

لاحظ :

As they pass through the valley of Baca,

الترجمة :

« إذ هم يعبرون خلال وادي بكة ».

وبينما هم يعبرون من طريق إلى طريق(١)، تفيض أعينهم من الدمع ، طلبا للرحمة من الله ، وندما على التقصير في مرضاة الله ، وكنّى عن كثرة دموعهم

بقوله : إنهم وهم يعبرون ، يكون بكاء غزيرا ، لدرجة أن هذا البكاء لو جُمع فى أوعية ، وصب ماء الأوعية فى آبار ، لخيِّل للرائى أن الآبار ليست آبارا ، بل هى ينابيع ماء .

وكنّى داود عن رحمة الله بهم بقوله : إن المقابل للبكاء ، هو الرحمة. وعلامةُ الرحمة : أن الله يغمرهم بالغفران ، والغُفران يُكثّر النعم والخيرات، فى مقابل العصيان الذى ينزع البركة من الرزق ، وكنى عن كثرة النعم والخيرات بقوله : «ويغمرهم المطر الخريفى بالبركات» لأن الخريف فصل معتدل يأتى بعد الصيف ، وفيه تكثر ثمار الأرض .

ثم تكلم داود عن توجههم إلى الكعبة فقال : «ينمون من قوة إلى قوة ، إذ يمثل كل واحد أمام الله» وهذا يدل على أن فرض الحج كان على المستطيعين من المؤمنين .

ثم تكلم داود عن محمد ﷺ فقال : «انظر بعين الرحمة إلى من مَسحته مَلكا» من هو الممسوح ملكا ؟ وفى ترجمة أخرى : «انظر يا ألله ، والتفت إلى وجه مسيحك» والممسوح ملكا : هو محمد ﷺ أى المصطفى من الله من أرض «بكة» ثم قرن بين «خيام الأشرار» كناية عن القصور والدورالفاخرة ، وبين «أكواخ الأخيار» فقال : «اخترت الوقوف على العتبة فى بيت إلهى على السكن فى خيام الأشرار»

وفى هذا المعنى : ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق﴾ كناية عن تواضعه ، ورد بقوله : ﴿تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا

(١) يقول مفسرو التوراة فى المزمور ٨٤ : ٦ـ ٧ «عابرين فى وادى البكاء..» ما نصه : «وهم فى سفرتهم والأمل يملأ قلوبهم ، يجعلون من وادى البكاء بدلا من أن يملأوه بالدموع إنما به يتحول ينبوعا . ذلك لأن عظمة ما يتوقعون ، يجعلهم ينسون ما هم فيه من وعثاء السفر ومشقاته ، وحيتئذ فإن الطريق التى يسيرون فيها بمخافتهم الكثيفة للمختلفة تصبح أمكنة نـزهة وغبطة ، ويرون البركات المتعددة كلما جدّوا فى السير بعد، وهكذا فإن ضعفهم يتحول إلى قوة ، وتعبهم يتحول إلى راحة ، ولا يزالون كذلك إلى أن يقفوا أمام الحجة التى يقصدونها .

وصلاته : هى أن يصل إلى ما يقصده بخير وسلام ، ذلك لأن المهم ليس تعب الطريق ، بل الوصول إلى نهاية السفرة ؛ لتريح بالاطمئنان ، وتسعد بدار الأمان» أ هـ [السنن القويم] .

من ذلك ، جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا ﴾ كما هو منتهى آمال الأشرار .

موضع التحريف فى النص :

هو : «إذ يمثل كل واحد أمام الله فى صهيون» وهل كان الحج إلى صِهْيون؟ إن صهيون ليس جبلا مقدسا ، وإن هيكل سليمان المقام عليه ليس معبدا مقدسا ، ويدل على ذلك : نزاع السامريين والعبرانيين فى تقديسهما ، وهم يقدسون «جرزيم» وهيكل سُنبلّط المعروف بهيكل السامريين ، واختلافهم يدل على كذبهم، هذا من جهة المكان ، وأما من جهة الأشرار ، فإن الأشرار هم اليهود، ذلك قول عيسى عليه السلام : «يا أولاد الأفاعى ، كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات ، وأنتم اشرار ؟» [متى ١٢ : ٣٤]

والنبى الأمى الآتى ـ المعبر عنه بالملك وبالمسيح فى النص ـ لن يأتى من بنى إسرائيل ، ذلك قوله : «هم أغارونى بما ليس إلها ،أغاظونى بأباطيلهم ، فأنا أغيرهم بما ليس شعبا ، بأمة غبية أغيظهم» [تث ٣٢ : ٢١] ويأتى من بنى إسماعيل، لأن له بركة [تك ١٧ : ٢٠]

من نبوءات الكعبة البيت الحرام :

مزمور ٥ : ٧ «فبكثرة رحمتك أدخل بيتك»

مزمور ٢٦ : ٨ «يا رب أحببت محل بيتك»

مزمور ٣٦ : ٨ «يريدون من دسم البيت»

مزمور ٦٥ : ٤ «لنشبعن من خير بيتك»

مزمور ٦٦ : ١٣ «ادخل إلى بيتك بمحرقات»

مزمور ٦٩ : ٩ «لأن غيرة بيتك أكلتنى»

مزمور ٩٣ : ٥ «بيتك تليق القداسة ، يا رب»

وفى نبوءة المزمور ٢٦ : «أغسلُ يدىّ فى النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب لأسمع بصوت الحمد ، وأحدّث بجميع عجائبك ، يا رب أحببتُ محلّ بيتك ، وموضع مسكن مجدك» يقصد الطهارة بالماء من أجل الطواف بالكعبة ، المعبر عنها

بالمذبح ، وعنها : ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أى يتطهروا ويتنظفوا .

وفى المزمور ٣٦ «يروون من دسم بيتك ، ومن نهر نعمك تسقيهم ، لأن عندك ينبوع الحياة ، بنورك نرى نورا» يقول علماء أهل الكتاب : إن المراد بنورك: نور النبى الأمى الآتى إلى العالم ، ويلقبونه بلقب «المسيا» وفى هذا المعنى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا ، يُجبى إليه ثمرات كل شئ ، رزقا من لدنا﴾ - ﴿أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف﴾

وفى المزمور ٦٥ كلام عن الوفاء بالنذر،والشبع من خير بيته المقدس.وفى المزمور ٦٦«أدخل إلى بيتك بمحرقات،أوفيك نذورى،التى نطقت بها شفتاى، وتكلم بها فمى فى ضيقى ، أصعد لك محرقات سمينة مع بَخور كباشٍ . أقدمُ بقرا مع تيوس» وفى هذا المعنى﴿وليوفوا نذورهم﴾ - ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾

وفى المزمور ٦٩ يقول النبى يظهر الغيب لله : إنهم أبغضونى بلا سبب ، وقد بينا هذا فى كتابنا الإنجيل فى التوراة ، وبينا أن المسيح استدل به على محمد فى إنجيل يوحنا وهو يتكلم عن «بِيركليتوس الروح القدس» وأن ابن هشام صاحب السيرة قد نقله فى السيرة .

وفى المزمور ٩٣ « الرب قد ملك » يعنون أن : النبى الآتى سيأتى وسيملك على العالم بشريعة ، ثم قال إن شريعته إلى نهاية الزمان «ببيتك تليق القداسة يا رب إلى طول الأيام»

جبل بيت الرب فى آخر الأيام
فى سفر النبى إشعياء :

فى الأصحاح الثانى من سفر النبى إشعياء :

١ - نبوءة بإقامة مملكة «المسيح» المنتظر ، وامتدادها .

٢ - ذكر الشرور التى لأجلها ترك الرب شعبه ، بنى إسرائيل .

٣ - نبوءة بانتهاء العبادة الباطلة .

النّص :

«الأمور التى رآها إشعياء بن آموص ، من جهة يهوذا وأورشليم :

ويكون فى آخر الايام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجرى إليه كل الأمم ، وتسير شعوب كثيرة ، ويقولون : هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب ، فيعلمنا من طرقه ، ونسلك فى سبله، لأنه من صهيون تخرج الشريعة ، ومن أورشليم كلمة الرب ، فيقضى بين الأمم، ويُنصف لشعوب كثيرين ، فيطبعون سيوفهم سِككا ، ورماحهم مناجل ، لا ترفع أمّة على أمة سيفا ، ولا يتعلمون الحرب فى ما بعد

يا بيت يعقوب ، هلّم فنسلك فى نور الرب ، فإنك رفضتَ شعبكَ بيت يعقوب ، لأنهم امتلأوا من المشرق ، وهم عائفون كالفلسطينيين ، ويصافحون أولاد الأجانب ، وامتلأت أرضهم فضة وذهبا ، ولا نهاية لكنوزهم ، وامتلأت أرضهم خيلا ، ولا نهاية لمركباتهم ، وامتلأت أرضهم أوثانا ، يسجدون لعمل أيديهم ، لما صنعته أصابعهم ، وينخفض الإنسان ، وينطرح الرجل ، فلا تغفر لهم .

أدخل إلى الصخرة ، واختبئ فى التراب من أمام هيبة الرب ، ومن بهاء عظمته ، تُوضع عينا تشامخ الإنسان ، وتُخفض رفعة الناس ، ويسمو الرب وحده فى ذلك اليوم .

فإن لرب الجنود يوما على كل مُتعظّم وعال ، وعلى كل مرتفع ، فيُوضع ، وعلى كل أرز لبنان العالى المرتفع ، وعلى كل بلوط باشان ، وعلى كل الجبال العالية ، وعلى كل التلال المرتفعة ، وعلى كل برج عال ، وعلى كل سور منيع ، وعلى كل سفن ترشيش ، وعلى كل الأعلام البَهِجَة ، فيُخفض تشامخ الإنسان ، وتُوضع رفعة الناس ، ويسمو الرب وحده فى ذلك اليوم ، وتزول الأوثان بتمامها ، ويدخلون فى مغاير الصخور ، وفى حفائر التراب ، من أمام هيبة الرب ، ومن بهاء عظمته عند قيامه ليرعب الأرض .

كُفُوا عن الإنسان الذى فى أنفه نسمة حياة ، لأنه ماذا يُحسَب» [إش ٢: ١ - ٢٢]

البيان :

١ ـ إنه يتكلم عن نهاية أيام اليهود ، فهل النهاية لصالحهم ؟ هل يكون النبى المنتظر منهم أم لا يكون ؟

٢ ـ وعبر عن نهاية أيام ملكهم وشريعتهم ، بقوله «ويكون فى آخر الأيام» وتعبير آخر الايام هو تعبير خاص بانتهاء بركة إسحق وابتداء بركة إسماعيل ، مأخوذ

من قول يعقوب لبنيه لما حضره الموت : «اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام» [تك ٤٩ : ١] ثم قال عن النبى الآتى من غيرهم ، الذى ستخضع له الشعوب : «لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب» [تك ٤٩ : ١]

و«شيلون» هذا ، هو نبى السلام الآتى من نسل إسماعيل ، لأن إسماعيل مبارك فيه .

٣ ـ ما هو المراد ببيت الرب ؟ هو الكعبة البيت الحرام ، ولا يمكن أن يكون هو هيكل سليمان فى أورشليم، لأنه يتكلم عن نزع الملك والشريعة منهم .

٤ ـ وأين كان الناس يحجون من قبل موسى صاحب الشريعة ومن بعده ؟ ألم يبن نوح من بعد الطوفان مذبحا لله ؟

٥ ـ وقد وضع المحرف «لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب» والدليل على التحريف : قوله فيما بعد : «فإنك رفضت شعبك بيت يعقوب» كيف يرفضهم وكيف يخرج الشريعة منهم ؟

٦ ـ ثم بين السبب فى رفض الله لليهود من السير أمامه فقال : لأنهم عبدوا الأصنام .

٧ ـ ثم تكلم عن اليوم الذى سيظهر فيه النبى المنتظر ، فقال : إنه سيكون عسيرا على اليهود ، وفى حال ظهوره سيعزّ الله أمة ، وسيذل أمة ، ذلك قوله : «ادخل إلى الصخرة . . إلخ»

تطابق نبوءة جبل بيت الرب مع التوراة وأسفار الأنبياء :

١ ـ آخر الأيام : مأخوذ من التكوين ٤٩ : ١

٢ ـ جبل بيت الرب : موافق للمزمور ٦٨ : ١٥ ـ ١٦

٣ ـ وتجرى إليه كل الأمم : موافق للمزمور ٧٢ :٨

٤ ـ وتسير شعوب كثيرة ، ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب : موافق لمزامير الحج ٨٤ وغيره .

٥ ـ فيطبعون سيوفهم سككا : موافق للمزمور ٤٦ : ٩

٦ ـ ولا يتعلمون الحرب فيما بعد : موافق للمزمور ٧٢ : ٣و٧

٣ ـ وتجرى إليه كل الأمم : موافق للمزمور ٧٢:٨

٤ ـ وتسير شعوب كثيرة ، ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب : موافق لمزامير الحج ٨٤ وغيره .

٥ ـ فيطبعون سيوفهم سككا : موافق للمزمور ٤٦:٩

٦ ـ ولا يتعلمون الحرب فيما بعد : موافق للمزمور ٧٢:٣و٧

٧ ـ ويصافحون أولاد الأجانب : موافق للمزمور ١٠٦:٣٥ وهكذا .

والمزمور ٦٨ نبوءة عن الكعبة ، كما بينا .

والمزمور ٧٢ نبوءة عن وصف العدل فى مملكة النبى الآتى وعموميتها وجودتها وأبديتها .

والمزمور ٤٦ نبوءة عن نصر الله للنبى .

والمزمور ١٠٦ نبوءة عن ذكر معاصى بنى إسرائيل وطلبهم من الله أن يعجل بإرسال النبى المنتظر .

اسم أحمد فى الإنجيل

فى إنجيل يوحنا عن اسم أحمد ﷺ :

«إن كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب ، فيعطيكم معزّيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد . .إلخ» [يو ١٤:١٥ +]

يقول الأستاذ عبد الأحد داود الآشّورى فى كتابه « محمد كما ورد فى كتاب اليهود والنصارى » : إن المعزى موضوعة بدل كلمة «بيرقليطوس» اليونانية ، وهى من الناحية اللغوية البحتة تعنى (الأمجد والأشهر والمستحق للمديح ، والكلمة اسم مركب من مقطعين الأول Peri والثانى Kleitos ويكتب Periqleitos او Periqlytos مما يعنى تماما اسم أحمد باللغة العربية . أى أكثر ثناء وحمدا ، ولكن ما هو الاسم السامى الأصلى الذى استخدمه عيسى المسيح بلغته العبرية أو الآرامية؟

أ ـ تحتوى نسخة البشيتا Peshitta السريانية على كلمة (بِراقليطا) دون تفسير لمعناها ، وإذا لم أكن مخطئا ، فإن الصيغة الآرامية كانت «مُحمدّه» أو

«حِمْدَه» مما يقابل كلمة «محمد» أو «أحمد» بالعربية ، وكلمة « البرقليطوس» باليونانية .

ب ـ يصف إنجيل يوحنا البرقليطوس بأنه شخص محدد المعالم .

ج ـ ادعى بعض(١) الناس فى العصر النصرانى الأول أنه البرقليطوس أى : أحمد ، الذى تنبأ به المسيح .

د ـ الأوصاف الواردة بعد كلمة «البرقليطوس» تدل على نبى ، ومنها أنه يوبخ العالم على الخطايا ، ولا يتكلم من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبر بأمور آتية .

هـ ـ إن الكلمة التى نطقها المسيح هى «Periqlyt» بيرقليط وليست هى «Paraclete»

و ـ هل من عجب أن يكون أحد الرهبان النصارى أو النساخين قد حرف اسم أحمد Paraklytos إلى Periqlyt .

هذا هو ملخص كلامه .

وخفى عليه أن يكمله بقوله : إن حرف السين فى اللغة اليونانية يُوضع فى آخر أى اسم ، وحرف السين موجود فى اليونانية فى آخر بيركليت ، فتكون بيركليت اسما لا صفة . وشكل الكلمة فى اليونانية هو بدون تشكيل وبدون حروف علة التى هى الألف والياء والواو ، وعلى ذلك يمكن أن تنطق الكلمة بكسر الباء ، ويمكن أن تنطق بفتحها . وكسر الباء يدل على «أحمد» أى اسم إنسان هو أحمد لله من غيره ، ووجود السين فى آخر أحمد ، يدل على أن الكلمة اسم لا صفة .

* * *

ومن كلام عيسى عليه السلام عن بيراكليت الروح القدس :

« إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب ليعطيكم معزيًا آخر ، ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله ؛ لأنه

---

(١) منهم مانى الفارسى .

لآب ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا ، لأنكم معى من الابتداء ...

وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ...الخ » [يوحنا ١٤ : ١٥ +]

وسيأتى مزيد بيان عن « بيركليت » فيما بعد .

محاكمة الأستاذ الدكتور
طه حسين
على كتابه «فى الشعر الجاهلى»

فى سنة ألف وتسعمائة وستة وعشرين ميلادية . فى مدينة القاهرة ، ظهر كتاب للأستاذ الدكتور طه حسين - رحمه الله - يسمى « فى الشعر الجاهلى »

وكان أخطر ما فيه هو الجانب الدينى الذى شرحه مدرس بدار العلوم اسمه «محمد عبد المطلب» فى مقال طويل له فى عدد الأهرام الصادر يوم ٢ مايو عام ١٩٢٦ . وقد خص بالرد ما جاء فى صفحة ٢٦ وما بعدها (يقع الكتاب فى ١٨٣ صفحة) عن قصة إبراهيم وإسماعيل بأنه « كان بين اليهود والعرب فى القديم حرب انتهت بالهدنة وأراد كل من العرب واليهود أن يتقرب بعضهم من بعض فاخترعت القصة لإيجاد هذه الصلة ثم وافق وضعها هوى فى نفوس قريش ومصلحة لهم فى ان يثبتوا لمكة مجداً كمجد روما قديما فوافقوا على القصة لأن فيها الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل . فمجد مكة بهذا قديم ينفع قريشا . . ولما جاء الإسلام وقامت الوثنية تناهضه انتهز فرصة وجود هذه القصة فى العرب فاستغلها لإثبات الصلة بينه وبين الدينين القديمين . دين النصارى ودين اليهود ، وبإثبات هذه الصلة يتقوى على الوثنية العربية »

وزاد الطين بلة حين خلص إلى القول «أمر هذه القصة إذاً واضح فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى أيضا وإذاً يستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى »

ونشرت الأهرام فى عددها الصادر يوم ١٥ سبتمبر نص البلاغ الذى رفعه عبد الحميد بك البنان إلى «حضرة صاحب العزة رئيس نيابة مصر». وقد جاء فيه: أن «حضرة الدكتور طه حسين المدرس بالجامعة المصرية نشر ووزع وباع وعرض فى المحافل والمحلات العمومية كتابا أسماه « فى الشعر الجاهلى » طعن وتعدى فيه على الدين الإسلامى وهو دين الدولة بعبارات صريحة واردة فى كتابه، الأمر الواقع تحت نصوص المواد ٣٠ و ١٣٩ و ١٤٨ من قانون العقوبات ، ولما كان هذا الأمر جريمة،

ولى الحق فى التبليغ عنها ، وطلب التحقيق بخصوصها حتى إذا تبينت صحة التهمة، ترفع الدعوى العمومية عليه » وأرفق نسخة من الكتاب ببلاغه .

تبع ذلك حملة شارك فيها أطراف عديدة . بدا وكأن الهدف منها التأثير على قرار النيابة .

فمن ناحية صدرت خلال الفترة القصيرة التى أعقبت تقديم هذا البلاغ مجموعة من الكتب التى ترد على ما جاء «فى الشعر الجاهلى»

أولها : وضعه محمد فريد وجدى . الكاتب الإسلامى المرموق الذى رأى أن الدكتور طه حسين قد انتهج منهج الغلو فى تحرى أسباب الاختلاق على الجاهليين . وقد جره إلى المبالغة فيه ؛ اعتماده على كتب المحاضرات » والكتاب به أخطاء اجتماعية وسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها »

ثانيها : من تأليف الشيخ محمد الخضر «المعروف بتحقيقه وسعة معارفه العلمية والأدبية»

والثالث : بقلم الكاتب الفاضل «محمد حسين أفندى الموظف بالجمعية الزراعية الملكية» والذى «اشتمل على عدة مباحث قيمة، بعضها تاريخى وبعضها أدبى وأكثرها دينى . وهى فى جملتها شاهد بسعة اطلاع المؤلف وقوة حجته»

من ناحية أخرى شكل عدد من رجال الأزهر ما أسموه «بجمعية الدفاع عن حقوق العلماء» والتى دعت إلى اجتماع كبير فى حرم الأزهر الشريف يوم الجمعة ١٢ نوفمبر عقب الصلاة «للنظر فى شأن الملحد طه حسين ومطالبة الحكومة بإخراجه من الجامعة المصرية »

ولخصت النيابة الاتهامات التى وجهها المبلغون فى أربعة :

١ ـ تكذيب القرآن فى إخباره عن إبراهيم وإسماعيل

٢ـ تعرضه للقراءات السبع المجمع عليها وزعمه بعدم إنزالها من عند الله ، وأن «هذه القراءات إنما قرأتها العرب لا كما أوحى الله بها إلى سيدنا محمد عليه السلام»

٣ ـ تعريضه بنسب الرسول ﷺ فيما جاء فى قوله: إن انتحال الشعر ، ونسبته للجاهليين جاء بهدف «تعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش»

٤ ـ وأخيرا إنكار أن الإسلام دين إبراهيم»

وبعد أن حقق «محمد نور» رئيس نيابة مصر فى القضية . وبعد أن قرأ كل ما اتصل بالكتاب من سائر الأطراف ، جاء رده على الاتهامات التى وجهت لطه حسين

بالنسبة للتهمة الأولى : رأى أن المبلغين قد انتزعوا العبارات من موضوعها والنظر إليها منفصلة وأنها جاءت فى الكتاب «فى سياق الكلام على موضوعات كلها متعلقة بالغرض الذى ألف من أجله الكتاب»

أما فيما يتصل بالتهمة الثانية : فقد رأى أن ما ذكره المؤلف فى هذه المسألة هو بحث علمى لا تعارض بينه وبين الدين

وفيما يتعلق بالاتهام الثالث : وافق على أن المؤلف تكلم فيما يختص بأسرة الرسول ونسبه فى قريش بعبارات خالية من كل احترام غير أنه لا يوجد اعتراض على بحثه على هذا النحو

كما لم يعترض على أن يكون مراد المؤلف بما كتبه فى الاتهام الرابع ما ذكره غير أنه «كان سىء التعبير جدا فى بعض عباراته»

وخلص محمد نور من كل ذلك إلى القول بأن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين

أما من الوجهة العلمية : فإن « أستاذ الجامعة المصرية كغيره فى الجامعات الأخرى من واجبه أن ينشر نتيجة أبحاثه ولا يحكم على أعماله إلا النقاد المتخصصون . وأن مجلس الجامعة بصفته الهيئة التأديبية للجامعة هو الذى يحاكم الأستاذ المخطىء وليس غيره »

وأغلقت النيابة بذلك ملف القضية بعد أن خيبت آمال خصوم طه حسين بدءاً من عبد الحميد البنان وانتهاء بالأهرام.

اعلم : أن البركة تدل على مكان نزول الشريعة . ومن أيام آدم عليه السلام إلى قيام القيامة ؛ ثلاث شرائع إلهية عالمية لجميع الأمم .

الأولى : شريعة نوح عليه السلام وقد نزلت فى مكة المكرمة عقب استقرار الفلك فيها على جبل الجودى ، وبناه نوح للكعبة . فتكون مكة مكانا مباركا من حين نزول شريعة نوح إلى حين نزول التوراة على موسى عليه السلام . وكان الناس من بعد ارتحالهم من مكة ، وتفرقهم فى البلاد يأتون كل سنة إلى مكة لحج البيت . ويعرفون الشريعة . شريعة نوح من أهل مكة (١).

فلما نزلت التوراة انتقلت البركة إلى مكان نزولها لقوله تعالى :﴿ أن بُورك من فى النار ومن حولها ﴾ . وظلت بركة المكان قائمة إلى ظهور محمد ﷺ فى مكة المكرمة ، ولما ظهر ونزل القرآن . أصبحت مكة هى المباركة فى أيام الشريعة الثالثة. وتظل مباركة إلى يوم القيامة . لأن القرآن قد نسخ التوراة .

وفى القرآن أن الله أعطى بركة لإسماعيل ، وأعطى بركة لإسحق . ذلك قوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق﴾ وقد بدأت بركة إسحق من نبى الله موسى . ولذلك قال : ﴿ أن بورك من فى النار ومن حولها ﴾ وبدأت بركة إسماعيل من نبى الله محمد ﷺ ولذلك قال : ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين ، الذين يخشون ربهم بالغيب . وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون ﴾ ؟

---

(١) فى التوراة : أن نوحا عليه السلام لما خرج هو والمؤمنون بالله من السفينة بنى مذبحا للرب . والمذبح هو المسجد فى لغة أهل الكتاب . وأنزل الله عليه شريعة بعدما باركه . وهذا هو النص :« وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم : أثمروا واكثروا واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء ، مع كل ما يدب على الأرض ، وكل أسماك البحر قد دُفعت إلى أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاما . . الخ » [تكوين ٩:١ـ]
ثم إن الناس ارتحلوا من مكة إلى الشرق إلى جهة العراق ، فذلك قوله :« وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة ، وحدث فى ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار ، وسكنوا هناك» [تكوين ١١ : ١ـ٢ أيضا : ١٠:١٠ و ١٤: ١]

وعلى هذا الذى قلته فى « البركة » ننظر فى الآيات التالية :

١ ـ ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها . وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾

يخبر على زمان مضى لبنى إسرائيل . فيقول : إنهم كانوا مستعبدين لفرعون مصر ، وأنه نجاهم من فرعون ، وجعل لهم ملكا قائما على شريعة التوراة ، وهذا الملك محدد بمشارق الأرض ومغاربها . الأرض ﴿ التى باركنا فيها﴾ ولم يقل : باركنا فيها للعالمين ؛ ليميز بين أرضين مباركين . فيعرف بالتمييز المراد منهما . وفى القرآن أن أرض بركة موسى وبنى إسرائيل هى ﴿ طور سيناء ﴾ ذلك قوله تعالى: ﴿فى البقعة المباركة من الشجرة﴾ وقوله تعالى : ﴿أن بورك من فى النار ومن حولها﴾ ولما كانت بركة موسى من طور سيناء ، فإنهم يكونون وارثين للأراضى التى هى حوله . ووراثة ملك لنشر التوراة فيها . وقال ابن كثير الدمشقى رحمه الله فى تفسيره : أخبر ـ تعالى ـ أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون . وهم بنو إسرائيل . مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها . يعنى الشام .

والصحيح : أن مشارق ومغارب البلاد التى حول جبل طور سيناء . ليست كلها متجهة إلى جهة واحدة هى الشام . فإنه لو فرضنا بلدا أسفل جبل الطور . لفرضنا مشرقها إلى العراق ، ومغربها إلى مصر . فكيف تكون المشارق والمغارب كلها نحو الشام ؟

وقوله تعالى : ﴿ باركنا فيها ﴾ هو خبر عن زمان مضى . وكان بدؤه فى حياة موسى نفسه وكان انتهاؤه فى زمان محمد نفسه . وتعبيره بالماضى ؛ يدل على أن بركة بنى إسرائيل قد زالت عن هذه الأرض بظهور محمد ﷺ ونسخه شريعة موسى عليه السلام . وأن هذه الأرض مباركة من زمان محمد بشريعته ، وتظل مباركة بشريعته إلى يوم القيامة .

٢ ـ ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . الذى باركنا حوله ﴾

إن قوله تعالى : ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ :

١ ـ إما أن يراد به الآن فى هذا الزمان الحاضر . وهو مدة شريعة القرآن .

٢ ـ وإما أن يراد به الماضى . وهو مدة شريعة التوراة . وعلى أى احتمال ، لا يكون المسجد الأقصى مبارك الآن . وذلك لأنه إن كان المراد به الزمان الحاضر . فإن الضمير الذى هو الهاء فى ﴿حوله﴾ يعود إلى المسجد الحرام ولا يعود إلى المسجد الأقصى . وذلك لأن المسجد الحرام هو المبارك فى شريعة القرآن ؛ لقوله : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ﴾ الآن . فإن محمداً قد بُعث من بلده . وإن كان المراد به الماضى . وهو مدة شريعة التوراة . فإن المعنى يكون : ﴿إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾ سابقا من قبل القرآن . وهو الآن غير مبارك . فالمبارك الآن ؛ هو المسجد الحرام ؛ لنزول القرآن عنده . وهو كأى مسجد من مساجد المسلمين .

وكيف يكون مباركا ماضيا أو حاضراً . والمكان المبارك بالنص هو جبل طور سيناء ؟ فيكون المعنى الصحيح : هو عود الضمير إلى المسجد الحرام . الذى باركنا حوله من بدء نزول القرآن .

عَود الضمير إلى أقرب مذكور :

وقد يكون عودْ الضمير إلى أقرب مذكور فى الكلام ؛ كلمة حق أريد بها باطل . وبيان ذلك :

قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ فآمن له لوط . وقال : إنى مهاجر إلى ربى . إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب . وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب﴾ إن الضمير وهو الهاء فى ﴿ذريته﴾ أقرب مذكور له هو ﴿يعقوب﴾ بن إسحق .

ولو قلنا بعود الضمير إليه ؛ لانحصرت النبوة فى نسل يعقوب ، وانحصر الكتاب أيضا فى نسله . وانحصار ﴿النبوة والكتاب﴾ فى نسل يعقوب هو إسقاط محمد رسول الله ﷺ من عداد النبيين . وذلك لأنه من نسل إسماعيل عليه السلام. وإذْ محمد رسول من الله ، يكون عود الضمير إلى إبراهيم ؛ ليدخل محمد فى نسله .

وينصرف هذا الكلام على قول الله تعالى : ﴿ من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى . الذى باركنا حوله ﴾ فعندنا مسجدان . أحدهما مبارك بنص القرآن . وهو ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا، وهدى للعالمين ﴾ والآخر ليس فى القرآن نص صريح على أنه مبارك الآن . فإن قلنا بعود الضمير وهو الهاء فى ﴿حوله﴾ على أقرب مذكور ؛ لزم أن يكون ﴿ المسجد الأقصى ﴾ مباركا الآن . ولزم أن لا يكون ﴿ المسجد الحرام ﴾ مباركا . وهذا لا يقول به عاقل . والحال أن أحدهما مبارك الآن . وإلا كان يقول : حولهما . فلنبحث فى القرآن عن المبارك الآن ؛ لنعيد الضمير إليه .

وفى القرآن الكريم : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها . قرى ظاهرة ﴾

يخبر عن أرض سبأ ـ وهى أرض اليمن ـ أنه أكرمهم بأن جعل بينهم وبين القرى المباركة ؛ قرى ظاهرة . وهذا يدل على أن اليمن ليست من القرى المباركة ، وعلى أن القرى الظاهرة ليست هى أيضا من القرى المباركة . فما هى حدود القرى المباركة القريبة من اليمن ، والقريبة أيضا من القرى الظاهرة مثل مدينة « أبها » وما قبلها وما بعدها ؟

إنها مكة وما حولها من القرى التى هى امتداد طبيعى لها . وهل هى مباركة الآن ، أم كانت مباركة ؟ إن قرى مكة وما حولها مباركة فى مدة شريعتين اثنتين . المدة الأولى : مدة شريعة نوح عليه السلام وتنتهى بظهور التوراة . والمدة الأخرة : مدة شريعة القرآن وتنتهى بانتهاء الدنيا . وفى زمن إكرام أهل اليمن من الله : كانت شريعة التوراة موجودة . ولها البركة . ومكان بركتها هو طور سيناء . فقوله : ﴿ القرى التى باركنا فيها ﴾ يعنى فى الماضى أم فى الحاضر ؟ لا يعنى الماضى ؛ لأنه فى أيام الإكرام كانت شريعة التوراة هى الموجودة . ولها البركة . وإنما هو يعنى الحاضر . على معنى :﴿ وبين القرى التى باركنا فيها ﴾ الآن من مبعث محمد ﷺ .

الفرق بين الأرض المباركة ، والأرض المقدسة :

وقد وصف الله أرض طور سيناء بأنها مباركة ، وبأنها أيضا مقدسة . ووصف مكة بأنها مباركة ، ولم يصفها صراحة بأنها مقدسة . وهى مقدسة فى

التوراة فى قوله :« جبل قدسى » وفى القرآن ما يفهم منه أنها مقدسة وهو ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ لأنها أرض طاهرة والطاهر مقدس . وفى القرآن ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ ووصف فلسطين صراحة بأنها كانت مباركة ومقدسة . فى قوله :﴿ادخلوا الأرض المقدسة﴾

وسبب التقديس : هو أن الله تعالى تجلى لموسى فى جبل طور سيناء . وقال له: ﴿ اخلع نعليك : إنك بالواد المقدس طوى ﴾ وفى التوراة : « اخلع حذاءك من رجليك . لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة » وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه ظهر له رئيس جند الله وقال له :« اخلع نعلك من رجلك ؛ لأن المكان الذى أنت واقف عليه ؛ هو مقدس »

ولم يتجل الله لمحمد ﷺ فى مكة المكرمة . وإنما هدد بنى إسرائيل بتجليه فقال :﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ ؟ ولم يأت فى الظلل.

ولازم التجلى هو التقديس . ولولا التجلى ، ما كان التقديس . فهل بقى التقديسللأرض وللوادى من بعد نزول القرآن ؟ من المؤكد أنه انقطع من بعد نزول القرآن ؛ لأن التقديس بسبب التجلى ، والتجلى لنزول التوراة وقبولها . ونسخُها يدل على رفع التقديس من مكانية . الأرض والوادى .

٣ ـ ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ يريد أن يقول : إنه فى زمن هجرة إبراهيم ولوطا عليهما السلام . كانت الهجرة إلى مكة . التى فى هذا الزمان باركنا فيها بشريعة نوح للعالمين . أو يكون المعنى : إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين الآن من حين نزول القرآن وإلى الأبد (١).

---

(١) فى تفسير شيخ الإسلام محمد بن عمر رحمه الله :

« ثم إنه ـ سبحانه ـ أتم النعمة عليه بأن نجاه ونجى لوطا معه وهو ابن أخيه . وهو لوط بن هاران ، إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين . وفى الأخبار : أن هذه الواقعة كانت فى حدود « بابل » فنجاه الله تعالى من تلك البقعة إلى الأرض المباركة .

ثم قيل : إنها «مكة» وقيل : أرض الشام ؛ لقوله تعالى :﴿ إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله﴾ والسبب فى بركتها : أما فى الدين ؛ فلأن أكثر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بعثوا فيها ، وانتشرت شرائعهم وآثارهم . وأما فى الدنيا ، فإن الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر . .الخ »

٤ - ﴿ تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ يريد أن يقول :(أ) إن سليمان عليه السلام فى زمان بركة التوراة كانت الريح العاصفة مسخرة له إلى الأرض التى باركنا فيها . ولم يقل للعالمين . ليميز مدينة حكمه . وقد كانت أورشليم التى هى القدس . وكانت تدور فى مساحة من الأرض ﴿ غدوها شهر ، ورواحها شهر﴾ أى فى مساحة تقدر بنحو ألفى كيلومتر . (ب) ومن المحتمل :﴿التى باركنا فيها﴾ الآن . وهى أرض مكة . وعلى هذا الإحتمال؛ يكون المعنى إلى نهاية الأرض التى باركنا فيها الآن . ويلزم هذا المعنى أن يكون سليمان كان ملكا على مكة ، فى أيامه . ومدّ ملكه إلى اليمين . مع ملاحظة : أنه كان فى «الطائف» لما جاءه الهدهد بالخبر .

٥ - ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ﴾ باركنا فيها الآن من نزول القرآن .

وقد وصف الله القرآن بأنه مبارك. فى قوله تعالى: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾

ووصف مكان نزوله بأنه مبارك فى قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى بيكة مباركا ﴾

وفى القرآن أن العالم الذى يبلغ الشريعة مبارك فى قوله تعالى :﴿ وجعلنى مباركا أينما كنت ﴾

وفى القرآن : أن الأرض مباركة بشرائع الله . فى قوله تعالى :﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ﴾ والبركة غير تقدير الأقوات . ولو كانت البركة هى زيادة الخير والنماء . لما كان يغاير بين البركة والتقدير .

وفى القرآن أن ليلة نزول القرآن مباركة . فى قوله تعالى :﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ وفى القرآن أن مكان نزول التوراة كان مباركا . فى قوله تعالى :﴿فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾

عود الضمير :

ونرجع إلى عود الضمير إلى أقرب مذكور . ونقول : إن الضمير إذا وجب

عوده إلى أقرب مذكور ؛ فإن وجوب عوده يكون بنص . يُعرف من سياق الكلام .
ونبين ذلك بقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه . نرفع درجات من نشاء . إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحق ويعقوب ، كلا هدينا . ونوحا هدينا من قبل . ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون . وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس . كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا . وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء ؛ فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ﴾

البيــــان :

١ ـ قوله : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ يدل على موهوب له من قبل . والدليل على ذلك: وجود الواو فى قوله :﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ﴾ وأيضا :النافلة تدل على فرض قبلها . شبه طلب إبراهيم لإسماعيل بالفرض ، لأنه مقدم على النافلة . وهو البكر . وعليه النص فى سورة الصافات . وبعدما فرغ من الكلام عن ذبحه لم يقل ﴿ بشرناه بإسحق ﴾ وإنما قال : ﴿ وبشرناه بإسحق ﴾ بالواو العاطفة ليدل على ثان مبشر به بعد أول .

٢ ـ وينصرف هذا على قوله : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ؛ وهبنا له إسحق ويعقوب . وكلا جعلنا نبيا ﴾ فإن المعنى هو :﴿ وهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ نافلة . ولم يذكر نافلة . لذكرها فى موضع آخر ، ولذكره أيضا فى موضع آخر : أنه لما اعتزلهم قال :﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين ﴾ وهو إسماعيل الذبيح .

٣ ـ والضمير فى ﴿ ومن ذريته ﴾ وهو الهاء . هل يعود إلى أقرب مذكور وهو نوح أم يعود إلى إبراهيم ؟ إنه يجب عوده إلى نوح . وذلك لأنه لو عاد إلى إبراهيم للزم أن يكون لوط عليه السلام من ذريته ، والحال أنه ليس من ذريته .

٤ ـ قوله :﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ﴾ المراد بالكتاب

التوراة . والمراد بالحكم : الملك والسلطان على الناس . وفى المذكورين من لم يحز الثلاثة معا . فإن التوراة نزلت على موسى عليه السلام وآتاه الله سلطانا مبينا .

وهذا هو البيان :

١ - إبراهيم	ملك ونبوة
٢ - إسحق	ملك ونبوة
٣ - يعقوب	ملك ونبوة
٤ - نوح	نبوة فقط
٥ - داود	آتاه الله الكتاب ؛ لأنه كان على شريعة التوراة وآتاه الحكم والنبوة
٦ - سليمان	معه الثلاثة كأبيه
٧ - أيوب	نبوة فقط
٨ - يوسف	ملك ونبوة
٩ - موسى	معه الثلاثة
١٠ - هارون	النبوة والكتاب
١١ - زكريا	النبوة والكتاب
١٢ - يحيى	مثل أبيه . وحكم على بنى إسرائيل بالهلاك على يد النبى الآتى من بعده
١٣ - عيسى	الكتاب والنبوة . وحكم على بنى إسرائيل بالهلاك على يد النبى الآتى من بعده
١٤ - إلياس	النبوة والكتاب
١٥ - إسماعيل	النبوة فقط
١٦ - اليسع	النبوة والكتاب
١٧ - يونس	النبوة والكتاب
١٨ - لوط	النبوة فقط

وعلى ما قدمنا لا تكون الثلاثة لكل واحد . ومثل ذلك : هؤلاء الجنود أعطيناهم ثلاث قرى . فمنهم من يملك الدور ، ومنهم من يملك البساتين ، ومنهم

من يقيم الشعائر الدينية . ومنهم من يملك أكثر ومنهم من يملك أقل .

٥ ـ وقوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها ﴾ الضمير وهو ﴿ها﴾ يعود إلى النبوة . الممنوحة لمحمد ﷺ . والمراد بـ ﴿هؤلاء ﴾ اليهود خاصة . فى مقابل الذين ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ وهم العرب أبناء إسماعيل .

●●●

هجرة إبراهيم إلى مكة

ويقول بولُس فى الرسالة إلى العبرانيين عن إبراهيم عليه السلام : إنه خرج من أرض آبائه(١) . وهو لا يعلم إلى أين يذهب . ذلك قوله : « بالإيمان إبراهيم لما دُعى أطاع أن يخرج إلى المكان الذى كان عتيدا أن يأخذه ميراثا . فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتى » [عب ١١ : ٨]

وفى التوراة : « وقال الرب لأبرام : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك » [تك ١٢ : ١] وهى أرض حاران .

وفى القرآن : ﴿وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين﴾ ولم يبين له الأرض التى سيذهب إليها . ويمكن تقدير مضاف هو : إلى بيت ربى لأنه كان معلوما للناس من زمان نوح عليه السلام . وهذا كله يكذب كاتب التوراة فى قوله : إن تارَحا أبا إبراهيم أخذ إبراهيم ولوطا ، من أور(٢) الكلدانيين . التى هى عند بلاد العراق ليذهبوا إلى أرض كنعان [تك ١١ : ٣١] والدليل على أنه كذب : هو أن آزر أبا إبراهيم وليس هو تارح ، وأن تارح كان كافرا والهجرة هجرة إيمان ، وأن عشيرة إبراهيم كانت فى حاران عند بلاد الأتراك . وقوله «ليذهبوا إلى أرض كنعان» يكذب قوله: إنه خرج ولا يعلم إلى أين يأتى .وفى التوراة : « أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين» [تك ١٥: ٧] وفى الإنجيل:« ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم وهو فى ما بين النهرين قبلما سكن فى حاران، وقال له : اخرج من أرضك ومن عشيرتك.

---

(١) أور : فى نهاية خليج فارس مقابل الصحراء العربية .

(٢) أرض آبائه هى حاران عند تركيا والتوراة تقول إنه خرج من أور . وفى موضع آخر تقول إنه خرج من حاران .

وهام إلى الأرض التى أريك . فخرج حينئذ من أرض الكلدانيين ، وسكن فى حاران . ومن هناك نقله بعد ما مات أبوه إلى هذه الأرض » [أع ٧ : ٢ ـ ٤]

لاحظ :

« اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك » ما هى أرضه ؟وأين كانت عشيرته ؟ يوجد تناقض فى التوراة فى أرضه ومكان عشيرته . ففى الأصحاح الخامس عشر من سفر التكوين : « أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين » وفى الأصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين : إن إبراهيم عليه السلام أوصى عبده أن يزوج ابنه إسحق من أقربائه : « إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحق » وفى الأصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين « أخى لابان إلى حاران ». و« أور » فى أرض العراق قريبة من « مكة المكرمة » و «حاران» عند « تركيا » وإذ خرج من « أور » إلى بيت الله . فلنبحث فى التوراة عن المكان الذى فيه بيت الله . ليس فى أرض الشام بيتا لله . وإنما هو فى مكة وهو من وضع نوح عليه السلام . ففى التوراة : أن إبراهيم كان ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من أرضه ومن عشيرته مع لوط عليه السلام وسارة . وخرج من « حاران » ذلك قوله: « لما خرج من حاران » [تك ١٢ : ٤]

فلماذا قال الكاتب : إنه خرج من « أور » وهو قد خرج من « حاران » ؟ إنه يريد اللغو فى هجرته إلى « مكة المكرمة »

يقول الكاتب : « واجتاز أبرام فى الأرض إلى مكان شكيم . إلى بلوطة مورَة وكان الكنعانيون(١) حينئذ فى الأرض. وظهر الرب لأبرام ، وقال: لنسلك

---

(١) نوح ـ حام ـ كنعان

اولاد كنعان : ١ـ صيدُون ٢ـ حِثّا ٣ـ اليبُوسى ٤ـ الأمُورى ٥ـ الجرجاشى ٦ـ الحِوِّى ٧ـ العَرقى ٨ـ السِّينى ٩ـ الأروادى ١٠ـ الصمَّارى ١١ـ الحَماتى. وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعانى . وكانت تخوم الكنعانى من صيدون ، حينما تجئ نحو جرار ، إلى غزة ، وحينما تجئ نحو سدوم وعمورة وادمة وصبوييم إلى لاشَع [تك ١٠]

نسب إبراهيم عليه السلام :

نوح ـ سام ـ ارفكشاد ـ شالح ـ عابر ـ فالج ـ رعو ـ سروج ـ ناحور ـ تارح ـ إبراهيم .

أعطى هذه الأرض. فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت إيل ، ونصب خيمته، وله بيت إيل من المغرب ، وعاى من المشرق. فبنى هناك مذبحا للرب ، ودعا باسم الرب ، ثم ارتحل ارتحالا متواليا ، نحو الجنوب » [تك١٢ : ٦ ـ ٩]

شكيم : هى مدينة « نابلس » وبَلُّوطة مورة : غير معروف مكانها عند أهل التوراة . وقوله « وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض » يدل على أن نسل كنعان كان موجودا فى فلسطين زمن إبراهيم ، وأنهم امتلكوا هذه الأرض . والمفسرون يشككون فى هذا الخبر .

وقوله « فبنى هناك مذبحا للرب » معناه : أنه بنى مسجدا لعبادة الله تعالى . وقوله « إلى الجبل » بالألف واللام يدل على جبل معروف للعالم وإلا كان يقول : إلى جبل . بغير ألف ولام . وهذا الجبل » شرقى « بيت إيل » و « إيل » هو الله تعالى . وأهل كنعان كانوا يعبدون الأصنام . وعلى عبادتهم لها ، لا يكون « بيت إيل» أى بيت الله فى أرض كنعان ، وإنما يكون فى أرض مكة . ونصبُ خيمته شرقى بيت إيل، يدل على أن مقام إبرهيم نحو هذا البيت أى خيامه ومساكنه . ويوجد حجر يدل على مقام إبراهيم فى عصرنا هذا بجوار الكعبة . فإنك تجد جدار الكعبة الذى فيه الباب . وبعده إلى الشرق ووجهك نحو الباب مقام إبراهيم . وقوله « ودعا باسم الرب » يدل على أنه هدى الناس إلى الله ، وألزمهم بعبادته . وقوله « ارتحل ارتحالا متواليا نحو الجنوب » والجنوب فى لغة التوراة : جنوب أرض فلسطين . ولأن فلسطين فى الشمال تكون مكة فى الجنوب .

وقد فسر عيسى عليه السلام أرض الجنوب بأنها مكة . وقال : إن النبى الأمى الآتى على مثال موسى ، سيأتى منها لفتح فلسطين . ففى إنجيل بَرنابا : « أجاب يسوع : لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى : أنى لستُ مَسيّا الله الذى تنتظره كل قبائل الأرض . كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا : « بنسلك أبارك كل قبائل الأرض»(١) ولكن عندما يأخذنى الله من العالم ، سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة، بأن يحمل عادمى التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله . فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى ، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا . حينئذ يرحم الله

---

(١) تكوين ٢٢ : ١٨ .

العالم ، ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله . الذى سيأتى من الجنوب بقوة . وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام ، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر . وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به . وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا » [بر ٩٦ :٨ ـ ١٤]

وكاتب التوراة صرح بأن إبراهيم عليه السلام قد دخل مصر هو ولوط وغيّر الغرض من دخوله من دخول للدعوة إلى الله ، إلى دخول من شدة الجوع . وأنه احتال بسارة امرأته ليحصل على خير(١).

ثم صعد من مصر إلى الجنوب هو ولوط عليه السلام « وسار فى رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل . إلى المكان الذى كانت خيمته فيه فى البداءة » أى أنه رجع إلى مكة ، إلى مقامه بجوار بيت الله بعدما دعا إلى الله وأذن فى الناس بالحج . وأكد الكاتب على هذا المعنى بقوله : « إلى مكان المذبح الذى عمله هناك أولا ، ودعا هناك أبرام باسم الرب » [تك ١٣ : ١ ـ ٤]

ثم قال الكاتب : إن لوطا ارتحل عن إبراهيم إلى جهة الشرق . وأبرام سكن فى أرض كنعان . فلنحدد جهة الشرق ، لنعرف مكان سدوم وعمورة ويقول مفسرو التوراة : « إن الموضع الصحيح لمدينتى « سدوم » و « عمورة » غير معروف تماما » وهما غير معروفان من تغيير الكاتب مكان مقام إبراهيم .

---

(١) فى كتاب بدائع الزهور لابن إياس / القسم الاول / الجزء الأول :

« ثم إن الملك رد سارة على إبراهيم ، ووهب له جارية جميلة تسمى هاجر . وكان لها من العمر أربع عشرة سنة . وكان أصلها من مدينة عين شمس التى فى المطرية . فأحب إبراهيم هاجر وتسرى بها فجاءه منها ولده إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقيل : إن الملك طوطيس أسلم على يد إبراهيم عليه السلام »

« قال ابن نصر المصرى : كان على باب قصر الشمع عند الكنيسة المعلقة صنم من نحاس أصفر ، على خلقة الجمل . وعليه شخص راكب . وله عمامة مثل العرب وفى رجليه نعلان من جلد . كانت القبط إذا تظالموا ، واعتدى بعضهم على بعض تحاكموا إليه ، ويقفون بين يدى ذلك الصنم . ويقول المظلوم للظالم : إن انصفتنى قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل . فيأخذ الحق لى منك شئت أم أبيت . يعنون بالراكب النبى ﷺ فلما فتح عمرو بن العاص مصر ، اخفت القبط ذلك الصنم ؛ لئلا يكون حجة عليهم »

ويمكن تحديد الموضع بنهاية أملاك إبراهيم عليه السلام فى مكة . وذلك لأنهما كانا يسيران معا فى الدعوة إلى الله . ثم قال إبراهيم للوط : « لا تكن مخاصمة بينى وبينك وبين رعاتى ورعاتك . لأننا نحن أخوان . أليست كل الأرض أمامك . اعتزل عنى . إن ذهبت شمالا فأنا يمينا وإن يمينا فأنا شمالا . . . فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن ، وارتحل لوط شرقا ، فاعتزل الواحد عن الآخر » فعلى هذا يكون بدء ملك لوط من أسفل ناحية الأردن . وبدء ملكه هو نهاية ملك إبراهيم من تحت الأردن إلى ناحية مكة .

ولا يمكن أن يكون بدء ملك إبراهيم من فوق الأردن إلى أرض فلسطين . وذلك لأنه لما ماتت سارة لم يجد لها موضع قبر يدفنها فيه . ففى الأصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين : « وماتت سارة فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان . فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكى عليها وقام إبراهيم من أمام ميته ، وكلم بنى حثّ قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، أعطونى ملك قبر معكم، لادفن ميتى من أمامى » ثم اشترى القبر بأربع مئة شاقل فضة جائزة عند التجار .

وقال الكاتب : إنه حدثت معركة بين ملوك البلاد . وأنهم أغاروا على لوط وأسروه . ولما علم إبراهيم بأسر لوط خرج بجيشه لاستنقاذه وبعدما أنقذه ، خرج ملك سدوم لاستقباله هو وملكى صادق ملك شاليم . وباركه ملك شاليم .

ولو فرضنا وجود إبراهيم فى أرض كنعان ساكنا بين الوثنيين . فكيف كان سيتأتى له أن ينقذ لوطا من بين أيديهم ؟ أما سكنه بقربه وهو مع أنصاره المؤمنين عند الكعبة، فإنه سيمكنه من إنقاذه .

شك مفسرى التوراة فى زمان هذه المعركة :

فى تفسير الكتاب المقدس لفرنسيس دافيدسن وآخرين . ما نصه :

« معركة الملوك (١٤ : ١-١٢) إن طريقة الحديث غير العادية ، عن أبرام ، التى تصفه بأنه «أبرام العبرانى(١٣) قد جعلت الكثيرين يعتقدون أن هذه القصة ربما أتت أصلا من مصدر أجنبى ، ولما كان «أمرافل» قد أعطى مكانا ممتازاً ، إذ ذكر فى المقدمة ، مع أن الحملة كانت تحت قيادة «كدرلعومر» بكل تأكيد ، فإن هذا يبين أن مكان كتابة هذه القصة كان غالبا «بابل» قبل وقت الحادثة المذكورة هنا بأربعة عشر

عـاما ، كـان «كدرلعـومر» قـد أخضع دائرة الأردن ، وكـان أبرام وقتـئذ مـا زال فى«حـاران» (لاحظ التـاريخ المذكـور فى تك ١٦ : ٣) ولما تمردت خـمس من مـدن الدائرة ، قام عليها «كدرلعومر» وقد اتحد معه ثلاثة حلفاء .

«أمرافل» : إن عدداً كبيرا من المؤرخين قـد عرّف أمرافل بأنه «حمورابى» الذى ما زالت قوانينه التى وضعها لبابل مشهورة جداً ، لكن هذا التعريف قد استبعد لعدم إمكان إثباته »

﴿مهاجر إلى ربى﴾ :

وفى حديث التوراة عن إبراهيم تصفه بأنه «أبرام العِبرانى»

يقول مفسرو التوراة :

« إنقـاذ لوط (١٤ : ١٣-١٦) . «أبرام العِبـرانى» (١٣) إن أصـل هذا الاسم ومعناه ؛ غير متيقن تماماً ، وهناك احتمالان؛ فإما أنه يأتى من كلمة «عابر[1]» (انظر شرح تك ١١ : ١٤) وإمـا أنه مشتق من فعل مـعناه «عبور» النهـر ، وفى هذا إشارة إلى عبور أبرام لنهـر الفرات مع رفاقه الكثيرين ، وفى هذه الحـالة الأخيرة يمكن أن تترجم الكلمة إلى «مهاجر» وهذه قد تظهر طريقة الكنعانيين فى التحدث عن أبرام . وهناك احتمال آخر ، وهو أن تكون هذه الكلمة هى «عبيرو» ومعناها «شبه بدوى»

التوراة السامرية :

إلى هنا . ونراجع التوراة العبرانية على التوراة السامرية فيما قدمنا .

فى النص السـامرى : « وقال الله لأبرم : امض من أرضـك ، ومن مولدك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أرشـدك » وأنهم خرجوا من حـاران . وجاءوا إلى أرض كنعان ، وعبر أبرم فى الأرض إلى موضع نابلس إلى مرج البهاء ، وتجلّى الله لأبرم . وبنى هناك مذبحـا لله المتجلى إليه ، وانتقل من هناك إلـى الجبل ، شرقى بيت القادر ونصب مضربه . بيت القادر من الغرب والكُفَير من الشرق ، وبنى هناك مذبحا لله ونادى باسم الله ورحل أبرم سائرا وراحلا إلى الجنوب .

وفى الأصحـاح الحادى عـشر من سفـر التكوين : « ٣١ تارح أبرام ولده ،

(١) عابر : جد إبراهيم

ولوطا ابن هاران ابن ابنه ، وساراى وملكة كنّتيه زوجتى أبرام وناحور ابنيه ، وأخرجهم من بياض خراسان للمضى إلى كنعان . فجاءوا إلى حران وسكنوا هناك » وفى العبرية « من أور الكلدانيين » بدل « بياض خراسان » . وفى السامرية « شرقى بيت القادر » وفى العبرانية « بيت إيل » وفى السامرية : « بيت القادر من الغرب ، والكفير من الشرق » وفى العبرية : « وله بيت إيل من المغرب ، وعاى من المشرق»واتفقت النسختان على « إلى الجبل » والجبل بالألف واللام يدل على أنه معروف للعالم ، وليس من جبل معروف غير جبل عرفات . وهناك « بنى مذبحا لله المتجلى إليه » أى مسجدا لله الذى أمره ببنائه . ولا يمكن أن يكون هذا المسجد غير الكعبة المعظمة .

وفى العبرانية: أن لوطا ارتحل شرقا . وفى السامرية « فاختار له لوط كل مرج الأردن ، ورحل لوط من قبل ، وانفرد الرجل عن أخيه » وليس فيها أن الارتحال إلى الشرق . بل إلى الأردن . وهو إلى الشرق من أعلى مكة .

إرث إبراهيم ونسله للأرض :

يقول الكاتب : « بعد هذه الأمور ، صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا .

قائلا : لا تخف يا أبرام . أنا تُرس لك . أجرك كثير جدا »

وقوله « أنا ترس لك » أى أنا سأنصرك على أعدائك ، وسأحميك منهم ، كما يحمى الترس الفارس المحارب فى أرض المعركة . ثم وعده بأجر عظيم . وهذا يدل على تصريح التوراة ببعث الأموات إلى الحساب فى الدار الآخرة . لأن الموعود بأجر من الله لابد من أن يحصل عليه ، لأن الله لا يخلف وعده . فإذا ما قتل فى أرض المعركة وهو لم يحصل على أجر فى الدنيا . وهو موعود من الله بأجر ، فإنه لابد من أن يحصل عليه فى الدار الآخرة .

ولجهاد إبراهيم مع الله ، قال له : سأورثك هذه الأرض التى أنت مقيم فيها وهى أرض مكة . ثم أوسع ملكك فى العالم ليشمل كل أمم الأرض .

وكاتب التوراة حرف الأرض إلى أرض كنعان . والدليل على أنها مكة : أن إبراهيم قال لله : كيف تكون لى ملكا وليس لى من وارث ؟ فرد عليه بقوله :

سيكون لك وارث . فإن « أليعازر الدمشقى » مالك بيتك لن يرثك « بل الذى يخرج من أحشائك ، هو يرثك » والذى خرج من أحشائه عقب هذا الوعد ، هو نبى الله إسماعيل عليه السلام . فيكون الوارث لأرض مكة ؛ نسل إسماعيل. والدليل على ذلك : أن الكاتب شرع فى كيفية ميلاده عقب الوعد به . وأن ملاك الله بشر امه بقوله : « تكثيرا أكثر نسلك » ولكنه يرث مكة بالملك والنبوة من محمد ﷺ ثم يرث سائر الأرض ومنها أرض كنعان . من النيل إلى الفرات . ووارث نسل إبراهيم لا يكون إلا بعد عهد . وذلك لأن النسل سيكون للقيام بتبليغ شريعة من الله للأمم . ومن قبل تبليغها لابد من عهد من أجل التبليغ ،ويكون نسل إسماعيل والله طرفاه .

ونظر إبراهيم إلى أرض مكة . فإذا هى أرض غير ذى زرع ، وتأمل فى الوعد بالنسل الذى سيسكن فيها . وتعجب كيف يحيا فيها ويعيش ؟ وقال فى نفسه: كيف أرزق بنسل فى أرض غير ذى زرع ؟ أهذا وعد بأموات أم وعد بأحياء ؟ ﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟﴾ هؤلاء الذين وعدتنى بهم أنهم يأتون من صلبى ، ويعيشون فى هذا المكان . كيف تحييهم فيه ؟ إنهم إن لم يأكلوا ؛ ماتوا . وليس من زرع يُذكر يأكلونه حتى أطمئن على بقائهم أحياء من بعدى ﴿ كيف تحيى الموتى﴾ من بنى إسماعيل فى واد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ؟

عند هذا نقف . ونقول :

١ - إن مفسرى التوراة من اليهود والنصارى ، يقولون : إن إبراهيم لما وعده الله بابن وارث لأرض فلسطين من صلبه . قال له :« أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها ؟» فهو يطلب علامة على كيفية الإرث للإبن. ورد عليه بقوله:« خذ لي عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ، ويمامة وحمامة » ولا تشق الطير من الوسط ، وشق الحيوانات من الوسط . فشقها ، وجعل كل شق مقابل صاحبه . فنزلت الجوارح على الجثث . وكان إبراهيم يزجرها . ثم نعس إبراهيم عند غروب الشمس . وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه . وصوت من السماء قائلا لأبرام :« اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ، ويُستعبدون لهم . فيذلونهم أربعمائة سنة » ولما صارت العتمة إذا تنور دخان ومصباح يجوز بين تلك القطع .

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض. من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات »

يقول المفسرون :« كانت العهود القديمة تثبت أحيانا عن طريق شق الذبيحة نصفين ومرور الفريقين المتعاهدين بينهما ، ولقد تنازل الرب بنعمته ليؤكد وعده لأبرام عن طريق الموافقة على تلك العادة المتبعة»

النقد :

نص التوراة يدل على أن إبراهيم يطلب علامة على كيفية إرث نسل إسماعيل لمكة ، ثم إرث العالم من بعدها . والمحرف عكس فقال : إرث نسل إسحق فلسطين فقط . مع أن إسحق لم يكن قد ولد بعدُ .

وعكسه يدل على قطع عهد « أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها ؟» ليجاهد نسلى سكانها . لأن الإرث يكون بنسل ، والنسل لتبليغ شريعة . والتبليغ يلزمه عهد وكيف يقطع عهدا وليس من وارث قد وجد على الأرض ليقطع معه العهد ؟ لقد ناب إبراهيم عن نسله .و هو يقطع العهد مع الله نيابة عن نسله من إسماعيل .

وعلى هذه العادة القديمة كان الطرفان يمران معا من وسط الذبيحة . وإننا نرى علامة واحدة فقط تمر بين القطعتين . إذ يقول : « وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع» وهذه إشارة إلى أن الله وحده هو الذى التزم بتنفيذ كل الشروط المتعلقة بالعهد . فأين الطرف الثانى ؟ إنه هو إبراهيم نيابة عن الآتى من ذريته وهم نسل إسماعيل ؛ لأن إسماعيل هو الذى جاء بعد العهد .

وقول الكاتب « أربعمائة سنة » كذبه بولس بقوله : «أربعمائة وثلاثين سنة» [غلاطية ٣ : ١٧]

وقول الكاتب إن نسل إبراهيم سيتغرب فى مصر . قول باطل لأن الذين تغربوا هم بنو إسرائيل فقط .

وقول الكاتب « من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات » يكذبه الواقع التاريخى فإن بنى إسرائيل ملكوا على اليمن فى زمان سليمان عليه السلام. وإن بنى

إسماعيل مالكون من محمد ﷺ على أراضى لا نهاية لها . وملكهم فى ازدياد . وهم من نسل إبراهيم عليه السلام .

٢ ـ وإن مفسرى القرآن الكريم لم يفطنوا إلى المراد من قول الله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعة من الطير ، فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا . ثم ادعهن يأتينك سعيا . واعلم أن الله عزيز حكيم﴾(١)

هل يشك إبراهيم فى وجود الله ؟ بالتأكيد لا . وهل يشك إبراهيم فى أن

(١) فى تفسير الإمام ابن كثير الدمشقى :

اختلف المفسرون فى هذه الاربعة ما هى ؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها . إذ لو كان فى ذلك مهم لنص عليه القرآن . فروى عن ابن عباس : أنه قال : هى الغرنوق والطاووس والديك والحمامة . وعنه أيضا : أنه أخذ وزا ورالا ـ وهو فرخ النعام ـ وديكا وطاووسا . وقال مجاهد : كانت حمامة وديكا وطاووسا وغرابا .

وقوله ﴿فصرهن إليك﴾ أى : وقطعهن . قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الاسود الدؤلى ووهب بن منبه والحسن والسدى وغيرهم . وقال العوفى عن ابن عباس ﴿فصرهن إليك﴾ أوثقهن . فلما أوثقهن ذبحهن . ثم جعل على كل جبل منهن جزءا . فذكروا : أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن ، ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ، ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءا . قيل : أربعة أجبل وقيل سبعة . قال ابن عباس : وأخذ رءوسهن بيده ، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن . فدعاهن كما أمره الله عز وجل . فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدة ، وأتينه يمشين سعيا ، ليكون أبلغ له من الرؤية التى سألها وجعل كل طائر يأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه ، يأباه . فإذا قدم إليه رأسه ، تركب مع بقية جسده ، بحول الله وقوته . ولهذا قال : ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾

النقد :

١ ـ ما روى عن ابن عباس ومجاهد يدل على حيوانات . والقرآن ينص على طيور .

٢ ـ وفى قصة النمروذ التى رواها المفسر ، ذكر نسبه على غير ما فى التوراة .

فقال : نمروذ بن كنعان . . . بالذال المعجمة وفى التوراة بالدال المهملة . وفى التوراة نسبه هكذا : نوح ـ حام ـ كوش ـ نمرود الذى ابتدأ يكون جبارا فى الأرض ، إلى أن قال الكاتب : كان ابتداء مملكته بابل .

الله يحيي الموتى ؟ بالتأكيد لا . وطلبه وهو﴿كيف تحيي الموتى ؟﴾ يدل على الكيفية ولا يدل على الإنكار . وما هو غرضه من معرفة الكيفية ؟ هذا هو السؤال ههنا . إن كان الغرض تأكده من إحياء الموتى في القبور . فإن القادر على الإيجاد ، قادر على الإعادة . وإن كان غرضه كيفية إحياء للموتى في القبور ، فلماذا لم يشفعه بأن يريه أيضا كيفية خلق الإنسان من العدم ؟ وأى فائدة من معرفة كيفية إحياء الموتى . إذا كانوا سيحيون حقا وصدقا ؟ وهو يعلم أنهم سيحيون حقا وصدقا .

وطلبه معرفة الكيفية ، ليطمئن قلبه . محتمل أنه يريد أن يطمئن قلبه على نسله من بعده . كيف يحيون في أرض قفر ، أكثر من احتماله لمعنى أنه يريد كيفية البعث يوم القيامة . بدليل قوله للذى حاجه في ربه : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت﴾ وقد جاء الموت في القرآن على المعنى الحقيقي . وهو انقطاع النفس والهواء عن الجسد . وعلى المعنى المجازى . وهو الضياع والهوان . بل في شعر العرب :

ما مات من كرم الزمان . فإنه ∴ يحيا . لدى يحيى بن عبد الله

١ ـ ومن الآيات الدالة على المعنى المجازى[1] : ﴿أو كالذى مر على قرية . وهى خاوية على عروشها . قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟﴾ ـ ﴿والله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت. فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ قوله ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ كناية عن خرابها على يد «نبو خذ ناصر» ملك بابل . وليس المعنى أن الخواء على السقوف . وتعجب المار من خرابها وقد كانت مدينة عظيمة يقوله :﴿أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟﴾ معناه : كيف يعيدها إلى سابق

(١) والمجاز كثير في لغة العرب في جميع الفنون . ومن ذلك ما جاء في بدائع الزهور لابن إياس ـ القسم الأول / الجزء الأول

قد بلغ العشق منتهاه	وما درى العاشقون ما هو
وإنما غرهم دخولى فيه	فهاموا به وتاهو
ولى حبيب يرى هواتى	وما تغيرت عن هواه
رياضة الخلق فى احتمالى ..	وروضة الحسن فى حلاه
أسمر لدن القوام ألمى	يعشقه كل من يراه
ريقته كلها مدام	ختامها المسك من لماه
ليلته كلها رقاد	وليلتى كلها انتباه

عظمتها وقد خربت هكذا ؟ ومدة الخراب كانت ﴿ مئة عام﴾ خلافا لقول أهل الكتاب إنها سبعون عاما وقد عمرت بعد المائة عام . وهى قرية «أورشليم» - «القدس» -

٢ - ونفس المعنى فى قوله تعالى :﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف . حذر الموت . فقال لهم الله : موتوا ، ثم أحياهم﴾ يخبر عن أورشليم لما غزا أهلها نبوخذ ناصر ملك بابل سنة ٥٨٦ ق.م وهزمهم وأخرجهم منها إلى «بابل » وهم كثيرون وخائفون من الموت . ﴿فقال لهم الله :موتوا﴾ موتا مجازيا أى حكمنا عليكم بخراب القرية والنفى والهوان والضياع لمدة مائة عام ثم حصل لهم مثله مع الفرس ، ثم اليونان ، ثم أهل الروم ﴿ثم أحياهم﴾ أى مجازاعلى يد محمد ﷺ ولكنهم كفروا به . وأعاد لهم المجد والملك .

معنى ﴿فصرهن إليك﴾:

وفى نص التوراة عن شق الحيوانات : أنه شقهن من الوسط « وأما الطير فلم يشقه» وفى التوراة : جاء الصر على المعنى الحقيقى . ومنه :« وصر وزنتى فضة فى كيسين وحلّتى الثياب . ودفعها لغلاميه فحملا ا قدامه » { ٢ مل ٥ :٢٣ } يريد: أنه وزن الفضة ووضعها فى ثوب ، وحافظ عليها . وجاء الصر على المعنى المجازى ومنه :«صرُ الشهادة . اختم الشريعة بتلاميذى» { إش ٨:١٦} شبه الشهادة وهى شئ معنوى بشئ محسوس يوضع فى قماش ، ويعتنى بحفظه .

وعلى ذلك يكون تفسير ﴿فصرهن﴾ بتقطيع الطير إلى أجزاء ، ووضع كل جزء من طير مقطوع على جبل ؛هو تفسير ليس على قواعد اللغة .ومن لوازم الحفظ - الواضح من الصر - أن يطعم الطيور الأربعة ويسقيها بالماء لئلا تموت ؛ لأنها لو ماتت لا يكون من حفظهن فائدة ، وفى الحفظ بالطبيعة يكون بيض ونقس، ويلزم للفقس أن يطعم الطير أفراخه من مناقيره ؟

ومن بعد أن يصرهن إليه ، خُوطب بأن يجعل على كل جبل منهن جزءا . هل من الأربعة أم من الأربعة وما نتج منهن فى أيام الصر ؟ إن قوله ﴿فصرهن﴾ يدل على الحفظ عنده فى مكان مكين . والعقل يجوز بيض وفقس ونتاج طيور فى مدة الصر. والعقل يجوز وضع بعض النتاج على كل جبل .فيكون الجزء الموضوع على كل جبل ؛ هو فراخ من نتاج الطيور الأربعة . اللذان هما ذكران وأنثيان قد أنتجا فراخا كثيرة . فلو فرضنا أنه وضع عشرة من الفراخ على كل جبل . إذ كان

عنده أربعون غير الذكرين والأنثيين . ثم لم يدعهن إليه ؛ نفرض أن بعضهن سيأتينه بلا دعوة ؛ لأن الحمام يطير إلى مكان نشأته بدون دعوة . ونفرض زغاليل الحمام التي لا تقدر على الطير ؛ لن تأتي طائرة ، وإنما ستأتي سعيا على الأقدام . ويسرى هذا الفرض في النوع الآخر . ولذلك وحّد طريقة الإتيان بأنها بدعوة وبأنها سعيا على الأقدام .

يشبه هذا في الدعوة : أن نسل إسماعيل إذا كثر وتفرق عند الجبال . فإن أحدا لو دعاهم إلى الكعبة ؛ فإنهم يأتون سعيا ويتجمعون . وشبه هذا في السعي على الأقدام . أنهم يأتون رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

«صر» في اللغة العبرانية :

في اللغة العبرانية تأتي «سُور» بثلاثة أحرف هي السين والواو والراء . في سفر إشعياء ٨:١٦ «صر الشهادة . اختم الشريعة بتلاميذي» وهي بمعاني منها : يربط ـ يحزم ـ يلف . ومنها : الحفظ ـ الغلق ـ السيطرة على المدينة . ومنها معاملة الآخر كعدو ، ليضره . كما في الخروج ٢٣:٢٢ والتثنية ٢:٩ وفي قاموس قوجمان : أن صَرّ (حرف السين المفتوحة والراء) تأتي بمعان :

١ ـ حاصر ـ طوّق ـ فرض حصارا على

٢ ـ قولب ـ شكّل ـ صمّم ـ كيّف

٣ ـ عادى ـ ناصب العداء

٤ ـ ربط ـ صرّ ـ حزم ـ لف

انظر مواضعها في :

تث ١٤:٢٥ / الملوك الثاني ٥:٢٣ / عزرا ٥:٣ / إشعياء ٢٩:٣ / ٢صم ١:٢ / ١ مل ١٥:٢٧ / ١ مل ١٦:١٧ / ٢ مك ٦:٢٤ـ٢٥ / ٢ مك١٧:٥ / خر٢٣:٢٢ / تث ٢:٩

وعلى هذا الذي ذكرناه ؛ تكون ﴿صرهن﴾ الواردة في القرآن محتملة لمعنيين. إما

أ ـ الضم والعناية والرعاية والكفالة

ب ـ وإما القطع والذبح والقتل .

والمرجح للمعنى الأول هو قوله ﴿إليك﴾ فيكون المعنى : ضمهن إليك . أى للعناية بهن . ولو كان يريد المعنى الآخر . لما كان يقول ﴿إليك﴾ لأن المعنى سيصير انبحهن إليك . وهذا لا يستقيم فى اللغة . والمستقيم هو أحد معنيين :

١ ـ ضمهن إليك واكفلهن ، ثم من بعد كثرتهن ؛ اجعل على كل جبل منهن جزءا . وهن أحياء . ثم ادعهن يأتينك سعيا .

٢ ـ ضمهن إليك واكفلهن . ثم من بعد كثرتهن ، اذبحهن ، واجعل على كل جبل منهن جزءا . وهن مذبوحات . ثم ادعهن يأتينك سعيا .

فأى المعنيين هو المراد ؟

لما كان الغرض هو كيفية إرث أولاده أرض مكة وهو عقيم والأرض قفر . وذلك بالتمثيل بالطيور أمام عينيه ، والمناسب لتربية الأولاد وإحضارهم من البلاد لما أن يكثروا هو عدم ذبح الطيور . يكون المعنى الأول هو المراد . ويضاف إلى ذلك : إن ذبح الطيور وإحيائهن ؛ معجزة . والمعجزة للأنبياء . إذ يطلبها أقوامهم ويشاهدونها بأعينهم . ولم يطلب معجزة من إبراهيم طالب .

* * *

ميلاد إسماعيل عليه السلام

[تكوين ١٦ : ١ ـ ١٦]

« مصرية اسمها هاجر » يقول المفسرون : إن «هاجر» معناه : «هرب» وهذا قد يشير إلى هروبها من سيدتها السابقة فى مصر .

وكانت القوانين تسمح فى أيام إبراهيم عليه السلام بأن السيدة الحرة كانت تعطى جاريتها لزوجها لتنجب لها منه بنين « فقالت سارة لأبرام : هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة . ادخل على جاريتى . لعلى أُرزق منها بنين .

فسمع أبرام لقول سارى . فأخذت ساراى امرأة ابرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام فى أرض كنعان ، وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر ؛ فحبلت . ولما رأت أنها حبلت صغرتُ فى عينيها . يقضى الرب بينى وبينك . فقال أبرام لسارى : هو ذا جاريتك فى يدك . افعلى بها ما يحسن فى عينيك . فأذلتها ساراى . فهربت من وجهها .

فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية»

لاحظ :

١ ـ ملاك الرب

٢ ـ عين الماء

٣ ـ فى البرية .

لم يقل عين ماء فى برية . لتكون أى عين فى أية برية . وإنما قـال بالإضافة وبالألف واللام ليدل على عين معروفة ، فى برية معروفة .

وفاران : أرض فوران الماء من باطن الأرض فى زمان سفينة نوح عليه السلام وهى أرض مشهورة بأرض فاران وفيها بنى نوح «مذبح الرب» بعد الطوفان .

ولاشتهارهـا ! حددوا معالم بها . مثل «إلى بطمـة فاران ، التى عند البرية» {تك ١٤ :٧} أى برية مشهورة فى العالم .

وفى التوراة عن إسمـاعيل :« وسكن فى البرية . وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران» {تك ٢١ :٢١}

فقد فسر البرية بالألف واللام بأنها برية فاران. وميز الكاتب بين برية سيناء وبرية فاران فقال:«فارتحل بنو إسرائيل فى رحلاتهم من برية سيناء ، فحلت السحابة فى برية فاران » { عدد ١٠ :١٢}

« وبعد ذلك ارتحل الشعب من حضيروت ، ونزلوا فى برية فـاران » { عد ١٢ :١٦ }

وكان موسى عليه السـلام مقيما فى برية فاران لما أرسل رسـلا ليعرفوا أرض كنعان «فأرسلهم موسى من برية فاران حسب قول الرب» {عدد ١٣ :٣} ورجعوا إليه فيها « إلى برية فاران » من جهة قادش {عدد ١٣ :٢٦}

وفى أول سفر التثنية أن موسى أعـاد قراءة التوراة على بنى إسرائيل « فى عبر الأردن فى البرية فى العربة قبالة سوف. بين فاران وتوفل »

وفى آخر سفـر التثنية : أن شريعـة إلهية ستزل فـى فاران « وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ، وعن يمينه نار شريعة لهم » {تث ٣٣ :٢}

وفى أيام داود عليه السلام « نزل إلى برية فاران » [١ صم ٢٥ : ١] وفى أيام سليمان عليه السلام « وقاموا من مديان ، وأتوا إلى فاران ، وأخذوا معهم رجالا من فاران إلى مصر » [١مل ١١ : ١٨] وفى سفر حَبقُوق : «الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران» إلى أن تكلم عن محمد ﷺ بلقب المسيح فقال : « خرجت لخلاص شعبك لخلاص مسيحك» [حب ٣ : ١٣،٢]

* * *

لقد أعطيت لهاجر بركة :

يقول مفسرو التوراة : إن هاجر لما هربت من وجه سارة ، قابلها ملاك الله على عين الماء فى البرية ، وقال لها : « تكثير اكثر نسلك فلا يعدّ من الكثرة » [تك١٦ : ١٠] يقول المفسرون : « لقد أعطيت لهاجر بركة » وهذه البركة معادلة لبركة سارة . وهى : « أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون » [تك١٧ : ١٦] ففى سفر التكوين : « وقال لها ملاك الرب : تكثيرا أكثر نسلك ، فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلى فتلدين ابنا . وتدعين اسمه إسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك . وأنه يكون إنسانا وحشيا . يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه . وأمام جميع إخوته يسكن .

فدعت إسم الرب الذى تكلم معها أنت إيل رُئى ، لأنها قالت : أههنا أيضا رأيتُ بعدَ رؤية ؟ لذلك دعيت البئر ، بئر لَحَى رُئى »

يقول المفسرون : إن اسم إسماعيل معناه : « الله سيسمع وستكون صفاته «إنسانا وحشيا » أى : « إنسانا كالحمار الوحشى » إن الحمار الوحشى فى الصحراء العربية كان ضمن الكائنات الراقية » هذا هو كلام المفسرين بنصه ، ويستدلون عليه بما فى سفر أيوب وهو : « من سرّح الفَرَاء ، ومن فك ربط حمار الوحش الذى جعلت البرية بيته . . . إلخ » [أى ٣٩ : ٥ ـ ٨] ويقولون بعد هذا : « لقد أضحى رمزا مناسبا لحياة العرب الرحل الطلقة »

«أمام جميع إخوته يسكن » :

هذا يعنى أنه سيحافظ على استقلاله ، ويستمر كفصيلة منفصلة وسط الشعوب الخارجة من صلب أبرام .

« أنت إيل رئى » :

يقول المفسرون : هذه عبارة عبرية معناها « إله الرؤيا » وهى فى العربية كما فى العبرية تعنى الإله الذى يَرَى بقدر ما تعنى الإله الذى يسمح لنفسه بأن يُرى(١)، وإلا أن القرينة ترجح المعنى الأخير ، ثم إن تعبير هاجر هو جملة عبرية يصعب ترجمتها ، وهى قد تعنى « هل ما زلت أحيا وأرى ، بعدَ أن رأيتُ الله ؟ »

« بئر لَحَىْ رُئى »

ويمكن ترجمتها كلمة كلمة هكذا :« بئر الحى الذى يَرى » وهى تعنى بأكثر تصرف « بئر استمرار الحياة بعد رؤية الرب »

وفى التوراة السامرية :

« ودعت اسم الله المخاطب لها : أنت القادر الناظر . إذ قالت أيضا : ههنا نظرتُ بعد نظرٍ . بسبب ذلك سميت البئر ، بئر الحى الناظر »

والمعنى : أننى وأنا ساكنة فى هذا المكان ، كنت أنظر هذه البشر . ثم لما كلمنى الملاك عندها ، نظرتها أيضا .

تجديد العهد مع إبراهيم :

ولقد قلنا : إن الله كلم إبراهيم قائلا : «الذى يخرج من أحشائك ، هو يرثك» ثم أراه كيفية إحياء الموتى بالطيور الأربعة . ومن بعد ما أراه « قطع الرب مع أبرام ميثاقا » وهذا هو العهد . ثم إن الله جدده بعد ولادة إسماعيل بثلاثة عشر سنة ، ومن قبل ولادة إسحق بسنة . ففى الأصحاح السابع عشر من سفر التكوين :

١ ـ « ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ، ظهر الرب لأبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا ؛ فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا»

والمعنى : سر أمامى فى جميع أمم الأرض ،وكن قدوة للناس فى فعل الخيرات ، وامح عبادة الأصنام بحد السيف . وإن فعلت ذلك « أجعل عهدى بينى

---

(١) تنص التوراة على أن الله لا يُرى ولا يقدر أحد على رؤيته . وإذا جاءت نصوص تدل على رؤية الله؛ فالمراد رؤية ملاك نيابة عنه .

وبينك » وههنا ١ ـ نسل لإبراهيم . وهو إسماعيل لا غير . ٢ ـ وإبراهيم قد ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن . وإذ نجح فى امتحان الإيمان والأعمال . وصار إماما ؛ طلب إماما واحدا فى نسل إسماعيل . هو محمد ﷺ

٣ ـ وطلب أن يكون العهد فى نسل إسماعيل من محمدرسول الله . وذلك لأن إسحق لم يكن قد ولد بعد . وإسماعيل هو الموجود مع أبيه فى «مكة» وإليه الإشارة بقوله « كثيرا جدا » فإنها فى العبرانية « بماد بماد » وهى بحساب الجمل تساوى «محمد» فيكون المعنى : وأجعل عهدى بينى وبينك وأكثر نسلك من محمد. وهو معنى قول ملاك الله لهاجر :« تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة » ووصف الملاك إسماعيل بأنه يكون إنسانا وحشيا .يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه . أى يكون مخالطا للأمم . غالبا مرة ومغلوبا مرة . وهذا لم يحدث لنسل إسماعيل إلا من محمد رسول الله .وفى القرآن الكريم ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى . قال : لا ينال عهدى الظالمين﴾

علامة العهد :

« وقال الله لإبراهيم : وأما أنت فتحفظ عهدى . أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه ، بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يُختن منكم كل ذكر »

فلماذا الختان ؟

لأن إبراهيم سيجاهد عباد الأصنام بالسيوف . وسيُقتل من المؤمنين والكافرين قتلى . ولا يميز المؤمن من الكافر فى ساحات الحروب إلا قطع الغرلة . فلذلك جعل الله الختان فرضا . لأن الجهاد فرض .

دخول إسماعيل فى العهد :

« فى ذلك اليوم عينه ، خُتن إبراهيم وإسماعيل ابنه » أى أن نسل إسماعيل دخلوا فى العهد المنصوص عليه فى قوله : « أما أنا فهو ذا عهدى معك ، تكون أبا لجمهور من الأمم ، وأثمرك كثيرا جدا ، وأجعلك أمما . وملوك منك يخرجون »

وقد أشار إلى محمد رسول الله بقوله :« كثيرا جدا » كما أشار إليه فى أول العهد « كثيرا جدا » ولما قال الله لإبراهيم :« وأما أنت فتحفظ عهدى . أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم » وقال من قبل : « سر أمامى وكن كاملا »

قال إبراهيم لله :« ليت إسماعيل يعيش أمامك » أى أتمنى أن يسير نسل إسماعيل أمامك فى الدعاء إلى دينك . ورد الله عليه بقوله :« وأما إسماعيل فقد سمعت (١) لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد، وأجعله أمة كبيرة » . يقول مفسرو التوراة : « نعم إن إسماعيل سيبارك . أما الوعد فإنه خاص باسحاق» وعلى قوله يكون الإتفاق حاصلا بين القرن وبين التوراه. فى بركة إسماعيل . ويكون الاختلاف بين علماء المسلمين وبين علماء أهل الكتاب فى العهد .

ويرد علماء المسلمين على أهل الكتاب بقولهم إن إسحق لم يكن قد ولد بعد فكيف يكون العهد له ؟ وأنتم تقولون : إن إسحق قد ولد بعد تجديد العهد ، وتقولون : إنه هو الذبيح . فلو فُرض أنه قد ذُبح حقا . فكيف يتم العهد فى نسله؟

إسحق نافلة :

وفى القرآن الكريم :﴿وباركنا عليه وعلى إسحق﴾ والمعنى : أنه قسم البركة على إسماعيل الذبيح وإسحق . وليس فى القرآن أنه قسم العهد على إسماعيل وإسحق . وذلك لأن العهد فى إسماعيل وحده . وقد تم من قبل ولادة إسحق . فإذا جاء إسحق أو لم يجئ ، فإن العهد قد أخذ على إسماعيل . وعليه تم . ولذلك عبر القرآن بأن إسحق نافلة . وليس أصلا . وفى التوراة ما يدل على أنه نافلة ، وما يدل على أن الأصل إسماعيل . وهو :« وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى ، بل اسمها سارة . وأباركها . وأعطيك أيضا منها ابنا . أباركها فتكون أمما . وملوك شعوب منها يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ﴾ يعنى اليهود يحاجون فى نبوة محمد ﷺ من بعد ما استجاب الله دعاء إبراهيم فى إسماعيل أن يسير نسله أمام الله للدعوة إليه من محمد ﷺ .

وضحك ، وقال فى قلبه : هل يُولد لابن مئة سنة ؟ وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟ »

إنه يقول :« وأعطيك أيضا منها ابنا » وكلمة « أيضا » تدول على أول مبارك نبيه من الله . وأن العهد قد تم له . وإنه يقول : إن إبراهيم قد تعجب من هذه البشرى .

يقول مفسرو التوراة: فى تفسير:« فسقط إبراهيم على وجهه وضحك» : «لقد وجد إبراهيم من البداءة أنه من الصعب تصديق الوعد . وهذا التفسير الخاص بضحك إبراهيم هو وليد ما « قاله فى قلبه » ١٧ وما طلبه من الله بأن ترتكز المواعيد فى إسماعيل ١٨ » أ.هـ

تفسير بُولس للعهد :

يقول الله لإبراهيم وهو يعاهده فى السير أمامه :« وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا » [تك ١٧ :٧] والنسل الموجود حينئذ هو نسل إسماعيل عليه السلام. وإبراهيم قد تمنى سير إسماعيل أمام الله من نبى يظهر من نسله . ولما قال الله له: ﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾ طلب الإمامة أيضا فى واحد من ذرية إسماعيل لأنه لم يكن له إلا إسماعيل .

وعلى هذا يكون العهد لواحد من نسل إسماعيل . فماذا قال بولس فى هذا الواحد ؟ قال : إن العهد لواحد ، وقال : إن هذا الواحد هو « المسيح » وإلى هنا يكون كلامه صحيحا . لأن « المسيح الرئيس » ـ بلغتهم ـ هو محمد رسول الله . ولكنه فسره بعيسى عليه السلام . وتفسيره باطل .

وذلك لأن إسحق لم يكن قد وُلد وقت إبرام العهد .

يقول ما نصه :« وأما المواعيد فقيلت فى إبراهيم وفى نسله . لايقول : وفى الأنسال كأنه عن كثيرين ، بل كأنه عن واحد . وفى نسلك الذى هو المسيح » [غلاطية ٣ :١٦]

وهذا العهد الذى كان بين الله وبين إبراهيم فى نسله بدؤه من محمد رسول الله لأن إبراهيم إمام أول . والآتى من ذريته إمام آخر . فهما إمامان . والعهد

للإمام الآخر . ونص عليه بقوله : ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾ أى عهدى للإمام الآخر الذى أعطيته لبنى إسماعيل وهو محمد رسول الله .

وقوله تعالى : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ؛ فأتمهن . قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى . قال : لا ينال عهدى الظالمين ﴾ وارد على حكاية قائل له من علماء بنى إسرائيل وأنبيائهم . يحكى ويقول : واذكر يا محمد أن رب إبراهيم قد ابتلاه بمشقات ؛ فنفذها لحبه لله . ولما نفذها ؛ قال له : ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ قال إبراهيم : ﴿ ومن ذريتى ﴾ اجعل إماما . ورد عليه بقوله : لا ينال عهدى الذى عقدته معك فى نسل إسماعيل ؛ الظالمون من ذريتك . وهم اليهود ، الذين حرفوا التوراة فى العهد ، وجعلوه فى اليهود إلى نهاية الحياه الدنيا.

وليس واردا على حكاية الطلب والرد بين إبراهيم وبين الله . إذ لو كان واردا على الطلب والرد ؛ لما كان يقول ﴿ربه﴾ وكان يقول ﴿الله﴾ وما كان يتكلم عن العهد بوصف الظلم ؛ لأن التحريف فيه كان من زمان سبى بابل بعد إبراهيم بسنين طويلة. والتحريف فيه ظلم لهم . ولم يظهر لهم إلا فى سبى بابل .

ومن أنبياء بنى إسرائيل وعلمائهم الذين حكوا عن هذا الموضع ؛ المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - وقد ذكرنا من قبل نص كلامه . ويقول اليهود فى هذا العهد : إنه فى إسحق من موسى إلى إنتهاء الدنيا . ويقول النصارى فيه : إنه من عيسى إلى إنتهاء الدنيا . أى أنهم وضعوا عيسى بدل محمد والعهد الذى تتكلم عليه ههنا : هو العهد المذكور ، فى هذا النص : «فقال إبراهيم لله :ليت إسماعيل يحيا أمامك . فقال الله :بل ساره إمرأتك ستلد لك ابنا وتسميه إسحق . وأقيم عهدى معه عهدا مؤبدا ؛ لنسله من بعده . وأما إسماعيل فسمعت لك وها أنا أباركه وأنميه وأكثره جداً . ويلد اثنى عشر رئيسا ، وأجعل نسله أمة عظيمة . ولكن عهدى أقيمه مع إسحق الذى تلده ساره فى مثل هذا الوقت من السنة المقبلة»(١)

رأى بولس فى عهد هاجر :

يقول بولس :« فإنه مكتوب : أنه كان لإبراهيم ابنان . واحد من الجارية والآخر من الحرة .لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد وأما الذى من الحرة

---

(١) تكوين ١٧ ترجمة الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط .

فبالموعد . وكلّ ذلك رمز ، لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر ، لأن هاجر جبل سيناء فى العربية ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة ، فإنها مستعبدة مع بنيها . وأما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعا ، فهى حرة ، لأنه مكتوب :« افرحى أيتها العاقر التى لم تلد . اهتفى واصرخى أيتها التى لم تتمخض . فإن أولاد الموحشة أكثر من التى لها زوج . وأما نحن أيها الإخوة فنظير إسحق أولاد الموعد » [غلاطية ٤ :٢٢ ـ ٢٨]

يقول: إن إسحق جاء بموعد ؛ استنادا على التكوين ١٨ : ١٠ « إنى أرجع إليك نحو زمان الحياة ، ويكون لساره امرأتك ابن » والرد عليه : هو أن إسماعيل هو الذى جاء بموعد وأن إسحق نافلة . فإن ملاك الله قابل هاجر « وقال لها ملاك الرب : تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك . . . إلخ »

وفى سفر إشعياء نبوءة عن ظهور محمد رسول الله من نسل هاجر . وقد استدل بها المسيح عيسى عليه السلام على محمد ﷺ فى الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا . ويدؤها :« ترنّمى أيتها العاقر التى لم تلد ، أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض » إلى أن قال :« وكل بنيك تلاميذ الرب .وسلام بنيك كثيرا »

وقد استدل بها المسيح على محمد فقال :« لا يقدر أحد أن يقبل إلىّ إن لم يجتذبه الأب الذى أرسلنى ، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير . إنه مكتوب فى الأنبياء:«ويكون الجميع متعلمين من الله » [يو ٦ : ٤٤ ـ ٤٥]

البَرِّيّة :

وإذا جاءت البَرِّيّة بالألف واللام . فإنها تدل على برية معروفة للعالم . هى برية أرض الحجاز . برية فاران . ومن ذلك :

١ ـ « فاران التى عند البرية » [تك ١٤ :٦]

٢ ـ « على عين الماء فى البرية » [تك ٣٦ :٧]

٣ ـ « فكبر وسكن فى البرية » [تك ٢١ : ٢٠]

٤ ـ والمزمور الخامس والخمسون نبوءة عن النبى المنتظر . وفيه يتحدث عن

نفسه ويقول : «اصغ يا ألله إلى صلاتى ولا تتغاض عن تضرعى . استمع لى واستجب لى » إلى أن قال عن اضطهاد اليهود له : « هاأننا كنت أبعد هاربا ، وأبيت فى البرية » ثم دعا على اليهود فقال : « أهلك يا رب . فرق ألسنتهم . . . »

٥ ـ والمزمور الخامس والستون هو من مزامير النبى المنتظر . وفيه يتحدث عن نفسه ويقول : « لك ينبغى التسبيح يا ألله » ثم وضع المحرف « فى صهيون » ليوهم الناس أن الحج فى جبل صهيون وليس فى الكعبة . ثم قال لله : « ولك يوفى النذر. يا سامع الصلاة . إليك يأتى كل بشر . آثام قد قويت علىّ . معاصينا أنت تكفر عنها . طوبى للذى تختاره وتقربه ليسكن فى ديارك . لنشبعن من خير بيتك ، قدس هيكلك » إلى أن تكلم عن كثرة الخيرات فى زمن النبى المنتظر فقال: « وآثارك تقطر دسما . تقطر مراعى البرية ، وتتنطق الآكام بالبهجة . . . »

٦ ـ وفى المزمور الثانى والسبعين يقول عن النبى المنتظر : « أمامه تجثو أهل البرية ، وأعداؤه يلحسون التراب » أى يخضع قومه له ، مع العالم ويكون رئيسا عليهم . ثم قال : « ويُصلىَّ لأجله دائما » أى أن الله يصلى على النبى . ثم قال: « قدام الشمس يمتد اسمه ، ويتباركون به . كل أمم الأرض يطوبونه . . . »

٧ ـ وفى المزمور الرابع والسبعين . يقول النبى لله : « أنت رضضت رءوس لوياثان . جعلته طعاما للشعب . لأهل البرية . . . »

٨ ـ وفى سفر إشعياء وهو يتحدث عن النبى المنتظر : « تفرح البرية والأرض اليابسة ، ويبتهج القفر ، ويزهر كالنرجس . . . » [إش ٣٥ : ١ +]

٩ ـ وفى سفر إشعياء : « صوت صارخ فى البرية : أعدوا طريق الرب ، قوموا فى القفر سبيلا لإلهنا. . . » [إش ٤٠ :٣ +]

١٠ ـ والنصارى يفسرون البرية ببرية فلسطين ـ أرض اليهودية ـ ويفسرون الصراخ : بأنه تعريف الناس بأن النبى المنتظر أوشك أن يظهر . مع أن إشعياء نفسه قد فسر البرية بأرض مكة فى قوله : « غنو للرب أغنية جديدة . تسبيحه من أقصى الأرض . أيها المنحدرون فى البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها . الديار التى سكنها قِيدار . لتترنم سكان سالع . من رءوس الجبال

ليهتفوا. . . » [إش ٤٢ : ١٠ +] وقيدار هو ابن إسماعيل عليه السلام . والجبال الكثيرة في مكة ، ولذلك وضع إبراهيم على كل جبل من الجبال الكثيرة منهن جزءا.

١١ ـ وفي سفر إشعياء ٤٣ :١٨ + :« لا تذكروا الأوليات . والقديمات لا تتأملوا بها . هأنذا صانع أمرا جديدا ، الآن ينبت . ألا تعرفونه ؟ أجعل في البرية طريقا ، في القفر أنهارا . يمجدني حيوان الصحراء . الذئاب وبنات النعام ، لأني جعلت في البرية ماء ، أنهارا في القفر ، لأسقي شعبي مختاري . هذا الشعب جبلته لنفسي . يحدث بتسبيحي » ثم قال : إن الشعب المختار ليس هو شعب بني إسرائيل :« وأنت لم تدعني يا يعقوب حتى تتعب من أجلي يا إسرائيل . لم تحضر لي شاة محرقتك ، وبذبائحك لم تكرمني »

وهكذا أمثلة كثيرة . وإذا أراد الكلام عن برية غير هذه البرية . يعرّفها بسياق الكلام أو بالإضافة . مثل :«آباؤكم أكلوا المنّ في البرية » ومعلوم أنها برية سيناء ومثل « في برية جبل سيناء » ومثل: «إلى غزة التي هي برية »

الجبال :

وقال الله لإبراهيم عليه السلام : ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ وهذا يدل على أنه كان في مكان . به جبال كثيرة . وأرض مكة فيها جبال كثيرة . وفي التوراة في الكلام عن ذبح إبراهيم لابنه :« خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق . واذهب إلى أرض المُرِيّا ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك » [تك٢٢ : ٢]

لاحظ : « أحد الجبال »

ثم قال الكاتب : إن إبراهيم بكّر في الصباح ، وشدّ على حماره . وسار إلى الموضع هو وابنه . وقال لغلاميه : « اجلسا أنتما ههنا مع الحمار ، وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ، ونسجد ، ثم نرجع إليكما »

لاحظ :« ونسجد » ومعناها :أنه في الجبال جبل مقدس يحج الناس إليه من قديم الأيام، ويسجدون عنده لله عز وجل. وليس من جبل مقدس من أيام نوح عليه السلام إلا الجبل الذي بنيت عنده الكعبة . وفي هذا المعنى يقول إشعياء:« ويكون في

آخر الأيام أن جبل بيت الرب ، يكون ثابتا فى رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجرى إليه كل الأمم ، وتسير شعوب كثيرة »

لاحظ :

١ ـ آخر الأيام : وهو اصطلاح عند أهل الكتاب يدل على انتهاء بركة إسحق ، وبدء بركة إسماعيل . وعلى هذا الاصطلاح لا يصح لأهل الكتاب أن يفسروا جبل بيت الرب بجبل صهيون فى أورشليم . لأن آخر الأيام معناها : نزع الملك منهم ونسخ الشريعة على يد النبى الآتى من فاران .

٢ ـ ولاحظ : أن الحج فى آخر الأيام يكون إلى جبل بيت الرب فى مكة . والواقع يؤيد ذلك .

ويقول النبى ميخا : « ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجرى إليه شعوب ، وتسير أمم كثيرة »

ويقول النبى داود فى المزمور ٧٢ عن جريان الأمم إلى مكة فى الحج : « ويملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض »

ويقول النبى حجاى : « لأنه هكذا قال رب الجنود . هى مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة وأزلزل كل الأمم ، ويأتى مشتهى كل الأمم ، فأملأ هذا البيت مجدا . قال رب الجنود . لى الفضة ولى الذهب . يقول رب الجنود . مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول . قال رب الجنود . وفى هذا المكان أعطى السلام . يقول رب الجنود » [حج ٢ : ٦ ـ ٩]

الجبال المقدسة :

وجبال مكة جبال مقدسة . وقد عبر داود عليه السلام عن ظهور النبى المنتظر منها بقوله : « أساسه فى الجبال المقدسة » [مز ٨٧ : ١] « الرب يَعُدُّ فى كتابة الشعوب : أن هذا وُلد هناك » أى فى برية فاران ، لأن لإسماعيل بركة . وقد حرف الكاتب أبواب مكة ، بأبواب صهيون . ثم قال : « قد قيل : بك أمجاد يا مدينة الله » ومدينة الله هى مكة .

جبل قدسى :

ومن هذه الجبال المقدسة جبل واحد . عبر عنه الله بقوله «جبل قدسى» وهو يتحدث عن الشعب الآتى بدل شعب اليهود الملعون . وفى آخر الحديث :« لا يؤذون ولا يهلكون فى كل جبل قدسى . قال الرب » [إش ٦٥ : ٢٥]

نبح الابن الوحيد على أحد الجبال :

« خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق . واذهب إلى أرض المُرِيّا ، واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » وفى السامرية بدل «المريا» الأرض المرشدة . ويقول اليهود والنصارى : إن الابن الوحيد هو إسحق . وقولهم باطل . لأن إسماعيل وحيد إبراهيم ، ووحيد هاجر ، ووحيد سارة ـ بحسب شريعتهم ـ وفى تفسير التوراة :« أرض المريا : لا يوجد فى المخطوطات القديمة ما يبين المكان المضبوط لتلك البقعة ، ولا حتى للجبل نفسه»

يَهْوَه يراه :

« فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه . فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه . فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع: يهوه يراه . حتى إنه يقال اليوم : فى جبل الرب ، يُرى »

لاحظ :

١ ـ يهوه يراه . وفى التوراة السامرية :« ودعا إبراهيم اسم ذلك الموضع : الله ينظر ، الذى يقال اليوم : فى جبل الله يستجاب » وتذكر هاجر لما ظهر لها ملاك الرب على عين الماء فى البرية ودعت البئر « بئر لحى رئى » أى بئر الحى الرائى. وإبراهيم دعا موضع الذبح « يهوه يراه » أى مكان الله الرائى . وهذا المكان فى « جبل الرب » فيكون مكان الذبح عند بئر زمزم فى مكة .

وفى تفسير التوراة :« القول «الله يرى» وبالعبرية « ألوهيم يراه » فالاسم الثانى يرينا الاستعمال القديم لاسم يهوه . وإن الاختلاف فى أسماء الله بين «ألوهيم يراه» وبين « يهوه يراه» لا يمكن أن ينهض دليلا على تعدد الكتّاب » ا.هـ وقولهم باطل . فإنه ينهض دليلا على تعدد الكتاب .

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت :

وبعدما فرغ الكاتب من قصة الذبيح ، أكد على بركة إبراهيم فقال : « ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء ، وقال : بذاتى أقسمت يقول الرب . إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ، ولم تمسك ابنك وحيدك . أباركك مباركة ، وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء ، وكالرمل الذى على شاطئ البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض . من أجل أنك سمعت لقولى »

البحث عن زوجة لإسحق :

« وشاخ إبراهيم وتقدم فى الأيام . وبارك الرب إبراهيم فى كل شئ . وقال إبراهيم لعبده كبير بيته ، المستولى على كل ماكان له : ضع يدك تحت فخذى ، فأستحلفك بالرب إله السماء أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين ، الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب ، وتأخذ زوجة لابنى إسحق . . . »

لاحظ :

إلى أرضى وإلى عشيرتى .

فما هى أرض إبراهيم ؟ وأين كانت عشيرته ؟

هى حاران عند حدود سوريا وتركيا ، فلماذا يقال : إنها هى أور فى أرض العراق ؟

ففى تفسير التوراة :

« إلى أرضى وعشيرتى » كان المكان الذى ذهب إليه أليعازر هو حاران (قابن ٢٧ : ٤٣ و ٢٩ : ٤) على أن هذا لا يعنى أن إبراهيم وُلد فى حاران كما يجادل البعض فى هذا الشأن ، فهذا التعبير يمكن أن يُفهم بمعنى من اثنين ، فإما أن نعتبر القول الثانى وصفا للأول ؛ فيكون الشئ المهم هو أن تأتى زوجة إسحق من بين عشيرته ، وإما أن نعتبر قصد إبراهيم هو أنه إذا فشل أليعازر فى إنجاز مهمته فى حاران ، فإن عليه أن يذهب إلى أور حيث كان يوجد غالباً عدد كبير من أقارب إبراهيم ، على أنه من الأفضل فهم الجملة بالمعنى الأول ، لأن الثانى غير محتمل »

زواج إسحق عند بئر زمزم فى مكة :

لما ذهب عبد إبراهيم إلى « حاران » وأخذ زوجة لإسحق من بنات عشيرة أبيه ورجع بها ليسلمها إلى إسحق . وكان اسمها « رِفقة » يقول الكاتب :« فقامت رفقة وفتياتها وركبن على الجمال وتبعن الرجل . فأخذ العبد رفقة ومضى . وكان إسحق قد أتى من ورود بئر لَحَىْ رُئى . إذ كان ساكنا فى أرض الجنوب » إلى أن قال:«فأدخلها إسحق إلى خباء سارة أمة ، وأخذ رفقة ، فصارت له زوجة وأحبها »

لاحظ :

١ ـ أن إسحق كان ساكنا فى أرض الجنوب . وهى أرض مكة .

٢ ـ وكان سكنه عند بئر زمزم ، والتى سمتها هاجر « لَحى رئى » أى بئر الحى الناظر . والتى سماها إبراهيم : « يَهْوه يراه » أى « الله ينظر »

وفى التوراة السامرية :« وإسحق آت فى برية بئر الحى الناظر ، وهو ساكن فى أرض الجنوب »

إرث إسماعيل فى إبراهيم :

فى الأصحاح السادس عشر من سفر التكوين أن هاجر لما حبلت ؛ صغرت سيدتها فى عينيها ولذلك لذلتها حتى اضطرتها إلى الهرب . وقد وجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية ، وبشرها بإسماعيل . ودعت اسم الرب « أنت إيل رُئى » ودعت البئر « بئر لحى رئى »

وفى ترجمة كتاب الحياة :« أنت الله الذى رآنى » ـ « بئر الحى الذى يرانى » ثم ولدت هاجر إسماعيل .

وفى الأصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين : أن إسماعيل وهو بالغ من العمر أربعة عشر عاما أنجبت سارة إسحق أخاه .

اضبط هذا . وقال الكاتب : لما كبر إسحق وفطم ، صنع إبراهيم وليمة عظيمة . فإذا فرضنا أنه فطم بعد السنتين . مع أن الفطام فى التوراة لثلاث .

نفرض أن عمر إسماعيل وقت الوليمة كان ستة عشر عاما . واضبط هذا .

« ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح » هذا هو نص التوراة . ويقول بولس : إنه لم يكن يمزح ، بل كان يضطهد إسحق [غلاطية ٤ : ٢٩] وفى ترجمة كتاب الحياة « يسخر » - « يضطهد »

وهذا الذى يسخر ويضطهد لا يتصور العقل أنه يسخر من رضيع . وأقصى ما يتصوره هو أنه يداعبه . ويقول الكاتب : إن بسبب الإضطهاد طلبت سارة من إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها ، وعللت الطرد بأنه بسبب الإرث ، لا بسبب الاضطهاد « اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق» وقد رد الله على إبراهيم بأن إسماعيل وارث . شاءت سارة أو لم تشأ . لأنه ابنها بموجب الشريعة وهو أيضا ابن إبراهيم وهاجر . فلماذا يحرم من الميراث فى إبراهيم أو فى سارة ، أو فى هاجر إن ملكت شيئا ؟ « بإسحق يُدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضا سأجعله أمة ، لأنه نسلك »

ثم اقرأ ما هو بعد ذلك :

« فبكر إبراهيم صباحا ، وأخذ خبزا وقربة ماء ، وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها . فمضت وتاهت فى برية بئر سبع » كيف تحمل هاجر ابنا فى سن السادسة عشر من عمره على كتفها ، ولا تحمل الابن على كتفها فقط ، بل مع الابن خبزا وقربة ماء ؟

وقوله إنها تاهت فى برية بئر سبع . ينقضه ما جاء فى التوراة بعد هذا النص . وهو أن « أبيمالك » عقد ميثاق صلح مع إبراهيم ، أن لا يغدر أحدهما بصاحبه . « فقطعا كلاهما ميثاقا . وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها . فقال أبيمالك: ما هى هذه السبع النعاج التى أقمتها وحدها ؟ فقال : إنك سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر . لذلك دعا الموضع بئر سبع . . . »

فقطعهما ميثاقا فى بئر سبع ، وتسمية المكان بئر سبع بسبب الميثاق الذى جرى بعد قول الكاتب إن هاجر حملت ابنها على كتفها وتاهت فى برية بئر سبع ، يدل على كذب الكاتب فى نقل المكان من مكة إلى بئر سبع .

ويقول الكاتب : إن الله سمع صوت الغلام ، وقال لهاجر : « قومى احملى الغلام وشدى يدك به . لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر »

وهذا الذى سكن فى برية فاران . سيظهر من نسله نبى ، وسيتوجه بجنده إلى أعدائه وهو محاط بعشرات الألوف من أصحابه الشبيهين بالملائكة . وهذا النبى محب للشعوب ، وجميع أتباعه الصالحين فى قبضته . لا يخرجون عن إرادته ، ويبلغون شريعته .

وهذا هو النّص من الكتاب المقدس / كتاب الحياة / عربى إنجليزى / سنة١٩٩٩ م طبعة بريطانيا العظمى :

« وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته . فقال : أقبل الرب من سيناء ، وأشرف عليهم من سعير ، وتألق فى جبل فاران ، جاء محاطا بعشرات الألوف من الملائكة . وعن يمينه يُومض برق عليهم . حقا أنت الذى أحببت الشعوب ، وجميع القديسين فى يدك ، ساجدون عند قدمك ، يتقبلون منك أقوالك . . .»

مجد البيت الأول والبيت الأخير :

أمر الله بنى إسرائيل بإقامة مساجد لذكر الله فيها . وهذه المساجد تكون من تراب ـ أى غير مشيدة ـ وأمرهم أن لا يتجهوا فى الصلاة إلى جهة محدودة ، فأى جهة تصلح قبلة . ذلك قوله :« مذبحا من تراب تصنع لى ، وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك . غنمك وبقرك . فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذِكرا ، آتى إليك وأباركك . وإن صنعت لى مذبحا من حجارة ، فلا تبنه منها منحوتة . إذا رفعت عليها إزميلك ، تُدنّسها ، ولا تصعد بدرج إلى مذبحى ، كيلا تنكشف عورتك عليه » [خروج ٢٠ : ٢٤ ـ ٢٦]

وأمر الله بنى إسرائيل على لسان نبيه موسى عليه السلام أن يصنعوا تابوتا وأن يضعوا فيه نسخة من التوراة ، ولوحا العهد . وأمرهم أن يضعوه فى خيمة .

وكانوا يقدمونه أمام الجيش المتوجه إلى حرب أعدائهم . فلما فتحوا أرض فلسطين رأى داود عليه السلام أن يبنى بيتا بدل الخيمة لوضع التابوت فيه . ومات ولم يكمله، فأكمله ابنه سليمان عليه السلام . وعُرف ببيت التابوت . ثم كذب اليهود بعد رجوعهم من سبى بابل فقالوا : إنه فى حرب نبوخذ ناصر ملك بابل لليهود سنة ٥٨٦ هُدم هذا البيت وضاع التابوت. ولما رجع اليهود من بابل ، بنوا مسجدا مشيدا مكان بيت التابوت وسموه بهيكل سليمان . وجعلوه مكانا للحج بدلا عن الكعبة البيت الحرام ، وألزموا اليهود بالاتجاه إليه فى الصلاة . هذا هو ما قاله كُتّابهم كذبا وزورا .

وسنبين هذا فى كتابنا « المسجد الأقصى »

والذى نريد بيانه ههنا هو : أن اليهود قسموا زمن هيكل سليمان إلى زمنين . الزمن الأول : من عهد سليمان إلى رجوعهم من بابل . والزمن الآخر من رجوعهم من بابل وإلى يوم القيامة . فهل هذا التقسيم صحيح ؟

فى سفر عزرا يقول الكاتب : إن اليهود لما رجعوا من بابل إلى أورشليم « ابتدأوا من اليوم الأول من الشهر السابع يُصعدون محرقات للرب . وهيكل الرب لم يكن قد تأسس » [عز ٣ : ٦] « ولما أسس البانون هيكل الرب » [عز ٣ : ١] «وكل الشعب هتفوا هتافا عظيما بالتسبيح للرب ، لأجل تأسيس بيت الرب » [عز٣:١١]

إن هذه النصوص تدل على تأسيس بيت لم يكن موجودا من قبل . وإلا كان يعبر بما يناسب التجديد أو رفع القواعد من البيت . ومعلوم أن سليمان نبى من أنبياء الله . والنبى لا يخالف شريعة الله التى تنص على عدم تحديد قبلة ، وتنص على أن المساجد تبنى من تراب أو طوب لبن . فيكون التقسيم ١ ـ من سليمان إلى ما بعد الرجوع من بابل ٢ ـ ومن بعد الرجوع إلى يوم القيامة ، تقسيم باطل ، لأنه اوهم بمدة أولى لم يكن لها وجود . وعلى كلامه يكون لهيكل سليمان مدة واحدة. هى تبدأ من بعد الرجوع من بابل . وإذا كان له هذه المدة ، فما هو البيت الذى له مدة أخرى ؟

١ ـ إنهم يقولون : إن هيكل سليمان رمز لشريعة التوراة . وإذ هو مؤسس

من بعد بابل ، فلتكن له مدة. والمدة الموهمة من سليمان إلى السبى . فتكون له مدتان . والمدة الثانية أحسن للبيت من المدة الأولى .

٢ ـ ثم يقولون : والنبى المنتظر سيأتى فى زمان المدة الثانية ، وسيعطى شريعته للأمم من هيكل سليمان . أى أنه سيجئ من اليهود .

٣ ـ وسيصاحب مجئ هذا النبى حروب يشنها على الأمم .

٤ ـ وهذا النبى مشتهى كل الأمم .

هذا هو كلامهم .

وهذا هو النص : « لأنه هكذا قال رب الجنود . هى مرة بعد قليل ، فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة ، وأزلزل كل الأمم ، ويأتى مشتهى كل الأمم ، فأملأ هذا البيت مجدا . قال رب الجنود . لى الفضة ولى الذهب . يقول رب الجنود . مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول . قال رب الجنود . وفى هذا المكان أعطى السلام . يقول رب الجنود » [حجى ٢ : ٦ ـ ٩]

والرد عليهم :

١ ـ إذا حذفنا المدة الأولى الموهمة . يكون للهيكل مدة واحدة تبدأ وتنتهى من قبل مجئ « مشتهى كل الأمم » فإذا جاء « مشتهى كل الأمم » تبدأ مدة ثانية ، وتظل إلى يوم القيامة . فهل مشتهى كل الأمم يأتى من اليهود ؟ إن من أوصاف النبى المنتظر أن يكون مماثلا لموسى . لقوله : « يقيم لك الرب إلهك : نبيا من وسطك من إخوتك مثلى . له تسمعون » [تث ١٨ : ١٥] وفى التوراة أنه لن يأتى فى بنى إسرائيل نبى مثل موسى « ولا يقوم أيضا نبى فى إسرائيل كموسى ، الذى ناجاه الله شفاها ، فى جميع الآيات والمعجزات التى أرسله للفعل إلى أرض مصر، بفرعون وبكل عبيده وبكل أرضه ، وبكل اليد الشديدة ، وبكل المناظر العظيمة التى صنعها موسى بمشاهدة كل إسرائيل » [تث ٣٤ : ١٠ ـ ١٢ سامرى] وفى التوراة أن لإسماعيل بركة ، فيكون النبى الآتى منه . فتكون الكعبة التى ظهر من ناحيتها ممجلة به . وهى البيت الحرام . فيكون المجد الآخر مجدها .

٢ ـ إن مشتهى كل الأمم لما ظهر ـ وهو محمد رسول الله ﷺ ـ صاحب

ظهوره حروب شديدة على اليهود والنصارى وأمم الكفر ، وهذا يشهد به الواقع ، ويدل عليه التاريخ .

٣ ـ إن اليهود موصوفون بأنهم أشرار . ففى سفر إشعياء :« لا سلام . قال الرب للأشرار » [إش ٤٨ : ٢٢ و ٥٧ : ٢١] وقال عيسى عليه السلام لليهود : «يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ؟ » [متى١٢ : ٣٤]

٤ ـ إن إشعياء وهو يتكلم عن مجد الكعبة ، رمز لهاجر بالعاقر وقال:«وكل بنيك تلاميذ الرب ، وسلام بنيك كثيرا » [إش ٥٤ : ١٣] وقد استدل المسيح بهذه النبوءة على محمد ﷺ فقال لليهود الذين استاءوا من كلامه ، وهو يبشر به :«لا تتذمروا فيما بينكم . لا يقدر أحد أن يقبل إلى إن لم يجتذبه الأب الذى أرسلنى ، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير . إنه مكتوب فى الأنبياء : ويكون الجميع متعلمين من الله » [يوحنا ٦ : ٤٣ ـ ٤٥]

٥ ـ ولقب « مشتهى كل الأمم » فى اللغة العبرانية وهو « حمدة» هو لقب من ألقاب « المسيّا وهو محمد رسول الله ، وهو الذى « تتطلع إليه الأمم » فمترجم إنجيل بَرنابا إلى العربية يعلق على « الذى تتطلع إليه الأمم » بقوله :« تفسير تقليدى لِمَسيّا فى حجى ٢ : ٧ الخ »

والنص هو : « ذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية(١) وراء الأردن . فلما انقضت صلاة الظهيرة ، جلس بجانب شجرة ، وجلس تلاميذه تحت ظل الشجرة . حينئذ قال يسوع : أيها الأخوة إن سبق الاصطفاء لسرّ عظيم ، حتى أنى أقول لكم الحق :إنه لا يعلمه جليا إلا إنسان واحد فقط ، وهو الذى تتطلع إليه الأمم ، الّذى تتجلى له أسرار الله تجليا . فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم . لأن الله سيظللهم . كما تظللنا هذه الشجرة . بلى إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية ، هكذا تقى رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان . أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذى تتكلم عنه الذى سيأتى إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمد رسول الله .

---

(١) ما هى البرية التى وراء الأردن ؟ إنها ليست برية اليهودية .

ومتى جاء إلى العالم فيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغريزية التى يأتى بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطى ثمرا بعد انقطاع المطر زمنا طويلا . فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله . وهى رحمة ينشرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث » [بر٣:١٦]

التحريف فى لقب « مشتهى كل الأمم » :

فى الكتاب المقدس / عربى إنجليزى / كتاب الحياة سنة١٩٩٩ بريطانيا العظمى حذفوا « مشتهى كل الأمم » من النص . وهذا هو :« لأنه هكذا يقول الرب القدير : ها أنا مزمع مرة أخرى عما قليل : ان أزلزل السماء والأرض والبحر واليابسة ، وأزعزع أركان جميع الأمم ، فتُجلب نفائسهم إلى هذا المكان ، وأملأ هذا الهيكل بالمجد . فالذهب والفضة لى . يقول الرب القدير . يكون مجد هذا الهيكل الأخير أعظم من مجد الهيكل السابق . وأجعل السلام يسود هذا الموضع . يقول الرب القدير »

مشتهى كل الأمم هو شيلون :

يقول مفسرو التوراة : إن «مشتهى كل الامم » هو « المسِيّا » وهو« شيلون » أى « الذى له الحكم » فى قول يعقوب لبنيه لما حضره الموت :« لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب» [تك ٤٩ : ١٠] وفى ترجمة الكتاب المقدس ـ دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط ـ الكتاب المشوهد : وضع حرف الدال على مشتهى كل الأمم . وقال فى الهامش : تكوين ٤٩ :١٠ ووضع رقم ١ على شيلون وعلق بقوله : أى أمان . وعند البعض معناها الذى له. انظر حزقيال ٢١ : ٢٧ ووضع حرف النون على شيلون وقال فى الهامش : إشعياء ١١ :١٠ و ٤٢ : ١ و ٤٩ : ٦ و ٦٠ : ٣

الفصل السادس
فى
تهلّل إبراهيم بمجئ المَسيّا

كان من عـادة اليهود إطلاق لقب «الروح النجس» الـذى هو «الشيطان» على كل شـرير وفاسق ، وإطلاق لقب «الروح الـقدس» على كل صـالح وتقى ، دلالة على أنه يسـتمد صـلاحه وتقـواه من الله الطاهر ، عن طريق الإلهـام ، وقد لقب اليهود نبى الله يحيى عليه السـلام بأنه «شيطان» أى أن أفكاره التى يبديها لهم على غير مرادهم هى من شيطان متلبس به [لوقا ٧ : ٣٣] وقـال اليهود عن عيسى ما قالوه عن يحـيى «فأجـاب اليهـود وقالوا له : ألسنا نقـول حسَنا : إنك سامـرى ، وبك شيطان ، أجـاب يسوع : أنا ليس بى شيطان ، لكنى أكـرم أبى ، وأنتم تهينوننى» ثم قال عن محمد رسول الله : «أنا لسـت أطلب مجدى ، يُوجد من يطلب ويدين» أى سيأتى غيرى من بعدى ليطلب مجده ، ويهلك اليهود . فى حروب طويلة لعدم إيمانهم به ، كما قال عنه المعمدان : «ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لسـتُ أهلا أن أحمل حذاءه ، هو سيـعمدهم بالروح القدس ونار ، الذى رَفْشُه فى يده ، وسينقى بَيْدرَه ، ويجـمع قمـحه إلى المخزن ، وأمـا التبن ، فيحـرقه بنار لا تطفأ» [متى ٣ : ١١ ـ ١٢]

ثم استمـر المسيح فى كلامه عـن محمد فقـال : «الحق الحق أقول لكم : إن كان أحد يحـفظ كلامى ، فلن يرى الموت إلى الأبد» يعنى بالموت والحيـاة : العمل بالشريعة وعدم العمل بها ، فالعمل بها حياة ، وعدم العمل بها موت ، ومن سمع كلامـه عن النبى الأمى الآتى ويسـتعد للدخـول فى دينه ؛ يحيـا ، ومن يسمع ولا يستعد ؛ يموت . وقد أخذ علماء اليهود كلامه على ظاهره ، فقالوا له : لا أحد إلا ويموت ، وقد مات إبراهيم والأنبياء .

وقد رد عليهم بأنه يقصد للمعنى الكنائى ، وهو أن العمل بالشريعة حياة

ففى سفر الأمثال : «احفظ وصاياى ، فتحيا» [أم ٤ : ٤] ، وفى لوقا : «افعل هذا ؟ فتحـيا» [لو ١٠ : ٢٨] ، وأيضا : هو يقصد المعنى الكـنائى فى حياة إبراهيم وهو : هل إبراهيم عليه السـلام حى الآن أم هو مـيت ؟ يقول المسـيح : إنه حى ،

واليهود يقولون إنه ميت ، وكلام المسيح هو الصحيح ، وذلك لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ولأن الله حى ؛ فإنه لما ظهر لموسى عند العُلَّيْقَة ورأى لهيب النار، قال له : اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، وقال له : أنا إله آبائك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ، وإذ هو حى ، يكونون هم أحياء ، لأنهم لو كانوا أمواتا ما تحدث الحى عنهم ، وعلى هذا المعنى يكون إبراهيم حى ، ففى سفر الخروج : «وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان ، فساق الغنم إلى وراء البرية ، وجاء إلى جبل الله حوريب ، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عُلَّيْقة ، فنظر وإذا العليْقة تتوقد بالنار ، والعليقة لا تحترق ، فقال موسى : أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم ، لماذا لا تحترق العليقة ، فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة ، وقال : موسى . موسى . فقال : ها أنذا . فقال : لا تقترب إلى ههنا ، اخلع حذاءك من رجليك ، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة .

ثم قال : أنا إله أبيك ، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب . . . إلخ» [خر ٣ : ١+]

وقد جاء فى إنجيل متى : أن المسيح استدل على يوم القيامة من التوراة فقال: «وأما من جهة قيامة الأموات ، أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إله إبراهيم ،إله إسحق ، وإله يعقوب ، ليس الله إله أموات ، بل إله أحياء» [متى ٢٢ : ٣١ ـ ٣٢]

وفى التوراة : أن الله وعد إبراهيم بالبركة فى إسماعيل ، ذلك قوله : «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه . . .إلخ» [تك ١٧ : ٢٠ ـ]

والنبى الذى سيظهره الله من إسماعيل ، لتبدأ منه بركة إسماعيل هو «محمد» ﷺ ويلقبه أهل الكتاب بلقب «المسِيّا» ويدل «محمد» فى بركة إسماعيل موضوع «بماد ماد» أى «كثيرا جدا» و «الجوى جدول» أى «أمة كبيرة» ذلك قوله : «وإما إسماعيل ، فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه ، وأثمره ، وأكثره ، كثيرا جدا ، اثنى عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمة كبيرة» ومحمد كمعظم وممجد أى محمود من أهل الله كلهم . وهو أحمد منهم لله تعالى .

فلو فرضنا أن إبراهيم على ظهر الدنيا حى يُرزق ، وفرضنا أنه شاهد «محمدا» قد ظهر ليقود الأمم إلى الله ، فهل يفرح إبراهيم بمشاهدة محمد أم لا يفرح ؟ هل يتهلل بصدق المواعيد الإلهية فى حينها أم لا يتهلل ؟ من المؤكد أنه يفرح ويتهلل ، ويؤمن بصدق المواعيد فى حينها . وهذا هو المعنى المقصود من قول المسيح لليهود : «أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومى ، فرأى وفرح. فقال له اليهود : ليس لك خمسون سنة بعدُ ، أفرأيتَ إبراهيم ؟ قال لهم يسوع : الحقَ الحق أقول لكم : قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»

أى أن الله تعالى فى سابق علمه ، وعد إبراهيم بالمَسِيَّا من نسل إسماعيل بدليل : أن خبر الوعد فى التوراة موجود منذ زمان بعيد ، وفى سابق علمه ، أيضا منذ زمان بعيد إظهار نبى ، يُمهد له الطريق ، وها أنذا أُمهد له الطريق ، وها هو قادم ، وأنا ومحمد واحد فى الهدف ، أنا أمجده وهو يمجدنى ، فمن لقينى فكأنْ قد لقيه ، ومن رآنى فكأن قد رآه ، ولو قدرنا أن إبراهيم حى بين أظهرنا الآن ؟ نقدره مسرورا بصدق المواعيد فى حينها .

وهذا هو النص بتمامه :

فى الأصحاح الثامن من إنجيل يوحنا :

« وبينما هو يتكلم بهذا آمن به كثيرون . فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به : إنكم إن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى ، وتعرفون الحق ، والحق يحرركم. أجابوه : «إننا ذرية إبراهيم ، ولم نستعبد لأحد قط ، كيف تقول أنت: إنكم تصيرون أحرارا ؟ أجاب يسوع : الحق أقول لكم : إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية ، والعبد لا يبقى فى البيت إلى الأبد ، أما الابن فيبقى إلى الأبد ، فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا ، أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم لكنكم تطلبون أن تقتلونى لأن كلامى لاموضع له فيكم ، أنا أتكلم بما رأيت عند أبى ، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم ، أجابوا وقالوا له : أبونا هو إبراهيم . قال لهم يسوع : لو كنتم أولاد إبراهيم ، لكنتم تعملون أعمال إبراهيم، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى ، وأنا إنسان قد كلمكم بالحقّ الذى سمعه مِن الله ، هذا لم يعملْه إبراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم .

فقالوا له : إننا لم نولد من زنا ، لنا أب واحد وهو الله.

فقال لهم يسوع : لو كان الله اباكم لكنتم تحبوننى ، لأنى خرجت من قبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى ، بل ذاك أرسلنى ، لماذا لا تفهمون كلامى ؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى ، أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ، ذاك كان قتالا للناس من البدء ، ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق . متى تكلم بالكذب ؛ فإنما يتكلم مما له ، لأنه كذاب وابو الكذاب ، وأما أنا فلأنى أقول الحق لستم تؤمنون بى ، من منكم يبكتنى على خطية ؟ فإن كنت أقول الحق ، فلماذا لستم تؤمنون بى ؟ الذى من الله يسمع كلام الله ،لذلك أنتم لستم تسمعون ، لأنكم لستم من الله .

فأجاب اليهود وقالوا له : ألسنا نقول حسنا : إنك سامرى وبك شيطان ؟ اجاب يسوع : أنا ليس بى شيطان ، لكنى أكرم أبى وأنتم تهينوننى ،أنا لست أطلب مجدى ، يوجد من يطلب ويدين ،الحق الحق أقول لكم : إن كان أحد يحفظ كلامى ؛ فلن يرى الموت إلى الأبد .

فقال له اليهود : الآن علمنا أن بك شيطانا ، قد مات إبراهيم والأنبياء ، وأنت تقول : إن كان أحد يحفظ كلامى فلن يذوق الموت إلى الأبد ، ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذى مات ؟ والأنبياء ماتوا . من تجعل نفسك ؟ أجاب يسوع : إن كنت أمجد نفسى فليس مجدى شيئا . أبى هو الذى يمجدنى ، الذى تقولون أنتم إنه إلهكم ، ولستم تعرفونه ، وأما أنا فأعرفه ، وإن قلت إنى لست أعرفه ؛ أكون مثلكم كاذبا ، لكنى أعرفه واحفظ قوله

أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى فرأى وفرح . فقال له اليهود : ليس لك خمسون سنة بعد ، أفرأيت إبراهيم ؟ قال لهم يسوع : الحق الحق أقول لكم : قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن . فرفعوا حجارة ليرجموه ، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا فى وسطهم ومضى هكذا»

ومن كلام مفسرى الإنجيل فى هذا النص :

« عداء متزايد من جانب اليهود (٨ : ٥٢ ـ ٥٩) اليهود الآن مقتنعون تماما أن به شيطاناً ، إنهم يفسرون قوله فلن يرى الموت، حرفياً ، هل كان هو أعظم من إبراهيم

والأنبياء ؟ (٥٢و٥٣) يسوع ينكر تهمة تمجيد نفسه ويجيب بأنه مشوق فقط ، بالرغبة فى أن يتمم إرادة الآب (٥٤،قارن عد ٥٠، ٥:٣١ الخ) إنه يعرف الآب ولكنهم لا يستطيعون أن يعرفوه (٥٥) إن الله سيتمجد فيه بواسطة معرفته الفريدة للآب (لأنه لو أنكر لأنكر صلاح مهمته) وبولائه للمأمورية التى تسلمها ، فهو حافظ لقول الله (٥٥) «إبراهيم تهلل بأن يرى يومى» (٥٦) أى يوم المَسِيّا ، إنه توقع مجئ المسيا ونال يقين إتمام المواعيد ، على أن إبراهيم لم يسبق ليرى فقط مجئ المسيح ولكنه يستطيع الآن أن يتهلل بيومه ، والتضمين : هو أن إبراهيم لا يزال له وجود واع صاح، ولذا فإنه يستطيع أن يتمتع بفرح مجئ المَسِيّا ، فيسأل يسوع إذا كان قد رأى إبراهيم ، لأنه لم يبلغ بعد سن الخمسين (٥٧) وهنا تحوى إجابة المسيح الدرامية تأكيده الخطير لوجوده السابق ، «قبل أن يكون إبراهيم ، أنا كائن» (٥٨) الفرق بين الفعلين اليونانيين :(جينوماى) (مولود أو يكون) و(أيمى) (كائن) كالفرق بين (المخلوق) وبين (غير المخلوق) يقرر يسوع : أنه (الكائن) الأزلى . إن حياته تشترك فى صفة الألهة اللازمنية . يقدر اليهود أهمية تقريره ، إن سبق الوجود المطلق يعنى المساواة بالله . إن هذا فى عرفهم تجديف ، فتناولوا حجارة ليرجموه ، أما يسوع فيختفى ، ويجوز فى وسطهم ، يظهر أن الكلمات التى تختم عند (٥٩) «مجتازاً وسطهم ومضى هكذا» إضافة متأخرة للنص[1] » اهـ .

المناقشة :

هل عيسى عليه السلام هو «المَسِيّا» ؟بالتأكيد: لا ، فالمسيا هو محمد ﷺ . والإمام أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ يستدل بقول المسيح :« أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومى ، فرأى وفرح» على أن المراد به : عيسى ، كما هو رأى النصارى .

فى الرد المنسوب إلى الإمام الغزالى ما نصه : «ذكر يوحنا فى الفصل الخامس والعشرين[2]: «إبراهيم أبوكم اشتهى أن يرى يومى ، فرأى وفرح ، فقال اليهود : لم يأت لك بعدُ خمسون سنة ، وقد رأيت إبراهيم؟ فقال لهم يسوع : الحق الحق أقول لكم : إنى قبل أن يكون إبراهيم » هذا آخر كلامه .

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور فرنسيس دافيدسن.

(٢) الأصحاح الثامن .

فنقول إذاً : هذا الكلام ناطق بالمجاز ، لأن إبراهيم - عليه السلام - لم ير يوم ولادته ، ولا يوم حصول الحقيقة الثالثة له - كما يزعمون - لأن هذه كلها حدثت بعد إبراهيم ، بل المراد من ذلك : أن الأنبياء يحبون دوام طاعة الله ، ودوام إظهار شرائعه المتكفلة بمصالح العباد ، فلما أُعلم إبراهيم - عليه السلام - برسالة عيسى ، عليه السلام - وهدايته للعالم ، وما يظهر على يده من مصالح العباد ، على ما اقتضته شريعته[1]، سُرّ بذلك ، فالرؤية ههنا محمولة على البصيرة التي هي العلم، لا على البصر ، وقد صرح بُولُص في رسالة سيّرها إلى قورنثية ، فأبلغ من ذلك ، وهذا يدل على أنه أراد عين ما أردناه ، فقال : «ولكننا ننطق بحكمة الله الخفية ، بالسر الذي لم يزل مستترا ، فكأن الله تقدم ، فقررها قبل العالمين»[2]ا هـ

المناقشة : إنه صرح بالمجاز على معنى رؤية البصيرة لا رؤية البصر ،وهذا صحيح ، ثم صرح بأن تهلل إبراهيم وفرحه هو لعيسى على أنه «المَسِيّا» أي النبي الأمي المماثل لموسى [تثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢] والصواب : أن محمدا هو «المسيا» وعيسى ويحيى يمهدان له الطريق ، ثم صرح بأن لعيسى شريعة ، وهذا يرده قول المسيح نفسه: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء» وقول المسيح: «إبراهيم أبوكم اشتهى أن يرى يومي» معناه: أن المسيح يتكلم نيابة عن محمد ﷺ الذي يبشر به فيقول : إن العهد كان في إسماعيل من محمد قبل ولادة إسحق، والآن سيظهر محمد ويتم العهد فيه . فلو كان إبراهيم حيا ؛ لرأى صدق المواعيد في حينها ، وفرح بصدقها . والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وقد قال الله لموسى : أنا إله آبائك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب . والله حي . ولو كانوا أمواتا ما تحدث عنهم.

ولنرجع بعد هذا الاستطراد الذي فرض نفسه إلى قول عيسى عليه السلام عن محمد ﷺ «بيركليت الروح القدس» ونقول :

---

(١) يعتقد المؤلف أن لعيسى شريعة مستقلة عن شريعة موسى ، وهذا الاعتقاد خطأ ، لأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة،ولم يأت بجديد عليها ولم ينشئ ديانة ولم يحل من أحكامها ما هو محرم، ولم يحرم من أحكامها ما هو محلل ، وإنما أحل ما حرمه العلماء على الناس من تلقاء أنفسهم.

(٢) في الأصحاح الثاني من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : «بل تكلم بحكمة الله في سرّ ، الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا ، التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر» [١ كو ٢ : ٧ - ٨]

١ ـ إن « بِيركليت » كلمة عبرانية معناها « أحمد » وهى فى التراجم القديمة «فِيرقليط »

٢ ـ وإنها تترجم فى اليونانية «بيركليتوس» وحرف السين يؤكد أنها اسم أحمد، لأن السين فى اليونانية توضع فى آخر الكلمة إذا كانت اسما مثل يوسيفوس وادريانوس وأوغسطوس قيصر .

٣ ـ وأحمد هذا ليس نبيا كاذبا ، به شيطان ، وإنما هو صادق ، والدليل على أنه صادق : وصفه بالروح القدس الطاهر ، أى الذى يسكنه ملاك من ملائكة الله ويهديه ويحركه ويرشده .

٤ ـ بمرور الزمان صار «الروح القدس» يدل على اسم «أحمد» ولو لم ينطق «أحمد » فأحمد اسم والروح لقب له .

٥ ـ ولما حرف النصارى كلام عيسى عليه السلام زعموا :أن الروح القدس هو روح الذات الإلهية ، فهل الله اسمه أحمد ؟ وهل روحه انفصلت عنه ، ونزلت إلى الأرض فى عيد الخمسين ؟

٦ ـ ومن أوصاف «أحمد» أنه يعلم ويذكّر ويخبر بأمور آتية ، والروح الذى نزل فى عيد الخمسين ـ كما يزعمون ـ لم يعلم ، ولم يذكر ، ولم يخبر بأمور آتية ، ففى إنجيل يوحنا عن بيركليت : «وأما المعزّى الروح القدس ، الذى سيرسله الآب باسمى ، فهو يعلمكم كل شئ[(١)] ويذكركم [(٢)] بكل ما قلته لكم»

٧ ـ والمعزّى موضوعة بدل «باركليت» ومعناها : النائب عن المسيح ، ولكن المسيح لم ينطق باركليت وإنما نطق الاسم المبارك ، بدليل وضع السين فى آخره فى الأصل اليونانى .

٨ ـ وفى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م أله النصارى «الروح القدس» الذى هو فى الأصل لقب لأحمد ﷺ وذلك لغرض اللغو فى حقيقته .

(١) ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ أى وما أوتيتم من عيسى من العلم إلا قليلا .

(٢) ﴿ ص . والقرآن ذى الذكر ﴾

مجئ يحيى وعيسى بالحكمة :

خواطر الشيخ

وأنا أكتب فى هذا الكتاب قرأتُ فى «اللواء الإسلامى» العدد ٩٥٤ السنة العشرون ، خواطر لشيخ من الشيوخ عن المسيح عيسى بن مريم ودعوته ، ومن كلامه ما نصه : «كل شئ عند اليهود كان ماديا ، والغيبيات لا مكان لها عندهم ، ولذلك إذا قرأت التوراة لا تجد فيها أى كلام عن اليوم الآخر ، وإذا قرأت التلمود ، لن تجد لليوم الآخر ذكرا ، مع أن اليوم الآخر ركن من أركان الإيمان ، وحتى من اعترف منهم باليوم الآخر : قال : إن العذاب أياما معدودات وتنتهى ، قال تعالى : ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ إذاً فهم ماديون ، وإذا أتى دين من بعدهم ، لابد من أن يحارب النقص ، الذى وُجد فى البشر ، ليكمله ويعدله ، فجاءت المسيحية كلها روحانيات ، ولذلك ليس عندهم تقنينات أو أحكام للمجتمع»

ثم شرع فى تفسير الروحانية فى المسيحية ، فقال : «فالحكمة : أن رسالة السيد المسيح ، جاءت بعد قوم ماديين ، فلابد أن تكون روحانية صرفة ، ولذلك لما جاءوا ليرجموا واحدة زنت ، قال لهم : « من كان منكم بلا خطيئة ، فليرجمها» ومن وصاياه أيضاً : «من ضربك على خدك الأيمن ، أدر له خدك الأيسر» .

ثم قال : «والمسيحية كلها روحانيات ، وليس فيها شئ من تنظيم المجتمع» ثم فسر قوله تعالى : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة﴾ بقوله : «لأن التوراة مادية صرفة ، جاء بالمثل الأول عن المسلمين بالروحانية ،المعبر عنها بالركع السجود ، وأيضاً بالذين يبتغون من فضل الله ، وأيضاً سيماهم فى وجوههم»

وبعدما فرغ من تفسير مثلهم فى التوراة بالذى نقلناه عنه ، تكلم فى تفسير مثلهم فى الإنجيل فقال : ﴿ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه﴾ هذا المثل فى الإنجيل كله مادى ، والمثل فى التوراة كله روحانى .

ثم فسر الحكمة فى قوله تعالى : ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾ بقوله : هى وضع

الشئ فى موضعه ، وأنتم يا عالم اليهود مُحتاجون إلى حُقنة قيم ، فجاءت المسيحية كلها قيم حتى تعدل مادية اليهود .

وانتقل إلى تفسير ﴿ولأبيّن لكم بعض الذى تختلفون فيه﴾ فقال : فمثلا كانت الإبل محرمة على اليهود ، فالمسيح عدّل هذه الأمور ، وأحلّ ما كان محرما عليهم ، ولذلك قال فى موضع آخر : ﴿ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾ ولذلك الجمال والإبل والأوز والبط ، كل هذه الأشياء كانت محرمة على اليهود ، فأحلها الله فى دين المسيح عليه السلام [إلى آخر ما قال الشيخ فى خواطره] وختم كلامه بأبيات من الشعر ، لم يصححهم الناشر ، وهم :

ولما التقينا ، قرّب الشوق جهده

خليلين ، ذابا لوعة ، وعتابا

كأن خليلا فى خِلال خليله

تسرّب أثناء العِناق وغابا

* * *

خطراتُ ذكركِ تستثير مودتى

فأحسّ منها فى الفؤاد دبيبا

لا عضو لى إلا وفيه صبابة

فكأنّ أعضائى خُلقن قلوبا

تصحيح الكلام :

١ ـ وصفُ المسلمين لديانة اليهود بأنها ديانة مادية ، هو وصف خاطئ ، ولذلك لأنها دين سماوى ، قال عنه الله فى كتابه : ﴿موعظة وتفصيلا لكل شئ﴾ووصَفَ الله هذا الدين بقوله إنه من قبل الإسلام كان ﴿نورا وهدى للناس﴾

ذلك قوله تعالى أيضاً : ﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾ فدين هذا وصفه فى القرآن كيف يكون دينا ماديا خاليا من الروحانيات ؟ وفى القرآن : أن الله أمر اليهود فى التوراة بالروحانيات ، ذلك قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾

وإلى يومنا هذا ، نجد فى التوراة هذه المعانى : «لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مّا مما لقريبك» {خر ٢٠ : ١٣ ـ ١٧}

«ومن ضرب أباه أو أمه ، يُقتل قتلا ، ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد فى يده» يُقتل ، ومن شتم أباه أو أمه ، يقتل قتلا» ـ «ولا تضطهد الغريب ، ولا تضايقه» ـ «لا تسئ إلى أرملة مّا ، ولا يتيم» ـ «إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده له» ـ «لا تقبل خبرا كاذبا ، ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم ، لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر» ، وهكذا كثير .

وفيها أدلة كثيرة على يوم القيامة منها : «لتمت نفسى موت الأبرار ، ولتكن آخرتى كآخرتهم» {عدد ٢٣ : ١٠} «عزيز فى عينى الرب موت أتقيائه» {مز ١٣٦ : ١٥} «أليس ذلك مكنوزا عندى ، مختوما عليه فى خزائنى ، لى النقمة والجزاء ، فى وقت تزل أقدامهم» {تث ٣٢ : ٣٤ ـ ٣٥} «أنا تُرس لك ، أجرك كثير جدا» {تك ١٥ : ١} وقد ذكرنا نصوصا كثيرة فى كتابنا «حياة القبور بين المسلمين وأهل الكتاب»

وقد حرف علماء بنى إسرائيل التوراة فى مدينة «بابل» سنة ٥٨٦ق م وجعلوا أحكامها الفقهية لهم وليست للأمم ، ومن أمثلة التحريف فى اللفظ والمعنى : «لا تقرض أخاك بربا ، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شئ مّا ، مما يقرض بربا ، للأجنبى تُقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا» {تث ٢٣ : ١٩ ـ ٢٠}

ثم عمل بها الأتقياء من بنى إسرائيل ، فقد كانت منهم جماعات تخشى الله وتهابه ، ومنهم يحيى وعيسى وأتباعهما . وفى القرآن عن أهل الكتاب أنهم : ﴿ليسوا سواء﴾ ولما ظهر محمد ﷺ آمن به من أهل الكتاب كثيرون ، ومن لا يؤمن به منهم فإنه يكون من الخاسرين ، وذلك لأن شريعة التوراة قد نسخها الله بالقرآن الكريم ، وفى التوراة نبى أمى مثل موسى : سوف يأتى يطلقون عليه لقب «المسيح الرئيس» الذى هو «المسيّا» والكافرون منهم إلى هذا اليوم فى انتظاره ، ويقول علماؤهم : إن طغيان الشر بين اليهود الآن ، سببه : تعطيل الشريعة ،

وتعطيل الشريعة لا يعنى أنها شريعة مادية ، وإنما يعنى أن الناس تركوا الحق إلى ما تهوى أنفسهم . فما تهواه أنفسهم هو شريعتهم المادية ، وما أنزل الله لهم من الحق هو شريعته ، وهو شريعة حياة للجسد والروح معا ، للأكل وللصوم معا ، وهكذا

يقول الحَبر إسحق لوريا ١٥٣٤ ـ ١٥٧٢م : «كل فعل إنسانى محسوب على صاحبه ، وللأفعال تأثيراتها الظاهرة ، ومعانيها الباطنة بعد وأوغل فى نتائجها ، وهى جزء من حركة الكون العامة ، وغايتها غاية كونية . . .وليس طغيان الشر إلا لأن الشريعة معطلة والفساد الروحى لابد أن يقابله فساد كونى ، وكلما زاد الفساد واستشرى الشر ، كانت الحاجة إلى مجئ المسيح أمَسّ(١)» أ هـ .

يقول : إن الله قد خلق الإنسان حرا ، وحمله نتيجة أعماله، وأن «المسيح الرئيس» لم يأت بعد ، وقد بينا من هو المسيح .

٢ ـ وهل عيسى عليه السلام ، أتى بدين روحى لا مادى ؟ يقول الشيخ فى خواطره : نعم ، وليسأل هو عن الروحانيات التى جاء بها ،ما هى ؟ لأننا نعلم أن عيسى عليه السلام كان يقول لأتباعه : أنا على شريعة التوراة التى لى زمنى ، لاأنسخها ولا أنقضها ، ذلك قوله : «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء» [متى ٥ :١٧] وعلى ذلك فكل ما أتى به هو التصديق للتوراة ، ثم إنه بشر بمحمد ﷺ بتفسير نصوص التوراة عنه تفسيرا يدل عليه . والبشرى هى الإنجيل ، وهذا ما جاء عنه فى القرآن الكريم فى سورة الصف .

وكان علماء بنى إسرائيل يُحرمون على الناس أشياء قد أحلها الله لهم فى التوراة ، مثل : العمل المعتاد فى يوم السبت ، فالمحرم : هو العمل اليومى المعتاد ، لا الأعمال التى تفرضها الضرورة ، فالجوع يفرض قطف سنابل بين الزروع ، ووقوع الخروف فى الحفرة يوم السبت يفرض انتشاله ، وأما العلماء فإنهم من ذات أنفسهم حرموا أشياء مثل : غسل الأيدى قبل الطعام وغسل الكؤوس ،فإنهم فرضوا أن الأكل بدونه محرم ، وما شابه ذلك ، فأحلّ المسيح ما حرمه العلماء على الناس من تلقاء انفسهم .

---

(١) موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية ـ تأليف الدكتور عبد المنعم الحفنى ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة.

وكان علماء بنى إسرائيل يختلفون فى الأحكام الفقهية ، فيرجّح المسيح أحد الرأيين ، ويذكر دليل الترجيح من التوراة ، ومن ذلك : اختلافهم فى النبى الأمى الآتى إلى العالم ، هل سيأتى من السامريين أم سيأتى من العبرانيين ؟ فرجح مجيئه من نسل إسماعيل عليه السلام واستدل على الترجيح بنبوءة العهد ، ونبوءة سيد داود ، ونبوءة النبى الأمى ومن ذلك إختلافهم فى معنى القريب . هل هو قريب الجنس أم هو النافع للإنسان ؟ وهكذا .

وكل ما جاء به يحيى والمسيح منقول من التوراة باللفظ وبالمعنى .

والأمثلة على ذلك من كلام يحيى وعيسى عليهما السلام :

(١) ـ «لا تظلموا أحدا ،ولا تشوا بأحد ، واكتفوا بعلائفكم» أخذه من الخروج ٣٣ : ١ ولاويين ١٩ : ١١ .

(٢) ـ «من له ثوبان فليعط من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا» أخذه المسيح فقال : «بل أعطوا ما عندكم صدقة ، فهوذا كل شئ يكون نقيا لكم» وهما قد أخذاه من التوراة من إشعياء ٥٨ : ٧ ودانيال ٤ : ٢٧ .

(٣) ـ «أنتم نور العالم» أخذه من الأمثال ٤ : ١٨ .

(٤) ـ «لا تقاوموا الشر» أخذه من الأمثال ٢ : ٢٢ .

(٥) ـ «من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا» أخذه من إشعياء ٥٠ : ٦ .

٣ ـ ومن تصحيح الكلام قوله : إن المسيح لم يقم الحد على الزانية ، والرد عليه : هو أن المسيح لم يعف الزانية من العقوبة ـ إن صحت الرواية ـ وإنما طلب إيقاع الرجم من الشهود أولا ، وذلك لأن التوراة تنص على أن الشاهد هو الذى يبدأ بالرجم ، ففى سفر التثنية : «على فم شاهدين أوثلاثة شهود ، يُقتل الذى يقتل ، لا يقتل على فم شاهد واحد ، أيدى الشهود تكون عليه أولا لقتله ، ثم أيدى جميع الشعب أخيرا» [تث ١٧ : ٦ ـ ٧] ودل انصرافهم على عدم قبول شهاداتهم ، وذلك لأن الفاسق لا تقبل شهادته .

٤ ـ ومن تصحيح الكلام : قوله إن مثل الأمة الإسلامية فى التوراة يشير إلى

صفات المسلمين الروحية ، لأن التوراة مادية صرفة

والرد عليه : إن نص المثل يظهر صفتين هما ﴿أشداء على الكفار ، رحماء بينهم﴾ وقال : إن مثلهم فى الإنجيل مادى . والرد عليه : أن المثل مضروب لبيان أن المسلمين فى البدء سيكونون قلة ، ثم يكثرون رويدا ، رويدا ، ومثل التوراة مذكور فى [مز ١٤٩] ومثل الإنجيل مذكور فى [مر ٤ : ٣٠ ـ ٣٢ ونظيره]

٥ ـ وأما الحكمة : والمراد بها وضع الشئ فى موضعه ، فإنها تشمل المواعظ والنصائح ، ويوضح ذلك : مافى سورة الإسراء من القرآن الكريم وهو عبادة الله وحده ، والبر بالوالدين ، وإكرام اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والبعد عن الزنا وقتل النفس ظلما ، والوزن بالقسط ، والنهى عن التجسس ، والحث على التواضع، وبعدما فرغ من ذلك كله قال : ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ ومن الحكمة : أنه نصح اليهود بالإيمان بمحمد إذا جاء ؛ لئلا يهلكوا .

ومما فى الإنجيل عن حكم المسيح : «ومتى صلَّيتَ ، فلا تكن كالمرائين ، فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع ، وفى زوايا الشوارع ، لكى يظهروا للناس ، الحق أقول لكم : إنهم قد استوفوا أجرهم ، وأما أنت فمتى صليت ، فادخل إلى مخدعك ، وأغلق بابك ، وصلِّ إلى أبيك الذى فى الخفاء ، فأبوك الذى يرى فى الخفاء ، يجازيك علانية ، وحينما تصلون ، لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم ، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم ، يُستجاب لهم ، فلا تتشبهوا بهم ، لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه »

فصلوا أنتم هكذا ، أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك . . . » [متى ٦ : ٥ +] .

ملاحظة :

قد أتى الملكوت ، وهو ملكوت محمد ﷺ فلماذا يطلبونه ؟ إذاً صلواتهم باطلة ؟ لأن الملكوت قد أتى .

انتهت الردود على خواطر هذا الشيخ . وخواطره تظهر للنصارى ما يعرفه المسلمون عنهم . وغرضى من ذكر الخواطر وتصحيحها : هو أن يجتهد المسلمون فى معرفة ما عند أهل الكتاب على وجهه ، ليكون ردهم عليهم ردا مفيدا .

الأمّة القائمة

يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله .والله شهيد على ما تعملون ؟ قل : يا أهل الكتاب . لم تصدون عن سبيل الله من آمن ؟ تبغونها عوجا . وأنتم شهداء ؟ وما الله بغافل عما تعملون ﴾

إلى أن قال عن أهل الكتاب : ﴿ كنتم خير امة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾

ثم قال عن أهل الكتاب : ﴿ منهم المؤمنون ، وأكثرهم الفاسقون ﴾ أى ﴿ليسوا سواء ﴾ فى الصد عن سبيل الله . فإن ﴿ من أهل الكتاب أمّة قائمة . يتلون آيات لله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات . وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير ، فلن يكفروه . والله عليم بالمتقين ﴾ وفى سورة المائدة : ﴿أمة مقتصدة﴾ .

البيان :

أهل الكتاب هم اليهود والصابئون والنصارى . فمن منهم يصدّ ، ومن منهم يدعو إلى الله ؟

يقول : إنهم من زمان موسى عليه السلام كانوا مأمورين بالجهاد فى سبيل الله، مثل المسلمين سواء بسواء . وأنهم جاهدوا وفتحوا بلاد الكفر ، ونشروا فيها الإسلام على شريعة موسى ، وملكوا على أهلها ، وأروهم ما فى التوراة من الأحكام . ومن أحكامها الدخول فى دين محمد رسول الله المكتوب عنه فيها : «يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك . من إخوتك . مثلى له تسمعون »

وبعد رجوعهم من سبى بابل سنة ٥٨٦ ق . م أذاعوا بأن هذا النبى الأمى سيظهر من بنى إسرائيل : لئلا يدخل الناس فى دينه إذا جاء . وهذا هو الصدّ عن سبيل الله . مع أنهم يشهدون بأنه سيأتى من بنى إسماعيل ؛ لأن إسماعيل مبارك فيه ، ولأنه لن يقوم نبى فى إسرائيل كموسى . ومن أوصاف النبى الآتى أن يكون كموسى . وقد كانوا من قبل سبى بابل يدعون إلى الله ، لأنه اختارهم من بين

الأمم الوثنية للدعوة إليه . ومن بعد سبى بابل ، امتنعوا عن دعوة الأمم ، وقصروا التوراة عليهم . وكـان امتناعهم بعدم الجهاد والفـتح . فإن منهم من دعا الأمم من نفسه بالكلام اللين وحسن المعاملة . كمـا قال عنهم عيسى عليه السـلام : « تطوفون البحر والبر لتكسـبوا دخيلا واحدا ، ومتى حصل ؛ تصنعـونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا » [متى ٢٣ : ١٥] فلما ظهر محمد صلى الله عليه وسلم للدعوة إلى الله بالكلام الحسن وبالحرب ؛ صار هو وأتباعه خير أمة ، بدل أهل الكتاب الذين كانوا من قبله خـير أمـة . ولذلك قال : ﴿ ولو آمن أهل الـكتـاب ﴾ بمحمد رسول الله ﴿لكان خيرا لهم ﴾ وذلك لأن الخيرية التى كانت لهم قـد انتقلت منهم إليه . وبه لم يعودوا خير أمة .

وشريعة موسى كانت قائمة فى العالم على ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن يبلغها بنو إسرائيل للأمم .

الأمر الثانى: أن يعمل بها بنو إسـرائيل والأمم إلى أن يظهر محمد رسول الله ﷺ

والأمر الثـانى : ينقسم إلـى قسمين همـا : ١ ـ العمل بالتـوراة ٢ ـ وانتظار محمد رسول الله ﷺ

فعندنا ثلاثة أمور :

١ ـ العالمية ٢ ـ العمل بأحكام التوراة الفـقهية ٣ ـ الدعوة إلى ترك التوراة فى حالة ظهور محمد ﷺ

موقف اليهود من الأمور الثلاثة من بعد السبى البابلى :

١ ـ أما عن العـالمية : فإن اليهـود قد اتفقـوا على عدم فتح البلاد بالجـيوش المنظمة ، وامتنعوا عن دعوة الأمم بالحـرب ، وأباحوا دعوة الأمم بالحكمة والموعظة الحسنة والجـدال بالتى هى أحسن . كـما قال عيـسى عليه السـلام :« إنهم يطوفون البحر والبر ليكسبوا دخيلا واحدا »

٢ ـ وأما عن العمل بالتـوراة : فإن اليهود قد حرفـوها لتكون شريعة لهم من

دون الناس ، وأباحوا لأنفسهم فيها أكل أموال الأمم بالباطل ، والتعدى على حرماتهم ، وكتبوا فيها عن سوء الخلق ما ينفر الناس عنها ، إن أرادوا الدخول فيها. مثل زنا رأوبين بجارية أبيه ، وزنا أمنون بأخته ثامار

٣ ـ وأما عن محمد رسول الله : فإن اليهود قد حذفوا من التوراة اسمه «محمد» ووضعوا بدله ما يدل عليه بحساب الجمل . وتركوا أوصافه كما هى . وأذاعوا فى الناس : أن النبى الآتى على مثال موسى سيكون من بنى إسرائيل . وهم يعلمون أنه لن يكون من بنى إسرائيل . فلذلك قالوا : إن التوراة شريعة لنا إلى يوم القيامة.

تقسيم الجهاد :

والجهاد إما أن يكون بالحرب ، وإما أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة . وقد جاهد بنو إسرائيل الأمم بالنوعين معا . إلى زمان سبى بابل . ومن بعده ، صرفوا الأموال التى كانت تنفق على الجيوش الغازية فى مصاريف أخرى ، وهدموا الربط التى كانت على الثغور واكتفوا بالحكمة والموعظة الحسنة . ولما انفصل النصارى عن اليهود ، قال لهم بولس : لا تجاهدوا فى سبيل الله ، واخضعوا للرياسات والسلاطين فى كل بلد تكونون فيها . ومن أجل ذلك حرموا الختان لأنه كان علامة على الجهاد ، وأحلوا المعمودية محله . وما يزال اليهود والنصارى والصابئون إلى هذا اليوم على الجهاد بالحكمة لا بالسيوف .

موقف الصابئين أتباع يحيى من هذه الأمور الثلاثة :

١ ـ حثّ أتباعه على دعوة الأمم . بالتوراة التى كانت فى زمانه مع اليهود .

٢ ـ أوجب على أتباعه العمل بكل أحكام التوراة ، إلى أن يظهر محمد رسول الله ﷺ

٣ ـ أظهر اسم «محمد» الذى كان فى التوراة الأولى . وفسر نبوءات التوراة عن محمد لأتباعه تفسيرا حسنا . وأمرهم بتعريف الناس به فى جميع البلاد .

موقف النصارى أتباع عيسى من هذه الأمور الثلاثة :

هو نفسه موقف الصابئين منها

الأمور الثلاثه من بعد يحيى وعيسى - عليهما السلام - :

١ - أما عن اليهود . فإنهم لم يغيروا أمرا من الأمور الثلاثة بأى أمر غيره .

٢ - والصابئون مثلهم لم يغيروا أمرا بأى أمر .

٣ - وأما النصارى . فإن منهم طائفة غيرت من بعد عيسى مباشرة ، وصرحت بأن تدعوا الأمم إلى الله ، ولكن على غير أحكام التوراة . وذلك بأن الأمى الذى ينضم إليهم ينضم إليهم على :

١ - الاعتراف بالله ٢ - والعمل بقوانين البلد التى يعيش فيها ٣ - والاعتراف بأن عيسى هو النبى الأمى المماثل لموسى ، ولا نبى من بعده إلى يوم القيامة .

الأمور الثلاثة فى سنة ثلثمائة وخمسة وعشرين ميلادية :

١ - أما عن اليهود : فإنهم ثبتوا على ما كانوا عليه من زمان سبى بابل .

٢ - وأما عن الصابئين والنصارى : فإن الامبراطور قسطنطين امبراطور روما، التى كانت تحكم على فارس وبلاد الشام ومصر وقتئذ جمعهم فى مدينة « نيقية » بتركيا . وطلب منهم إنكار مجئ محمد . وسبب طلبه هذا الطلب : هو أن من أوصاف محمد فى سفر دانيال وفى الأناجيل أنه فى بدء ظهوره سيحارب الروم ، وسيطردهم بالقوة من جميع البلاد . وإذا استمر هذا الخبر ساريا فى الناس ، فإنه فى بدء ظهوره سينضمون إليه ، وسيقضون على الروم بسرعة خاطفة . أما عن العمل بالتوراة أو عدم العمل بها ، فإنه لم يطلب منهم أن يعملوا أو أن لا يعملوا .

فاجتمعوا فى « نيقية » وقرروا - تحت سلاح الخوف والبطش - أن يكونوا جميعا « مسيحيين » لا صابئين ولا نصارى . ومعنى « مسيحيين » أن عيسى بن مريم هو النبى الأمى المماثل لموسى . لا محمدا رسول الله . ولما أنكروا محمدا ، علموا أنه لا فائدة من الشريعة . ولذلك ألغوها .

ولما زالت هيبة الروم بسبب انقسامهم إلى دولتين . واحدة فى الشرق وأخرى فى الغرب . انقسم الذين كانوا فى الأصل نصارى تابعين لعيسى بن مريم إلى أرثوذكس وكاثوليك . وانقسم المسيحيون الذين كانوا فى الأصل صابئة تابعين

ليحيى بن زكريا إلى مندائيين وحرانيين . والمسيحيون الذين كانوا فى الأصل نصارى يدعـون إلى : العالميـة وهى عندهم ١ ـ معـرفة الله ٢ ـ ونبـذ التوراة ٣ ـ والعـمل بقوانين البلاد التى يعيشون فيها ٤ ـ وأن عيسى هو النبى الأمى ولا نبى من بعده إلى يوم القيامة . ولسوف يأتى مرة أخرى عند قيام الناس من الأموات .

والمسيحيون الذين كانوا فى الأصل صابئة . يدعون إلى : العالمية . وهى عندهم :

١ ـ إلزام الأمم بالعمل بالتوراة

٢ ـ وأن النبى الأمى ليس هو عيسى بن مريم ـ كما يزعم المسيحيون اليوم ـ

٣ ـ ولا يتكلمون مع الأمم فى أمر النبى الأمى. فالراسخون فى العلم منهم يعلمون أنـه هو محمـد ، وهم أحرار فى عـقائدهم . ومن يعرفـه لا يعرف غـيره بحقـيقتـه ، ويتركـه حتى يعرف كـما عرف هو . شـأنهم شأن السـامريين من بنى إسرائيل ، فـإنهم يصرحون فى توراتهم بأن النبى الأمى الآتى من أوصـافه أنه مماثل لموسى، ويقولون : ولا نبى مـثل موسى سيأتى من بنى إسرائـيل . ويصرحون بأن «بماد ماد» تعنى محمدا بحساب الجمل . ويكـتفون بهذا . والجمهور قلوبهم لاهية فى أمور المعاش . ويشبه هذا فى المسلمين : أن الجمهـور يكون له أحيانا اعتقاد بأمر مّا . والراسـخـون فى العلم لا يعتقـدونه ولا يصرحون به للجـمهور . فـفى القرآن الكريم : أنه يجوز للمرأة أن تكون قاضية وأن تكون ملكة ، والجمهور يأبى هذا كل الإباء . وفى القرآن : أن المحرمات من الأطعمة أربعة هى:

١ ـ الميتة ٢ ـ والدم المسفوح ٣ ـ ولحم الخنزير ٤ ـ والمذبوح للأصنام .

والجمهور يأبى أن يتناول كلبـا وحمارا وخنافس ووطاويط . وفى القرآن : أن المرأة إذا قتلت رجلا خطأ وهى فقيرة . يلزمهـا صوم شهرين متتابعين . والله يعلم أنها ستـحيض فى كل شهر حيضـة . والجمهور يمنعهـا من الصوم والصلاة فى أيام الحيض . وهم غافلون عن التتابع .

وهذا الذى ذكرته موجود فى كتب تفـاسير القرآن . وقليل من قرأه ، وقليل من فهمه . وقليل من علّم به

دعوة الصابئين الأمم إلى الصابئية :

يقولون : « إن لتعميد يحيى قوة تبشيرية . ويقبل فيه من يتعمد من غير الصابئين إلى الصابئة . ويقولون : إن شيث بن آدم أبو المعمدين الأوائل »

وفي كتب الصابئين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

في كتاب « أدراشا أبديهيا » أي تعاليم يحيى عليه السلام وصايا خلقية . منها :

١ ـ يكمن سر السعادة في أن لا تكون كذابا أو منافقا .

٢ ـ من يعمل خيرا ، يرى خيرا .

٣ ـ الويل لعالم لم يعلّم شيئا من علمه للآخرين .

تحريف المسيحيين لنبوءات التوراة عن محمد ﷺ :

كتب كاتب سفر أعمال الرسل : أن بطرس وقف خطيبا في بني إسرائيل قائلا : إن موسى عليه السلام نبه على نبي يأتي من بعده ، على مثاله ، من أنفسكم . وكلامه في التنبيه عن مجئ هذا النبي ، منطبق على عيسى عليه السلام وبقوله هذا يكون قد قفل باب النبوة في وجه محمد ﷺ وجعل نبوءات التوراة كلها عنه ، على عيسى عليه السلام . فيكون عيسى عليه السلام ؛ هو النبي الأمي المماثل لموسى الذي يلقبونه بالمسيح وبالمسيا وبابن الله وبابن الإنسان ، وعبد الرب المتألم . يقول الكاتب : « فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم ، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب . ويرسلَ يسوعَ المسيح ، المبشَّرِ به لكم قبل ، الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أزمنة ردّ كل شئ التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر . فإن موسى قال للآباء : « إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم . له تسمعون في كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي ، تُباد من الشَّعب » [أع ٣ : ١٩ ـ ٢٣ تثنية ١٨ : ١٥ ـ ١٩ أع ٧ : ٣٧]

والصابئون لم يعترفوا بأن عيسى عليه السلام هو النبي الأمي الذي نبه على مجيئه موسى ودليل إنتظارهم : عدم تطبيق نبوءة ابن الله عليه ، واعترافهم بأن المسيح الرئيس ليس هو عيسى . وجميع نبوءات التوراه هي كنبوءة واحد في الدلاله على

المسيح الرئيس . وقالوا : إننا ننتظره وإلى الآن لم يأت . والأميون منهم لا يقرأون الكتب ، ولا يسمعون من علمائهم عنه شيئا .

ويكفينا منهم ههنا : أنهم ردوا قول المسيحيين فى اللغو فى نبوءات التوراة التى هى لمحمد ﷺ كما ردّ اليهود لغو المسيحيين فيها .

تحريف المسيحيين لشريعة التوراة :

كتب كاتب سفر أعمال الرسل : أن بطرس وقعت عليه غيبة (1). فرأى ملاءة عليها كل دواب الأرض والوحوش . وصار إليه صوت : « قم يا بطرس اذبح وكل » فتعجب بطرس لأن التوراة تحرم كثيرا من الدواب والوحوش . فصار إليه صوت ثانية : « ما طهره الله لا تدنسه أنت » أى أن المحرم فى التوراة صار حلالا [أع : ١] ونتج عن هذه الغيبوبة أن رؤساء المسيحيين اجتمعوا وقرروا أن يحرموا على الناس ما ذُبح للأصنام ، والدم ، والمخنوق ، والزنا [أع ١٥ : ٢٩] ثم أحلّ لهم بولس ما حرمه الله فى التوراة بقوله : « فلا يحكم عليكم أحد فى أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت . . . إلخ » [كولوسّى ٢ : ١٦ ـ]

وقال بولس: « دُعى أحد وهو مختون فلا يصر أغلف . دعى أحد فى الغرلة فلا يختتن . ليس الختان شيئا ، وليست الغرلة شيئا بل حفظ وصايا الله . الدعوة التى دُعى فيها كل واحد ، فليلبث فيها » [كورنثوس الأولى ٧ : ١٨ ـ ٢١]

الأمة القائمة :

يجب البحث فى معنى ﴿ قائمة ﴾ ومعناها : أنها أمة موجودة فى الحياة الدنيا، وقت نزول القرآن ، وتظل موجودة إلى يوم القيامة . والتاريخ يقر بأن أمة الصابئين ما تزال موجودة ـ كما بينا ـ وفى كتب التفسير اختلاف فى معنى ﴿ قائمة ﴾

١ ـ قائمة فى الصلاة   ٢ ـ قائمة بمعنى ثابتة على التمسك بالدين الحق

٣ ـ قائمة بمعنى مستقيمة عادلة .

هذا ما فى تفسير شيخ الإسلام الرازى محمد بن عمر رضى الله عنه . وهو يدل على أن ﴿ قائمة ﴾ بمعنى موجودة فى الحياة الدنيا ، وتظل موجودة إلى يوم

(1) يسمون الغيبة أيضا : مرائى النبوة. وهى حالة تشبه حالة الصرع

القيـامة . وذلك لأن القيام فى الصـلاة يدل على أن القائم موجود . والثبات يدل على الوجود ، والاستـقامة تدل على الوجود . فالثلاثة بمعنى واحـد . ومن كلامه رضى الله عنه : « والقول الثانى فى تفسـير كونها قائمة : أنهـا ثابتة على التمسك بالدين الحق . ملازمة له ، غـير مضطربة فى التمسك به . كـقوله : ﴿ إلا ما دمت عليه قائما ﴾ أى ملازما للاقتضاء ، ثابتا على المطالبـة ، مستقصيا فيها . ومنه قوله تعالى : ﴿ قائما بالقسـط ﴾ أ . هـ

المناقشة :

إنه لم يعين هذه الأمـة من هى من أهل الكتاب . حـتى ننظر فى الدين الحق الذى لازمت عليه . ومـعلوم أن أهل الكتاب جـميعـا غير مـلازمين للحق من بدء ظهور محمـد ﷺ ومعرفتهم به . إلا أن تكون هذه الأمة أمّيـة لا حرج عليها . ومع ذلك لا يعذرها الله بالجهل . والحق :

أن هذه الأمـة القائمـة هى أمة الصـابئين . وهى الأمـة الثالثـة من أمم أهل الكتاب اليهود والمسيحيون والصابئون .

وبيان ذلك :

أنه قسم أهل الكتاب فى سـورة المائدة إلى ثلاث طوائف . ومدح طائفة وبين أنها انقـرضت بالدخول فى الإسلام . وهى طائفة النصـارى الأمناء . ولم يبق بعد انقراضهـا إلا طائفتين هما ١ ـ اليهـود ٢ ـ والمسيحيون الذين أشـركوا . ذلك قوله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا ﴾ هما معا أشد عداوة . فمن هما ؟ إن الذين أشركوا هم المسيحيون الأرثوذكس والكاثوليك . لقوله فى سورة التوبة : ﴿ اتخذوا أحـبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو . سبحانه عما يشركون ﴾ والصابئـون لم يشركـوا . فإنهم مـوحدون. ولا يقـولون آب وابن وروح قدس . إلا وهم مكرهون على القـول. وذلك لأنهم لم يعـترفوا بأن عـيسـى هو ابن الله فى المزمور الثانى ، ولا أنـه الروح القدس فى الأصحاح الرابع عشـر من إنجيل يوحنا ـ كما بينا فى كتابنا أقانيم النصارى ـ

ثم قال تعالى : ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا : إنا نصارى ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام الذين ثبتوا على الحق فى أمر محمد رسول الله ، ودعوا الأمم إلى العمل بالتوراة إلى حين ظهوره ﴿ ذلك بأن منهم ﴾ الآن ﴿قسيسين﴾ شيوخ متواضعون ﴿ ورهبانا ﴾ منعزلين عن الدنيا وزينتها ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾ مثل اليهود على الأمم ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﴾ محمد ﷺ ولو قدر له ولأى مسلم رؤيتهم حال السماع ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ فالنصارى الأمناء الذين ظلوا ظاهرين بعقائدهم إلى عصر الشهداء ، وعصر قسطنطين ؛ كانوا يدعون إلى مجئ محمد علنا . ولما اشتد الأذى عليهم ، استخفوا بعقائدهم وأظهروا عقائد التحريف ، ومن يتواضع من سلفهم لله ؛ فإنه يعلم من الكتب ما كان عليه النصارى الأمناء . فيفرحون بما أنزل الله على رسوله . ولو سنحت لهم الفرص بالخروج إلى اتّباعه ، لخرجوا وجاهدوا معهم . وإذا استبعدنا اليهود والمسيحين الذين أشركوا من دعوة الأمم إلى الله . فإن الأمة القائمة تكون هى أمة الصابئين .

يقول تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة . يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾

ويقول تعالى عن اليهود : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾

إنه يقول : فى الزمان السابق يايهود كنتم خير أمة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين الوثنيين . ويقول : إن منهم أمة ما تزال قائمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين الوثنيين . وأمة المسيحين من زمان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م أمة قبلت عقائد شبه عقائد الوثنيين ، ودعت بها الأمم إلى الله . أما الصابئون فإنهم لم يقبلوا. ويدل على ذلك قوله تعالى عن عقائد اليهود والمسيحين : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ فى قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم . يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله . أنى يؤفكون ؟ ﴾ كيف يصدون ويصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل ؟ لقد شتمهم بقوله ﴿ قاتلهم الله ﴾ شتم١ - اليهود ٢ - والمسيحين الذين

أشركوا. ولم يشتم الأمة القائمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل مدحها بقوله ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ لأنهم قبلوا المسيحية من الرومان كرها واضطرارا. وهم من بعد الرومان. أميون وعلماء. وإذ طوائف أهل الكتاب ثلاثة هم اليهود والمسيحيون والصابئون وقد ذم اليهود والمسيحيين ولم يذم الصابئين، فإن الصابئين يكونون هم الأمة القائمة ، وهى تجاهد بالحكمة والموعظة الحسنة ولا تحارب بالسيوف.

أوصاف الأمة القائمة :

١ ـ أنها ﴿ قائمة ﴾.

٢ ـ ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل ﴾

٣ ـ ﴿وهم يسجدون﴾

٤ ـ ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾

٥ ـ ﴿ويامرون بالمعروف﴾

٦ ـ ﴿وينهون عن المنكر﴾

٧ ـ ﴿ويسارعون فى الخيرات﴾

٨ ـ ﴿وأولئك من الصالحين﴾

حال الأميين من الصابئين فى الدعوة إلى الله :

فى كتاب الصابئون المندائيون :

« والكتب المقدسة لـدى الصابئة ليست مطبوعة . وقد قام بنسخها الكتاب الكهنوتيون طيلة قرون عديدة . وكانوا يحصلون على قسم من دخلهم بالقيام بهذا العمل للمتدينين من أفراد الطائفة الذين يعتقدون بأن امتلاكهم للكتب المقدسة يحفظهم من الشرور فى الدنيا والآخرة . وقليل من العامة من يستطيع أن يقرأ أو يكتب هذه اللغة . فتعلمها مقصور فى الأغلب على الطبقة الكهنوتية ، ويضنون به على العامة ، حتى لا يتأثر نفوذهم ، وحتى تكون احتكاراً كهنوتيا»

حال العلماء الصابئين فى الدعوة إلى الله :

هم كما قال عيسى عليه السلام فى علماء اليهود من بعد سبى بابل :« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ؛ لأنكم تطوفون البحر والبر ؛ لتكسبوا دخيلا واحداً . ومتى حصل تصنعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا . ويل لكم أيها القادة العميان . . . الخ»

الثلاثة الذين خُلِّفوا

يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾

إما أن يراد بالمشركين اليهود والذين قالوا إنا نصارى ، وإما أن يراد بهم العرب بنو إسماعيل عليه السلام . ولا جائز أن يراد بهم العرب بنو إسماعيل . وذلك لأن الله تعالى فى نفس السورة وصف اليهود والنصارى بالشرك فى قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا . لا إله إلا هو . سبحانه عما يشركون ﴾ ولأن الله فى القرآن قد نفى عن العرب بنى إسماعيل الشرك بالله . فإن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة المعظمة هو وابنه إسماعيل الذى لم يكن له ولد غيره فى ذلك الوقت ؛ دعا الله دعوتين اثنتين هما : أن يجنب بنيه من إسماعيل عبادة الأصنام ، وأن يرسل من بنيه محمدا إلى العالم للدعاء إلى دينه . وإذ استجيبت الدعوة فى محمد ، وبُعث حقا، فإنها تكون قد استجيبت فى تجنب العرب عبادة الأصنام، لأنهما دعوتان متلازمتان وليس من فرق بينهما حتى تقبل واحدة وتترك الأخرى . ولأن الله فى القرآن قد بين أنه عقد عهدا بينه وبين إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا الكعبة للطائفين والعاكفين والركع السجود . وقد طهرها نسل إسماعيل من عباد الأصنام ، ولم يذكر أنهم نقضوا العهد .

ثم إنه من بعد إعلان البراءة من المشركين . أعلمهم أنهم إن تابوا ودخلوا فى الإسلام مع أبناء عمومتهم بنى إسماعيل ﴿ فهو خير لكم ﴾ وإن تولوا عن الإسلام فلهم ﴿ عذاب أليم ﴾ سيأتى عما قريب ، فى فتح المسلمين لفلسطين . وسيكون لهم عذاب أليم فى الدار الآخرة . ودليل توبتهم : هو إقامة الصلاة على دين الإسلام وإتيان الزكاة . وأشار بالصلاة إلى التواضع لله وأشار بالزكاة إلى عدم التكبر على خلق الله . وذكر من أوصاف اليهود التى كررها عنهم فى القرآن كثيرا : أنهم ﴿لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ﴾ وأنهم منافقون ﴿يرضُونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ﴾وقال: ﴿وأكثرهم فاسقون ﴾ وأنهم ﴿ لا أيمان لهم﴾ ولا عهد لهم .

وبين أنهم هم البادئون بالعدوان على المسلمين . فإن محمدا ﷺ لما ابتدأ

فى الدعوة ، لم يكن له من الأنصار عددا يبدأ به فى العدوان . وهم لهم أنصار ذوى عدد .بهم بدأوا بالعدوان وهموا بإخراج الرسول من مكة .

ومن هم الأحق بالبقاء فى مكة عند المسجد الحرام ؟ محمد وأنصاره أم اليهود المشركون ؟ من هم الأحق بإقامة الشعائر عند الكعبة ؟ المسلمون الطاهرون أم المشركون النجسون ؟ إنهم يشهدون على أنفسهم بالكفر ، لأنهم يشهدون أن موسى والنبيين من بعده قد كتبوا عن محمد ، وهم اليوم ينكرون هذه الشهادة . وإنكارها كفر به . والكفر به هو كفر بالله . إذ هو رد لشريعته عليه . كأنهم يقولون : لا تلزمنا ولا شريعتك تلزمنا . وقد أعطاهم جزاء هو الخلود فى النار . وليس الخلود للمسلم ، لأن له أحقابا ينقطع العقاب بعدها ، ثم قال لأهل الكتاب : أنتم من قبل ظهور محمد . كان لكم الحق فى سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام . لأن بركة إسحق فيكم وشريعة موسى معكم . وبها أنتم ملوك على الأمم إلى أن تظهر بركة إسماعيل من محمد . وإذا ظهرت لا يكون لكم الحق فى السقاية والعمارة والملك . ويكون الحق لمحمد ﷺ وأصحابه . وها هو اليوم قد ظهر . وتميزت أعمالكم وأعماله . ومن أعماله : أنه يؤمن بالله وباليوم الآخر ويجاهد فى سبيل الله . وأنتم كنتم مكلفين بأعماله من قبل أن يظهر ، فهل أنتم اليوم دعاة إلى الله ؟ هل أنتم مجاهدون ؟ أنتم جعلتم صلاتكم عند البيت مكاء وصدا عن سبيل الله . فهل تستوى السقاية والعمارة والصد عن سبيل ، مع الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ أنتم ظالمون بنى إسماعيل إن قلتم بالمساواة .

وقد فصل الله فصلا تاما بين بنى إسماعيل وبين بنى إسحق وذلك بأن عقد مقارنة بين إبراهيم المؤمن وبين أبيه الكافر . فهل هما أقرباء ؟ إنهما فى الظاهر أقرباء ، لأن آزر أب لإبراهيم وهما فى الحقيقة غرباء . لأن إبراهيم مع الله ، وآزر مع الشيطان. وهما جماعتان . كل واحدة منهما ضد الأخرى . وهكذا هو حال بنو إسماعيل المؤمنين بالله مع محمد عليه السلام وبنو إسرائيل المؤمنون بالشيطان . كل جماعة منهما ضد الأخرى . والإيمان هو الذى فرق بينهما . وقد قرر الله هذا الفصل فى نفس السورة فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء . إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ - ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ﴾

وبين الله أن النصر من عنده ، وقد نصرهم يوم حنين . فعلى من نصرهم ؟ من هم أعداؤه الذين كفروا ؟ هل هم هوازن وثقيف ؟ وهوازن وثقيف هل هم من العرب أم هم من اليهود ؟

ثم قال تعالى عن اليهود والنصارى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ والوصف بالنجاسة خاص بهم : وذلك أن الله أمرهم فى التوراة بذبح بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . وأن يحرقوها بعد ذبحها . ويضعوا ترابها فى قارورة . ليتطهر بالرماد كل كاهن تنجس بوطء قبر أو بملامسة ميت . وإذا نفد التراب ؛ فذلك إيذان بظهور محمد ﷺ ولا يذبحون غيرها . وإذا ظهر فإنهم يلزمهم إما الدخول فى دينه ليخلصوا من النجاسة وإما البقاء على دينهم وبذلك يكونون أنجاسا ، والكاهن النجس لا يقرب المسجد ولا يمس كتاب التوراة ، فكيف يكون إماما على الناس ؟

يقول مؤلف بذل المجهود فى إفحام اليهود : « نقول لهم : هل أنتم اليوم على ملّة موسى عليه السلام ؟ فإن قالوا : نعم . قلنا لهم : أليس فى التوراة أن من مسّ عظما أو وطئ قبرا أو حضر ميتا عند موته ، فإنه يصير من النجاسة فى حال لا مخرج له منها إلا برماد البقرة التى كان الإمام الهارونى يحرقها ؟ فلا يمكنهم مخالفة ذلك ، لأنه نص ما يتداولونه . فنقول لهم : فهل أنتم اليوم على ذلك ؟ فيقولون: لا نقدر عليه . فنقول لهم : فلم جعلتم أن من لمس العظم والقبر والميت هو طاهر يصلح للصلاة وحمل المصحف ، والذى فى كتابكم بخلافه ؟ فإن قالوا : لأنا عدمنا أسباب الطهارة وهى رماد البقرة والإمام المطهِّر المستغفر قلنا : فهل ترون هذا الأمر مع عجزكم عن فعله مما تستغنون عن الطهارة عنه أم لا ؟ فإن قالوا: نعم قد نستغنى عنه . فقد أقروا بالنسخ لتلك الفريضة ، لحال اقتضاها هذا الزمان . وإن قالوا : لا نستغنى فى الطهارة عن ذلك الطهور ، فقد أقروا بأنهم الأنجاس أبدا، ما داموا لا يقدرون على سبب الطهارة (١) » أ . هـ

وبعد وصف اليهود والنصارى بالنجاسة ؛ حكم ببقائهم بين المسلمين إذا ظلوا على دينهم ودفعوا الجزية . والسبب فى دفع الجزية : أنهم يعرفون أن دين الإسلام

---

(١) بذل المجهود فى إفحام اليهود - أيضا إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية وتنقيح الأبحاث لابن كمونة ودلالة الحائرين لموسى بن ميمون . والأجوبة الفاخرة للقرافى .

حق ولا يدخلون فيه بحجة أن محمدا من نسل جارية وضيعة ، وهم من نسل حرة عظيمة . ولعزتهم هذه وأنفتهم ، حكم عليهم بالجزية ليكونوا أذلاء تحت يد المسلمين أبد الدهر . والذليل لا يترأس على مسلم .

وبين من معتقداتهم قول اليهود عزير ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله. شبه ما يقول الذين كفروا من قبل أن يكفروا .

وبين أنهم يأخذون دينهم من الفقهاء ، ويعتبرون قول الفقيه مماثل لقول الله . وأنهم بهذا الاعتقاد يكونون قد أشركوا مع الله غيره من الأحبار والرهبان . ﴿سبحانه عما يشركون﴾

وبين أنهم يريدون إطفاء نور الله . والله لا يريد ذلك ﴿ولو كره الكافرون ﴾ وهم رؤساء اليهود والمسيحيين .

ثم نفّر الله الناس من فعل الأحبار والرهبان بقوله ﴿ ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون على سبيل الله ﴾

ثم أمر بقتال المشركين وهم اليهود والمسيحيين فقال : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾

ثم قال : ﴿ إنما النسئ زيادة فى الكفر ﴾ والنسئ فى اليهود والمسيحيين لا فى العرب . وذلك لأن السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية ، وشهور الزراعة القبطية تزيد خمسة أيام . ولذلك قال : ﴿ يُضل به الذين كفروا ﴾ والذيم كفروا ههنا هم الذين كفروا فى قوله ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ وهم كما يقول المفسرون: رؤساء اليهود والنصارى .

ثم خاطب المؤمنين على شريعة التوراة فقال ما معناه: لماذا لا تجاهدون مع محمد فى سبيل الله ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟﴾ لماذا لا تنصرون محمدا؟﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ ثم بين سبب المعركة التى نصره فيها بقوله: ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ﴾من هم هؤلاء الذين كفروا ؟ ليسوا غير اليهود، لأن الذين نصروه وحاربوا معه هم العرب المؤمنون بنو إسماعيل فى مقابل الذين كفروا، الذين بينت السورة أنهم هم اليهود. ومن بيانها: أنه ﴿ جعل كلمة الذين كفروا السفلى ﴾

ثم خاطب اليهود بقوله : ﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ كما قال عنهم : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ﴾ يريد منهم أن ينضموا إلى المسلمين وأن ينفروا معهم ويقول بعض المفسرين : إن الخطاب للمنافقين الذين كانوا فى « المدينة » وليس على قولهم من دليل . وذلك لأن وصف النفاق من الصفات اللازمة لليهود على طول الزمان . والكلام من أول السورة إلى آخرها فيهم . والأوصاف الواردة فى السورة مكررة فى القرآن عن اليهود . يقولون : إن هؤلاء المنافقين تخلفوا فى غزوة تبوك . وقولهم هذا يدل على أن الغرض من الآية قد تم فى زمان رسول الله ﷺ فما فائدة أن يتلى على مسامع الناس إلى يوم الدين وقد تم غرضه ؟ وإن قالوا : إن خصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ . فالقول بعموم اللفظ أولى من القول بهذه الحيلة. والذى دفعهم إلى القول بخصوص السبب أمران . أولهما : تفسيرهم للمدينة بمدينة يثرب . وثانيهما : قوله ﴿ عفا الله عنك ﴾ حيث فهموا منه أنه خطاب خاص للرسول ﷺ فى هذا الوقت . أما عن تفسيرهم للمدينة بيثرب . فإن « يثرب » عَلَم عليها فى القرآن ولم تسم بالمدينة فى حياة رسول الله ، وإنما سميت من بعده بمدينة رسول الله . أما ﴿ المدينة ﴾ بالألف واللام فإنها معروفة للعالم من قبل الإسلام بكثير . وهى « أورشليم » عاصمة ملك اليهود العبرانيين فى « فلسطين » وأما عن أن الخطاب لرسول الله فى وقته . ففى القرآن أن الله يخاطب المسلمين إلى يوم الدين فى شخصه . فيكون المعنى : يا مسلم إن كنت تهى المسلمين للقتال فلا تأذن لهم . ومما كادوا به لمحمد ﷺ : أنهم ﴿ ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ بعثته وتشاوروا فى أسباب يبثونها فى كتبهم تشكك الناس فى اسمه وصفاته . وظلوا قلقين من أمره إلى أن ظهر ﴿ وهم له كارهون ﴾ لأنه سيأخذ الملك منهم وستخضع له الأمم والشعوب . ثم قال تعالى عنهم : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ وحلفهم صحيح على معنى أنهم منهم من نسل إبراهيم ﴿ وما هم منكم ﴾ فى الإيمان . وإذا انضموا إليكم فإنهم لا ينضمون لله ، وإنما لطلب صدقات . فإنهم هم المؤلفة قلوبهم[1].

---

(١) فى التوراة فى سفر حزقيال نبوءات عن أن النبى الآتى هو الذى سيؤلف بين السامريين والعبرانيين . ولذلك قال : ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ .

وفى التوراة نبوءة عن محمد ﷺ فى المزمور ٤٠ يقول فيها عن نفسه بظهر الغيب : إنه أذن خير للمؤمنين ، ويسمع من الله ويبلغ « أذنىّ فتحتَ » اى انه حرّ وليس عبدا إلا لله وحده. فقالوا: ﴿هو إذن﴾ اى ليس حرا. وإنما هو عبد ونحن سادته. وهو يقول: أنا حر؛ لنكون عبيدا له. ولن نكون عبيدا له. وبيان ذلك: أن اليهودى إذا اشترى عبدا عبرانيا فست سنين يخدمه، وفى السابعة يخرج حرا مجانا. فان فضّل العبد العبودية على الحرية؛ يأخذه سيده إلى المسجد الجامع ، ويقربه إلى الباب أو إلى القائمة. ويثقب أذنه بالمثقب فيخدمه إلى الأبد [خروج ٢١ : ٥ ـ ٦]

وأول المزمور هو :« انتظارا انتظرت الرب ؛ فمال إلىّ ، وسمع صراخى »

ونص المزمور هو : «انتظارا انتظرت الرب. فمال إلىّ ، وسمع صراخى ، واصعدنى من جب الهلاك .من طين الحمأة ، وأقام على صخرة رجلى . ثبت خطواتى ،وجعل فى فمى ترنيمة جديدة ،تسبيحة لإلهنا . كثيرون يرون ويخافون ويتوكلون على الرب .

طوبى للرجل الذى جعل الرب متكله .ولم يلتفت إلى الغطاريس والمنحرفين إلى الكذب كثيرا ما جعلت أنت أيها الرب إلهى عجائبك وأفكارك من جهتنا . لا تقوّم لديك . لاخبرن وأتكلمن بها .زادت عن أن تعدّ بذبيحة وتقدمة لم تُسرّ .أذنىّ فتحتَ . محرقة وذبيحة خطية لم تطلب . حينئذ قلتُ : هأنذا جئت .بدرج الكتاب مكتوب عنى أن أفعل مشيئتك يا إلهى سررت ، وشريعتك فى وسط أحشائى . بشرت ببر فى جماعة عظيمة . هو ذا شفتاى لم أمنعهما . أنت يا رب علمتَ.لم أكتم عدلك فى وسط قلبى . تكلمت بأمانتك وخلاصك . لم أخف رحمتك وحقك عن الجماعة العظيمة .

اما أنت يا رب فلا تمنع رأفتك عنى . تنصرنى رحمتك وحقك دائما . لأن شرورا لا تُحصى قد اكتنفتنى . حاقت بى آثامى ،ولا أستطيع أن أبصر . كثرت أكثر من شعر رأسى ، وقلبى قد تركنى . ارتض يا رب بأن تنجينى . يا رب إلى معونتى أسرع . ليخز وليخجل معا الذين يطلبون نفسى لإهلاكها . ليرتدّ إلى الوراء وليخز المروورن بأذيتى . ليستوحش من أجل خزيهم القائلون لى: هَه. هه. ليبتهج ويفرح بك جميع طالبيك . ليقل أبدا محبو خلاصك : يتعظّم الرب . أما أنا

فمسكين وبائس . الرب يهتم بى . عونى ومنقذى أنت . يا إلهى لا تبطئ »
[مزمور ٤٠] .

ورد عليهم بقوله : ﴿ ألم يعلموا ﴾ من التوراة ﴿ أنه من يحادد الله ورسوله، فأن له نار جهنم . خالدا فيها ﴾ ؟ وقد نقلنا نصوصا فى ذلك المعنى فى كتابنا حياة القبور . وفى كتابنا الشفاعة بين المسلمين وأهل الكتاب . والخطاب بقوله ﴿ ألم يعلموا ﴾ ؟ لا يدل على المنافقين من العرب ، لأن العرب أهل الله . وهم أميون .

وبين أنهم يحذرون من نزول ﴿ سورة تنبؤهم بما فى قلوبهم ﴾ وحذرهم ضاع سدى . فقد نزلت سور ، وأنبأت . وقوله ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ يدل على أن الحذرين هم اليهود . فإنهم كانوا مؤمنين على شريعة التوراة . ولما رفضوا شريعة محمد ﷺ صاروا برفضها كفارا . وهم قد استهزأوا بالله ﴿ ولئن سألتهم ليقولن: إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ وقولهم هذا يدل على كفرهم بعد إيمانهم . ثم إنهم يحلفون ما قالوا : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ وهى كلمة كفر ، قالوها ويقولوها . ولذلك قال بعدها فى المرتين : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ - ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ نستهزئ بالمسلمين ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ وهى : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ أى نستهزئ بهم .

ووصف اليهود على طول الزمان بأنهم بدل أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر كما كانوا فى الزمان من موسى إلى سبى بابل . أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف وبخلوا عن الإنفاق فى سبيل الله . ومن أمرهم بالمنكر : أنهم أباحوا الربا لهم من الأميين . و ﴿ قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ وصدوا الناس عن محمد ﷺ وصدهم عنه هو أمر بالمنكر .

وبين أن اليهود فى نظر المؤمنين على نوعين . نوع يتظاهر بالنفاق . ونوع لا يتظاهر به . ويجمعهم وصف الكفر . فالمتظاهر كافر والمصرح كافر . ثم قال عنهم جميعا : ﴿ لعنهم الله ﴾ ووصف اللعنة فى القرآن خاص باليهود . وشجرة نسلهم ملعونة فى القرآن فى قوله : ﴿ أولئك يلعنهم الله ﴾ وأعطاهم جزاء هو الخلود فى جهنم ثم ذكرهم بمصير أمم من قبلهم فقال : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ﴾ وليس فى التوراة

نبؤهم وقد أنبأهم بهم عن طريق القرآن ، ليعتبروا بهم ، وليكون إنباء النبى بهم معجزة له ، لأنه أمى لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان .

وبين الله للنبى ولكل مسلم من بعده أن اليهودى المتظاهر بالنفاق واليهودى المجاهر بالكفر . هما من أعدائه ويجب عليه أن يجاهدهم . ثم فضح طوائف منهم فقال : ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ والمراد : جمع كثير منهم لا فرد واحد . لقوله : ﴿ بخلوا ﴾ بصيغة الجمع . وقال : إنهم تخلفوا عن الإيمان بمحمد ﷺ ولم يجاهدوا معه حبا فى الدنيا وكراهية فى الموت ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله[1] ﴾ والمعنى : فرح اليهود بتخلفهم عن الجهاد ، ببقائهم فى مدنهم التى يقيمون فيها . وهم مخالفون لأمر رسول الله الذى هو : ﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا ﴾ وليس الخطاب لمن كانوا فى زمنه ، ولا لشخصه . وإنما هو سجية فيهم على طول الزمان ، والمسلمون لن يكفوا عن الجهاد فى سبيل الله إلى الأبد. والله بهذا البيان يعلم المسلمين كيفية التعامل معهم .

ثم قال تعالى ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ، ليؤذن لهم ﴾ من هم الأعراب؟
لما كان القرآن للعالم أجمع على طول الزمان ، ولما كان هو يعلّم المسلمين أحكام دينهم ، مع المسلمين وغيرهم ؛ قسم الله أهل العالم إلى أقسام : قسم يتكلم العربية ، وقسم يتكلم العبرانية ، وقسم يتكلم السريانية - وهى لهجة من العبرانية - واللغات الثلاثة متقاربة فى اللفظ وفى النطق. وقسم يتكلم اليونانية ،وفى العالم لغات غير هذه اللغات والمجاورون لأرض العرب هم المتكلمون بهذه اللغات. والله يقارن بين العرب المتكلمين بالعربية، وبين غيرهم من المتكلمين بغير العربية . فالأعراب هم اليهود والمسيحيون والصابئون فى مقابل العرب أهل الإسلام . وهذا فى بلد الإسلام . ولأن القرآن للمسلمين على طول الزمان . والله يعلم أنهم سيخالطون الأمم . قال : إنه سيكون حولكم أعراب . أى أمم يتكلمون غير

---

(١) إن كان المراد برسول الله ، موسى عليه السلام . فإنهم كفوا عن الجهاد بشريعته - وفيها أن محمداً سيأتى - من زمان سبى بابل وإلى هذا اليوم . وهذا يعد منهم قعوداً مخالفةً لرسول الله . وإن كان المراد برسول الله ، محمد ﷺ فإنهم لم يجاهدوا معه بشريعته فحسب ، وإنما لغوا فى دعوته وأنكروها إنكارا تاما . فعلى المعنيين هم لا يسيرون مع الله كجهاد إبراهيم وإسحق ويعقوب [تك ١٥]

لعربية. ويعرفون العربية ويتكلمون بها بلكنة ولسان غير فصيح . ومن الأعراب الذين سيكونون حولكم مخالطين وملازحين ؛ ستجدون منافقين . يأمنونكم ويأمنوا قومهم . وستجدون من أهل المدينة أورشليم منافقون . وهم اليهود .

وقال كثيرون من أهل العلم : إن ﴿ الأعراب ﴾ هم سكان البوادى . الذين يتكلمون العربية الفصحى . ولو كان قولهم صحيحا ، لكان نزول القرآن فيهم أولى من نزوله فى العرب أهل « مكة » لأن القرآن بلسان عربى مبين . ولو أنهم قالوا : إن العرب هم يتكلمون يتكلمون العربية. وغيرهم من اليهود والصابئين والمسيحين هم أعراب يتكلمون بغيرالعربيةالفصحى ؛لكان قولهم معتبرا . له قيمة . وإذا لم تصرح بهذا المعنى فإننا نبطل حكما من أحكام القرآن فى سكان العالم . فإن الأعراب - على تفسيرهم - قد سكنوا القصور ، وبنوا الدور ، وملكوا وحكموا وفقوا وعدلوا وجاروا وأجاروا . والعراب فيهم خير . واليهود من والاهم لا خير فيهم . وذلك لأن منهم من هو ﴿ أشد كفرا ونفاقا ﴾ ولأن منهم من ﴿ يتربص بكم الدوائر ﴾ ولأن منهم ﴿ من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ولم العالم على هذا التقسيم. والعرب قد آووا ونصروا . وسيجئ المعذورون من الأعراب اليهود لقائد جند المسلمين قائلين له: إنا وإن كنا من بلاد بعيدة عن بلادكم ، وفينا الضعفاء والمرضى، وفينا من لا يجد ما ينفقه ، فإننا نحب أن نقاتل معكم لننال بواسطتكم إحدى الحسنيين . ذلك قوله تعالى : ﴿ وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله . سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾

وقال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ يخبر عن أولّين قد رضى عنهم . فمن هم؟ وقسم الأولين إلى مهاجرين وأنصار .

يقول شيخ الإسلام محمد بن عمر رضى الله عنه : « والصحيح عندى : أنهم السابقون فى الهجرة وفى النصرة » ثم يقول : إن السابقين هم العرب . والحق: أن النبى الذى يقوم بالدعوة يكون له كارهون من قومه ، يضطرونه إلى الهجرة هو ومن آمن به . فإبراهيم عليه السلام ﴿ آمن له لوط . وقال : إنى مهاجر إلى ربى ﴾ ولما هاجر ، ودعا إلى الله فى البلاد التى قصدها هو ومن هاجر معه ، صار له أنصار وأتباع . وكل مهاجر أنصارى ، وليس كل أنصارى مهاجر . وهكذا

كان الحال مع نبى الله موسى عليه السلام اضطهده آل فرعون ، فآمن به منهم ذرية ، انضموا إلى بنى إسرائيل فى الإيمان . ثم هاجروا من مصر إلى سيناء ، ومنها إلى أرض فلسطين فى زمان طالوت وداود عليهما السلام . وهكذا كان الحال مع نبى الله عيسى عليه السلام آواه الله إلى ربوة ذات قرار ومعين . وكان له من بنى إسرائيل أنصار . وكل هؤلاء وأمثالهم يُطلق عليهم فى زمان محمد ﷺ السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . فى مقابل المتأخرين عنهم فى زمان شريعته ، لأنها آخر الشرائع. والمعنى المراد من قوله : ﴿ السابقون الأولون ﴾ هم بنو إسرائيل المؤمنون من قبل محمد خاصة . لأنها أمة قد خلت فى مقابل أمة ما تزال باقية . وهو يتحدث فى هذه السورة عن الكافرين من أهلها وهم اليهود .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ، ولقد علمنا المستأخرين﴾ فهما أمتان . أمة قد تقدمت ، وأمة قد جاءت بعدها .

ويقول المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ﴾ أنهم أهل مدينة « يثرب » ويردّ قولهم : ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ على طول الزمان،وقوله: ﴿إنكم عائدون﴾ للمرتين ففى الأصحاح الثامن والثانى عشر من سفر دانيال ، وفى سورة الإسراء عن بنى إسرائيل أنهم سيفسدون فى الأرض ، وسيعلون فيها علوا كبيرا . وعقب كل مرة ،يعذبهم الله على أيدى المسلمين عذابا شديدا . فتكون ﴿ المدينة ﴾ مدينة « أورشليم » فى فلسطين . واليهود فيها منافقون .

وقال بعد ذلك : ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا ﴾ ولم يقل ومنهم . فإن ومنهم تدل علي طائفة منهم كما فى قوله : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبى ، ويقولون: هو أذن ﴾ فإن النص على كونه أذن خير هو فى الزبور عند العبرانيين فقط . والسامريون لا يقدسون الزبور . وقصة هذا المسجد : هو أن داود عليه السلام لما فتح « فلسطين» شرع فى تأسيس بيت لوضع التابوت فيه . ولما وضع أساسه ، مات . فأكمله سليمان ابنه ووضع التابوت فيه ، وأغلق عليه الباب . وكان اليهود مأمورين ببناء مساجد متواضعة فى جميع القرى والمدن . مساجد من تراب ليس فيها موضع قبلة. وذلك لأنهم ليسوا مأمورين بالاتجاه فى الصلاة إلى أى جهة . فلله المشرق والمغرب، وليتجهوا إلى أى جهة .

وفى حادثة سبى اليهود إلى بابل ، ضاع التابوت وهُدم البيت الذى كان فيه . وفى بابل حرف اليهود التوراة ، ورأوا أن يحولوا الحج من جهة الكعبة فى مكة إلى جهة بيت التابوت فى فلسطين وادعوا أن أول من جعل الحج والقبلة إلى بيت التابوت هو سليمان نبى الله . ولما رجعوا من بابل ، أسسوا بأمر من كوروش الفارسى هيكل سليمان ،وادعوا أنه قد أسس فى بيت التابوت . وجعلوه مسجدا ، وأمروا الناس بالحج إليه وأن يتجهوا إليه فى الصلاة . وقد خالفهم يهود السامرة فبنوا لهم هيكلا على جبل جرزيم وادعوا أنه هو القبلة ومكان الحج . وغرضهم من ذلك : الضرر والكفر والتفريق بين المؤمنين . وأن يكون الهيكل أى المسجد مكان تجسس على الأمم لصالح أهل فارس،الذين حاربوا المسلمين على شريعة موسى من قبل .وقد هدم يوحنا هركانوس المكابى فى سنة ١١٠ق . م هيكل السامريين، وهدم أدريانوس الرومانى فى سنة ١٣٢م هيكل سليمان.وفى ليلة إسراء النبى ﷺ إلى أرض المسجد الأقصى كانت أرضه خالية منه.ولذلك جاء فى التفسير آراء. منها أنه كان فى حلم ليل . وعلى هذا الرأى أحاديث كثيرة مصدّرة بقوله : « بينا أنا نائم» ومختومة بقوله : « واستيقظ وهو فى المسجد الحرام » ومنها: من المسجد الحرام المبنى الآن إلى المسجد الأقصى الذى سيبنى فى ما بعد ، دلالة على تحقق وقوع الخبر . ومنها : من أرض المسجد الحرام الموجود الآن ، إلى أرض المسجد الأقصى الذى كان وهدم . ومنها : من المسجد الحرام الذى باركنا حوله إلى المسجد الأقصى الذى اتخذوه مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين . وذلك لأن ﴿الذى باركنا حوله ﴾ صفة للمسجد الحرام وحده ، لقوله : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ﴾ وقد نهى الله المسلمين فى شخص نبيهم بقوله : ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ أى لا يكون قبلة لك فى أى صلاة .ولا يكون لك جهة حج.(١) فالمسجد الذى أسس على التقوى وهو الكعبة هو الذى يكون لك قبلة صلاة .وجهة حج. وهو مبنى من أيام نوح عليه السلام من بعد الطوفان وجدده إبراهيم عليه السلام .

ثم أعطى وصفا لازما لمسجد الضرار وهو هيكل سليمان الذى أسسوه بأمر

---

(١) كتاب الأحاديث خالفوا قوله ﴿لا تقم فيه أبدا﴾ بقولهم :«لا تشد الرحال إلا إلى . . الخ» فشد الرحال إلى الثالث ، يُشبهه بالكعبة فى الإقامة فى جهة الحج ، لا فى جهة القبلة . والنهى فى ﴿لا تقم﴾ للجهتين .

من كورورش الفارسى فقال : ﴿ لا يزال ﴾ ولو كان المراد مسجد الضرار الذى بناه المنافقون كما يقول المفسرون ، ما كان يعبر بقوله ﴿ لا يزال ﴾ الذى يدل على أن الذى بنوه ما زالت لهم بقية من نسلهم وأيضا يدل على أن العرضمنه باقيا. واليهود والمسيحيون إلى هذا اليوم يحجون إليه ويجعلونه قبلة بلا دليل من كتاب موسى. وحجهم إليه وجعلهم له قبلة بدلا على أنه ﴿لا يزال﴾

ثم حث على الجهاد فى سبيل الله بقوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ورجع إلى الكلام الذى قاله فى البدء عن فصل المؤمنين عن الكفار بالإيمان . واعتبار الإيمان صلة القربى لا النسب. فقال: ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفرو للمشركين ولو كانوا أولى قربى ﴾ ومن قبل قد قسم أمة بنى إسرائيل إلى السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار وإلى الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . وقال : منهم آخرون مرجئون ويعد كلام فى هذا التقسيم، قسم أمة بنى إسماعيل فقال : ليس فيهم إلا مهاجرين وأنصارا ، إلى يوم القيامة . فالذين خلطوا فى بنى إسرائيل ، لن يكون لهم مثل فى أمة بنى إسماعيل، لان الله يحفظ القرآن إلى يوم القيامة . وهم سيحاسبون على أعمالهم . إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وسيمتد دينهم إلى أن يعم العالم أجمع . وإذا امتد دين المسلمين ، فإن اليهود والمسيحين والصابئين ، سيكونون أقل عددا . وكلما زاد الامتداد كلما قل العدد . وفى هذه الحالة إلى أين يذهبون ؟ هل يذهبون إلى المسلمين ؟ إنهم إن ذهبوا إليهم ، فإنهم لن يقبلونهم إلا على الإسلام أو الجزية ، وفى الجزية ضيق لهم . وإن ذهبوا إلى غيرهم ، فإنهم لن يجدوا . لأن الإسلام وقتئذ يكون قد عم العالم . وفى هذا المعنى يقول : ﴿ لقد تاب الله على النبى ﴾ ولما كان هو يقصد رئيس جند المسلمين إلى يوم القيامة فى شخص النبى ، عبر بالتوبة ، لأن النبى نفسه معصوما من الذنوب . وعبر بالماضى لأن القرآن قد نزل بواقعة قد مضت لا يريد السكوت عن ذكرها ، وسيأتى غيرها شبها بها . وتاب أيضا ﴿ على الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وهم اليهود والمسيحين والصابئون . وذلك لانهم على شريعة موسى مكلفون بالجهاد فى سبيل الله إلى أن يظهر محمد رسول الله ﷺ وهم قد تركوا الجهاد من سبى بابل . أى من قبل هجرته بالف ومائتى عام تقريبا .وكان عليهم فى حال ظهوره أن يؤمنوا به ، وأن يجاهدوا معه . ولما ظهر

لم يؤمنوا به ولم يجاهدوا معه . ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف .وسيقون فى العالم على ما هم عليه الآن إلى أن يروا أهل الإسلام قد ضيقوا عليهم الخناق ، وأخذوا العالم منهم . وأصبحوا على خوف وجوع .ذلك قوله : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ بالدخول فى الإسلام مع الداخلين .

ومن رحمة الله بهم فى هذا الوقت أنه سيفتح عليهم باب التوبة وسيهديهم ﴿ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ﴾ ثم شرع فى توبيخ اليهود والمسيحيين والصابئين على عدم الجهاد مع المسلمين بقوله : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ و﴿المدينة﴾ بالألف واللام . مدينة معروفة للعالم من قبل ظهور المسلمين بزمان طويل . وهى مدينة « أورشليم » التى جعلها داود عليه السلام مقرا لحكم اليهود فيها على العالم بشريعة موسى . وفيها يقول تعالى : ﴿ ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ﴾ إلى حين ظهور محمد ﷺ لأن لإسماعيل بركة . والمراد بقوله ﴿ومن حولهم من الأعراب ﴾ الناس الذين يتكلمون غير العربية وهم الأمم . ومنهم اليهود النصارى الذين يتكلمون السريانية . والصابئون الذين يتكلمون السريانية . ثم أمر الله بقتال اليهود والمسيحيين والصابئين بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وفى الحقيقة أنهم كفار بآيات الله . وذلك لأنهم مأمورون بالجهاد فى سبيل الله . وآباؤهم قد جاهدوا . وسليمان نفسه أغلظ القول لملكة سبأ فقال : ﴿ أن لا تعلوا علىّ ، وأتونى مسلمين ﴾ وهم قعدوا عن الجهاد ، وتركوا الأمم فى طغيانهم يعمهون . ولما جاء من يدعو ويخلّص الأمم من الشيطان، كانوا مع الشيطان عليه . فأى فرق بينهم وبين الكافرين ؟

وفى سورة البقرة يقول عن اليهود : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ وفى هذه السورة يقول : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة . فمنهم من يقول ﴾ للمسلمين على جهة الاستهزاء ﴿ أيكم زادته هذه إيمانا ؟ ﴾ كما حكى عنهم : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا . قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾ فهم مع المسلمين يقولون : آمنا . وهم مع علمائهم يقولون : ﴿ إنا معكم . إنما نحن مستهزءون ﴾ ولماذا لا يُسلمون ؟ ولماذا لا يجاهدون ؟ ﴿ أو لا يرون أنهم يُفتنون فى

كل عام مـرة أو مرتين ثم لا يتـوبون ، ولا هم يذكرون ﴾ ؟ لو كـان هذا الكلام فى منافقى أهل يثرب ما كان يعبر بصيغة الاستمرار فى ﴿ يفتنون ﴾ ويحدد الفتنة على طول الزمان بأنهـا فى كل عام .واليهود فى كل عام تحـدث لهم مصيبـة عامة يموت فيها خلق كـثير ، أو مصيبتين . ومن يمت منهم فى مـصائب الدنيا التى هى الحرق بالنار والغرق فى الماء وما أشبه ذلك فإنه يدخل النار مع الداخلين . ومن يمت منهم فى الجهاد مع الله ، فإنه يدخل الجنة مع الداخلين . وإذا كـان الموت واقعا وحاصلا . فأولى به أن يعقبه مصيرا حسنا .

وإنزال السورة على الحقيقة هو فى إنزالها من السماء على محمد ﷺ وهو يبلغهـا للناس مؤمنهم وكافـرهم . والمؤمن الذى تلقاها من فم النبى ﷺ ويبلغـها إلى اليهود فإنهم حـال سماعها منه تكون الـسورة منزلة عليهم مجـازا ، لا حقيقة . فإذا اسـتصحبنا المجـاز على عصر سيـأتى . وقرأ فيـه قارئ ما تيـسر من القرآن ، وتصادف أن سمع اليهودى ما تيـسر منه ؛ فإن الله يكون منزلا عليهم آية عن طريق هذا القارئ . وعندئذ ينظر بعـضهم إلى بعض كأن كل واحد يقـول فى نفسه :هذا صحـيح. وعندئذ يلزمهم الإيمان وترك الكفر ، ولكـنهم لا يفعلون لأنهم ﴿ قوم لا يفقـهون ﴾ وفى التـوراة عن محـمـد ﷺ : « يقيم لك الـرب إلهك نبيـا . من وسطك. من إخوتك . مثلى . له تسمعون » ـ « أقيم لهم : نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجـعل كلامى فى فمه ، فـيكلمهم بكل ما أوصيـه به » [تثنية ١٨ : ١٥ ـ ٢٢] واليهود والعرب أولاد العم . وجدهم الأول هو إبراهيم عليه الـسلام فهو منهم لأنه من وسط إخـوتهم . ولذلك خـاطب الله اليـهود فى الـقرآن بقـوله : ﴿ لقد جاءكم رسـول من أنفـسكم ﴾ أى منكم . ومن أوصافـه فى التوراة فى الزبور المائة والتاسع عشر أنه يعزّ علـيه عدم إيمانهم ، وأنه حريص على إيمانهم ، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم .

ثم يسلى نبيه على عدم إيمان اليهود به بقوله : ﴿ فإن تولوا ﴾ عن الإيمان بك ﴿ فقل حسبى الله ﴾ سيكفينى الله شركم ﴿ لا إله إلا هو . عليـه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾

وقال المفـسـرون : إن الثلاثة الذين خلفوا هم ثلاثة رجـال : كعب بن مالك الشاعر ، وهلال بن أمية ـ الذى نزلت فيه آية اللعان ـ ومرارة بن الربيع . واختلفوا

فى أنهم هل خلفوا أم ذهبوا خلف رسول الله ولحقوا به ؟ واختلافهم يدل على أنهم ليسوا هم المرادون من الآية . واختلفوا فى ساعة العسرة هل هى غزوة تبوك ؟ أم المراد بساعة العسرة جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول وعلى المؤمنين ، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها ؟ واختلفوا فى المدة هل هى خمسين يوما أو أكثر ؟ وقوله عنهم ﴿ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ يدل على أنه هاجروا فيها ،ولم يجدوا فيها ملجأ . وقول المفسرين : إنه نهى عن مجالستهم . ونهى نساءهم عن مجالستهم . وهذا هو ضيق الأرض عليهم برحبها ؛ هو قول لا تساعد عليه اللغة .

* * *

وليعلم المسلمون جميعا أن فى كتب التفسير إسرائيليات. قد نبه العلماء على كثير منها . وما ذكرته هنا هو تنبيه . وأذكر هذه الأمثلة لئلا يقول قائل :إن كتب التفسير خالية من الإسرائيليات :

فى كتاب المزار للشيخ المفيد محمد بن النعمان رضى الله عنه تحقيق ونشرمدرسة الإمام المهدى عليه السلام :

١ ـ حدثنى أبو القاسم جعفر بن محمد قال حدثنى محمد بن الحسن بن على بن مهزيار عن أبيه عن جده على بن مهزيار، عن الحسن بن سعيد عن على بن الحكم عن عرفة عن ربعى قال : قال أبو عبد الله عليه السلام :« شاطئ الوادى الأيمن الذى ذكره الله تعالى جل جلاله فى كتابه هو الفرات ، والبقعة المباركة هى كربلاء ، والشجرة هى محمد ﷺ »

٢ ـ حدثنى أبو القاسم جعفر بن محمد عن على بن الحسن بن موسى عن على بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن على بن الحكم عن سليمان بن نهيك عن أبى عبد الله عليه السلام فى قوله عز وجل :﴿وآتيناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ قال : الربوة :نجف الكوفة . والمعين : الفرات »

٣ ـ وفى باب النوادر عن عبد الله عليه السلام قال :« ما من نبى ولا وصى نبى ، يبقى فى الأرض بعد موته أكثر من ثلاثة أيام حتى ترفع روحه وعظمه ولحمه إلى السماء .وإنما تؤتى مواضع آثارهم . ويبلغهم السلام من بعيد ، ويسمعونه فى مواضع آثارهم من قريب» وعنه عليه السلام :« لا تمكث جثة نبى ولا وصى نبى فى

الأرض أكثر من أربعين يوماً » وفى هذين الحديثين تعارض بين الثلاثة والأربعين .وأيضا إشكال من جهة منافاتهما لكثير من الأخبار الدالة على بقاء أبدانهم فى الأرض كأخبار نقل عظام يوسف عليه السلام من مصر . ويمكن الجمع ـ كما قال الشيخ المجلسى رحمه الله فى البحار ـ بأن يكون رفع الأكثر هو الثلاثة ، ويمكث بعضهم إلى أربعين ثم يرفع ، أو بأنه يرفع كل منهم بعد الثلاثة ، ثم يرجع إلى قبره بعد الأربعين . . . الخ

وأسباب نزول القرآن فيها القوى وفيها الضعيف . ففى بدء سورة الروم كلمة ﴿بضع سنين﴾ هل البضع من انتصار الروم على فارس إلى انتصار المسلمين على الروم فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أم البضع من انتصار فارس على الروم فى البدء ؟

ففى أسباب النزول أنه من بعد انتصار فارس على الروم . وأن البضع ما بين الثلاث إلى التسع . وفى كتب التواريخ : أنه من انتصار الروم على فارس إلى مدة انتصار المسلمين على الروم مدة ست سنوات وقيل ثمانية . وبيان ذلك :

أ ـ غلبت الفرس الروم فى سنة ٦١٣م ب ـ غلبت الرومُ الفرس فى سنة ٦٣٠م فالبضع ههنا سبع عشرة سنة .

وفى سفر دانيال : أن انتهاء الملك والنبوة فى بنى إسرائيل سيكون بعد سبعين أسبوعا . أى ٤٩٠ سنة . وأن تشتيت اليهود من فلسطين إلى أرض العرب في زمان إدريانوس الرومانى كانت سنة ١٣٢م فلو أنك جمعت ٤٩٠ + ١٣٢ = ٦٢٢ وهجرة النبى محمد ﷺ إلى يثرب كانت فى سنة ٦٢٢م فهل هذا قد حدث مصادفة ؟ لقد تعبنا فى الحساب على جهة التقريب . وفى كل حسبة كان العدد يقرب من ظهور النبى ﷺ ولكنه لم يتم يقينا على الهجرة إلا إذا كان التاريخ من « إدريانوس » .

وفى المسائل الفقهية خلافيات كثيرة

ففى علم المواريث : أن امرأة ماتت عن زوج وأم وأخوين لأمها دون أبيها ، وأخوين آخرين لأمها وأبيها معا . فاختلف فيها حكم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ كما روى الرواة ـ ففى مرة أسقط أخويها الشقيقين وأعطى الزوج النصف

وأعطى الأم السدس وأعطى للأخوين لأم الثلث. وفى مرة أراد أن يحكم بذلك أيضا . فقال له أحد الشقيقين :هب أن أبانا كان حمارا ، فاشركنا فى قرابة أمنا . فاشرك بينهم بتوزيع الثلث على الأخوة الأربعة بالسوية. فقال له رجل: إنك لم تشركهما عام كذا . فقال عمر: تلك على ما قضينا يومئذ، وهذه على ما قضيناه الآن.

أما قضاء الشيعة الإمامية فإنهم أعطوا الزوج النصف ، وأعطوا الأم السدس فرضا وأعطوها الباقى ردا . ولم يورثوا واحدا من الإخوة فى وجود الأم[1] .

ومما يجب تعليمه للناس فى إصلاح الشريعة . عقيدتهم فى « المُهدى المنتظر » وهو أن الأميين يعتقدون أن « المُهدى » وينطقونه خطأ بفتح الميم سيظهر فى آخر الزمان ، وسيكون ظهوره من علامات يوم القيامة . والراسخون فى العلم من المسلمين يعرفون أن « المُهدى المنتظر » هو محمد رسول الله ﷺ بحسب لسان أهل الكتاب . ذلك لأن موسى عليه السلام نبّه على نبى سيأتى على مثاله فى قوله : « يُقيم لك الرب إلهك : نبيا من وسطك من إخوتك مثلى . له تسمعون » [تث ١٨ : ١٥ ـ ٢٢] وهو محمد ﷺ وقد لقّبه أهل الكتاب بألقاب كثيرة منها : النبى ـ المسيح ـ المَسِيّا ـ المُهدى ـ ابن الله ـ ابن الإنسان ـ عبد الرب المسالم ـ عبد الرب المتألم ـ ابن داود ـ رئيس الحياة ـ . . الخ وكان علماء النصارى من قَبل التحريف يقولون : إن « المُهدى المنتظر » سيظهر من قبل « الساعة » التى سيهلك فيها اليهود فى فلسطين على يد محمد رسول الله ، بعد العلامات التى ذكرها المسيح عيسى عليه السلام من قبل مجئ « المهدى » الذى هو محمد رسول الله ، ومنها : قيام أمّة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وحدوث زلازل ومجاعات وأوبئة . . الخ

وانتشرت هذه الفكرة فى العالم بهذا المعنى . فلما ظهر محمد رسول الله ﷺ قال المحرفون من اليهود والمسيحيين : إن المراد بالساعة : يوم القيامة، والمهدى سيظهر قبل « الساعة » التى هى يوم القيامة . وغرضهم من قولهم هذا :هو إنكار

---

(١) أخرجه البيهقى وابن أبى شيبة فى سننهما ، وعبد الرزاق فى جامعه . راجع أيضا : حاشية الشيخ الشرقاوى على التحرير للشيخ زكريا الأنصارى . وكتاب الاجتهاد فى مقابل النص للشيخ الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوى ـ رضى الله عنه ـ

نبوة محمد ﷺ وقووا هذا المعنى عن طريق أهل الحديث: ومن هذه الأحاديث : «لو لم يبق من الدنيا إلا ليلة ؛ لتملك فيها رجل من أهل بيتى » ـ «كيف تهلك أمة أنا أولها ، والمهدى فى وسطها ، وعيسى فى آخرها » ؟ . . . الخ

والآن اذكر كلام أهل الأديان :

فى كتاب « موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية » للدكتور عبد المنعم الحفنى ما نصه :

المُهدى المنتظر Messiah :

اسمه عندهم وفى الآرامية « المشيح » وفى اللاتينية والعربية هو « المسيح » ومعناه :

الممسوح بالزيت على عادة شعوب الشرق الأوسط القديمة فى تعميد ملوكهم، وتطور المعنى بعد السبى ليعنى المُهدى (بضم الميم) المُنتظر ، والمهدية أو المسيحانية هى فلسفته أو حركته ، ومعنى المهدى أنه المُخلص messianism الذى يحرر اليهود من العبودية لمضطهديهم ، ويعيدهم من المنفى ، ويحكمهم بالشريعة ؛ فيعم العدل ، ويسود السلم ، وتخصُب الأرض .

ومن الطبيعى أن يكون الشتات هو وحده البيئة الملائمة التى ينبغى أن تنمو بها بذرة الأمانى المهدية ، فإن النظرية منذ بدايتها احتجاج على النفى ، واستنكار لمناهضة الأمم لحق اليهود الإلهى فى العودة إلى أرضهم ، ولإبطالهم لهذا الحق بالقهر والاغتصاب اللذين أصبح اليهود من وجهة نظرهم ضحية لهما .

وكان ظهور هذه العقيدة بما تنطوى عليه من آمال وأمان كزفرة يصعدونها فى غمرات الحالات السياسية والاجتماعية التى لم تنقطع ثورتهم عليها ، واعتمادهم فيها على أحاديث تسمى كما عند المسلمين أحاديث آخر الزمان ، وتنتشر فى كتب الرؤى وخاصة فى سفر دنيال .

والمُهدى المنتظر عندهم من نسل داود النبى ـ فى رأى ـ وقيل : بل هو داود نفسه يبعثه الله ليعمل سيفه البتّار فى أعداء الشعب المختار ، وليقيم دولتهم ، وأنه سيقدُم راكباً السحاب، أو ممتطيا حمارا كدأب الأنبياء فى تواضعهم ، وهو قول يذكرنا بوصف عبد الله بن سبأ اليهودى مؤسس التشيّع عن علىّ بن أبى طالب .

وقيل: إن المهدى هو سليمان الذى سيُبعث. وقيل: بل اسمه داود من غير أن يكون نفسه النبى داود . وقيل: سيكون فى بيت لحم ، وقيل: إنه وُلد فى أورشليم يوم خراب المعبد ، ولا يزال على قيد الحياة منذ ذلك الحين فى مكان خفى ، حياً لا يراه الناس ، وسيظهر فى آخر الزمان ، ونظريتهم هذه كنظرية الإمام الخفّى عند الشيعة ، والرجعة عند هؤلاء وأولئك إحدى عناصرها ، وفكرتها عند الشيعة من الإسرائيليات وبتأثير قول اليهود برجعة إلياس النبى الذى رُفع إلى السماء ، وهم يؤمنون بأنه لابد راجع إلى الأرض فى آخر الزمان ليقيم الحق والعدل ، وكان إلياس (إيليا) نموذج أئمة الشيعة المختفين الغائبين بحيون فلا يراهم أحد ، وسيعودون يوما كمهديين منقذين للعالم ، وإن كان أهل السنة كذلك يعتقدون بمجئ مُصلح إلى العالم فى آخر الزمان يبعثه الله، ويسمونه أيضا بالإمام المهدى ، ويعتمدون فى اعتقادهم على عدد من الأحاديث . أوردها أبو داود فى سُنَنه ، ولكن نظريته عندهم لم تصل إلى مرتبة العقيدة الدينية ، ويرفضون العقيدة المهدية على صورتها الشيعية أو اليهودية .

ويرى جولدتسهير فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الإسلام » أن نظرية المهدى المنتظر أكمل عند الشيعة منها عند اليهود ، وظهورها عند الشيعة فى بيئات التُقى والورع بعكس ظهورها عند اليهود فى بيئات الاضطرابات السياسية .

ويهزأ أهل السُّنّة بفكرة الإمام المختفى وحياته الطويلة . والأحاديث التى يعتمد عليها اليهود كانت دائما مثار بحث من قِبَل فقهائهم ومتصوفيهم ، ودبّروا لها الحسابات التأويلية لتحديد وقت ظهور المهدى المنتظر ، وقد سار متصوفة المسلمين والشيعة على منوال اليهود ، وانتهجوا مثلهم تأويلات قبالية لآيات القرآن وسورة ، وتجميعات للحروف والأعداد توصلوا بها لتحديد اللحظة التى سيظهر فيها .

وقد ندّد المعتدلون من هنا وهناك بمن سمّوهم بالوقّاتين ، ووصموهم بالخداع والتدجيل ، وحظروا الاشتغال بهذه المسائل الدقيقة استنادا على أقوال وروايات إسنادها ضعيف ، ويورد مسلم والبخارى أحاديث كثيرة عن الدجّال فى باب الفتن. وقد ظهر دجّالون كثيرون عبر التاريخ اليهودى ، نذكر منهم فى البلاد الإسلامية أبا عيسى الأصفهانى الذى ظهر فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وداود الرائى الذى ظهر فى كردستان (١١٣٥) ومنهم ـ من وجهة نظر اليهود ـ المسيح

عيسى بن مريم ، وقد صلبوه كزعمهم عقاباً له .

ويعدّ كتاب «زربابل» من أفضل المؤلفات اليهودية فى هذا الباب ، وهو من مصنفات كاتب مجهول فى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع الميلادى . وزَرُبابل هذا الذى سُمّى الكتاب باسمه كان النبى حَجّى قد ظنه المهدى المنتظر ؛ لأنه عاد باليهود من بابل وبنى المذبح ووضع أساس الهيكل وَوَلِى أمر أورشليم .

وقيل: إن دولة المهدى أو فردوسه الأرضى ستعمر ألف سنة. ومن هؤلاء الألفيين من يرى أن مجئ المهدى يكون متمماً للألفية وفى ختامها. وأما افتتاح الألفية فيكون على يد سابق للمهدى من بيت النبى يوسف يقدّم له ويموت دفاعاً عن الملّة .

وتعتقد طائفة من المسيحيين فى الألفية . ويقولون إن رجوع اليهود إلى فلسطين ؛ يعنى رجوعهم إلى الله ، ومن ثم إمكان هدايتهم إلى المسيحية .

ويقوم إيمان اليهود بدولة آخرِ الزمان على دعوى أن نهاية التاريخ لن تتصلح إلا بما اتصلحت به بدايته ، وأن بداية التاريخ كانت الخروج من أرض العبودية فى مصر ، والدخول فى أرض الميعاد ، ولذا ستكون نهاية التاريخ هى الخروج من أرض العبودية فى كل مصر ، والدخول أيضا فى أرض الميعاد ، أى أن النهاية لابد أن تتسق مع البداية .

وفلاسفة اليهود متفقون على القول إمّا بالعودة الشخصية للمُهدى ، وإمّا بقيام دولته أو فردوسه . دون المهدى نفسه ، ويسمى «موسس هيس» هذا العصر الذهبى سَبْت التاريخ .

ومهدى الفلاسفة عند «برجسون» هو الوثبة الحيوية،وعند «برنشفيك» هو الوعى المطلق،وليست الماركسية إلاّ طوبيا مهدية لا تختلف فى مضمونها عن التصورات الدينية التقليدية إلا من استبعاد شخصية المهدى نفسه . والصهيونية كذلك أيديولوجية مهدية دون المهدى ، فأصبح من الممكن أن تؤلف بين المؤمنين والملحدين، وأن تكون الصهيونية هى النسخة اللاّدينية من المهدية ، وهى محاولة لاسترجاع العصر الذهبى عن طريق العنف السياسى دون انتظار لمبعوث إلهى ، ومن

ثم تعمل باستمرار على إذكاء لمشاعر والتوقعات المهدية لدى اليهود فى كل بلاد العالم ، بتصعيد إحساسهم بالاضطهاد ، وعدم الانتماء لبلادهم ، حتى يفقدوا صلتهم بالزمان والمكان ، فيسهل إدخالهم فى ماضى التاريخ ، وتهجيرهم إلى فلسطين » أ . هـ

الفصل السابع
فى
كلام اليهود فى عبّاد الأوثان

الذين عبدوا الأصنام فى زمن إبراهيم عليه السلام لم يكونوا يُعرفون بالصابئة. ولا الذين خرجوا عليهم وعبدوا الله تعالى يعرفون بالصابئة . ومنشأ «الصابئة» من الصبغ فى الماء ، من يحيى عليه السلام كعلامة تمييز لليهودى الذى سيقبل محمدا رسول الله عن اليهودى الذى لن يقبله . وإذا ترك اليهود هذا اللقب على أتباع يحيى ، فإن العالم سيعرف منه أن محمدا هو النبى الآتى على مثال موسى [تث ١٨ : ١٥ ـ ٢٢] فلذلك أطلقوه على عباد الأصنام المعاصرين لإبراهيم عليه السلام للإيهام والخداع .وزعموا : أنهم هم الصابئة . ليخفوا عن الناس حقيقة دعوة أتباع يحيى عليه السلام وهى التبشير بمحمد ﷺ ظانين أنهم إن أخفوها لا يسرع الناس إلى الدخول فى دينه . ولأن أتباع يحيى هاجروا من بعده إلى أرض آباء إبراهيم وسكنوا فيها وكان فيهم يهود من قبلهم يعبدون الأصنام ، ألصق اليهود ما فيهم على أتباع يحيى . وقالوا : إنهم هم بقايا عباد الأصنام القدماء ، وكانوا يسمون بالصابئة ، وهؤلاء مثلهم صابئة . لا بمعنى الصبغ فى الماء ، بل لأنهم عباد أصنام . ذلك هو قول اليهود فيهم .

يقول الحَبر موسى بن ميمون ، عن الوثنيين عبّاد الأصنام القدماء. فى دلالة الحائرين :

« معلوم أن أبانا إبراهيم عليه السلام نشأ فى ملة الصابئة .ومذهبهم : أن ليس ثم إله إلا الكواكب . وإذا أعلمتك فى هذا الفصل بكتبهم الموجودة الآن بأيدينا التى أخرجت للسان العربى وبتواريخهم القديمة ، وكشفت لك مذهبهم منها وأخبارهم ، يتبين لك منها تصريحهم . وكذلك أيضا قالوا : سائر السبعة كواكب آلهة لكن النيرين أعظم ، وتجدهم يقولون بتصريح : إن الشمس هى التى تدبر العالم العلوى والسفلى . بهذا النص . قالوا : وتجدهم قد ذكروا فى كتبهم تلك وتواريخهم حديث أبينا إبراهيم وقالوا بهذا النص :

وأما إبراهيم الذى تربى فى « كوثا » فإنه لما خالف الجماعة ، وادعى أن ثَم

فاعلا غير الشمس ، احتج عليه بالكذا والكذا . وذكروا فى حججهم : ما هو ظاهر بيّن من أفعال الشمس فى الوجود ، فقال لهم - يعنون إبراهيم - : صدقتم هى كالفأس فى يد النجار . ثم ذكروا طائفة من احتجاجه عليه السلام عليهم . وآخر تلك القصة ذكروا: أن الملك سجن أبانا إبراهيم عليه السلام ، وأنه دام فى محاججتهم أياما ، وهو فى السجن ، ثم خاف الملك أن يفسد عليه سياسته ، ويرد الناس عن أدياتهم ، فنفاه لطرف الشام بعد استصال كل ما له . هكذا حكوا .

وتجد هذه القصة مشروحة هكذا فى الفلاحة النبطية ، ولم يذكروا ما جاءت به آثارنا الصادقة ، ولا ما آتاه من الوحى ، لأنهم مكذبون له لمخالفته لرأيهم الفاسد . ولا شك عندى : أنه عليه السلام لما خالف مذهب الناس كلهم ، كان يشتمه ويذمه ويستنقصه أولئك الضالون . فلما احتمل ذلك فى حق الله تعالى وآثر الحق على كرامته قال له: « وأبارك مباركيك وشاتمك ألعنه ، ويتبارك بك جميع عشائر الأرض » [تك ١٢: ٣]

وكان مآل أمره ما نراه اليوم من إجماع معظم أهل الأرض على تعظيمه والتبرك بذكره حتى أنه ينتسب إليه من ليس من نسله ، ولا مخالف عليه ، ولا جاهل بعظمته إلا بقايا تلك الملة المتدمرة الذين بقوا فى أقاصى الأرض ، مثل كافر «ترك» فى أقصى الشمال ، و « الهنود » فى أقصى الجنوب . فإن هؤلاء هم بقايا ملة الصابئة لأنها كانت ملة عمت الأرض . والحيا ما انتهى إليه نظر من تفلسف فى تلك الأزمنة : أن تخيل أن الله روح الفلك ، وأن الفلك ، والكواكب هى الجسد، والإله تعالى روحه .

قد ذكر هذا أبو بكر بن الصائغ فى شرح « السماع » ولهذا اعتقدت الصابئة كلهم قدم العالم ، إذ السماء عندهم هى الإله ، ويزعمون أن آدم شخص مولود من ذكر وأنثى كسائر أشخاص الناس ، ولكنهم يعظمونه ويقولون : إنه كان نبيا ، رسول القمر ، وأنه دعا لعبادة القمر وأن له تآليف فى فلاحة الأرض . وكذلك قالوا الصابئة : إن نوحا فلاح وأنه ليس كان يرى بعبادة الأصنام . ولذلك تجد الصابئة كلهم يذمون نوحا ، ويقولون : إنه ما عبد صنما قط . وكذلك ذكروا فى كتبهم : أنه ضرب وسجن من أجل عبادته لله ، وحكوا من حديثه ما حكوا ،

وزعموا : أن شيث خالف رأى أبيه . عقل عظيم ، وعلى كونهم كانوا أبعد الناس من الفلسفة .

ولأنهم كانوا فى غاية الجهالة قالوا عن آدم : إنه لما خرج من إقليم الشمس المجاور للهند ، وتوغل فى إقليم بابل ؛ جاب معه عجائب منها . شجرة ذهب نابتة ذات أوراق ، وأغصان، وشجرة حجر كذلك. وجاب ورق شجرة خضراء، لا تحرق النار، وأخبر عن شجرة تظل على عشرة آلاف رجل طولها قامة. وجاب معه ورقتين، كل ورقة يلتحف بها شخصان. ويخبرون من هذه الخرافات بعجايب ، فاعجب من قوم يرون أن العالم قديم ، ويعتقدون مع ذلك وجود هذه الممتنعات بالطبع لمن يعلم النظر الطبيعى. وغرضهم في ذكر آدم ، وكل ما ينسبون إليه: تقوية مذهبهم فى قدم العلم حتى يتبع ذلك بأن الكواكب ، والفلك هو الإله. فلما نشأ عمود الدين(١) ،وتبين له : أن لها مفارقا لا جسم ولا قوة فى جسم ، وأن كل هذه الكواكب والأفلاك مصنوعاته ، وفهم محال تلك الخرافات التى ربى عليها، أخذ فى نقض مذهبهم، وتزييف آرائهم وأشهر خلافهم ونادى: «باسم الرب الإله السرمدى» [تك ٢١ : ٣٢] دعوة تجمع وجود الإله وحدث العالم من قبل ذلك الإله .

وبحسب تلك الآراء . الصابئة أقاموا الأصنام للكواكب . أصنام الذهب للشمس ، وأصنام الفضة للقمر ، وقسموا المعادن ، والأقاليم للكواكب ، وقالوا: الإقليم الفلانى آلهة الكوكب الفلانى ، وبنوا الهيا كل واتخذوا فيها الأصنام ، وزعموا : أن قوى الكواكب تفيض على تلك الأصنام فتتكلم تلك الأصنام وتفهم، وتعقل وتوحى للناس - أعنى الأصنام - وتعلم الناس منافعهم .

وكذلك قالوا فى الأشجار التى هى من قسمة تلك الكواكب : إنا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب ، وغرست له ، وفعل لها ، وفعل بها كذا ؛ فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة ، وتوحى للناس ، وتكلمهم فى النوم . تجد هذا كله منصوصا فى كتبهم التى أنبهك عليها . وهؤلاء كانوا أنبياء العشتروت. المذكورين عندنا(٢). الذين تمكنت عندهم هذه الآراء حتى « تركوا الرب »

---

(١) يعنى إبراهيم عليه السلام .

(٢) يعنى المؤلف بقوله عندنا . أى عند اليهود . المؤلف يهودى .

[إش ١٠ : ٤] ونادوا: « أيها البعل أجبنا » [الملوك الأول ١٨ ـ ٢٦]

كل هذه لشهرة تلك الآراء وفشاء الجهل . وكثر هذيان العالم حينئذ فى هذا النوع من الخيالات ، فنشأت فيها آراء وصار منهم «مشعبذ ومتفائل وساحر ومن يرقى رقية ومن يسأل جانا أو تابعة ومن يستشير الموتى» [تث ١٨ : ١٠]

وقد بينا فى تأليفنا الكبير « مشنة التوراة » أن أبانا إبراهيم بدأ بنقض هذه الآراء بحجج ، ودعوة ضعيفة باستعطاف الناس ، وجذبهم للطاعة بالإنعام لهم . حتى نبئ سيد النبيين(١) فكمل الغرض ، وأمر بقتل أولئك ومحو آثارهم ، واستئصال شأفتهم : « واهدموا مذابحهم » [قض ٢ : ٢] الخ .

ومنع من تتبع شيئ من سيرهم تلك ، وقال: « ولا تجروا على رسوم الأمم » الخ [لا ٢٠ : ٢٣]

وقد علمت من نصوص التوراة فى عدة مواضع أن القصد الأول من الشريعة كلها : إزالة عبادة الصنم ومحو أثرها ، وكل ما يتعلق بها حتى ذكرها ، وكل ما يؤدى إلى شيئ من أعمالها مثل : « الجان والتابعة والإمرار من النار والعراف والمشعبذ ، والمتفائل والساحر ومن يرقى رقية ويستشير الموتى » [تث ١٨ : ١٠ - ١٤ لا ٢٠ : ٢٧] والتحذير من التشبه بشيئ من أعمالهم هذه . فكيف بتبعهم؟ وصرح فى نص التوراة بأن جميع ما ظنوا عبادة لآلهتهم وتقربا لها هو الشيئ المبغوض الممقوت عند الله وهو قوله : « فإنهم قد صنعوا لآلهتهم كل النجاسات التى يكرهها الرب » [تث ١٢ : ٣١] . وأنت تجدهم يذكرون فى كتبهم التى سأخبرك بها أنهم يقربون للشمس إلههم الأكبر سبعة خنافس ، وسبعة فيران ، وسبعة وطاوط فى بعض الأمور .

وكفى بهذه نجاسة عند الطبع الإنسانى . فجميع الفرائض التى جاءت فى النهى عن عبادة الصنم. وكل ما يتعلق بها ،أو يؤدى إليها ،أو ينسب لها ،بينة الفائدة ،لأنها كلها للخلاص من تلك الآراء السقيمة الشاغلة عن كل ما ينفع فى الكمالين بأمور هذيانية .هى التى كان ربئ عليها آباؤنا وأجدادنا « فى عبر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة اخرى » [يش ٢٤ : ٢] وهى

(١) يقصد موسى عليه السلام

التى قـال الأنبـياء الصـادقـون فـيهـا : «إلى الأباطيل الـتـى لا تنفع ولا تخلص» [١م ١٢ : ٢١]

فـما أعظم فـائدة كل فـريضـة تخلصنا من هذه الغلطة العظيـمـة وتردنا إلى الاعتـقاد الصحيح ، وهو أن ثَمّ إلهـا خالق كل هذه ، وهو الذى ينبغى أن يعـبد ، ويحب ، ويخـاف منه. لا تلك المظنون بهـا ، أنهـا آلهـة . وأن هذا الإله الحق لا يحتاج فى القرب منه وحصول رضاه ، الأمور التى فيـها مشقة بوجه ، بل « محبته وخوفه » لا غـير وهما الغاية فى العـبادة . كما تبين : « والآن يا إسـرائيل ما الذى يطلبه منك الرب ؟ » [تث ١٠ : ١٢]

وسنستوفى هذا المعنى فى ما بعد . وأرجع الى غرضى الآن .

فأقول : إن كثيرا من الشرائع إنما بين لى معناها وعرفنى عللها ، وقوفى على مذاهب الصابئة وآرائهم ، وأعمالهم ، وعبادتهم كـما ستسمع عند تبيينى تعليل تلك الفرائض التى يظن بها أن لا علة لها . وأنا أذكـر لك الكتب التى يتبين لك منها كل ما علمتـه أنا من مذاهب الصابئة وآرائهم حـتى تعلم يقينا صحة مـا أقوله فى تعليل هذه الشرائع .

أكبر كتاب فى ذلك « الفلاحة النبطية » إخراج ابن وحشية .

وسأخبرك فى فصل يأتى لأى شيئ جعلت الصابئة مذاهبهم مدونة مع فلاحة الأرض ؟

وهذا الكتاب مملوء من هذيـانات عابدى الصنم ، ومما أنفس العوام مـائلة إليه ومرتبطة به . أعنى أعمال الطلسمات ، واستنزال الروحانيات ، والسحر ، والجن ، والغيلان التى تأوى البرارى . ودرج أيضا فى ذلك الـكتاب هذيانات عظيمة يضحك منها ذوو العقول ، يزعم بها القـدح فى المعجزات البينة التى علم بها أهل الأرض : أن ثمَ إلها حاكما على أهل الأرض كـما قال : « لكى تعلم أن للرب الأرض » [خر ٩ : ٢٩] وقال : « إنى أنا الرب فى الأرض » [خر ٨ : ٢٢]

فحكى عن آدم الأول أنه ذكر فى كتابه أن فـى الهند شجرة ، إذا اتخذت منها أغصان ، فـإن الغصن منها إذا رمى فى الأرض يسعى متحركا كمـا تسعى الحيّات ، وأن ثم شـجرة أصـلها صـورة إنسـان تُسمع لـه همهـمـة ، وتنفلت منه الكلمـة ،

والكلمة، وإن حشيشة صفتها كذا وكذا إذا أخذ الإنسان من ورقها ، وجعلها فى جيبه ، خفى عن الناس ولا يرى حيث يدخل ويخرج ، وإن بُخر منها تحت السماء سمع الناس فى الجو دويا وأصواتا هائلة طالما ذاك الدخان يصعد .

ومثل هذه الخرافات كثير يجئ بها فى معرض الإخبار بعجائب النبات ، وخواص الفلاحة حتى يطعن فى المعجزات ، ويوهم أنها تتم بحيلة .

ومن خرافات ذلك الكتاب : أن شجرة خطمى من تلك العشتروت التى كانوا يعلمونها كما أعلمتك، ذكر أن إقامة تلك الشجرة فى «نينوه» اثنى عشر ألف سنة ، وإنها تخاصمت مع «اليبروج» لأنه أراد أن يأخذ مكانها ، وأن الشخص الذى كانت توحى إليه هذه الشجرة انقطع عنه وحيها مدة فلما أوحت إليه بعد تلك المدة أخبرته أنها كانت مشغولة بالخصام مع اليبروج ، وأمرته أن يكتب للكلدانيين ، أن يحكموا بينهما ويقولوا أيهما أفضل فى سحرهم وأكثر عملا ؟ هل الخطمى أو اليبروج ؟ وتلك الخرافة الطويلة التى نستدل منها ، إذا وقفت عليها علمت عقول أهل تلك الأزمنة ، وعلومهم كيف كانت ، وهؤلاء كانوا حكماء بابل المشار إليهم فى تلك الأيام المظلمة، لأن هذه كانت أديانهم التي ربوا عليها . ولولا هذا القدر مما شُهر الأن فى الملل من اعتقاد وجود الإله ؛لكانت أيامنا فى هذه الأزمنة أشد ظلاما من تلك . لكنها فى أنواع أخرى . وأرجع إلى غرضنا :

وفى ذلك الكتاب :حكى عن شخص من أنبياء عبادة الصنم كان اسمه تموز.دعا ملكا ليعبد السبعة كواكب والاثنى عشر برجا . فقتله ذلك الملك قتلا شنيعا. فذكر أن ليلة موته اجتمعت الأصنام كلها من أقطار الأرض إلى الهيكل فى بابل إلى صنم الذهب الكبير الذى هو صنم الشمس، وكان ذلك الصنم معلقا بين السماء والأرض. فوقف فى وسط الهيكل ، والأصنام كلها حوله. واخذ يعدّد على تموز. ويصف الأصنام،وأنها رجعت لهيا كلها فى أقطار الأرض ، وصارت هذه سنة دائمة فى أول يوم من شهر تموز ، يناح ويبكى على تموز،وتندبه النساء ويعددن عليه . فاعتبر، وافهم ، وارأ كيف كانت آراء الناس فى تلك الأزمان . وهذا حديث تموز قديم جدا فى الصابئة . ومن هذا الكتاب تقف على أكثر هذيان الصابئة ، وأعيادهم.

وأما تلك القصة التى حكوها عن قصة آدم والحية وشجرة العلم الطيبة والخبيثة والإشارة إلى لباس ما لم تجر العادة بلباسه ، فاحذر ، ثم احذر أن يتشوش عقلك ، ويخطر ببالك أن ذلك الذى قالوه هو قط أمر جرى . لا . لآدم ، ولا لغيره، ولا هى قصة وجودية بوجه ، وبأيسر تأمل ، يبين لك محالهم فى كل ما ذكروه فى تلك الخرافة ، ويتبين لك أنها قصة فرضوها من بعد التوراة ، لما شهرت التوراة فى الملل ، وسمعوا ظاهر قصة الخلق ؛أخذوه كله على ظاهره وعملوا تلك القصة حتى يسمعها الغِرّ ، فيغتر ، ويظن أن العالم قديم ، وأن تلك القصة الموصوفة فى التوراة هكذا جرت كما حكوا ، وإن مثلك لا يحتاج تنبيها على هذا؛ لأنه قد حصل عندك من العلوم ما يمنع ذهنك من أن تتعلق به خرافات الصابئة وهذيان الكسدانيين والكلدانيين العريين عن كل علم . هو علم بالحقيقة .لكنى حذرت من ذلك احتياطا لغيرك لأن كثيرا ما يميل الجمهور لتصديق الخرافات .

ومن تلك الكتب : كتاب « الأسطماخس » المنسوب لأرسطو ، وحاشاه ثم حاشاه . وكذلك كتب الطلسمات التي منها كتاب « طمطم» وكتاب « السرب » وكتاب « درج الفلك » والصور الطالعة فى درجة درجة منه . وكتاب منسوب أيضا لأرسطو فى طلسمات ، الصابئة ، وكتابه الكبير فى نواميس الصابئة ، وجزئيات دينهم ، وأعيادهم وقرابينهم . وغير ذلك من أمور دينهم .

فهذه كلها التى ذكرت لك هى أسفار عبادة الصنم التى أخرجت للسان العربى ولا ريب أنها جزء يسير جدا مما لم يخرج ، ولم يوجد أيضا ، بل تلف وباد على مرور السنين . وهذه التى هى موجودة لدينا إلى اليوم مشتملة على أكثر آراء الصابئة، وأعمالهم . المشهور بعضها اليوم فى العالم ، أعنى بنيان الهياكل ، واتخاذ الصور من المسبوكات والحجارة فيها ، وبنيان المذابح ـ والتقريب عليها . إما ذبائح ، أو أنواع الطعام ، ورسم أعياد ، واجتماع للصوت ، ولأنواع عبادات فى تلك الهياكل . ويجعلون فيها مواضع معظمة جدا يسمونها هيكل الصور العقلية واتخاذ الصور : «على الجبال الشامخة» [تث ١٢ : ٢] الخ .

وتعظيم تلك العشتروت وإقامة الأعمدة وغير ذلك مما ستطلع عليه من هذه الكتب التى نبهتك عليها .

ومعرفة تلك الآراء ، وتلك الأعمال هو باب كبير جدا فى تعليل الفرائض. لأن شريعتنا كلها . أصلها ، وقطبها الذى عليه تدور ، هو محو تلك الآراء من الأذهان ،وتلك الآثار من الوجود لمحوها من الأذهان .

قال : « أن تغوى قلوبكم » { تث ١١ : ١٦ } الخ . «الذى قلبه مائل اليوم» { تث ٢٩ : ١٩ }

ولمحوها من الوجود قال: «تنقضون مذابحهم وتكسرون أنصابهم» { تث ٧:٥}.

« وتمحون أسماءهم من ذلك الموضع » { تث ١٢ : ٣ } هذان الغرضان فى عدة مواضع . وهو كان القصد الأول الجامع لجملة الشريعة .

كما أعلمونا - عليهم السلام - فى تفسيرهم المروى لقوله تعالى : «جميع ما أمركم به الرب على لسان موسى» { عدد ١٥ : ٢٣ } قالوا : من هنا تعلم أن كل من يعترف بعبادة الصنم ؛ يكفر بالتوراة كلها ، وكل من يكفر بعبادة الصنم ، يعترف بالتوراة كلها . فاعرف هذا .

* * *

إذا تأملت تلك الآراء القديمة السقيمة يبين لك أن الأمر المشهور كان عند الناس كلهم : هو أن بعبادة الكواكب تعمر الأرض وتخصب البلاد ، وكانوا علماؤهم ونسّاكهم وأهل التقوى منهم يعظون الناس ، ويعلمونهم بأن الفلاحة التى بها قوام وجود الإنسان إنما تتم ، وتجيئ على اختيار بأن تعبدوا الشمس والكواكب ، وإن أسخطتموها بعصيانكم ، تفرت البلاد وخربت ، قالوا فى كتبهم تلك : إن المشترى سخط على البرارى والصحارى . فلذلك صارت عادمة الماء ، عادمة الأشجار ، تأويها الغيلان ، وكانوا يعظمون الفلاحين والأكارين جدا ، لاشتغالهم بعمارة الأرض التى هى من إرادة الكواكب وهو رضاها ، وعلة تعظيم عابدى الصنم للبقر : إنما هو من أجل نفعها فى الفلاحة حتى أنهم قالوا : إنه لا يجوز ذبحها ، لأنها جمعت القوة وحسن التأنّى للإنسان فى فلاحة الأرض ، وإنما فعلت هذا ، وأذعنت للإنسان مع قوتها ، لرضا الآلهة بعبادتها فى فلاحة الأرض .

فلما كانت هذه الآراء مشهورة جدا ،قيدوا عبادة الصنم بالفلاحة لكون الفلاحة أمرا ضروريا فى قوام الإنسان وأكثر الحيوان ، وكانوا أولئك كهان الشرك

يخاطبون الناس عند اجتماعهم فى الهياكل ويقررون فى أذهانهم أن بهذه العبادات تنزل الأمطار وتثمر الأشجار وتخصب البلاد وتعمر . وتأمل ما ذكروه فى الفلاحة النبطية فى الكلام على الكرم ، تجد هذا النص من كلام الصابئة : قالوا : « الحكماء القدماء كلهم ، بين أيدى الأصنام قالوا وهم الصادقون : إن الآلهة يعجبها ذلك . وإنها تكافئ فاعليه أحسن مكافأة » وأكثروا فى هذا الفعل من الوعد. ومن الوعد على ذلك؛ تطويل الأعمار ودفع الآفات وصرف العاهات ، وخصب المزارع وزكاة الثمار »

إلى هنا نص كلام الصابئة .

فلما شهرت هذه الأمور حتى ظنت يقينا ، وأراد الله تعالى رحمة لنا محو هذا الغلط من أذهاننا ورفع التعب من أجسامنا بتعطيل تلك الأعمال الشاقة الغير مفيدة ؛ شرّع لنا على يدى سيدنا موسى ، فأخبرنا عنه تعالى أنه إن عبدت هذه الكواكب والأصنام ، فإن عبادتها سبب فى أن ينقطع المطر وتخرب الأرض ولا تنبت شيئا وتسقط ثمر الأشجار وتأتى الآفات للأموال ، والعاهات للأجسام ، وتقصر الأعمار. وهذه هى أغراض : « كلام العهد الذى أمر الرب » [تث ٢٩ : ١] الخ. وأنت تجد هذا الغرض متكررا فى جميع التوراة أعنى : أن يلزم عن عبادة الكواكب ، ارتفاع المطر ، وخراب الأرض وفساد الأحوال ، وأمراض الجسم ، وقصر الأعمار. ويلزم عن ترك عبادتها ، والإقبال على عبادة الله ؛ نزول المطر ، وخصب الأرض ، وصلاح الأحوال ، وصحة الجسم ، وطول الأعمار . ضد ما كانوا يخاطبون به المشركون للناس حتى يعبدوها ، لأن أصل الشريعة إزالة ذلك الرأى ، ومحو أثره . كما بينا » إ هـ .

* * *

هذا هو قول الحَبر ابن ميمون فى عبّاد الأصنام القدماء ، وظن كثيرون أن القدماء هم أتباع يوحنا المعمدان . أو تشبه بهم فى الوثنية أتباعه . والحق : أن القدماء شئ ،والصابئة أتباع يحيى شئ آخر .

وابن ميمون يستدل على أن الصابئة عبدوا الأصنام. بقوله: إن الأمم من قبل موسى كانت تعبد الأصنام والصابئة من الأمم . فما هو دليله على أن الصابئة كانوا موجودين من قبل موسى ؟ وفى التوراة «فأولئك الأمم الذين تمتلكون أرضهم ؛ يسمعون للمشعوذين والعرافين »[تث ١٨ : ٩و١٤] ولم يقل: إن الصابئة من أولئك الأمم . فالقول بأنهم من الأمم يلزمه دليل . وليس من دليل . على أن قوله

«أولئك الأمم» يدل على أن العالم كله عباد أصنام ويسمون للمشعوذين والعرافين. فهل يسمون جميعا صابئة ؟ وقد نقل هو من التوراة فى كلامه هذا : أن اليهود تركوا الرب ، وعبدوا صنم البعل . فهؤلاء العابدون والتاركون ؛ يُعتبرون صابئين عن شريعة التوراة وخارجين عليها . إذا كان معنى الصابئ هو الخارج عن دين. وكل ما قاله المؤلف عن السحر مذكور فى كتاب التلمود .وعلماء بنى إسرائيل هم الذين ألفوه ، وهم الذين استخدموا نصوص الكتب المقدسة عندهم فى عمل السحر . وهم أسبق فى الزمان من نبى الله يحيى عليه السلام .

والرد على الحبر ابن ميمون يكون من جهتين :

الجهة الأولى : إثبات الكذب على الرواة من اليهود والمؤرخين .

والجهة الأخرى : بيان عقيدة الصابئين فى الخالق - جل جلاله - أما عن الجهة الأولى : فإن أنبياء بنى إسرائيل وبولس قد وصفوا اليهود بالكذب . والكاذب يُردّ قوله . ففى المزمور الثامن والسبعين . يقول داود عليه السلام عن اليهود :«وذكروا أن الله صخرتهم ، والله العلى وليّهم . فخادعوه بأفواههم ،وكذبوا عليه بألسنتهم» ويقول النبى إشعياء على لسان اليهود :«تعدينا وكذبنا على الرب ، وحدنا من وراء إلهنا» [إش ٥٩ : ١٣] «أولاد المعصية ، نسل الكذب» [إش٥٧ : ٤] «فإنهم يحلفون بالكذب» [إر ٥ : ٢] «الشعب يتكل على الكذب» [إر ٢٨ : ٢٥] «استبدلوا حق الله بالكذب» [رو ١ :٢٥]

وأذكر هنا المثال كشاهد على كذب المؤرخين :

يقول السيد محمد رشيد رضا فى كتابه «الوحى المحمدى» تحت عنوان «أعجوبة من خوارق الهنود» ما نصه :

روت إحدى الجرائد المصرية فى هذه الأيام(١) من أخبار سائحى الإفرنج فى الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه «سارجوهارداياس» وقعت فى سنة ١٨٣٧م خلاصتها : أن هذا الفقير جاء قصر المهراجا «الجيت سنجا » أمير « بنجاب » وعرض عليه أن يريه بعض كراماته ، وكان المهراجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد إظهاره ؟ فقال : إنه يُدفن أربعين يوماً ثم يعود إليها حياً، فأحضر للمهراجا نفرا من الأطباء الإنكليز والفرنسيين وأمراء

---

(١) هى جريدة الاتحاد وكان هذا فى أثناء الطبعة الأولى للكتاب فى أوائل عام (١٣٥٢)هـ.

بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه ـ كما أوصاهم ـ وخاطوا عليه الكفن ووضعوه فى صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه ؛ ودفنوه فى قبوة داخل حجرة صغيرة فى حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهراجا ختمه بالشمع على أقفالها ، وأمر اثنين من رجال حرسه الأمناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتهم، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الأوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا .

ولما تمت الأربعون حضر هؤلاء كلهم فى قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان ، والعشب أمامها فى الحديقة ولم تطأه قدم أحد ، ثم فتحوا باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ، ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فإذا هو كما وصفه أحد أولئك من الإنجليز قال:

لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلا على إحدى الكتفين ، فخلتنى أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ أمد بعيد ، فطلبت من طبيبى أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال إنه لم يوجد أثر للنبض البتة ، ولكنه شعر بحرارة فى منطقة الدماغ . . . الخ .

ثم نفذ ما أوصى به الفقير أن يعمل بعد إخراجه. فغسل الجسم بالماء الحار. فرد على الأوصال لينها السابق بالتدريج ، وأزيل القطن والشمع عن الأذنين والأنف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة فى الجسد المسجى ، وتقلصت الأعصاب والأطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الأعصاب إلى حالتها الأولى ، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العين وعاد إليهما لونهما الطبيعى . فلما رأى الفقير المهراجا شاخصا إليه داهشاً متحيراً قال له : «أرأيت يا مولاى صدق قولى وفعلى ؟» وبعد نصف ساعة خرج من التابوت ، وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث ويطرفهم بما يحيّر العقول» هـ .

وقد علّق عليها بقوله : «إن هذه الحادثة من آيات الله ، التى أظهرتها الرياضة المكتسبة» ؛ وتعليقه هنا لا يليق بمقامه وأما تعليقنا نحن : فهو أن هذه الرواية من وضع راويها ، ولا أصل لها من الصحة لأن المؤرخ كاذب .

وأما عن الجهة الأخرى : فإن ما يردّ قول الحَبر ابن ميمون عن أتباع يحيى

عليه السلام : عقيدتهم في الخالق جل جلاله .

العقيدة في الخالق :

١ ـ في كتاب « الكنز ربا » عن الله تعالى :

« ملك الأنوار السامي، رب الخلق ، ذو الحول الشامل ، الذي لا شبيه له، النور النقي ، الذي لم يُر ولم يُسمع بمثله(١) ، الغفور التواب ، الرحمن ، الرحيم، العالم بكل شئ الحكيم ، العليم ، لا شريك له في سلطانه ، رب الخير ، المنقذ لكل مؤمن ، المقوم لكل صالح ، العزيز ، العليم ، المتسلط على كل رغبة ، لا شريك له في سلطانه . لا خاب من اتكل عليك ، وسبّح باسمك »

٢ ـ وفي كتاب « حران كوثيه » أي « حران السفلى » : « أنهم كانوا يعيشون في جبل «المادي » حيث الينابيع الساخنة في الشتاء ، والباردة في الصيف . وهذا الجبل يمتد إلى حران »

ومعنى هذا : أن الحرانية يقدسون الماء الجاري . كما يقدسه المندائيون . وهذا يدل على أن أصل نشأتهم معا من الصبغ على يد يحيى عليه السلام .

٣ ـ ويرى المندائيون أن أرواح الموتى لها صلة بأرواح أسلافها ويتزاورون وهم في القبور ، وينتفعون بالصدقات وبالأدعية . ولا يقولون بتناسخ الأرواح من جسد إلى جسد . كما يقول الحرانيون .

والقول بتناسخ الأرواح مفروض على المسيحيين والصابئين من زمن تحريف الأناجيل في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م فلما خف اضطهاد الرومان لهم ، رجع المندائيون إلى قول اليهود في الأرواح ـ وهو مكتوب في سفر المكابيين ـ وبقى الحرانيون مع النصارى في التناسخ .

وبيان ذلك : أن محرفي الإنجيل وضعوا اسم « إيلياء » بدل اسم « أحمد » في إنجيل متى لتدل إيلياء على اسمه بحساب الجمل . وقالوا : إن إيلياء مزمع أن يأتي . فيعرف العلماء ولا يعرف الأميون . وأشاروا للعلماء في بدء إنجيل يوحنا بأن يحيى ليس هو « إيلياء » وفي التجلي على جبل طابور تراءى موسى وإيلياء لعيسى

---

(١) في التوراة أن الله لا يُرى ولا يقدر أحد على رؤيته [خروج ٣٣ : ٢٠] وليس كمثله شئ [تث ٢٦:٣٣] .

وثلاثة من الحواريين ثم انصرفا . وطلب منهم عيسى عليه السلام أن لا يخبروا أحدا بما رأوا حتى يظهر « ابن الإنسان [1] » فقالوا له : كيف يظهر « ابن الإنسان » وإيلياء لم يظهر ليمهد له الطريق ـ كما يقول الكتبة العلماء ـ ؟ فأجاب بقوله : « إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا . . . حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان » أى أن روح إيلياء قد حلت فى جسد يوحنا المعمدان .

٤ ـ اشتهر من الحرانيين « بابا الحرانى » الذى ذكره « ديو نسيوس ابن الصليبى » فى كتابه « الرد على العرب » ونسب « ديونسيوس » إليه قوله : « بعد زمن طويل سيجئ اسم كبير من الشمال ، ويقيم داخل « عزوز » ـ مدينة العزّى حران ـ وكل من لا يتبع كلامه ، يتحكم فيه الخراب » يريد أن يقول إن مدينة صنم « العزى » هى « حران » وأن اسما كبيرا سيأتى من الشمال ليحكم المدينة .

والذين كانوا يعبدون « العزّى » هم اليهود ، والاسم الكبير من المؤكد أنه هو محمد ﷺ إذ لا نبى منتظرا إلا هو .

وإنما قيل عن حران إنها « عش الوثنية » فذلك لعبادة اليهود فيها صنم العزى، وأصنام أخرى . وقد رفع اليهود عنهم عبادة هذه الأصنام ووضعوها على الصابئين أعداءهم . ويدلك على أن عبادة اليهود للأصنام كانت من قبل ظهور الصابئين بزمان طويل : أن فى سفر الزبور لداود عليه السلام ما يدل على ذلك . ففى المزمور المائة والسادس « بل اختلطوا بالأمم ، وتعلموا أعمالهم ، وعبدوا أصنامهم ، فصارت لهم شركا . وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان ، وأهرقوا دما زكيا . دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان . وتدنست الأرض بالدماء ، وتنجسوا بأعمالهم ، وزنوا بأفعالهم » [مز ١٠٦ : ٣٥ ـ ٣٩]

وغير معقول أن يخرج الصابئون أتباع يحيى على اليهود فى زمان يحيى عليه

---

(١) ابن الإنسان لقب لمحمد ﷺ فى الأصحاح السابع من سفر دانيال . وهو صاحب ملكوت السموات الذى نادى يحيى وعيسى معا باقترابه . ومحرف الأناجيل يريد أن يجعل عيسى بدل محمد . ولذلك ابتدع حادثة التجلى هذه ، وابتدع بدعة تناسخ الأرواح

ويكفى فى رد البدعتين : اعتراف المعمدان بأنه ليس هو إيلياء . ففى بدء إنجيل يوحنا : « وهذه هى شهادة يوحنا ، حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر، وأقر أنى لست أنا المسيح . فسألوه إذاً ماذا ؟ إيليا أنت ؟ فقال : لست أنا »

السلام ويحاربون اليهود من أجل محمد ﷺ إلى القرن الرابع الذى أجبر أهل الروم فيه النصارى والصابئين على إنكاره . ويعبدون الأصنام فى هذه الفترة . وهم يحاربون فى الله ويرجون نصرته . ولما أجبروا على إنكاره لم تدم هيبة أهل الروم لانشغالهم بأهل فارس . ولافتراق جيشهم إلى عدة فرق . ثم بعد قليل ظهر الإسلام . ولما ظهر الإسلام دخل كثيرون من صابئة حران فيه . فابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦هـ يقول عن الحرانية : « إنهم فى جميع الأرض لا يبلغون أربعين نفسا » وعندما زار ابن جبير حران سنة ١١٨٥ كان أهلها كلهم على دين الإسلام . وفيهم صلاح .

ويدلك على صلاحهم : ما قاله « الهجويرى » ٦١٢هـ فى كتاب « كشف الأسرار » : « رأيت بحران رجلا من بنى ساسان ..» إلى أن قال : « فترق قلوب الناس ، ويرفده كل واحد بما يسّره الله له » أى أنهم محسنون .

٥ ـ ومما يدل على أن الحرانيين موحدون : قولهم « إنه قبل خلق العالم كان روح الله يرفرف فوق المياه السائلة » وهذا هو قول النصارى . فإنهم يترجمون بدء التوراة بقولهم : « فى البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية . وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه » ويترجمه اليهود بقولهم: « وريح الله يرف على وجه المياه »

وفى هذا المعنى جاء فى القرآن الكريم: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله ﴾ يعنى سؤال أهل الكتاب(١) لا العرب . فإن العرب لم يكفروا بالله كما أشاع السفهاء عنهم .

٦ ـ ومما يدل على أن الحرانيين مؤمنون بالله : أنهم وهم يعمدون الطفل ، يقولون له : « طوباك إذا صرت من أهل الاستماع لهذه الأسرار ، فإن الله يطهرك»

٧ ـ ومما يدل على أن الحرانيين مؤمنون بالله : اختلافهم مع المندائيين فى بناء المعابد : فإن المندائى يسمى المسجد « مندى » وهو عبارة عن كوخ من قصب، منصوب على شاطئ نهر جار ، أو نبع ماء جار حىّ . باب المندى يتجه نحو الجنوب ، ومحرابه نحو الشمال . نحو نجم الجدى فى السماء .

---

(١) أول آية فى التوراة هى :« فى البدء خلق الله السموات والأرض ....» .

بينما بنى الحرانية معابدهم الحجرية على الطرز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية .

والاختلاف فى بناء المعابد سببه : مناخ الجو ، والمياه المتدفقة باستمرار ، والفيضانات التى تدمر معالم الحياة على شواطئ نهرى دجلة والفرت.

ولكن ما هو السبب فى بناء المساجد على الطرز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية ؟ هو لأن قسطنطين الرومانى سنة ٣٢٥م أجبر الصابئين والنصارى على دين واحد ، صاغوا عقائده على مثال عقائد أهل روما .

فلما خف الاضطهاد ، انفرط عقد الجميع ـ كما بينا فى هذا الكتاب ـ

وقال الأستاذ محمد عبد الحميد الحمد بعدما ذكر ما قدمنا خلاصته : « حكى عنهم ذلك الحارث بن سنان بن سنبلط الحرانى . وهو من ملكانية النصارى ذو معرفة ودراية بمذهب القوم » يعنى من النصارى الكاثوليك الذين كان قسطنطين على مذهبهم . وهذا يدل على أنه سمع من خصومهم ودوّن .

٨ ـ ومما يدل على أن الحرانيين موحدون : أنهم يصلون ثلاث صلوات فى اليوم والليلة مثل اليهود . الأولى : قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل ، لتنقضى مع طلوع الشمس . وهى ثمانى ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة . والثانية : قبل زوال الشمس . وهى خمس ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة وتنقضى مع زوال الشمس . والثالثة قبل غروب الشمس وهى فى العدد والهيئة مثل الصلاة الثانية .

وصلواتهم النافلة هى بمنزلة الوتر عندنا نحن المسلمين ثلاثة فى كل يوم . الأولى فى الساعة الثانية من النهار ، والثانية فى الساعة التاسعة من النهار ، والثالثة فى الساعة الثالثة من الليل . ولا صلاة عندهم إلا على طهور . والساعة الأولى بدؤها من طلوع الشمس ،والغروب فى الساعة الثانية عشرة .

الصابئة يدفعون الجزية للمسلمين :

ويقول المندائيون فى كتاب لهم اسمه «حران كوثيا» : إنهم انتقلوا من أرض فلسطين الى حران ، ومنها إلى بلاد ما بين النهرين . وأن العرب وصلوا إلى العراق

زمن رئيسهم « انش بن ننقا » الذى تفاوض مع سعد بن أبى وقاص ، وأخذ منه عهد الأمان ، وأدّوا الجزية ، عند جبل لرساى .ولا يزالون إلى هذا اليوم يدعون فى صلواتهم : « أيها المسلمون لا تراجعوا عن عهدكم الذى عاهدتم الله عليه»

لاحظ :

١ ـ أنهم استقروا مدة من الزمن فى «حاران» ليكون المندائيون والحرانيون أصحاب بلدة واحدة . وأصحاب مذهب واحد . هاجروا به من فلسطين على إثر حروب بينهم وبين اليهود .

٢ ـ وجبال «مادای» فى حران . تمتد إلى بطائح « البصرة » وأهوار جنوب العراق .

ولأنهم طائفة من طوائف أهل الكتاب ، دفعوا الجزية للمسلمين فى وقت الفتح الإسلامى لبلادهم . وقالوا للخليفة المأمون ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ لما رآهم فى مدينة حران سنة ٢١٨هـ : « نحن نؤدى الجزية » أى أنهم إما مسيحيون بحسب ما فُرض عليهم من أهل الروم فى زمن قسطنطين حينما فَرض عليهم هم والنصارى أن لا يجهروا باسم محمد ﷺ وإما صابئون على أصلهم الأول الذى هاجروا بسببه إلى حاران . ولم يفصحوا له عن اللقب الأول . إما لأن الذين شاهدوهم ، وإما لأنهم لم يريدوا لفت أنظار الناس إلى حقيقتهم . يعرفون حقيقتهم وهى أنهم يهود منفصلون عن اليهود من أجل محمد ﷺ .

وقد صاغ مؤرخ هذه المقابلة بصيغة تشكك الناس فيها . فقال:

إن الخليفة المعظّم سألهم : أنصارى أنتم ؟ قالوا : لا . قال : أفيهود أنتم ؟ قالوا : لا . قال : أفمجوس أنتم ؟ قالوا : لا . قال لهم : أفلكم كتاب أو نبى ؟ فجمجموا فى القول . أى نحن الحرنانية . وهذا يكفى فى بيان من نحن ؟وهم لم ينكروا أن لهم كتابا ونبيا . هو التوراة ويحيى عليه السلام ولكنهم سكتوا حتى لا يوصفوا بالكذب . ومعنى أنهم حرنانية : أن فى ديوانه عن أهل الجزية أنهم يدفعونها من زمن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فلماذا الإحراج ؟ ولماذا التشهير بنا ؟

وقال المؤرخون : إن الخليفة المعظم قال لهم : فأنتم إذاً الزنادقة عبدة الأوثان . وهذا هو الخطأ بعينه . لأن عبادة الأوثان منقطعة من هذه البقعة من الأرض من قبل ظهور الإسلام ومن بعده . واليهود فيهم شواذ كانوا يعبدون اللات والعزّى ومناة وصنم البعل . والنصارى جعلوا الله هو المسيح ،وجعلوا المسيح مع الله . وقد فُرض على الصابئين ما فرض على النصارى من أهل الروم . وهم لم يعبدوا أصناما . وإنما عبدوا الله الذى انقلب إلى المسيح . أو عبدوا الله مع المسيح والروح.

وقال المؤرخ : إنه اتهمهم بأنهم أصحاب الرأس [1]. يعنى أنهم لو كانوا وثنيين مسالمين ، لتركهم وشأنهم . ولكنهم بقتلهم صاروا وثنيين مفسدين فى الأرض. ويلزمهم إما الإسلام وإما الدخول فى اليهودية أو المسيحية أو الصابئية ؛ ليدفعوا الجزية . فإن الجزية لا تؤخذ من المجوس ولا من الكفار المسالمين . وقال المؤرخ : إنهم جعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه؛ أشار عليهم بأنه إذا رجع المأمون إليهم وسألهم عن دينهم أن يقولوا له : نحن الصابئين.

ومن كلام هذا المؤرخ قال المتكلمون فى الملل والنحل : « هذه هى أول إشارة إلى واقعة تاريخية تدل على انتحال الحرانية لاسم الصابئة »

ولم يسألوا أنفسهم عن أهل حران فى وقت الفتح الإسلامى هل كانوا يؤدون الجزية للمسلمين أم لا ؟

٩ ـ ومما يدل على أن الحرانيين موحدون : أن الحرانيين يحبون « هرمس الحكيم» ويصغون إلى حكمته . وكان هرمس يدعو لإقرار توحيد الله ، وحظر النفس عن الشهوات والأمور المحبوبة بأسرها ، وترك الرخصة فى كل شئ منها للوصول إلى إدراك الحقائق . وقد سئل هرمس عن تكوين الشمس . فأجاب بقوله: « إنها ظهرت بعناية الله » والحرانية يعدونه من أنبيائهم .

١٠ ـ ومما يدل على أن الحرانيين يؤمنون بالله وهم مع اليهود والنصارى فى عقيدة القضاء والقدَر :« أن الحرانية تعلّم أنه لا ينفع من أحد فعل ولا يتيسر له عمل

---

(١) سيأتى الكلام عنها بعد قليل .

إلا ما قد سبق له فى علم البارى . الذى هو القضاء المبرم والقدر المحتوم »[1]

١١ ـ وإخوان الصفا ويقال إنهم كانوا من صابئة حران ـ والحق أنهم يهود ـ كانوا يقولون فى صلواتهم لله : « اللهم إنى أسألك يا واجب الوجود ، ويا علة العلل . يا قديما ولم يزل ، أن تعصمنى من الزلل . يا إله المشارق والمغارب ، ويارب الجوار الكنس السبع التى انبجس عنها الكون انبجاس الأبهر . هن الفواعل عن مشيئته التى عمت فضيلتها جميع الجواهر ، أصبحت أرجو الخير منك ، وأمترى زحلا ، ونفس عطارد والمشترى . اللهم أنقذنى من عالم الشقاء والفناء ، واجعلنى من إخوان الصفاء وأصحاب الوفاء ، وسكان السماء مع الصديقين والشهداء »

وسبب قولهم بزحل وعطارد والمشترى.. إلخ: هو أنهم يعتقدون أن الأفلاك حية ناطقة، وأنها تتصرف بالعالم الأرضى ١ـ إما بطبائع أجسادها ٢ـ وإما بنفوسها .

ولما سبق أن ذكرنا من أن اليهود هم الذين عبدوا الأصنام وقتلوا أولادهم سفها بغير علم ؛ يكون إخوان الصفا من اليهود الذين ألفوا الكتب فى الحطّ من شأن الصابئة، كما ألفوا الكتب فى الحط من شأن العرب . والعرب هم أهل الله وخاصته . من قبل الإسلام ومن بعده .

وقد انخدع البعض بما قالوا ، ونسبوا للحرانية ـ نقلا عنهم وعن غيرهم من اليهود ـ أنهم كانوا يتعوذون من شهر الكواكب بصلوات لهم . فقالوا :«ومنهم من كان يصلى لكوكب زحل يوم السبت ، وللشمس يوم الأحد ، وللقمر يوم الاثنين ، وللمريخ يوم الثلاثاء ، ولعطارد يوم الأربعاء ، وللمشترى يوم الخميس ، وللزهرة يوم الجمعة .

ومنهم من كان يصلى للكواكب مجتمعة ويقول : « تقبلوا منى دعائى لإصلاح ما فسد فينا ، وتسهيل ما عسر علينا ، وتسديد ما عدل عن الصواب من أفكارنا وآرائنا ، ليحصل لنا طيب العيش فى الدنيا ، والتمكن من الخلاص فى الآخرة »

---

(١) فى إنجيل برنابا : أن الفريسيين من اليهود كانوا يقولون بالجبر. وأن المسيح كان يقول بالحرية . واستدل بالتوراة على أن الله خلق الإنسان حرا ، وحمله نتيجة أعماله . ونص التوراة هو :« هذه الوصية التى أنا آمركم بها اليوم ؛ لا تصعب عليكم ، ولا هى بعيدة منكم ...» [تث ٣٠ : ١١ ـ ١٤]

١٢ـ ومما يدل على أن الحرانيين من الصابئة المنفصلين عن اليهود : أنهم يحرمون من اللحوم لحوم الإناث من الماعز والضأن والإبل والبقر ، ويحرمون الجزور من الإبل ويحرمون سمك الجرى والأرنب والضب ، وكل طير وحيوان جارح ذى مخالب .

ويقول مؤلف صابئة حران تعليقا على محرماتهم هذه من الأطعمة : « هذه المحرمات من الأطعمة هى نفس المحرمات عند النحلة الفيثاغورثية » ا . هـ

وقوله باطل فإن هذه المحرمات فى التوراة . ففى الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية : « لا تأكل رجسا ما . هذه هى البهائم التى تأكلونها . البقر والضأن والمعز والأيل والظبى واليحمور والوعل والرئم والثيتل والمهاة . وكل بهيمة من البهائم تشق ظلفا وتقسمه ظلفين وتجتر ؛ فإياها تأكلون . إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر ومما يشق الظلف المنقسم : الجمل والأرنب والوبر . لأنها تجتر لكنها لا تشق ظلفا ؛ فهى نجسة لكم . والخنزير لأنه يشق الظلف لكنه لا يجتر ؛ فهو نجس لكم. فمن لحمها لا تأكلوا . وجثتها لا تلمسوا .

وهذا تأكلونه من كل ما فى المياه : كل ما له زعانف وحرشف ؛ تأكلونه .لكن كل ما ليس له زعانف وحرشف ؛ لا تأكلوه . إنه نجس لكم .

كلُّ طير طاهر تأكلون . وهذا ما لا تأكلون منه . النسر والأنوق والعقاب والحدأة والباشق والشاهين على أجناسه . وكلُّ غُراب على أجناسه . والنعامة والظليم والساف والباز على أجناسه والبوم والكركى والبجع والقواقع والرخم والغواص واللقلق والبَبّغا على أجناسه والهدهد والخفاش . وكل دبيب الطير ؛ نجس لكم . لا يؤكل . كل طير طاهر تأكلون .

لا تأكلوا جثة ما » [تث ١٤ : ٣ ـ ٢١]

١٣ـ ومما يدل على أن الصابئين من اليهود : أن المندائية ينغمسون فى الماء، وأن الحرانية يتوضأون بالماء . وكلهم يتطهرون من الجنابة . وإذا مر الصابئى المندائى أو الحرانى بالقرب من ماء جارى يقول : : « السلام عليك أيها الماء الجارى من تحت عرش الرب الذى يحيى بك كل من فى الأرض » وفى التوراة :« وإذا حدث من رجل اضطجاع زرع ؛ يرحض كل جسده بماء ، ويكون نجسا إلى المساء . وكل

ثوب وكل جلد يكون عليه اضطجاع زرع ، يُغسل بماء ويكون نجسا إلى المساء . والمرأة التى يضطجع معها رجل اضطجاع زرع ، يستحمان بماء ، ويكونان نجسين إلى المساء » [لا١٥ : ١٦ ـ ١٨]

القرابين البشرية والحيوانية :

نسب اليهود إلى الصابئة الحرانيين عبادة الكواكب وتقديم القرابين البشرية والحيوانية لها ، وانخدع بعض الناس بهذه النسبة . وهى « خدعة لأن الصابئين أصحاب حق من أيام يحيى عليه السلام وفى سبيله تحملوا المشاق . إلى زمن قسطنطين امبراطور روما . ولا يعقل فى هذه المدة أن يكفروا بالله ويعبدوا الكواكب، ويقتلوا النفس الذكية ويعيثوا فى الأرض فسادا . ولما دخلوا مع النصارى فى مسيحية روما ، انشغلوا بها . إلى مبعث محمد ﷺ وعلى ذلك يُستبعد من الصابئين حرانية ومندائية عبادة الأصنام ، ولا يستبعد على اليهود ، لأنهم سمعوا الحق من يحيى ولم يؤمنوا به ، وسمعوا الحق من عيسى ولم يؤمنوا به . وهم يعلمون أن رفض النبى ، رفض لله الذى أرسله . ورفض الله يدل على أنهم سيدخلون فى النار مع الداخلين . من عباد الأصنام وغيرهم . كأنهم يقولون لله: إنا نحن وعباد الأصنام مستوون فى الرفض ، فليس لنا إلا مذهب المنفعة .

وقد سجلت التوراة على اليهود عبادة الكواكب ، وتقريب الذبائح البشرية والحيوانية لها . وعلى هذا التسجيل يكون القول بعبادة اليهود للكواكب هو الحق ، ولا يكون القول بعبادة العرب والصابئين للكواكب هو الحق . لكن اليهود كذبوا على الناس ووضعوا ما كان فيهم فى العرب وفى الصابئين .

ففى الأصحاح الثامن من سفر حزقيال :

أنه فى مدخل الباب الداخلى المتجه نحو الشمال ، كان مجلس تمثال الغيرة المهيج للغيرة « ونظرت وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط على دائرة »

ثم قال عن تمثال صنم تموز :

« وقال لى بعد : تعود تنظر رجاسات أعظم . هم عاملوها . فجاء بى إلى

مدخل باب بيت الرب الذى من جهة الشمال . وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز »

ثم قال : « نحو خمسة وعشرين رجلا ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق . وهم ساجدون للشمس نحو الشرق »

وفى الأصحاح السابع من سفر إرمياء : « والآباء يوقدون النار ، والنساء يعجن العجين ، ليصنعن كعكا لملكة السموات ، ولسكب سكائب لآلهة أخرى . لكى يغيظونى . أفإياى يغيظون ؟ » يقول الرب

وفى الأصحاح الرابع والأربعين من سفر إرمياء : « فأجاب إرمياء كُلّ الرجال الذين عرفوا أن نساءهم يُبخرن لآلهة أخرى وكلُّ النساء الواقفات . محفل كبير . وكلُّ الشعب الساكن فى أرض مصر ، فى فتروس قائلين : إننا لا نسمع لك الكلمة التى كلمتنا بها باسم الرب . بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا لنبخر لملكة السموات، ونسكب لها سكائب . كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا فى أرض يهوذا وفى شوارع أورشليم . فشبعنا خبزا ، وكنا بخير ولم نر شرا ، ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات ، وسكب سكائب لها ، احتجنا إلى كل، وفنينا بالسيف والجوع . . .الخ »

وفى التوراة عن تقديم القرابين البشرية للأصنام نصوص كثيرة منها :

١ ـ « وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان ، وأهرقوا دما ذكيا . دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان » { مزمور ١٠٦ :٣٧ ـ ٣٨ }

٢ ـ « أخذت بنيك وبناتك الذين ولدتهم لى ، وذبحتهم لها طعاما . أهو قليل من زناك أنك ذبحتِ بنى وجعلتهم يجوزون فى النار لها ؟ » { حزقيال ١٦ : ٢٠ ـ ٢١}

٣ ـ « اما أنتم أولاد المعصية ، نسل الكذب . المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء . القاتلون الأولاد فى الأودية تحت شقوق المعاقل » { إشعياء ٥٧ : ٤ ـ ٦ }

٤ ـ « بل سار فى طريق ملوك إسرائيل حتى إنه عبّر ابنه فى النار ، حسب

أرجاس الأمم ، الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء » [٢ ملوك ١٦ : ٣ ـ ٤]

فعل اليهود مع الأصنام :

وهذا هو بعض ما فعله اليهود مع الأصنام ، ونسبوه ظلما وزورا إلى العرب، وإلى صابئة حران :

يقول الأستاذ محمد عبد الحميد الحمد فى كتابه صابئة حران ما نصه :

« كانت الأضاحى قديما ، تقدم للآلهة لإطالة العمر ، وقد اتهم الحرانية بتقديمهم أضاحى بشرية للكواكب . ولكن أبا الريحان البيرونى نفى عنهم تلك التهمة قائلا : « ولم يثبت عنهم سوى القرابين الحيوانية (١) » والقربان الفلسفى عند ثابت بن قرة الحرانى « ترك النفس محبة الدنيا والزهد فيها ، وقلة الخوف من الموت ، وهذه هى قرابين الحكماء والصديقين . أما القرابين الشرعية عند العامة ، فهى لكل هيكل سماوى من السيارات والثوابت . نحتوا له صورة ، وبنوا له معبدا يتقربون إليها بالدعاء والأضاحى »

وجاء فى كتب المؤرخين المسلمين حول قرابينهم(٢) أن لكل كوكب قربان خاص به، من البشر أو الحيوان :

قربان المشترى :

يقربون إليه طفلاً وذلك أنهم يشترون جارية ، ليطأها السدنة للأصنام السبعة، وتترك حتى تضع حملها ، ثم يأتون بها والصبى على يدها ، ابن ثمانية أيام فينخسونه بالمسال (المخارز) والإبر وهو يبكى على يد أمه فيقولون له : أيها الرب الخير الذى لا يعرف الشر قد قربنا لك من لم يعرف الشر . يجانسك فى الطبيعة؛ فتقبل قرباننا وارزقنا خير أرواحك الخيرة .

---

(١) لم يثبت عنهم وإنما ثبت عن اليهود .

(٢) القرابين كان اليهود يقربونها للمشترى وغيره . ووضعوا ما كان فيهم فى الصابئين أتباع يحيى . ولم ينتبه المؤرخون القدماء لذلك ؛ لأن فيهم يهود متظاهرون بأنهم مسلمون أو مسيحيون أو صابئة .

قربان زحل :

صنعوا لزحل تمثالاً عظيماً من الآنك (البرونز) وهو أعمى ، لذا تراهم يقربون إليه ثوراً حسنا ، يؤتى به إلى بيت ، تحته خندق محفور ، وفوقه درابزين من حديد، على ذلك الخندق ، فيدخل الثور ، فتغوص رجلاه ويداه بين فتحات الدرابزين . ثم توقد تحته النار حتى يحترق . ويقول له المقرّبون : « مقدس أنت أيها الإله الأعمى ، المطبوع على الشر ، الذي لا يفعل خيراً . قربنا لك ما يشبهك . فتقبل منا واكفنا شرك وشر أرواحك الخبيثة »

قربان للمريخ :

يقربون له رجلاً أشقراً أنمش الوجه ، أبيض الرأس من الشقرة ، يأتون به ، فيدخلونه في حوض عظيم ، ويشدون قيوده إلى أوتاد في قعر الحوض ، ويملؤن الحوض زيتاً حتى يبقى الرجل قائما فيه إلى حلقه ، ويخلطون بالزيت الأدوية المقوية للعصب والمعفنة للحم والجلد ، حتى إذا مضى عليه الحول قبضوا على «رأسه» فملخوا عصبه من جلده ، ولفوه تحت رأسه ، وأتوا به إلى صنمهم الذي هو على صورة المريخ . وقالوا : أيها الإله الشرير ذو الفتن والجوائح . قربنا إليك ما يشبهك ، فتقبل قرباننا واكفنا شرك وشر أرواحك الخبيثة الشريرة . وهم يزعمون أن الرأس تبقى فيه الحياة سبعة أيام ويكلمهم بعلم ما يصيبهم تلك السنة من خير وشر . وفي يقيني أن هذا الخبر عار من الصحة .

إلا أن ابن النديم يورد خبراً تاريخياً عندما سألهم المأمون : ألستم أصحاب الرأس في أيام والدي رحمه الله ؟ وكان الجشهياري ـ محمد بن عبدوس المتوفى ٣٣١ هـ ـ قد روى في كتابه الوزراء « قصة الحراني » الذي صلب سنة ١٢٤ هـ في الرقة وهو صاحب قصة الرأس قال : قال محمد بن حصين الأهوازي : كنا مع جعفر بن يحيى بالرقة ، وخلا بأنس بن أبي شيخ ، ناحية ونحن نراه ، فأدخل صاحب الشرطة رجلاً من أهل اللمة الحرانية . وقال لجعفر : أحضرت الرجل الذي أمرت بإحضاره . فقال جعفر للرجل : ما اسمك ؟ قال : فلان بن فلان. قال : أنت الحرناني؟ قال : نعم . قال جعفر لصاحب الشرطة : خذه فإن أمير المؤمنين أمر بقتله وبصلبه . فأخذه صاحب الشرطة وقال له أنس بن أبي شيخ :

اصلبه على أطول عمود بالرقة . فالتفت إليه الحرناني فقال : إن شاء الله على أطول عمود ، وإن شاء الله على أنصره . ليس والله بعدى غيرك .

قال محمد بن الحصين الأهوازي : فعجبنا من صرامته ، ومن تحقيق ذلك القول، وذهب به وصلب وقتل .

القربان للشمس :

يقربون للشمس المرأة التي قتلوا ولدها للمشترى .

القربان لعطارد :

يقربون إليه شاباً أسمراً كاتباً متأدباً . يأتون به بحيلة ، ثم يخدرونه ، ويقدمونه إلى صنم عطارد . ويقولون له : أيها الرب الظريف . أتيناك بشخص ظريف يطيعك فتقبله منا . ثم ينشر الشاب نصفين وربع ويجعل على أربع خشبات، ويضرم في كل خشبة النار حتى يحترق ، ويحثون رماده في وجه التمثال.

القربان للزهرة :

يقربون لها عجوزاً شمطاء ماجنة ، يقدمونها بين يدى تمثال الزهرة . ثم يأتون بالحطب فيجعلونه حول العجوز ويضرمون فيه النار إلى أن تحترق فيحثون رمادها في وجه صنم الزهرة .

القربان للقمر :

يقربون له رجلاً آدم شديد السمرة ويقولون : « يا أبرد الآلهة وخفيف الأجرام السماوية ، تقبله منا » ثم يحرقونه ويحثون برماده وجه تمثال القمر .

نلاحظ أن القرابين التي رواها من يكنّون العداء للحرانية هي قرابين بشرية بينما القرابين التي ذكرها ثابت بن قرة الحراني وإخوان الصفا هي قرابين حيوانية من بقر وضأن وديوك وحمام . وإلى هذا أشار البيروني .

هل كان الحرانية يأكلون القربان ؟

اختلفت الأجوبة في هذه المسألة :

القول الأول : ذكره إخوان الصفا وهو أن الحرانية كانوا يأكلون القربان أو

الأضحية وسائر لحوم ذبائحهم كيفما شاءوا إلا لحوم ديوك نذر السر ، فإنها مخصصة للكهنة ومتناول السر .

القول الثانى : لا يأكلون القربان بل يحرقونه . وهذا قول ابن العبرى: « أنه قرأ فى كتاب لثابت بن قرة . ذكر فيه ما يصلح من الحيوان لتقريب الضحايا . ذكر فيه : أن أكثر قرابينهم من البقر والماعز وسائر ذوى الأربع إلا الجزور من الإبل . ثم قال : « وقرابينهم الكثيرة لا يأكلون منها بل يحرقونها »

القول الثالث : « يأكون اللحم ويحرقون العظام وشحم الكلى » وهذه رواية طاهر بن المطهر المقدسى . وهذه الرواية تتفق وما يقوله مايكل جيمس : « لقد انتهى الإله زيوس بالناس لنحر له برومثيوس ثوراً قسمه قسمين : احتفظ باللحم والأحشاء وأبقى فى الجلد الكرش ولفائف من الشحم تغطى العظام . ثم سأل زيوس : أن يختار كومة فإذا به مع فضل علمه يختار مالا قيمة له ، من الدهن والعظام اللذين ظل الناس من بعد ذلك يحرقونها على المذابح للآلهة »

لِم حرم الحرانية أكل إناث البقر والضأن ؟

حرموها لأنها خلقت للحراثة والسحب وإنتاج الحليب .

ولِمَ حرم الحرانية ذبح إناث الماعز ؟

جاء فى رسائل إخوان الصفا : « أن من المعظمين عند الحرانية (فولس وأسر الرومى) لعل فى اسم (فولوس) تصحيف ، والاسم الصحيح (فونا) زوجة (فونوس) ربة الأرض والحقول التى كانت كاهنة لها قدرة على التنبؤ ، وهى التى حرمت ذبح المعزى ، وجعلتهن للقربان فقط . وأن لا تقرّبهن حامل ولا تأكل لحومهن .

* * *

وقد ذكرنا أن الصابئين موحدون على شريعة التوراة وعقيدتهم جبرية فى القضاء والقدر . وهو المسمى بالجبْر والقُدَر أو الخير والشر ، وعند المسيح عيسى عليه السلام فى الخير والشر ضد ما عند اليهود الفريسيّين ، ويتفق هو فى الخير والشر مع يحيى عليه السلام . ولكن فى كتاب « الصابئون ماضيهم وحاضرهم » :

أن الصابئين يقولون : إن فاعل الخير والشر هو الإنسان ، وأن الله جل شأنه مكون الأشياء كلها، والعبد يملك إرادة جزئية واختياراً مطلقا .

فيحيى عليه السلام يوبخ اليهود على عصيانهم لله بقوله : « يا أولاد الأفاعى. من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم : لنا إبراهيم أبا . لأنى أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم . والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا ، تقطع وتلقى فى النار » [متى ٣ : ٧ ـ ١٠] ولو كان اليهود مسيرون لا مخيرون ، لما كان لتوبيخه معنى .

وعيسى عليه السلام يقول لليهود :« يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ؟ فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم . الإنسان الصالح من الكنز الصالح فى القلب ، يخرج الصالحات . والإنسان الشرير من الكنز الشرير ، يخرج الشرور . ولكن أقول لكم : إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس ؛ سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين ، لأنك بكلامك تتبرر ، وبكلامك تُدان» [متى ١٢ : ٣٤ ـ ٣٧] ولو كان اليهود مسيرون لا مخيرون ، لما كان لتوبيخه معنى.

ويدعى علماء اليهود الفَرِّيسيين أن الإنسان مسير لا مخير . وذلك لتبرير شرورهم وآثامهم . وقد رد المسيح عيسى عليه السلام ادعاءهم بنصوص من التوراة تدل على أن الله قد خلق الإنسان حرا ، وحمله نتيجة أعماله . ومن هذه النصوص: « إن هذه الوصية التى أُوصيك بها اليوم ؛ ليست عسرة عليك ، ولا بعيدة منك .ليست هى فى السماء حتى تقول : من يصعد لأجلنا إلى السماء ، ويأخذها لنا ، ويُسمعنا إياها ، لنعمل بها . ولا هى فى عبر البحر ، حتى تقول : من يعبر لأجلنا البحر ، ويأخذها لنا ، ويسمعنا إياها ، لنعمل بها . بل الكلمة قريبة منك جدا . فى فمك ، وفى قلبك ، لتعمل بها » [تثنية ٣٠ : ١١ ـ ١٤]

وفى التوراة : أن الله تعالى قسّى قلب فرعون ، ومنعه عن الإيمان ، ليهلكه [خر ٤ : ٢١] وظاهر هذا يدل على مذهب الجبر . وقد قال المسيح عيسى عليه السلام فى ذلك : إن فرعون بغى على بنى إسرائيل وقتل ذكورهم واستحيا نساءهم.

وأن الله طالبه بالإيمان على يد عبده موسى ، فرفض ، وأراه من المعجزات ما يستيقن به أن الله موجود ، ثم أدبر واستكبر . ولأن ذلك قد حصل من فرعون . فإنه يكون مستحقا للعقاب . و لما أراد معاقبته ؛ صرفه عن الإيمان . وأهلكه [خر ٧: ٣] وعلى ذلك لا يكون الله مقسّيا قلب فرعون ابتداء ، وإنما لما زاغ فرعون ، أزاغ الله قلبه .

وفي التوراة : أنه إذا حصلت شرور في مدينة مّا ، فإن الله يكون صانعها . وهذا يدل على مذهب الجبر [عاموس ٣:٦] وقد قال المسيح عيسى عليه السلام في ذلك : إن الناس يعتقدون أن الخير من الله . فإذا حدث شر ؛ ربما يعتقدون أن الشيطان هو الذي صنعه . فيقربون له القرابين اتقاء لشره . فأراهم أن الخير منه والشر منه ، لئلا يعبدوا إلها غيره .

وفي العالم أشياء مؤذية قد كوّن الله عليها العالم منذ نشأته . كالبراكين والزلازل والأعاصير وما شابه ذلك . فإذا حدث زلزال في مدينة وأصاب الناس بشرور كثيرة ، فإنه يمكن القول بأن هذا الشر من الله ، لأنه كوّن العالم على ذلك. وكل ما في العالم من الله ، والناس قادرون بقوة أودعها الله فيهم على تسخير ما خلقه الله في الخير أو في الشر . فالأشجار خالقها الله . والإنسان يقدر أن يصنع من الأخشاب بابا وسترا . ويقدر أن يصنع منها صنما . وعلى هذا المعنى يقال: كل ما في الكون من الله . والخير منه . والشر من بني آدم ، لأنهم بدلوا نعمة الله كفرا .

وفي التوراة آيات كثيرة في هذا المعنى . ففي سفر النبي إشعياء : « أنا الرب وليس آخر . لا إله سواي . نطّقتك وأنت لم تعرفني . لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري . أنا الرب وليس آخر . مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر . أنا الرب صانع كل هذه » [إش ٤٥ : ٥ ـ ٧] ولكن «بُولُس» قد أرجع المسيحيين إلى مذهب علماء اليهود الفريسيين في الجبر ، رغم أنف يحيى وعيسى عليهما السلام . وذلك في الأصحاح التاسع من رسالته إلى أهل روما وما بعده . ومن كلامه :« لأنه يقول لموسى : إني أرحم من أرحم ، وأتراءف على من أتراءف . فإذاً ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى ، بل لله الذي يرحم ، لأنه يقول الكتاب لفرعون : « إني لهذا بعينه ، أقمتك ، ولكي أظهر فيك قوتي ، لكي ينادي باسمي في كل الأرض » [خر ٩ : ١٦] فإذاً هو يرحم من يشاء ، ويقسّي

من يشاء. فستقول لى: لماذا يلوم بعد ؟ لأنه من يقاوم مشيئته؟ بل من أنت أيها الإنسان الذى تجاوب الله؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها : لماذا صنعتنى هكذا ؟ أم ليس للخزاف . . . الخ »

ومذهب الجبر ليس فى التوراة . ومن النصوص الدالة على حرية الإنسان: «إن أحسنت أفلا رفع ؟ » [تك ٤ : ٧] « نَفْسى دائما فى كفّى . أما شريعتك فلم أنسها » [مز ١١٩ : ١٠٩] « النفس التى تخطئ هى تموت . الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن . بر البار ؛ عليه يكون . وشر الشرير؛ عليه يكون . فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التى فعلها ، وحفظ كل فرائضى وفعل حقا وعدلا ؛ فحياة يحيا . لا يموت . كل معاصيه التى فعلها لا تذكر عليه . فى بره الذى عمل ، يحيا . هل مسرّة أسر بموت الشرير ؟ يقول السيدالرب . ألا برجوعه عن طريقه ؛ فيحيا . . . الخ[حزقيال ١٨ : ٢٠ ـ]

وما ذكرناه من نصوص التوراة والإنجيل على مذهب الحرية ؛ يهدم مذهب المسيحيين فى قتل المسيح وصلبه ؛ تكفيرا عن خطايا بنى آدم عليه السلام . وذلك لأن كل امرىء بما كسب رهين . ويهدم تبريرات اليهود لشرورهم وآثامهم ؛ فإنهم يقولون : لا يقع فى ملكه إلا ما يريد . وهم يعلمون أن الله لا يريد ظلما للعباد ، ولا يرضى لعباده الكفر .

* * *

١٤ ـ ومما يدل على أن الحرانيين موحدون على شريعة التوراة : أنهم يصومون ثلاثين يوما ، أولها لثمان مضين من اجتماع آزار ، وتسعة أخر . أولها لتسع بقين من اجتماع كانون الأول . وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط . وهى لأعظمها ، ولهم تنفل من صيامهم ،وهو ستة عشر وسبعة وعشرون يوما . روى ذلك عنهم ابن النديم فى الفهرست .

ويقولون عن المنانيين : إنهم يمتنعون عن أكل اللحوم ستة وثلاثين يوما مقسمة بين أيام السنة على نحو امتناع النصارى عنها . ويقولون : إن المنانيين يمنعون الصيام من طقوسهم الدينية ؛ لأنه من باب تحريم ما أحله الله .

واعتراف الناقلين عن الحرانيين بصومهم لا يدل على عبادتهم للكواكب والنجوم بل يدل على عبادتهم لله تعالى .

وهم قد أخذوا صيامهم من التوراة ، ومن يحيى عليه السلام . وفى الإنجيل ما يدل على ذلك . أما من التوراة ففى سفر اللاويين :« ويكون لكم فريضة دهرية أنكم فى الشهر السابع فى عاشر الشهر تذللون نفوسكم . وكل عمل لا تعملون . الوطنى والغريب النازل فى وسطكم » [لا ١٦ : ٢٩]

أى فى اليوم العاشر من الشهر السابع لخروجهم من مصر ؛ صوم ولا عمل . لليهودى وللأممى الداخل مع اليهود فى شريعة التوراة .

وفى سفر أعمال الرسل : « ولما مضى زمان طويل ، وصار السفر فى البحر خطراً ؛ إذ كان الصوم أيضا قد مضى ؛ جعل ... الخ» [أع ٢٧ : ٩]

وفى الإنجيل :« حينئذ أتى إليه تلاميذ يوحنا قائلين : لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيرا . وأما تلاميذك فلا يصومون ؟» [متى ٩ : ١٤]

بدء السنة عند الصابئة :

وتتألف السنة عند المندائيين من ثلثمائة وستين يوما . وهى تنقسم إلى اثنى عشر شهراً ، فى كل شهر ثلاثون يوما . وتبدأ السنة من شهر نيسان (إبريل)

وفى التوراة « أنتم خارجون فى شهر ابيب» [خر ١٣ : ٤] « هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور . هو لكم أول شهور السنة » [خر ١٢ : ٢]

الفصل الثامن
فى
الفرق بين المندائية والحرانية

يفصل المؤرخــون بين أ ـ المندائى ب ـ والحرانى . فى العـقيدة والشـريعة . رجما بالغيب . والدليل على أن فصلهم من الرجم بالغيب : هو أنهم يذكرون كلاما ويعتـقدون أنه لا تناقض فـيه . ومن ينظر فـيه بعين الإنصـاف يجد التناقض فـيه . كالأستاذ محمـد عبد الحميد الحمد ، الذى يذكر حججـا لنفى العلاقة بينهما . وهى حجج تدل عـلى إثباتها ولا تـدل على نفيهـا . ولو أنه قال : إن من الحـرانيين من يخالف الجماعة ، لكان لهم منصفا . فإن فى كل طائفة عظيمة من طوائف الناس ؛ شواذ .

وهذا هو البيان :

فى كتـاب «صابئة حران وإخوان الصـفا[1] » للأستاذ مـحمد عبد الحـميد الحمد. يقول المؤلف عن الصابئين . المسمون بالصابئة :

١- إنهم هاجـروا من أرض كنعان إلى شمـال سورية على إثر حـروب بينهم وبين اليـهود ، هاجـروا إلى « حران » واسـتقروا مدة من الزمن ثم هاجـروا إلى بطائح «البصرة » وهذا مكتوب في كتابهم المسمى « حران كويثا »

٢- إن المندائيين هم الصـابئون . وأهل حران الذين هاجـروا إلى بلادهم هم قوم كـانوا يعبـدون الكواكب من قبل الهـجرة . ولـكثى المندائيـين وأهل حران فى مدينة واحدة ، ظن الناس أن المندائيين يعبدون الكواكب ، وأطلقوا على أهل حران لقب الصابئين .

والحق : أن المندائيين ينكرون أى صلة لهم بالحرانية ، كمذهب دينى .

٣- قـال المسـتـشـرق « خـولون » : إن الحـرانيين لم تـكن لهم وحـدة مع المندائيين.

---

(١) طبعة سوريا ١٩٩٨ دار الأهالى .

٤- قال المستشرق « أو ليرى » إن الصابئة الحقيقيين هم المندائية فى جنوب «العراق» ولا علاقة لهم بـ «حران»

٥- وقال الأستاذ محمد عبد الحميد الحمد : وأنا سأدلى بالحجج التالية لنفى العلاقة بين الحرانية والمندائية :

وقبل أن نذكُر حججه ، نذكّر : أن اليهودى كان يعبد الصنم ، ويوهم الناس أنه حرانى أو مندائى ؛ لينفى الخزى والعار عنه ، وليعرف الناس أن الصابئى ليس هو التابع ليحيى الذى كان يبشر بمحمد ﷺ وإنما هو عابد الصنم . وغرضه من ذلك: اللغو فى حقيقة الصابئة حتى لا يسرع الناس فى الدخول فى الإسلام .

وهذه هى حججه :

(١) اختلافهم فى بناء المعابد :

يسمى المندائية معبدهم (بالمندى) وهو عبارة عن كوخ من القصب ، منصوب على شاطئ نهر جار أو نبع ماء جار حى ،ويكون باب المندى متجه نحو الجنوب ، ومحرابه نحو الشمال (نجم القطب)(١) لاعتقادهم أنه المكان الذى يحكم فيه ، على أعمال الناس بالصلاح ، أو الفساد يوم القيامة .

ومعابد المندائية خالية من أى« تمثال أو صنم » لتقديسهم الماء الحى الجارى. وفى المندى يمارسون صلواتهم العلنية بعد تعمدهم بالماء الجارى ، وفيه يعقدون قران زواجهم ، وفيه يقدمون القرابين فى الأعياد . جاء فى كتابهم (الكنز ربا) : « كل من صنع تمثالا ، أو صنما أو جسما ليعبده من دون الله ، تكتوى شفاهه ويداه بنار حامية ، ويتمنى الموت ، ولكن الموت لا يدركه(٢) »

بينما بنى الحرانية ، معابدهم الحجرية ، على الطرز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية ، وأقاموا فيها هياكل وتماثيل للكواكب السبعة ، وفيها يمارسون صلواتهم بصورة سرية .حكى عنهم الحارث بن سنان بن سباط الحرانى - وهو من ملكية النصارى وذو معرفة ودراية بمذاهب القوم - قال : « إن لهم هياكل على أسماء

---

(١) نحو نجم الجدى

(٢) سليم برنجى ص٢١٦ الصابئة المندائية - ترجمة أحمد جابر - دار المدى ١٩٩٧

الجواهر العقلية أو الكواكب . فمن ذلك : هيكل العقل ، وهيكل النفس أو الصورة وهذه مدورات الشكل . وهيكل زحل (مكعب) وهيكل المشترى (هرم) وهيكل المريخ (مستطيل) وهيكل الشمس (مربع) وهيكل عطارد (مثلث) وهيكل الزهرة (مثلث فى جوف مستطيل) وهيكل القمر (مثمن الشكل) وكانوا يقدمون لها القرابين، والبخور فى أعيادهم[(١)] »

إن الاختلاف فى بناء المعابد ، كان استجابة لشروط المناخ والجغرافية ، حيث المناخ المعتدل المائل إلى الحرارة ، والمياه المتدفقة باستمرار والفيضانات التى تدمر معالم الحياة ، على شواطئ نهرى دجلة والفرات .

التعليق :

إنه اعتمد فى حكمه عليهم على رجل من أعدائهم هو من النصارى الملكانية. ومما يدل على أن الذين يقال إنهم الصابئة ؛ من اليهود : هو أن الله أمر اليهود ببناء مساجد متواضعة غير مشيدة . ذلك قوله : « مذبحا من تراب تصنع لى، وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك . غنمك وبقرك . فى كل الأماكن التى فيها أصنع لا سمى ذكرا ، آتى إليك وأباركك . وإن صنعت لى مذبحا من حجارة؛ فلا تبنه منها منحوتة . إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها ، ولا تصعد بدرج إلى مذبحى ، كيلا تنكشف عورتك عليه » [خروج ٢٠: ٢٤ ـ ٢٦]

ولذلك كانت مساجدهم من القصب . وفى أيام إجبار الرومان لهم على المسيحية الحالية ؛ بنى لهم الرومان مساجد مشيدة على طراز المعابد الوثنية . وقد صلّوا فيها كرها .

(٢) اختلافهم فى طقوس الصلاة :

الصلاة هى عماد الدين فى كل ديانة . وتسمى الصلاة «البراخة» أى المباركة، وتسبق عند الصابئة (بالرشامة) أى الوضوء . يتلو المصلى المندائى قبل غسل يديه ، ووجهه ورجليه :« بسم الله المتعالى . . . واسم الملك مندا .وهو المَلَك المقرب من عرش الله . السلام عليك ، أيها (برباوس) أيها الطاهر الجارى . نويت الصلاة لله

---

(١)المسعودى ج١ ص٤٦٥ ولاحظ : أن هذا هو عمل اليهود فى كتب السحر التى يعملونها لتعليم الناس . ككتاب شمس المعارف الكبرى ، والسبع عود السلمانية وغيرها .

الواحد الأحد . وعليك السلام يا (برياوس) أيها المَلَك المقرب من العرش ، ويا حارس الحياة الجارية[(1)] »

ويصلى المندائى ست صلوات . ثلاث فى النهار ، وثلاث فى الليل .

أما الحرانية فالمفترض عليهم من الصلوات فى كل كل يوم ثلاث .

أولها : قبل طلوع الشمس بنصف ساعة ، وأقل ، لتنقضى مع طلوع الشمس ، وهى ثمانى ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة .

والثانية : انقضاؤها مع زوال الشمس ، وهى خمس ركعات ، وثلاث سجدات فى كل ركعة .

والثالثة : مثل الثانية و انقضاؤها عند غروب الشمس .

وصلواتهم النافلة هى بمنزلة الوتر عند المسلمين ، ثلاثة فى كل يوم ، الأولى فى الساعة الثانية من النهار ، والثانية فى الساعة التاسعة من النهار ، والثالثة فى الساعة الثالثة من الليل (التوقيت بالعربى اليوم ١٢ ساعة يبدأ من طلوع الشمس في الساعة الأولى والغروب الساعة الثانية عشر) ولا صلاة عندهم إلا على طهور[(2)] .

التعليق :

إنهم يصلون ثلاث صلوات على عدد صلوات اليهود ، ويصلون صلوات النوافل . فلمن يصلون إذا كانوا موسومين بعبادة الكواكب ؟

(٣) طقوس قبول الحدث فى الديانتين :

يتجلى الاختلاف واضحا بين الديانتين المندائية والحرانية ، فى شعائر قبول كل منهما للحدث فى استلام مبادئ الديانة .

كيفية عمادة طفل عند المندائية :

العقيدة الأساسية عند المندائية « كل من تعمد بالمعمودية يسلم » وهى بالآرامية « إتش صابى بمصبته شلمى » فى هذه المقولة تنعكس كل عقيدتهم .

---

(١) سليم برنجى ص٢٢٦ الصابئة . .

(٢) المندائية .

يحضر الطفل قبل العماد مع كفيله « الاسكندا» إلى الكاهن «الترميد» ومعهما غصن أخضر من الآس ، ووعاء ملئ بالماء (الكبش) وفيه خاتم من نحاس أصفر ، وطير أبيض من حمام ، ويتوجه الجميع إلى شاطئ النهر الجارى .

- يؤدى الحدث المراد تعميده « الرشامة » أى الوضوء ، وهو داخل الماء الجاري ووجهه نحو الشمال ، بينما يقف « الترميد» نحو القبلة ، ثم يلف الغصن على شكل إكليل يضعه على رأس الحدث ، وبيده عصا من الزيتون « مركنه » ويقوم الكاهن بالادعية ، بعد أن يسأل الطفل عن اسمه فى العماد « ملواشه » ويحدد الساعة والشهر الذى ولد فيهما الطفل المعمد .

- ثم يستدر الترميدة بالدعاء « البورثة » ويضع على رأس الطفل قطعة من القماش الأبيض فوق إكليل الرأس ، ثم يضع فى خنصر يد الطفل أو الحدث الأيمن الخاتم .

ومكتوب عليه بالأرامية « الشوم يارو » ومعناه « الله المعين »[1] ويظل هذا الخاتم بيده مدي الحياة ليقبر معه .

- ويردد الطفل المتعمد أو وكيله : « أنا المعمد (فلان بن فلان) قد غطست فى الماء الجارى الطاهر والمقدس ، وتعمدت كتعميد (بهرام) ابن الأجداد الكبار ، وإن تعميدى هذا سيحفظنى من شر الشياطين ، ويبعدنى عنها ويزيد ، إيمانى ليذكرنى دائما، باسم الله الكبير والعظيم [2] ، واسم الملك (مندادهى) الملك المعظم ، ثم يغطس فى الماء الجاري ثلاث مرات وهو متوجه نحو الشمال[3] »

ثم يتوجه الحدث أو كفيله نحو الكاهن ويقول : أنا وبقدرة من الله والاتكال عليه[4]، وبكامل رغبتى ، وحريتى ، دخلت الماء الجارى ، وتعمدت استنادا لعاداتى، وقبلت الطهارة ولبست لباس الدين الطاهر ، ووضعت الإكليل المقدس النورانى على رأسى . ويشهد هذا الماء الجاري على أعمالى الحسنة [5]»

(١) لاحظ : الله المعين . وهذا يدل على معرفتهم بالله

(٢) لا حظ : ويزيد إيمانى ليذكرنى دائما باسم الله الكبير العظيم .

(٣) البدء والتاريخ ج٤ ص٢٢ .

(٤) لاحظ : وبقدرة من الله والاتكال عليه .

(٥) لاحظ . على أعمالى الحسنة

- ثم يأخذ الكاهن قليلا من الماء براحتيه ليسقى المتعمد .

- ثم يغمس الكـاهن يده بزيت السمسم ويمسح على وجه المتعـمد ، ويطلب المغفرة له ولوالديه[1] ، ثم يأخذ منه (الكشطا) العهد والميثاق .

- ثم يشرع الترميدة ، بذبح الطير ، وهـو يدعو « عليك اسم الله ، واسم الملك مندادهى الملك المقرب من عرش الله »

- وعندما يتم الفداء عن المتعمد يقـول الكاهن : « ليباركنى اسم الله المتعالى واسم الملك مـندادهى المقـرب مـن عـرش الله ، إنـى أديت عـمل المذبـح بسكين حديدى بأمر من الله ، وإنه غافر لذنوبى[2] »

- ثم يقدم الترميدة ، الخبـز المقدس (البهثا) المكون من القمح والملح والماء ، ويقدم معه بعض فاكهة الموسم ، كالجـوز والتمر والرمان والبصل ، وطير الحمام ، ليأكل منها الحدث المتعمد .

- ثم يقـدم للمتـعـمد لبـاس الرستـه (المكون من خـمس قطع) ثوب أبيض وعمامة بيضاء وحـزام صوفى (الهريانه) وسروال أبيض (شلوار) وشال أبيض تلفح به الرقبة .

- ثم يبارك الترميدة ، الكفيل ، والحـضور . ويحرق البخور (السـنلوس) ذو الرائحة الزكية .

كيفية اطلاع الحدث على أسرار المذهب عند الحرانية :

الديانات السرية والمذاهب المغلقة ، تهيئ أفرادها قـبل استلامهم مبادئ الدين فى طقوس خاصة بهم . ومن تلك الديانات وأصحاب المقالات (الحرانية)

وفى رسائل إخوان الصفا[3] وصـف دقيق لكيفية استلام الحدث لدينه . قالوا :

- يحـضر الفـتى ومعـه كفيلـه ، فى يوم معلوم ، يجـمع رئيس الكهنة فـيه كلالأحـداث الذين يودون «سمـاع السر » فى الصبـاح الباكـر من يوم الأحد[4] .

(١) لاحظ : ويطلب المغفرة له ولوالديه . أى من الله

(٢) سليم برنجى ص ٢٣٧ الطبعة المندائية .

(٣) إخوان الصفا : من اليهود

(٤) يوم عطلة المسيحين . وهذا يدل على أنهم مسيحيون

فيعـرى أحدهم ، ويقبض على عضـده كاهنان ثم يدخلانه ، وهو مشـدود العصابة على عينيه ويمشى القهقرى حتى يصل إلى (قدس الأقداس) فى المعبد فيدخل ويطبق الباب ، والسرج تتقد ، والمجامر تدخن بأنواع البخور والدخن العطرة .

يقول الكاهن : أتحب أن تدخل فى ديننا ، وتسمع ملائكتنا ؟

يجيب الحدث : نعم .

الكاهن : إن أقمتَ على دينى ، وحفظت سرى ، فإن رأسك . يبقى عاليا، وإكليلك ثابتا .

يخاطب الكاهن الكفيل : أتكفله على إقامته على دينى وحفظ سرى ؟

الكفيل : نعم .

- يضع الكاهن الحدث على بساط أمام المائدة ، والفتى على جانبه الأيسر ، ويتلو على رأسه أسمـاء الملائكة وهى (٨٧) اسما على رأسهم (جـرجاس) ثم يتابع الكاهن كلامـه : « طوباك إذاً من أهل للاستـماع لهـذه الأسرار فإن الله يطهرك » ويتناول سكينا من الحديد ليذبحه . فيتقدم الكفيل ويقدم خاتمه رهنا عنه . ويقول : إنه سيحفظ المناسك ، ويقيم على الدعوة ، ويكتم السـر . فيعيد الكاهن الخاتم إلى الكفـيل، ويأخـذ بدلا عنه الديك ، وهو يقـول : « إنى أقـبله نفـسـا بدل نفس ، وأنذبه بين يدى الشمس ،المحبة للنفوس وجرجاس » ويقوم بعملية ذبح رمزية على عنق الحدث وهو يتمتم : « يا جرجـاس ، اقبل هذه الذبيحـة ، واترك هذا الغلام لأبويه »

- ثم يحمى على السراج خاتم من حديد ، ويكوى يد الطفل اليمنى ، مكررا ذلك (٩٩) مرة . ثـم يكويه ، ببعض عـيدان الطرفـاء ، كيأ لـطيفا ، عـلى صدره وجبـهته ثم يلبسـه ثيـابا بيضاء ، وخـفا من جلود القرابين الطـاهرة ، ويشد وسطه بعمامة بيضاء ، ويعطيه فصا من ملح على صورة مثلث ، رمز عطارد(١) »

وفى عـملية الذبح والـفداء إعـادة للموروث الآرامى الـقديم عندمـا افتـدى إبراهيم الخليل ابنه بكبش ﴿ بذبح عظيم﴾ وأما استبداله بالديك ، فلأن سقراط قال

(١) رسائل إخوان الصفا ج٤ ص١٨٣ .

موصيا عند موته : « اذبحوا عنى ديكا فى الهيكل فإنه نذر علىّ »

التعليق:

إنه نقل عن إخوان الصفا . وهم جماعة مشكوك فى دينها . والحق: إنهم من اليهود . وظهر من النقل إعترافهم بالله ، وعلمهم الأعمال الصالحة ، وطلب المغفرة من الله واعترافهم بعرش الله العظيم .

اختلافهم فى عقيدة الحشر والمعاد :

الديانة المندائية ، ديانة موحدة وتؤمن بخلود الروح ، وبالحشر والمعاد . وعندما يموت الإنسان تبقى روحه ، تحوم حول القبر ثلاثة أيام ، ثم تحاسب فى اليوم الثالث قبل أن تنطلق فى عروجها نحو السماء السبع ، وفي اليوم السابع ، ترتفع نحو السماء الاولى .

وفى اليوم الثلاثين تصل إلى السماء السابعة ، وفى اليوم الخامس والأربعين ، تصل إلى مكان الحشر (الماداإيتاهيل) المكان الذى توزن به الحسنات والسيئات ، ويحكم على الأرواح إما بالثواب أو بالعقاب ، وتظل تنتظر ، حتى يوم القيامة ، ليعود إليها جسدها ، وتستقر بالجنة (الماد نهورا) أو جهنم (المادهشوخا)

- أما فى الديانة الحرانية ، فإن النفس خالدة أيضا ، ولكن النفس بعد الموت تحل فى جسد آخر (تناسخ)(١) إذا كانت ذات أعمال سيئة في الحياة الدنيا ، وتظل تبدل أجسامها حتي تتطهر من الأدران ، بالمعرفة الإلهية ، فإذا تطهرت النفس ارتفعت إلى عالم القدرة (عالم الأفلاك) وتظل تنتظر يوم الحساب لتنعم برؤية البارئ سبحانه .

التعليق :

إنهم ينتظرون يوم الحساب لرؤية الله تعالى . فكيف مع اعترافه بهذا ؛ يقول إنهم يعبدون الكواكب ؟

(٥) وفى الديانتين اختلاف فى الدفن وتوجيه القبور :

فالمندائيون تتجه قبورهم (القاروا) شمال - جنوب . وللقبر في الأعلى شكل دائرى ، ويوجه الوجه باتجاه الشمال . وتدفن مع الميت ، قطعة من الخشب ويضعون فى فمه حصاة صغيرة، أو قليل من التراب ويدفن مع الميت خاتم العمادة.

---

(١) تناسخ الأرواح موجود عند النصارى

أما الحرانيون فقبورهم تتجه غرب ـ شرق . ويكون الرأس باتجاه الغرب . والوجه نحو الأعلى باتجاه الشمال الشرقى ، ويدفن مع الميت متاعه ، وثيابه وخاتمه . وخواتمهم عليها تماثيل منحوتة على حجارة صغيرة (ومعظم فصوص الخواتم من العقيق) ولقبور الحرانية شواهد طويلة على شكل التماثيل .

وفى كلا الديانتين الحرانية والمندائية؛ لا يظهرون الحزن على الميت . فاللطم والبكاء محرمان .

(٦) اختلافهم فى عقيدة قدم العالم :

للمندائية أسطورة حول خلق العالم مفادها :

أن العالم تم خلقة على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : استغرقت ستة آلاف رويان (أى ما يعادل ستين مليون سنة) وفى هذه المرحلة لم تكن الأرض فى البداية جامدة ولا باردة ، وليس لها حدود واضحة ، ولم يكن عليها أثر للحياة والعمران .

المرحلة الثانية : استغرقت ستة آلاف رويان أيضا ، وفى هذه المرحلة بردت الأرض وغطى سطحها مياه آسنة متعفنة ،خرجت منها كائنات صغيرة .

المرحلة الثالثة : استغرقت ستة آلاف رويان ، وفى هذه المرحلة خلق الله الملائكة والسموات السبع ثم خلق الله بعد مائة سنة (آدم) فهاجمته كائنات شريرة فناداه الله : يا آدم . تقدم وكن صاحب هذه الأرض ، وهبط الملاك (الملك اهيول زيوا) ووضع على رأس آدم إكليلا من الآس ، وهو رمز النور والطهارة .

ثم تطورت أسطورة خلق آدم الذى هبط فى جزيرة سرنديب . وتقول الأسطورة: إن الله أخذ من طين الأرض ، وصنع هيكل آدم[١] ثم تغلغلت (نشمته) فى الجسم واستغرقت ذلك (٣٥٦ ، ٤٤٥) سنة ثم دب الفساد فى الأرض بعد آدم فظهر آدم شتيل ليعيد العدالة للمجتمع البشرى ثم خلق له من نفسه حواء ، لتكون له زوجا ومؤنسا وانطلقا فى الأرض ، وعاشا على الزراعة ثم صارت حواء تنجب توأمين ذكرا وأنثى ، ثم أرسل ستين شخصا من الملائكة مع أسرهم ليتزاوجوا

---

(١) هذه القصة على هذا النحو موجودة فى التلمود ، فيكون الصابئة من اليهود .

مع البشر ليكثر العالم ، وكانت تعاليم آدم الأولى هى مضمون كتاب الكنز رابا .

ثم أرسل الله لآدم ملكين ، قبضا روحه ، وعرجا بها إلى السماء ثم أرسل الله بعد (٢١٦) ألف سنة رجلا صالحا مؤمنا يسمى (رام) تسانده زوجته (رود) استطاعا أن يعيدا الهدوء إلى البشرية ، وأزالا الحقد والكفر وعدم الطاعة والفقر ، وأقاما العدالة .

ثم ظهر رجل مؤمن آخر بعد مرور مائة ألف عام ، ثم ظهر (شوريامى) ترافقه زوجته (شرحبيل) واستطاعا قيادة الناس ، بعون الله ، ولكن بعد مرور (٩٢) ألف سنة تفشت الشرور وساد الجهل وعم الفساد ، فأرسل الله (نوحا) تسانده زوجته (تورئيا) وامره أن يصنع فلكاً طوله (٣٠٠) ذراعا وعرضه (٥٠) ذراعا ، وارتفاعه (٣٠) ذراعا ، وكان الفلك من شجر السندهان . ثم أنذره أن يأخذ من كل الحيونات، من كل زوجين اثنين وأمطرت السماء (٤٢) يوما وليلة حتى غطى الماء أركان الكرة الأرضية بما فيها قمم الجبال ، وطافت السفينة على سطح الماء (أحد عشر شهرا) ثم رست إلى جانب جبل (قاردن) عندما أعلنت له الحمامة البشارة بغصن الزيتون .

وأخرج (نوح) الحيونات من السفينة ، ونشرها فى الأرض ، وصنع مما يبقى عنده من الحبوب طعام (العاشورية) وكان لنوح أربعة أولاد هم : (شوم بن نوح) أى سام . ويعدّه الصابئة جدهم الأعلى ، وهو الذى ولد قبل الطوفان ، أما أولاد نوح الثلاثة (يام وحام ويافث) فقد ولدوا بعد الطوفان .

فى هذه الأسطورة دليل علي امتزاج ثقافة بلاد ما بين النهرين بثقافة فلسطين لأن اليهود قد تأثروا بعد السبى بالفكر الكلدانى بعد عام (٥٨٦ ق.م) وعندما دونت التوراة ، كانت مزيجا من المعتقدات ، التى تأثرت بها المندائية فيما بعد(١) .

التعليق : المذكور عن آدم وحواء ونوح مذكور فى التوراة .

أسطورة خلق العالم عند الحرانية :

إن أسطورة خلق العالم عند الحرانية ، أقرب إلى الفكر اليونانى ، إنها نظرية هرمس الحكيم فى خلق العالم قال مار يعقوب الرهاوى: لقد ورد فى كتب

(١)مسليم بركى ص ٥٩

الحرانيـة أنهم يقولون : إن السمـاء والأرض والشمـس والقمـر وسائر الكواكب هى أزلية غير مخلوقة ، وهى آلهة وأرباب ، وهم سادة هذا العالم ، وأولوه اهتمامهم. وقبل خلق العالم ، كان يرفرف فوقه روح الله . ويقولون : فى البدء كان كل شئ ظلاما ومياها قبل أن يكون هناك آلهة وبشر . وكان الروح يرفرف فوق المياه السائلة. قال الروح : فخلقت هذه كلهـا ووضعت لهم أسماء وأرضا وابراجا ، صـورت فيها تماثيل جعلتهـا وجهات لميرتهم ثم خلقت (بعل) أولا وبعده (ما رود) سـبباً للآلهة، ومن ثم البقية . وجعلت الشمـس والقـمر سلاطين على الليل والنهار ، وهكذا جاء كلامهم مطابقا للحق[١] .

- ثم يتكلم الصـابئة عن خلـق آدم ونوح وابراهيم طبقـا لما جاء فى التـوراة وليـس كما ورد عند المندائية .

التعليق :

قـوله طبقـا لما جاء فى التـوراة ؛ يدل على أنهم نقلوا منهـا . وقولهم بقـدم العالم يقول به بعض المسـلمين . مع أنه يهدّ الدين هدّاً .

•••

٦- ومن المفكرين والباحثين فى النحلة المندائية البـاحث العراقى عبد الرزاق الحسيني كتب عنهم دراستين :

قال فى الدراسـة الأولى : إنهم عبدة الكواكب ، ووحد بينهم وبين الـصابئة الحرانية .

ثم قال فى الدراسة الثانية بعد أن اطلع على كتبهم وحقيقة شعائرهم: «إنهم قوم يؤمنـون بالخالق جل شأنـه . واحد أزلى ، لا أول لوجود ، ولا نهـاية ، منزه عن المادة ، لاتناله الحواس ، ولا يفضى إليـه مخلوق ، وأنه لم يلد ، ولم يولد ، وهو علة وجـود الأشاء ومكونها . ولا يـختلف اعتـقادهم فى الخـالق عن اعتـقاد المؤمنين . وأن الله يفصل بينهم يوم القيـامة ، يقول تعالى ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد﴾ (سورة الحج : ١٧)

---

(١) كتاب الأيام الستة ص ١٠٩ ملو يعقوب الرهاوى .

إن المندائيــة طائفة مؤلهــة ، يتبــعون وصايا نــبي الله يحيى - عليه السلام - ويقدسون الماء الجارى ، ويعملون به »

وفى كتاب صابئة حران :

متى اطلق على الحرانية اسم الصابئة ؟

الحرانيون لا عــلاقة لهم بالصابئة الوثنيين الذين كـانوا فى زمان إبراهيم عليه السلام،وكـان أهل الرها يطلقـون عليهم أسـماء مـتعددة منـها (الكلدان والحـتوف والحرانيون) ولم يذكر بين تلك التسميات اسم الصابئة كاسم وثنى .

وهذه التسمية أطلقت عليهم في القرن الثـالث الهجرى ، عندما اجتاز الخليفة المأمون سنة ٢١٨هـ ٩٣٣م مدينة حران فتلقاه الناس يدعـون له ، وفيهم جماعة من الحرنانيين وكـان زيهم لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة ، بوفرات كـوفرة «قُرة» جدّ «سنان بن ثابت» فأنكر المأمون زيهم ، وقـال لهم : من أنتم من أهل الذمة ؟ فقالوا : نحن الحرنانية ، فقال :

أنصـارى أنتم ؟ قالوا : لا . . . قـال : فـيهـود أنتم ؟ قالوا : لا . قـال : فمجوس أنتم ؟ قالوا: لا . . قال لهم : أفلكم كتاب أم نبى ؟ فجمجموا فى القول، فقـال لهم المأمون : فـأنتم إذاً الزنادقة عـبدة الأوثان وأصـحاب الرأس أيام الرشـيد والدى ، وأنتم حلال دمـاؤكم ولا ذمة لكم . فقالوا : نحن نؤدى الجـزية . فقال لهم : إنما تأخـذ الجزية ممن خالف الإسـلام من أهل الأديان الذين ذكرهـم الله عز وجل فى كتابه . وأنتم لستم من هولاء فاختاروا أحد أمرين (١):

- إما أن تنتحلوا دين الإسلام .

- أو دينا مـن الأديان التى ذكـرها الـله فى كـتـابه . وإلا قـتلتـكم عن آخركم. وإنى انظرتكم إلى أن أرجع من سفرتى هذه .ورحل المأمون يريد بلاد الروم

فماذا حـدث بعد ذلك للحرانيـة ؟ إنهم غيروا زيهم ، وحلقوا شـعورهم ، وتركوا لبس الأقبية وتنصر كثير منهم ، ولبـسوا الزنانيـر ، وأسلمت منهم طائفة وبقى منهم شرذمة، على حالهم ، وجعلـوا يحتالون ويضطربون ، حتى انتدب لهم

---

(١) واضح هذه القصة يريد ان يظهر دين الإسلام بمظهر إكراه الناس عليه .

شيخ من أهل حران فـقيه . فقال لهم : قـد وجدت لكم شيئا تـنجون به وتسلمون من القتل . فحملوا إليه مالا عظيـما من بيت مالهم الذى أحدثوه منذ أيـام الرشيد لهذه الغاية وأعدوه للنوائب ، قال لهم الـشيخ : إذا عاد المأمون وسألكم عن دينكم فقولوا له : نحن الصابئون ، فهـذا اسم دين ذكره الله فى القرآن ، فانتحلوه فأنتم تنجون به »

هذه أول إشارة إلى واقعـة تاريخية هى انتحال الحرانيـة لاسم الصابئة . ومن انتحل منهم الإسلام وخشى العـودة والارتداد عن الإسلام أعلنوا الإسلام واتخذوا الأسماء الإسلامـية غطاء ، وهذه هى التقيّة عند الحرانية ،أو الصـابئة الجدد وكانوا يضمرون دياناتهم سـرا كما فعل آباء محمد بن جـابر بن سنان البتانى وهو ابن أخت ثابت بن قرة الحرانى،وقد أبى البتانى تسمية زيجه العظيم إلا باسم (الزيج الصابئ)

وعندما خـضع أهل حران للديـن الإسلامى كان اسـمهم الحـرانية.قـال مار يعقـوب الرهاوى (المتوفـى ٧٠٨)فى كتابه الأيـام الستة:« عنـدما اطلع على كـتاب هرمس الحكيم وهو من كـتاب الحرانية المقـدسة قال عنهـم: هؤلاء القوم عند الناس لهم أسماء مـختلفة منها الكلدان والحـترفون(١) .ولم يذكـر اسم الصابئـة بين تلك الأسماء.

أما الكندى فإنه دعاهم بالصابئـة ، وقد نقل أحمد الطيب حكاية عنه : « إنه نظر فى كتاب قرة هؤلاء القوم وهو مقـالات لهرمـس فى التوحيد لابنه على غاية من النقاوة فى التوحيـد لا يجد الفيلـوف إذا أتعب نفـسه ، مندوحـة عنها ، والقول بها وهؤلاء القوم دعوا إلى الله وإلى الحنيفية التى يتسمون بها »

التعليق :

قـال: إن الأسـتـاذ عـبـد الرزاق الحـسينى فى دراسـة له وحـد بين المندائى والحرانى. وقال: إنهم دفـعوا الجزية على أنهم أهل كتاب فى القـرن الثالث . وقد قلنا من قـبل إنهم دفـعـوها فى بدء الإسـلام . وقال : إن الكندى دعـا الحـرانيين بالصابئة وقال إنهم موحدون .

---

(١) الأيام الستة ص ١٠٠ مار يعقوب الرهاوى .

عادات وتقاليد حرانية :

شعائر الزواج والطلاق :

كانت الأسرة الحرانية وحدة إنتاجيـة ، مكتفية بذاتها من حيث إنتاج الطعام واللباس وكانت المرأة تلعب دورا هاما ، فى اقتصـاد الأسرة . وهذه الأهمية ورثتها حتى توريث العقيدة الدينية للأبناء . فالديانة مرتبطة بالأم .

وكان الزواج محـصورا بين أبناء الطائفة وإن كان يفضـل الابتعاد فى النسب . لاعتقادهم أن زواج الأقارب يورث الوهن والبهق وكثرة الشعر والإصابة بالصمم .

وكان الحرانى الذى يتزوج من خارج الطائفة يعتبر خارجا على الدين بصورة تلقائية(١) . وكان زواج الأنثى لا يتم إلا بولى وشهـود ، وزواجهم من واحدة فهم لا يقرون مبدأ تعدد الزوجات على عكس الصابئة المندائية الذين يقرون بل ويمارسون تعدد الزوجات (٢) .

وكانت الحرانيـة لا تحض على طلب اللذات فهم لا يطأون المرأة إلا من أجل الولد ، ويعـتزلون الطامث ، ويحـرمـون الرضاع من الغـير ، خـشيـة العقـاب فى الأخرة(٣) .

---

(١) الفهرست ص ٣٨٤

(٢) الفهرست ص ٣٨٣ . وتعدد الزوجات مسموح به فى شريعة التوراة فإن داود عليه السلام تزوج كثيرا . من الحرائر والإماء . وكذلك سليمان . ففى الأصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول : « وكانت له سبع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السرارى » .

وقوله بالزواج بواحدة » أخذوه من المسيحيين ، وقوله عن الحرانية :« ويعـتزلون الطامث » أخذوه من التوراة ونصه :

«وإذا كانت امرأة لها سيل ، وكان سيلها دما فى لحمها ؛ فسبعة أيام تكون فى طمثها . وكل من مسها ؛ يكون نجسا إلى المساء ، وكل ما تضطجع عليه فى طمثها يكون نجسا ، وكل مـا تجلس عليه يكون نجسا ، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء . وكل من مس متاعا تجلس عليه ؛ يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء ، وإن كان على الفراش أو على المتاع الذى هى جالسة عليه عندما يمسه ؛ يكون نجسا إلى المساء ، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام . وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا» [لاويين ١٥ : ١٩ ـ ٢٤]

وقوله عن الحرانية : إن نصيب الأنثى كنصيب الذكر » أخذوه من التوراة

(٣) الصابئة المندائية ج١ص٣٩ تأليف سليم برنجى ـ ترجمة أحمد جلبى ـ دار المدى ١٩٩٧

أما من حيث الميراث فللمرأة كنصيب الذكر سواء بسواء . والمرأة المطلقة لا ترد، وعقد الثيب ينجس بنجس الكاهن الذى يقوم به ، ولا يسمح فى الطلاق إلا فى حالات محددة ، حين ثبوت الزنا والمرض المزمن والسرقة أو ترك الصلاة عن عمد.

اللباس والزينة :

اللباس من المفاخر الثقافية الملموسة فى حياة الشعوب ، فإذا كنت فى أكبر مدن العالم مثل (نيويورك) تجد هناك تعدد الأعراق والأجناس ويمكنك أن تميز بسهولة الرجل (اليهودى) من لبسه اليرموكة على رأسه ، ومن لحيته الكثة ، وجدائل شعر رأسه ، وسترته الطويلة قبل أن تسأله عن اسمه أو دينه .

ويمكنك التعرف على الرجل الهندى من طائفة (السيخ) من عمامته الملونة ولحيته الكثة وسوار يده اليمنى ، والرجل المسلم من عمامته والكاهن اليسوعى من لباسه .

فاللباس إذاً إحدى السمات الثقافية التى يتوارثها الأفراد جيلا جيلا .

وكان الحرانيون يلبسون الأقبية القطنية البيضاء ويمكنك معرفتهم من وفرات شعر رءوسهم المكشوفة وهم الذين أثاروا انتباه الخليفة المأمون عندما مر بحران وسألهم عن ديانتهم فقالوا له : نحن الحرانية(١). وعندما هددهم المأمون ، غيروا أزياءهم وقصوا شعورهم . وكان الحرانية يحرمون لبس اللون الأزرق على الرجال كالمندائية اليوم ولباسهم المفضل الثياب القطنية البيضاء .

وكانت نساؤهم يلبسن الجلابيب الطويلة السوداء ، المطرزة بخيوط حريرية ملونة ويتلثمن بالخمر الحريرية السوداء أو الملونة . ويتحلين بالذهب والفضة والأحجار الكريمة .

وكان الرجال يضعون فى خناصر أيديهم خواتم من الفضة . عليها فصوص ملونة مزينة بصور ، قال ابن النديم: « وشاهدت بأصابعهم خواتم منقوشة على فصوصها تماثيل حيونات تصلح - بزعمهم - لفنون شتى . فسألتهم عن مصدرها

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٩ .

فزعموا له أنهم يصيبونها فى قبور موتاهم القديمة فيتبركون بها » (١)

طقوس الموت والدفن :

إن الأساطير التى تضمنتها (محاورة فيدون) لأفلاطون قد تناولت أصل الروح وهبوطها ثم انتقالها من جسد إلى آخر . لقد وهبت تلك المحاورة فيضا من القوة فى معاكسة فكرة الموت ، واستمرار الحياة بعد الموت (بالتناسخ) وساعدت تلك الفكرة فى إثارة نشاط الناس وتنظيم فعاليتهم(٢) .

قال هيروميروس : (النوم صنو الموت) هذه العبارة خلاصة عقيدة انحدرت من أحقاب بعيدة فى تاريخ البشرية . وكان الحرانية يعتقدون بها . وهى أن نفس الميت حتى بعد تقمصها لجسد آخر تظل قريبة من البيت الذى عاشت فيه .

كان الحرانية يقدمون الطعام لروح الميت لمدة سبعة أسابيع ، ويسمون ذلك الطعام (اللوفانى) والغريب أن هذه الطقوس لا زالت دارجة فى مدن الجزيرة وعلى ضفاف الفرات ، وتدعى تلك الصدقة (عشيات الميت) وهذه من رواسب ثقافة قديمة .

ومن عادة الحرانية الاستعداد لتجهيز الميت قبل خروج الروح من الجسد ، لأن الروح لا تطهر إذا لم تخرج من بدن طاهر ، لذلك يجب غسل الميت ساعة احتضاره وإلا تعذر تطهيره وحرم مسه(٣) .

•••

وفى كتاب « أصول الصابئة المندائيين ، ومعتقداتهم الدينية » تأليف الأستاذ عزيز سباهى ـ دار المدى بسوريا ١٩٩٦ .

١ ـ « إن النصوص التى توغل فى القدم لاتشير الى أن المرأة قد شغلت مركزا دينيا لدى المندائيين ، وربما كان هذا الموقف استمرارا لتقليد سابق ، يرجع إلى يوحنا المعمدان ، وطوائف البحر الميت التى كانت تتحفظ إزاء المرأة »

---

(١) الفهرست ص ٣٨٦

(٢) الصابئة قديما وحديثا ص٤٥ عبد الرازق الحسينى ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٣١ .

(٣) الفهرست ص٣٨٦ .

٢- « ولد يوحنا المعمدان . إما فى ٧ أو ٦ ق م فى «حبرون» أو فى القرية التى تدعى الآن « عين كارم» إلى الشمال الغربى من « بيت لحم » والتى تبعد بحوالى ٢٠ ميلا عن «قمران»

٣- « عديد من الباحثين يعتقدون أن يسوع عاش مع يوحنا بين الأسينيين أو طائفة البحر الميت منذ أن كان صبيا . ومنهم من يعتقد أنه زامل يوحنا ، وكان من أتباعه ثم ابتعد عنه »

٤- « أخذت كلمة التعميد Baptism عن اليونانية Baptein وتعنى الانغمار أو الارتماس فى الماء ، ويقابلها فى الآرامية مصبوتا أو مصبوتا . وهى تؤدى ذات المعنى»

٥- « تميز تعميد يحيى بكونه قد مارسه مع اليهود وغير اليهود أيضا ، وأنه يجرى لمرة واحدة »

٦- « تحدثنا المصادر المسيحية أن أتباع يحيى ، وجدنا فى القرن الأول فى أماكن بعيدة عن فلسطين . ففى أفسس ، وهى تقع فى الإقليم الجنوبى الغربى للأناضول ، وجدت جماعة من هؤلاء ، كما استقرت جماعة أخرى منهم فى الاسكندرية فى مصر »

٧- « إن أتباع يوحنا لم يسمعوا منه - طبقا للأناجيل - أنه وصف نفسه بالمسيح[١] إلا أنه لم يصف يسوع بذلك أيضا »

٨- « التراث المسيحى الأول لم يتضمن من جانبه اعترافا من يوحنا بأن يسوع هو المنتظر[٢] (Mead, Ibid p 27) .

٩- « إن أتباع يوحنا كانوا يرفضون نسبة « المسيح »[٣] إلى يسوع، ويعتبرون الدعوة لذلك دعوة باطلة »

١٠- « إن ديوان « حران كويثا» يبين نشأة يوحنا المعمدان بعيدا عن

---

(١). لاحظ ان المسيح المنتظر عند اليهود ليس هو يحيى وليس هو عيسى وإنما هو محمد رسول الله .

(٢) التعليق السابق .

(٣) التعليق السابق .

«أورشيم» ثم قيامه بالدعوة إلى مذهبه وهو فى سن الثانية والعشرين »(١)

١١ - « ومن المحتمل أنه نشأ على يد الأسينيين أو طائفة البحر الميت ، فقد كانت هذه الطائفة تحرص على احتضان الصغار الراغبين فى العيش معها ، وربما كانت عوائلهم تدفعهم إلى ذلك ، خوفا عليهم »

المسيح المنتظر

مما قاله الأستاذ عزيز سباهى فى كتابه « أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية » :

أ ـ « إن أتباع يوحنا لم يسمعوا منه ـ طبقا للأناجيل ـ أنه وصف نفسه بالمسيح. إلا أنه لم يصف يسوع بذلك أيضا »

ب ـ « التراث المسيحى الأول لم يتضمن من جانبه اعترافا من يوحنا بأن يسوع هو المنتظر(Meadm Ibid P27)

ج ـ « إن أتباع يوحنا كانوا يرفضون نسبة «المسيح» إلى يسوع ، ويعتبرون الدعوة لذلك باطلة »

يريد أن يقول :

١ ـ إن يحيى ليس هو المسيح المنتظر الملقب من داود بلقب ابن الله (٢).

---

(١) ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾

(٢) نبوءة ابن الله ، وتطبيق المسلمين لها على محمد ﷺ

يقول داود عليه السلام : «لماذا ارتجت الأمم ، وتفكر الشعوب فى الباطل ؟ قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه ، قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنها ربطهما .

الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى .

إنى أخبر من جهة قضاء الرب . قال لى : أنت ابنى . أنا اليوم ولدتك . اسألنى . فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك . تحطمهم بقضيب من حديد . مثل إناء خزاف تكسّرهم .

فالآن . يا أيها الملوك تعقلوا . تأدبوا يا قضاة الأرض . اعبدوا الرب بخوف ، واهتفوا برعدة . قبلوا الابن لئلا يغضب ، فتبيدوا من الطريق، لأنه عن قليل يتّقد غضبه . طوبى لجميع المتكلين عليه »

[مزمور ٢] يقول مؤلف تخجيل من حرف الإنجيل فى البشرى السادسة عشرة : « قال داود فى المزمور

٢ ـ ولم يصف يحيى عيسى بأنه هو المسيح المنتظر.

ومعنى هذا: أن المسيح المنتظر سيأتى من بعد يحيى ومن بعد عيسى . ولم يأت بعدهما غير محمد ﷺ فيكون محمداً هو «المسيح المنتظر» ونبين ذلك فنقول:

إن كلمة «المسيح» كلمة يونانية معناها «الممسوح من الله» والمسح من الله حقيقة يكون بزيت أو بدهن مقدس . وذلك بأن يأمر الله نبيا من الأنبياء بمسح رجل بالزيت أو بالدهن ؛ ليكون من بعد مسحه ملكا أو عالما أو نبيا . فيهابه الناس ؛ لأنه معين من قبل الله . ولما فرغ الزيت أو الدهن المقدس، صارت كلمة الممسوح على الملك أو العالم أو النبى تدل مجازاً على أنه مصطفى من الله لأداء رسالة مقدسة . وكلمة «المسيح» فى العبرانية «هاما شياه» وفى الآرامية «ماشيحا» وفى اللغات التى تخلو من الحاء . تنطق «مَسيًّا» ففى إنجيل يوحنا: « أنا أعلم أن مسيا الذى يقال له المسيح ؛ يأتى » [يو ٤ : ٢٥] « قد وجدنا مَسيا . الذى تفسيره المسيح» [يو ١ : ٤١]

ولما كان هذا اللقب يطلق على الملك والعالم والنبى ؛ أطلقه اليهود على موسى عليه السلام باعتباره ملكا وعالما ونبيا . وأطلقوه على هارون عليه السلام

= الثانى له ، وتنبأ به على اتساع خطة الإسلام :« أنت ابنى ، وأنا اليوم ولدتك . سلنى أعطيك الشعوب ميراثك، وسلطانك إلى أقطار الأرض . وترعاهم بقضيب من حديد ، ومثل آنية الفخار تسحقهم » اعلم : أنه لا يتصور من عارف صرف هذا المزمور عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ لأنه ـ عليه السلام ـ هو الذى ورث الشعوب كلها ، وبلغ سلطانه إلى أقطار الأرض ، ورعى الأمم ، وأحاطهم بسيفه . ولا يمكن صرف هذا المزمور إلى داود ؛ لأنه لم يرث سائر الشعوب ، ولا بلغ سلطانه إلى أقطار الأرض . وما ملك سوى ناحية من الأرض . وهى « بيت المقدس » ثم خرجت من بعده إلى أمة هذا النبى والأقطار والنواحى.

وقد بلغ سلطان محمد ـ عليه السلام ـ جوانب الدنيا ، وأطراف العالم . ففتح الله عليه الحجاز واليمن والحبشة والنوبة والهند والسند إلى الصين ، ودوّخت أمته الشام والعراق ، وفارس إلى الترك . وفتحوا أرض مصر ، والمغرب الأقصى إلى بحر طنجة ، فقد ورث محمد سائر الشعوب ، وبلغ سلطانه إلى أقطار الأرض ، . فصار هذا المزمور مضاهيا لبشرى يعقوب فى التوراة ، بمحمد ﷺ الذى نقلناه .

فأما قوله : فى أول المزمور :« أنت ابنى » فجرى فيه داود على عادتهم فى إطلاق لفظ البنوة على النبى والمطيع لله . فقد قال فى التوراة :« إسرائيل ابنى بكرى » وقال المسيح فى الإنجيل :« أنا ذاهب إلى أبى وأبيكم » [انتهى كلامه بنصه]

باعتباره عالما ونبيا ، وأطلقوه على داود عليه السلام باعتباره ملكا . ويحيى مسيح لأنه كان يعدّ عندهم نبيا « لأن يوحنا عند الجميع مثل نبى »[متى ٢١ : ٢٦]. وعيسى مسيح لأنه « كان عندهم مثل نبى » [متى ٢١:٤٦]

ومحمد ﷺ بلسانهم «مسيح» وذلك لأن موسى نبه على مجيئه من بعده فى قوله :« يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون . . الخ» ولكنهم لم يقولوا إنه «مسيح» وإنما قالوا : إنه هو «المسيح» وظلوا فى انتظاره إلى زمن يحيى وعيسى - عليهما السلام - وقد سألوا يحيى عنه «فاعترف ولم ينكر ، واقر : أنى لست أنا المسيح» [يوحنا ١ : ٢٠]

ويقول أهل الكتاب : إن لقب «المسيح المنتظر» مأخوذ من نبوءات التوراة عن النبى الآتى على مثال موسى . ففى تفسير الكتاب المقدس يقولون فى قول موسى : « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون . . .» يقولون ما نصه :« النبى الآتى [تثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢] يعلن موسى إعلانا نبويا مَسِيّانيا ، عن النبى الذى سيأتى ، الذى سيخلفه فى وظيفته كنبى »

وعيسى عليه السلام أوصى تلاميذه أن لا يعلّموا على شريعة موسى إذا ما ظهر المسيح ، وأن لا يُدعوا سادة أى رؤساء مذاهب دينية على شريعة موسى إذا ما ظهر المسيح ، وذلك فى قوله :« حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا : على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا ؛ لأنهم يقولون ولا يفعلون ؛ فإنهم يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم ،وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس. فيعرّضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم ، والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق ، وأن يدعوهم الناس :سيدى سيدى . وأما أنتم فلا تدعوا سيدى ؛ **لأن معلمكم واحد** ؛ **المسيح** . وأنتم جميعا إخوة . ولا تدعوا لكم أبا على الأرض ؛ لأن أباكم واحد الذى فى السموات ، **ولا تدعوا معلمين** ؛ **لأن معلمكم واحد** ؛ المسيح . وأكبركم يكون خادما لكم . فمن يرفع نفسه ؛ يتضع ، ومن يضع نفسه ؛ يرتفع » [متى٢٣ : ١-١٢]

ثم ختم حديثه عن خراب هيكل سليمان بقوله : « هو ذا بيتكم يُترك لكم خرابا » كناية عن نسخ التوراة ، ومجيء شريعة جديدة .

ومما مضى يتبين :

١ - أن يحيى لم يقل بأنه هو المسيح .

٢ - وأن عيسى لم يقل بأنه هو المسيح .

اما عن أن يحيى لم يقل بأن عيسى هو المسيح. فهذا هو بيانه :

فى الأصحاح الحادى عشر من إنجيل متى : أن يوحنا أرسل اثنين من تلاميذه إلى عيسى وقال له : « أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ » إنه يسأله هل أنت المسيح المنتظر أم ننتظر آخر ؟

وهذا السؤال يدل على أن يحيى لم يكن عارفا بأن عيسى هو النبى الآتى - كما هو مكتوب - وعدم معرفته بحقيقته تدل على أنه لم يقل لأتباعه إن عيسى هو الآتى . ويؤكد على أنه لم يقل لأتباعه إنه هو من النص نفسه : أن عيسى صنع معجزات أمام أعين الرسولين ولم يصرح بأنه هو الآتى . وبعد ما انتهى من معجزاته قال لهما : « طوبى لمن لا يعثر فىّ » ثم مدح يحيى وأثنى عليه . فقال : « الحق أقول لكم : لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان . ولكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه » فمن هو الأصغر الآتى من بعد المعمدان أعظم منه؟ إنه هو خاتم النبيين محمد ﷺ فيكون عيسى عليه السلام مادحا لاثنين وواحد منهما أعظم من غيره .

ثم قال عيسى عليه السلام : « وإن أردتم أن تقبلوا ؛ فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى » ومعنى هذا : أن « إيليا » الآتى هو « المسيح المنتظر » لا يحيى ولا عيسى .

وقد حذف محررو الأناجيل اسم « أحمد » ووضعوا بدله « إيليا» بحساب الجمل وكل منهما ثلاث وخمسون . وإيلياء فى العبرانى « إليا هو » وهى أيضا ثلاث وخمسون .

فى موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية تأليف الدكتور عبد المنعم الحفنى - نشر مكتبة مدبولى بالقاهرة عن « المهدى المنتظر » Messiah ما نصه :

المطرائى :

وتعتقد الصابئة أن بين الجنة والنار شيئا ثالثا ، يسمونه « المطرائى » أى

المطهر. وفى هذا المحل تعذب النفوس التى ارتكبت ذنوبا بسيطة ، ويكون عذابها لأمد محدود ، ثم تنتقل إلى مواضعها فى عالم الأنوار ، الذى يسمونه « آلى دنهورا » . ومن الأشخاص الثلثمائة والستون ما هو موكل بعذاب النفوس فى «المطراثى» .

علّة أصحاب النار

ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ؛ ليستيقن الذين أوتو الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ﴾

وفى كتب الصابئة :

أنه يلى الإله فى المنزلة ؛ ثلثمائة وستون شخصا . وبعضهم يرى أن عدد الذين يتلون الإله فى المنزلة ؛ لا يعدّ ولا يحصى . وهؤلاء ليسوا بالآلهة ، وليسوا من البشر الصالحين . وهم من الملائكة ، ولا يعدون منهم . ولكل منهم مكانة ممتازة فى عالم الأنوار - «آلى دنهورا» -

وهم لم يُخلقوا كالمخلوقين ، ولكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا ، وتزوجوا بنساء من صنفهم ، وأصبح لهم أولاد وبنات . وهم لا يتناسلون كالمخلوقين ؛ وذلك لأن الواحد منهم يلفظ كلمة ؛ فتحمل امرأته فوراً ، وتضع واحدا منهم .

وهؤلاء الثلثمائة والستون. أو الذين لا يحصون عداً . يعبدون الله ويوحدونه . وكلهم تحت رئيس واحد هو «مارى أدريونا»

وقال ناقل عن الصابئين(١) : إن الثلثمائة والستين ، لكل منهم مملكة فى عالم الأنوار . وهو مكان النعيم للصالحين . قال ما نصه :« إن هؤلاء الثلثمائة والستين يعبدون الإله ويوحدونه ، وجميعهم تحت إمرة «مارى أدريونا» الذى هو أول زعمائهم وأعلاهم مقاما . ويليه «شيشلام ربا» و «منداد وهى» و «هيبل زيوا» و «سام زيوا» و «هو شبه» و «سيمات هيى» و «ماهزيل ما لالا» و «أوثار راما» . . الخ»

---

(١) الصابئة - نشر دار ركابى بالقاهرة ١٤١٦ هـ

وقال الناقل : « ولكل منهم مملكة فى عالم الأنوار » أى لا صلة لهم فى رأيه بأهل النار .

ثم قال عن الصابئين(١) : « ومن اعتقاداتهم الطريفة : قولهم : إن الروحانى الكبير «هيبل زيوا» كان قد ولّى الروحانى الكبير «فتاحيل» على «المطراثى» - أى المطهر - فرأى هذا المتولى أن أهل الأرض قد كثروا كثرة تلفت النظر . فأنزل بهم الأوبئة ؛ ليَنقص من عددهم . فازداد عدد الوافدين إلى الجحيم . وكان «هيبل زيوا» قد سدّ المنفذ الذى يفضى من هناك إلى «عالم الأنوار» - «آلمى دنهورا» - فتضايق الجحيم بالوافدين ، وانطلق «فتاحيل إلى «هيبل زيوا» وسأله إطلاق الأنفس التى استوفت . للترفيه عن الجحيم المزدحم . فأبى «هيبل زيوا» وقال : ما كنت لأدخل دار النعيم نفسا قد تدنست بالإثم .

وكان سكان عالم الأنوار يتوقعون أن تمتلىء دنياهم بالخلائق من الصالحين التائبين ، ولما علموا أن «هيبل زيوا» تشدد فى تخليص المذنبين؛ انطلقوا إلى «مارى أدربوثا» وسألوه التسامح فى أمر أولئك الوافدين على الجحيم ؛ لأن التشديد سيحول دون خروج أحد منهم . فاستدعى «مارى أدربوثا» ؛ «هيبل زيوا» وفاوضه فى هذا الموضوع مليا . ولما رآه متشددا ، طلب إليه أن يعود إلى تدبير مملكته فى عالم الأنوار .

ونصّب «أوثار» واليا على «المطراثى» - المحل الذى تعذب فيه الأرواح التى ارتكبت ذنوبا بسيطة ، ويكون عذابها لأمد محدود - فاستطاع «أوثار» فى مدة وجيزة أن يفتح منفذا فى « المطراثى » يسّر خروج خلق كثير ، التحقوا بعالم الأنوار»

لاحظ :

١ - أن «هيبل زيوا» الذي قال الناقل إنه فى «عالم الأنوار» وقال: إنه هو جبريل قد ولّى «فتاحيل» على المطراثى - وهو مكان عذاب - وبسببه ازداد عدد الوافدين إلى الجحيم .

٢ - أن «هيبل زيوا» سدّ منفذ مكان العذاب ؛ لئلا يصل منه أحد إلى عالم الأنوار .

---

(١) الصابئة - نشر دار ركابى بالقاهرة ١٤١٦ هـ

٣ ـ ولأن «مارى أدريوثا» لما رأى تشدد «هيبل زيوا» طلب إليه أن يترك «المطراثى» ويعود إلى مملكته فى عالم الأنوار . وهذا يدل على أنه كان موكلا بأهل النار(١) .

٤ ـ فتح «أوثار راما» منفذا فى المطراثى . وهذا يدل على أنه كان موكلا بأهل النار .

والنتيجة هى :

أن هؤلاء الثلثمائة والستين ، أو الذين لا عدد لهم ؛ هم الموكلون بأهل النار . كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ...﴾

وفى القرآن : أن العدد ﴿تسعة عشر﴾ وفى كتب التفسير : أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش ... الخ. يعنون أن العرب هم المقصودون بهذه الآيات. والحق : أنها فى اليهود . وفى أسباب النزول ما يصرف معانى آيات نزلت فى اليهود إلى أنها نزلت فى العرب ، ومن ذلك هذا المثال : قوله تعالى : ﴿ذرنى ومن خلقت وحيدا﴾ له شبيه بما فى الأصحاح الثانى والثلاثين من سفر التثنية . ومنه : « هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبى » إلى أن قال : « هم أغارونى بما ليس إلها ، أغاظونى بأباطيلهم . فأنا أغيرهم بما ليس شعبا . بأمة غبية أغيظهم .. الخ »

اعتقاد الصابئة فى الجن والشياطين :

يقولون : إن المكلف بغواية البشر ، واستدراجهم إلى المعصية هو الشيطان ونسله وهم الذين يلحقون الأذى بالناس . وليس فيهم من يعبد الله تعالى .

وباقى الجن ـ وإبليس كان منهم ـ فإن منهم من يعبد الله ومنهم من يكفر به . وهم مكلفون بالشرائع مثل الإنس . ويسمون الجن «مواراخون»

---

(١) لاحظ :

أن الناقل عن الصابئين نقل فى موضع عن الصابئة قولهم : بأن الأرواح باقية من بعد الموت ، ونقل فى موضع آخر أن الأرواح تعدم ولا تبقى . وذلك فى حديثه عن موت يوحنا المعمدان

أما فى يوم القيامة فإن الله يحيى الجسد ، ثم يبعث فيه الروح فيكون فى الجنة أو فى النار بحسب أعمال المرء .

المشـــابـهة بـين الصــــابئين
وبين المسلمين واليهود والمسيحيين :

كـتابنـا نحن المسلمين هو القـرآن الكريم . وأعـداؤنا حيـنما يكتـبـون عنا . يجـمعـون كل مـا عندنا من عادات وتقـاليـد وكتب . ويقـولون : هذا هو مـا عند المسلمين .

والعادات والتقاليـد والكتب ؛ كثيرة . مثل الاعتـقاد فى الرقى ، والسحر ، والسؤال من الأوليـاء وهم مدفونون فى الأرض ، والاسـتخارة واستـشارة الموتى . ومن كتب الأحجبـة والتمائم ؛ شمس المعارف الكبرى ، والسر المكتوم فى مخاطبة الشمس والقمر والنجوم ، والرحمة فى الطب والحكمة . وما شابه ذلك .

ويعتقد كـثيرون فى زيارة المقابر فى أيام معلومة من السنـة . منها أيام الأعياد وشهر رجب . وذبح الذبائح ليمر نعش الميت عليها . فتكون له كفارة ، والصدقات على الأمـوات ، والحج نيابة عنهم . ومـا شابه ذلك . ويزعـمون أن زيادة المقـابر ترقق القلوب ، ويُغـمضـون أعـينهم عن قوله : «كـفى بالقـرآن واعظا» وترى الناس يبكون على الأموات . وهم يعلمون أن البقاء لله وحده . وبكاؤهم يدل على نقص عقـولهم ، وقلة إيمانهم بربهم . ويكذب بعـضـهم على بعض فـى شأن الأرواح من بعد الموت أنها ترفرق على قبر الميت وتسمع وترى . وهم يعلمون أن الروح هواء لا أثر له من بعد الموت . ويُسلُّون أنفـسهم بتحضيـر الأرواح وهم لا يعلمون أن الذى يحضر لهم ويخاطبهم شيطان .

وكتاب اليهود هو التوراة . وعاداتهم وتقاليـدهم وكتبهم كثيرة ،. وهى تشبه اعتقاد الأميين من المسلمين والمسيحيين والصابئين .

وكتاب المسيـحيين هو التوراة والأناجيل الأربعة . وما عنـد اليهود من عادات وتقاليد وكتب هو عندهم ، وزيادة .

وكتـاب الصـابئين هو التوراة والأناجـيل الأربعة ، وعندهم عـادات وتقالـيد وكتب فيها أساطير كما عند أصحاب الديانات .

والباحث له الظاهر الذى أمـامه ، فيكتبه كـما يراه . ويعتقد أنه أصـاب كبد الحقيقة . وليس هذا من الإنصاف فى شئ . فـإن أعداءنا نحن المسلمين كتبوا عنا ما

شاهدوه عند أضرحة الموتى وموالد الأولياء ، ومرور النعش على ذبائح الكفارات ، واعتقاد الناس فى الحل والربط ، وإخفاء المسروقات وإظهارها عن طريق التعزيم على الجان . وقالوا : هذا هو دين المسلمين .

وبعضهم نقّب فى كتب الأحاديث ، واستخرج منها اختلافات وتناقضات . وقال : هذه هى كتب المسلمين .

والذين بحثوا فى الصابئين ، بحثوا فى الظاهر الذى أمامهم ، وكتبوه كما رأوه . ومما كتبوه فى الأعياد : العيد الكبير ، وفيه تنحر الخراف ويذبح الدجاج . وبعده العيد الصغير بمائة وثمانية عشر يوما ويقدم فيه القرابين عن أرواح الموتى بابتهاج . وبعد العيد الصغير بأربعة أشهر يأتى عيد البنجه . ويستمر خمسة أيام ، وهى الأيام الخمسة التى تكبس فيها السنة ؛ لأن شهورهم ثلاثين يوما . وبعد عيد البنجه بستين يوما يكون يوم عيد يحيى عليه السلام .

ومما كتبوه عن تسمية الطفل باسم أمه : إن السبب فى ذلك هو أن الله تعالى لما خلق آدم من طين ، خلق حواء من جسمه . وبعد إنجابهما لم يتزوج الأبناء إخوتهم ، لأن الأخوات أُرسلت إلى عالم آخر . فيه أناس مثلنا ، يسمونه «أمشونى كشطة » أى أرض العهد . وجئ بفتيات من « أمشونى كشطة » إلى أولاد آدم ؛ فتزوجوهن .

ومما كتبوه عن دفن الموتى : أنه يوضع بجانبه إناء فيه ماء . . . الخ

ومما كتبوه عن ما بعد الموت : أن الصابئى المندائى إذا مات ، استقبله ملكان. يدعى أحدهما « صلرويل شرويه » والآخر « قماميزريوا » وهما ناقلا الأرواح . فيحاسبانه على عمله فى دنياه ، حسنا كان أم سيئا . . .الخ

والظاهر ممكن دفعه من أبناء الملة بقولهم : هذه موروثات درج الناس عليها. ومن يجرؤ من العلماء على إصلاح هذه الموروثات ؛ فإنه يُنبذ من قومه ، ولذلك يسكتون . ولكن كتاب الملة لا يقدر أحد على إنكاره ، ولا الدفاع عما فيه بأية حيلة . وعلى هذا يتوجب على الباحثين فى الصابئة أن لا يهتموا بالظواهر ، وأن لا يأخذوا كلام أعدائهم على أنه الحق الذى لا ريب فيه ، وأن يكون بحثهم عن كتاب الملة نفسه .

الفصل التاسع
فى
رَفْض اليهود من السير أمام الله

أولا : نبوءة الأمة المرفوضة فى سِفر إشعياء :

تذكّر :

أن الله تعالى اختار إبراهيم عليه السلام من الأمم الوثنية لدعوة الأمم الوثنية إلى الله . وأن الله قسم الاختيار على نسل إسحق ونسل إسماعيل . وأعطى بركة لإبراهيم هى أمم وملوك على الشعوب ونبوة ، وأعطى إسحق بركة ، وأعطى إسماعيل بركة . فإذا انتهت مدة بركة إسحق ، فإن الشعب الذى كان قائما بها وهو شعب بنى إسرائيل ؛ يكون مرفوضا من السير أمام الله . ويكون الشعب المختار بدلهم هو شعب بنى إسماعيل . ليكون عندنا شعبان ـ أو أمتان ـ شعب مرفوض وشعب مختار . وفى القرآن الكريم فى سياق الكلام عن بنى إسرائيل : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ فى زمان ما قبل محمد ﷺ والآن لستم خير أمة ؛ فإن الخيرية انتقلت إلى بنى إسماعيل أصحاب الشريعة الجديدة . والدليل على أن الخيرية انتقلت منهم إلى بنى إسماعيل : قوله ﴿ولو آمن أهل الكتاب ؛ لكان خيرا لهم﴾ لأن الاختيار فاتهم إلى أمة أخرى . فالمسلمون أمة مختارة من قوله : ﴿لكان خيرا لهم﴾ لا من قوله ﴿كنتم﴾ التى تفيد زمنا قد مضى قبل الإسلام .

وإشعياء فى الأصحاح الخامس والستين ؛ يتكلم عن الشعبين . ويبرز مساوئ الشعب المرفوض ؛ فيقول : إن من أسباب رفضه : أن الله اختاره من بين الوثنيين لإزالة الأوثان . فعبد هو الأوثان مثلهم .

وهل كل الشعب اليهودى سيرفض من السير أمام الله ؟ يقول إشعياء: لا . فإن منهم « بقية » ستؤمن بالنبى الآتى من الشعب المختار . وسيسيرون مع الشعب المختار بالشريعة الجديدة التى سينزلها الله على نبى منه . وشعب النبى الآتى ، سينضم إليه كثيرون من الأمم ، وستنضم إليه « البقية » ويكون الشعب المرفوض متساويا مع الوثنيين فى البعد عن الله . ولذلك يحاربه المختارون كما يحاربون الوثنيين سواء بسواء .

وجمع أمم الأرض هم فى نظر اليهود « أميون » والأمم كثيرون . أمة العرب بنى إسماعيل ، وأمة أهل فارس ، وأمة اليونان ، وأمة الرومان ، وأمة المصريين . وغيرهم . والشعب المختار . هم أمة واحدة من بين أمم العالم . وليس هو كل العالم . وهو شعب من جمع الشعوب ، وتنضم إليه فى الإيمان بالنبى الآتى منه جميع الشعوب ، وليس فى التوراة شعب مبارك من الله بعد شعب اليهود بنى إسرائيل إلا شعب بنى إسماعيل . فإن أ ـ هاجر مباركة ب ـ وإسماعيل مباركا . ذلك قوله : «قومى احملى الغلام ، وشدى يدك به ؛ لأنى سأجعله أمة عظيمة » [تك ٢١ : ١٨] « وقال لها ملاك الرب : تكثيرا أكثر نسلك ؛ فلا يُعد من الكثرة » [تك ١٦ : ١٠] « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه ، وأثمره وأكثره كثيرا جدا » [تك ١٧ : ٢٠]

وفى الأصحاح الخامس والستين من سفر إشعياء كلام عن :

١ ـ دعوة الأمم إلى الله عن طريق شعب جديد مختار .

٢ ـ ورفض بنى إسرائيل من السير أمام الله لأجل كفرهم وريائهم .

٣ ـ وأن بقية منهم تخلص .

٤ ـ وأن الشريعة الجديدة من الشعب الجديد المختار تدل على حسن حال الخليقة الجديدة .

كلام النصارى فى هذه النبوءة :

يقول بولس فى رسالته إلى أهل روما :

١ ـ إن الشعب اليهودى سيُرفض من السير أمام الله . ولن يرفض كله ، بل سيكون منه « بقية » صالحة .

٢ ـ وإن الشعب المختار هم « الأمم » لا أمة واحدة .

٣ ـ وأن « عبيد الله » الذين هم « البقية » سيكونون من اليهود ، وهم الذين سيقودون « الأمم » إلى الله .

٤ ـ وأن الله قد اختار « المسيح » عيسى من البقية

٥ - والمسيح والبقية هم المقابلون لبنى إسرائيل المرفوضين . وهم الشعب المختار من اليهود للسير أمام الله

٦ - ثم تنضم الأمم إلى البقية . فيكون الجميع شعبا واحدا ، بدل بنى إسرائيل المرفوضين .

هذا هو معنى كلام بولس . والنصارى يؤمنون به .

وكلامه هذا لا يدل على أن الشعب اليهودى مرفوض من السير أمام الله .

وذلك لأن :

١ - بنى إسرائيل

٢ - وبنى إسماعيل .

شعبان . ولكل منهما بركة . وهى مدة من الزمان بملك ونبوة .

وإذا كانت البقية من بنى إسرائيل هى التى ستقود الأمم إلى الله . - كما يقول بولس - على كلام المسيح عيسى عليه السلام . فإن معنى ذلك هو استمرار بركة بنى إسرائيل ، إلى يوم القيامة . واستمرار البركة لا يدل على رفض الشعب .

وكلام المسيح فى هذا الأمر هو نزع الملكوت من بنى إسرائيل إلى أمة أخرى[1]. وإذْ هو من بنى إسرائيل ، فإنه لا يكون رأس البقية . ويكون رأس البقية ، ورأس الشعب المختار ؛ هو النبى الآتى من إسماعيل ؛ لأن له بركة .

والآن إلى نص كلام إِشَعياء ، ومناقشة تفسيره من كتاب « السنن القويم فى تفسير أسفار العهد القديم »

النص :

«أصغيت[2] إلى الذين لم يسألوا . وُجدت من الذين لم يطلبونى . قلت هأنذا هأنذا لأمة لم تسم باسمى . بسطت يدى طول النهار إلى شعب متمرد سائر فى طريق غير صالح وراء أفكاره . شعب يغيظنى بوجهى دائما يذبح فى الجنات ويبخر على الآجر . يجلس فى القبور ويبيت فى المدافن يأكل لحم الخنزير وفى آنيته

(١) متى ٢١ مزمور ١١٨

(٢) إشعياء ٦٥ .

مرق لحوم نجسة . يقول قف عندك . لا تدن منى لأنى أقدس منك . هؤلاء دخان فى أنفى نار متقدة كل النهار . ها قد كتب أمامى . لا أسكت بل أجازى . أجازى فى حضنهم . آثامكم وآثام آبائكم معا قال الرب . الذين بخروا على الجبال وعيرونى على الآكام فأكيل عملهم الاول فى حضنهم .

هكذا قال الرب . كما أن السلاف يوجد فى العنقود فيقول قائل : لا تهلكه لان فيه بركة . هكذا أعمل لأجل عبيدى حتى لا أهلك الكل . بل أخرج من يعقوب نسلا ومن يهوذا وارثا لجبالى فيرثها مختارى وتسكن عبيدى هناك . فيكون شارون مرعى غنم ووادى عخور مربض بقر لشعبى الذين طلبونى .

أما أنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى ورتبوا للسعد الأكبر مائدة وملأوا للسعد الاصغر خمرا ممزوجة ، فإنى أعينكم للسيف وتجثون كلكم للذبح لأنى دعوت فلم تجيبوا . تكلمت فلم تسمعوا بل عملتم الشر فى عينى واخترتم مالم أسر به . لذلك هكذا قال السيد الرب . هو ذا عبيدى يأكلون وأنتم تجوعون . هو ذا عبيدى يشربون وأنتم تعطشون . هوذا عبيدى يفرحون وأنتم تخزون . هو ذا عبيدى يترنمون من طيبة القلب وأنتم تصرخون من كآبة القلب ومن انكسار الروح تولولون . وتخلفون اسمكم لعنة لمختارى . فيميتك السيد الرب ويسمى عبيده اسما آخر . فالذى يتبرك فى الأرض يتبرك بإله الحق والذى يحلف فى الارض يحلف بإله الحق لأن الضيقات الأولى قد نسيت ولأنها استترت عن عينى .

لانى هأنذا خالق سموات جديدة وأرضا جديدة[1] فلا تذكر الاولى ولا تخطر على بال. بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد فى ما إنا خالق لأنى هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحا . فأبتهج بأورشليم وأفرح بشعبى ولا يسمع بعد فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ . لا يكون بعد هناك طفل أيام ولا شيخ لم يكمل أيامه . لان الصبى يموت ابن مئة سنة والخاطىء يلعن ابن مئة سنة . ويبنون بيوتا ويسكنون فيها ويغرسون كروما ويأكلون أثمارها . لا يبنون وآخر يسكن ولا يغرسون وآخر يأكل . لأنه كأيام شجرة أيام شعبى ويستعمل مختارى عمل أيديهم . لا يتعبون باطلا ولا يلدون للرعب . نسل مباركى الرب وذريتهم معهم . ويكون أنى قبلما يدعون أنا أجيب وفيما هم يتكلمون بعد ، أنا أسمع . الذئب والحمل يرعيان معا والاسد يأكل

---

(١) ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ كناية عن تغيير الشريعة أى نسخ التوراة بالقرآن .

التبن كالبقر . أما الحية فالتراب طعامها . لا يؤذون ولا يهلكون فى كل جبل قدسى. قال الرب » [إش ٦٥]

الشرح والبيان :

١ - فى النص

١ - شعب متمرد : وهم اليهود غير المؤمنين بالنبى الأمى الآتى على مثال موسى [تث ١٨ : ١٥ - ٢٢] فى حال ظهوره .

٢ - والذين لم يسألوا الرب هم الأمم .

٣ - وعبيد الرب فى قوله :« هكذا أعمل لأجل عبيدى » الآية ٨ : هم اليهود الذين سيؤمنون بالنبى الأمى الآتى .

هذا هو كلام المفسرين . وهم يعنون بالنبى الأمى « المسيح عيسى ابن مريم. والحق : أنه هو محمد رسول الله ؛ لأن الله جعل كلامه فى فمه . والأوصاف فى النبوءة تدل عليه . والذين لم يسألوا الرب : هم شعب بنى إسماعيل ، ومن ينضم إليهم من الأمم . فيكون الجميع رعية واحدة ، وراع واحد . وذلك لأن الله بارك فى إسماعيل . وبركة الله لا مردّ لها . وعبيد الرب فى قوله « هكذا أعمل لأجل عبيدى » هم البقية . وهم مع الشعب الآتى ؛ سيرثون الأرض . لقول داود عليه السلام :« الرب عارف أيام الكَمَلَة . وميراثهم إلى الأبد ؛ يكون . لا يخزون فى زمن السوء ، وفى أيام الجوع يشبعون . لأن الأشرار يهلكون ، وأعداء الرب كبهاء المراعى . فنوا كالدخان فنوا . والشرير يستقرض ولا يفى . أما الصديق فيترأف ويُعطى ؛ لأن المباركين منه يرثون الأرض ، والملعونين منه يُقطعون » [مزمور ٣٧]

ويقول المفسرون :« فالوعد هو للأمم ، الذين سيؤمنون ؛ فينضمون إلى شعب الله ، ولليهود المؤمنين ، والوعيد هو لغير المؤمنين »

وصحة العبارة :« فالوعد هو لبنى إسماعيل المبارك فيه . والأمم ستنضم إليهم . ولليهود الذين سيؤمنون بالنبى الآتى - الذين هم البقية - والوعيد هو لليهود غير المؤمنين »

٢ - « لأمة لم تسمى باسمى » :

أى جميع الأمم ما عدا اليهود الذين كانوا شعب الله بالاسم .

هذا هو كلام المفسرين .

وإنه لباطل ؛ وذلك لأن النص يتكلم عن أمة واحدة لا عن جميع الأمم . فلماذا يفسرون بجميع الأمم ؟

٣ ـ ثم تكلم عن أسباب رفض اليهود فقال : « شعب يغيظنى » بعبادة الأصنام وأين كانوا يضعون الأصنام ؟ فى الجنات والحدائق المثمرة ، والموقوفة لعبادة الأصنام، فإنهم استخدموا الأماكن الجميلة ، واللذات الجسدية ؛ لترغيب الناس فى عبادة الأصنام .

وكانوا يبنون هياكل من «الآجر» وهو الطوب المصنوع لعبادة الكواكب مثل الشمس والقمر . وفى الأصحاح الثالث والعشرين من سفر الملوك الثانى أنهم عبدوا «عشتورت» و « كموش» و « ملكوم» ويقول إرمياء : إنهم بخروا على السطوح «لكل جند السماء ، وسكبوا سكائب لآلهة أخرى » [إر ١٩ : ١٣ ويقول إرمياء : «إنهم كانوا يصنعون كعكا لملكة السموات ، ولآلهة أخر» [إرمياء ٧ : ١٨] ويقول داود عليه السلام : « بل اختلطوا بالأمم ، وتعلموا أعمالهم ، وعبدوا أصنامهم ؛ فصارت لهم شركا . وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان ، وأهرقوا دما ذكيا . دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان ، وتدنست الأرض بالدماء ، وتنجسوا بأعمالهم ، وزنوا بأفعالهم ؛ فحمى غضب الرب على شعبه ، وكره ميراثه ، وأسلمهم ليد الأمم ، وتسلط عليهم مبغضوهم ... » [مز ١٠ : ٣٥ ـ ٤١]

٤ ـ وبعدما عدد معاصيهم . ومنها الجلوس فى المقابر لأجل سؤال الموتى .

وقد نهاهم موسى عن استشارة الموتى ، وعن الرقى وعن العرافة ... [تث ١٨ : ٩ ـ] كانوا يبيتون فى المدافن ؛ لظنهم أن أرواح الموتى تظهر لهم فى الليل أو بواسطة أحلام ، وكانوا يأكلون لحم الخنزير . وهو محرم عليهم . ومع هذا كانوا يقولون للأبرار : نحن الأبرار وأنتم الأشرار . بعد ما عدد معاصيهم . أخبر عن معاقبتهم ، ونزع الملك منهم والشريعة بقوله : « ها قد كُتب أمامى . لا أسكت بل اجازى »

وهذا المكتوب مذكور أيضا فى نبوءة نشيد موسى التى تدل على أن الله قد قد

رفض اليهود من السير أمامه [تث ٣٢ : ٣٤] وهو : « أليس ذلك مكنوزا عندى، مختوما عليه فى خزائنى . لى النقمة والجزاء فى وقت تزل أقدامهم »[1] أيضا : المزمور ٥٠ : ٢ و ٧٩ : ١٢ وإرمياء ١٦ : ١٨ وحزقيال ١١ : ٢١

الرد على النصارى فى قولهم

بخطية آدم عليه السلام من النص :

يقول إشعياء عن الله تعالى : « لا أسكت بل أجازى . أجازى فى حضنهم . آثامكم وآثام آبائكم معا »

يريد أن يقول : إن « الحضن » نوع من المكاييل يُقدر بأكثر من ملء الكف .

وأنا أجازيكم بالمكاييل على قدر أعمالكم . وأن آثامكم يا بنى إسرائيل تجمع عند الله فى سِفر ، إلى أن يجئ وقت الانتقام على يد النبى الآتى من الشعب المختار .

وفى هذا المعنى يقول المسيح : « لكى يأتى عليكم كل دم زكى ، سُفك على الأرض ، من دم هابيل الصِّديق إلى دم ذكريا بن برخيا ، الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق أقول لكم : إن هذا كله يأتى على هذا الجيل .

يا أورشليم . يا أورشليم . يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يُترك لكم خرابا ؛ لأنى أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن، حتى تقولوا : مبارك الآتى باسم الرب » [متى ٢٣ : ٣٥ - ٣٩]

ويقول النصارى : إن هذا الخراب قد تم على يد الرومانيين فى معركة تيطس سنة ٧٠ م وفى معركة إدرياتوس سنة ١٣٢ م وقولهم باطل . لأن الرومانيين كانوا يحتلون « أورشليم » من قبل ولادة المسيح بثلاث وستين سنة . وقيل : بمائة عام .

ولان المسيح نفسه استطرد فى الكلام . وقال : إنه ستحدث علامات فى العالم . وإذا حدثت ؛ بخروب الهيكل . كناية عن نسخ الشريعة على يد النبى الآتى. والعلامات لم تحدث من قبل تيطس وإدرياتوس . وهى قيام حروب بين

(١) النص السامرى : « فى يوم الانتقام » ويفسره السامريون بيوم القيامة من الأموات للجنة أو للنار .

الأمم ، وظهور أنبياء كذبة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن ، ويحدث اضطهاد لأتباع المسيح ، وينتشر الإنجيل فى العالم ؛ شهادة لجميع الأمم . ثم يأتى المنتهى .

والمنتهى : هو قيام حرب بين النبى الأمى الآتى وبين اليهود فى أورشليم . وبها يتم زوال ملك اليهود من العالم وتنسخ الشريعة .

وقولهم بقتل المسيح وصلبه لغفران الخطايا ؛ هو قول باطل . وذلك لأن نصوص التوراة مصرحة بأن آدم تاب وتاب الله عليه . ففى سفر الحكمة :«والحكمة هى التى حمت الإنسان الأول . أب العالم ، الذى خلق وحده . لما سقط فى الخطيئة . رفعته من سقوطه ، ومنحته سلطة على كل شئ » ولأن فى هذا النص : «فأكيل عملهم الأول فى حضنهم » وفى الأناجيل : أن كل امرئ بما كسب رهين . ومن ذلك قول المسيح :« ولكن أقول لكم : إن كل كلمة بطالة ؛ يتكلم بها الناس؛ سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين ؛ لأنك بكلامك تتبرر ، وبكلامك تدان » {متى ١٢ : ٣٦ ـ ٣٧ }

٥ ـ ومفسرو التوراة لم يفسروا هذه العبارة « لشعبى الذين طلبونى » ولو كانت هكذا :« لشعبى الذين لم يطلبونى » لفسروها . وذلك لأنه يتكلم عن شعب يطلبه ، وشعب لم يطلبه . وغير الطالب هو الوارث .

٦ ـ قوله :« أما أنتم الذين تركوا الرب ، ونسوا جبل قدسى ، ورتبوا للسعد الأكبر مائدة ، وملأوا للسعد الأصغر خمرا ممزوجة ؛ فإنى أعينكم للسيف »

يقول المفسرون : السعد الأكبر هو : « المشترى » وهو أكبر إله عند الوثنيين .

والسعد الأصغر هو اسم للزهرة . فالكواكب السيارة عبدها اليهود . ونسوا جبل الله المقدس . ويقول المفسرون : إن الجبل المقدس هو أورشليم والهيكل .ونسيان هذا الجبل ، هو نسيان الرب . وقولهم باطل . فإن الجبل المقدس هو مكة والكعبة . وليس من دليل فى التوراة على تقديس أورشليم والهيكل .

٧ ـ وقارن إشعياء بين شعبين : شعب ملعون وهم اليهود ، وشعب مختار . فقال :« وتخلفون اسمكم لعنة لمختارى »

٨ ـ وقال : إن الشعب المختار ، سيكونون عبيد الله . وسيسميهم باسم آخر. يسمون بأسماء تشير إلى أنهم « مباركو الرب »

٩ ـ ثم تكلم عن كثرة الخيرات في زمن النبي الأمي الآتي . فقال :« لا يكون بعد هناك طفل أيام ولا شيخ لم يكمل أيامه » ويقول المفسرون : نفهم من هذا الكلام إن الله يعطي شعبه أفضل الخيرات بدون تعيين عمر الإنسان تماما .

١٠ ـ ثم تكلم عن الأمن والسلام في زمن النبي الآتي . فقال :« الذئب والحمل يرعيان معا . . » يقول المفسرون : إن هذا يشير إلى الأمان والسلام بين بني البشر . فلا يكونون ظالمين وشرسين . بسبب امتداد التقوى في العالم

١١ ـ وقال عن الدعاء والإجابة :« ويكون أني قبلما يدعون ؛ أنا أجيب ، وفيما هم يتكلمون بعد ؛ أنا أسمع »

كناية عن حب الشعب الجديد وإظهار الشفقة والرحمة به .

تعقيب :

مما سبق يُعلم : أن اليهود عبدوا الأصنام من دون الله ، وقد ذكرنا عن الصابئين ـ أتباع نبي الله يحيى عليه السلام ـ أنهم كانوا طائفة من اليهود صبغهم يحيى من أجل إيمانهم بمحمد ﷺ واستعدادهم للدخول في دينه إذا جاء . ولو أن اليهود تركوا اسم الصابغة بدون تفسيره بأنه اسم لعباد الأوثان ، الذين كانوا يعبدون الكواكب زمن إبراهيم عليه السلام ؛ لسارع الناس في الدخول في الإسلام . وهم لا يريدون ذلك . فلذلك فسروا كلمة « الصابغة » ـ وتنطق الصابئة ـ بأنه لقب كان موضوعا على عبّاد الأوثان ، وأتباع يحيى هم بقايا الوثنيين القدماء .

وأتباع يحيى إلى هذا اليوم ما عبدوا الأوثان . وعباد الأوثان القدماء لم يطلق عليهم صابئة ؛ لأن العالم كله كانوا عباد أوثان . وكان اليهود يعبدون الأوثان ويقولون نحن صابئة ؛ ليلغوا في دعوة يحيى . فشاع بين الناس أن الموجودين إلى اليوم من أتباع يحيى . سواء أكانوا حرانيين أم مندائيين . عباد أوثان . والحق أن الذين عبدوا الأوثان هم اليهود . بنص كتبهم ، وبنص القرآن الكريم .

ثانيا : نشيد موسى في سِفر التثنية :

تذكّر :

قول الله لإبراهيم عليه السلام : « وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » وتقسيم بركة إبراهيم بين إسماعيل وإسحق . فإن ملاك الله قال لهاجر عن بركتها : « تكثيرا أكثر نسلك ؛ فلا يعد من الكثرة » وقال الله لإبراهيم عن سارة : « أباركها فتكون أمما ، وملوك شعوب منها ؛ يكونون »

«وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك» فقال الله : « وأما إسماعيل. فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه » وقال عن بركة إسحق: « وأكثر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض » وناب بنو إسرائيل عن نسل إسحق فى بركتهم . فإن الملاك « باركه هناك » وإسحق قال ليعقوب وهو يباركه : « ليستعبد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل» ومعنى هذا : أن بنى إسرائيل لهم مدة من الزمان تبدأ من نبى الله موسى عليه السلام وأن بنى إسماعيل لهم مدة من الزمان تبدأ من نبى الله محمد عليه السلام الذى كتب عنه موسى فى الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية ، وقال : إنه سيكون مثلى . وقال فى آخر التوراة : ولن يظهر مثلى فى بنى إسرائيل .

ونشيد موسى يبين أن الله قد أنعم على اليهود بنعم لا تحصى ولا تعد ، وأنهم لم يشكروا نعمه ، وعبدوا الأوثان ، ونسوا الله الذى خلقهم ، وجعلهم ملوكا ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين . ولأنهم أغاروا الله بعبادتهم الأوثان؛ سوف يغيظهم بأمة غبية ، لا تُحسب شعبا فى عداد الشعوب المتحضرة . وسوف يسلمهم إلى الهلاك « لأن الرب يدين شعبه ، وعلى عبيده؛ يشفق » أى يهلك شعبه الأول الذى اختاره من بين الوثنيين لهدايتهم إليه ، ويشفق على عبيده المختارين .

ثم تكلم عن النبى الأمى الآتى من الامة الأمية الغبية فى نظر اليهود فقال : « تهللوا أيها الأمم شعبه » وفى التوراة اليونانية « تهللوا أيها الأمم مع شعبه » وفى الرسالة إلى أهل روما : كتبها بولس كما فى اليونانية « مع شعبه » أى أن النبى يظهر من شعب . والأمم تنضم إلى شعبه . كما ظهر موسى من شعب بنى إسرائيل ، وانضمت الأمم إليه .

تمهيد للنبوءة :

فى الأصحاح الحادى والثلاثين من سفر التثنية ما نصه :

«وقال الرب لموسى : هوذا أيامك قد قربت لكى تموت . ادع يشوع وقفا فى خيمة الاجتماع لكى أوصيه . فانطلق موسى ويشوع ووقفا فى خيمة الاجتماع فتراءى الرب فى الخيمة فى عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة . وقال الرب لموسى : ها أنت ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين فى الأرض التى هو داخل إليها فى ما بينهم ويتركنى وينكث عهدى الذى قطعته معه . فيشتعل غضبى عليه فى ذلك اليوم وأتركه وأحجب وجهى عنه فيكون مأكلة وتصيبه شرور كثيرة وشدائد حتى يقول فى ذلك اليوم : أما لأن إلهى ليس فى وسطى أصابتنى هذه الشرور . وأنا أحجب وجهى فى ذلك اليوم لأجل جميع الشر الذى عمله إذ التفت إلى آلهة أخرى . فالآن اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد وعلم بنى إسرائيل إياه . ضعه فى أفواههم لكى يكون هذا النشيد شاهدا على بنى إسرائيل . لأنى أدخلهم الأرض التى أقسمت لآبائهم الفائضة لبنا وعسلا فيأكلون ويشبعون ويسمنون ثم يلتفتون إلى آلهة أخرى ويعبدونها ويزدرون بى وينكثون عهدى . فمتى أصابته شرور كثيرة وشدائد ؛ يجاوب هذا النشيد أمامه شاهدا ؛ لأنه لا ينسى من أفواه نسله . إنى عرفت فكره الذى يفكر به اليوم قبل أن أدخله إلى الأرض كما أقسمت .

فكتب موسى هذا النشيد فى ذلك اليوم ، وعلم بنى إسرائيل إياه.

وأوصى يشوع بن نون وقال : تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل ببنى إسرائيل الأرض التى أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك .

فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها . أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم . لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . هوذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى . اجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق فى مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض . لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون

وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به . ويصيبكم الشر فى آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم .

فنطق موسى فى مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه» .

لاحظ :

« ويصيبكم الشر فى آخر الأيام »

على يد النبى الأمى الآتى مثل موسى . فإن نشيد موسى يتكلم عن بركة بنى إسرائيل ، التى ستنتهى فى آخر أيام ملكهم ونبوتهم ، وبدء أيام بركة بنى إسماعيل من محمد ﷺ فقد قال يعقوب لبنيه : « اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام» ثم تكلم عن زوال الملك والشريعة منهم بقوله :« لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه ؛ حتى يأتى شيلون . ولن يكون خضوع شعوب » [تك ٤٩ : ١ و ١٠]

وفى هذا النشيد : التنبيه على مجئ أمة جديدة غبية فى نظر اليهود ، وأنها تبدأ من نبى ستتهلل الأمم مع شعبه به ، وسيكون هلاك بنى إسرائيل الكافرين به على يديه .

تطابق نبوءة نشيد موسى مع القرآن الكريم :

وفى هذه النبوءة يتكلم عن اليهود . فى شخص أبيهم يعقوب فيقول : «يعقوب حبل نصيبه . وجده فى أرض قفر ، وفى خلاء مستوحش خرب . أحاط به وصانه كحدقة عينه ، كما يحرك النسر عشه ، وعلى فراخه يرف ، ويبسط جناحه ، ويحملها على مناكبه . هكذا الرب وحده ، اقتاده ، وليس معه إله أجنبى . . . »

وفى هذه النبوءة أن الله جعلهم ملوكا على الأمم ،وانعم عليهم بخيرات عظيمة . وإذا زالت بركتهم ؛ فإن الخيرات ستنتقل إلى الأمة الجديدة . وهم يطمعون فى زيادة الخيرات .

وعن هذا يقول الله تعالى: ﴿ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد . كلا﴾ أى لا يريد محمدا عليه السلام ليظل مالكا . فيحصل على مدة تكون زيادة على مدة بركة بنى إسرائيل.

وفى هذه النبوءة : « فأنا أغيرهم بما ليس شعبا . بأمة غبية أغيظهم »

وفى القرآن الكريم : ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ...﴾

وفى هذه النبوءة : « إنهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم » وفى القرآن الكريم : ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾

وفى هذه النبوءة : « أنا أنا هو ، وليس إله معى » ومعناها : ﴿هو الله أحد﴾ وفى هذه النبوءة : أنهم لو تأملوا فى آخرتهم . لعلموا أن الله لن ينصرهم على النبى الآتى . فلماذا يحاربون الرب، والرب قد باعهم ؟ وفى القرآن الكريم: ﴿ثم لا ينصرون﴾ وفى هذه النبوءة : « تهللوا أيها الأمم مع شعبه » وفى القرآن الكريم : ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ ويقول تعالى : ﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾

تعقيب :

ونعيد التعقيب الذى عقبنا به على كلام إشعياء فى رفض اليهود أمام الله . فإن فى نبوءة نشيد موسى : « ذبحوا لأوثان ليست الله ، ولآلهة لم يعرفوها » وقد نقل اليهود ما فيهم إلى الصابئين أتباع يحيى عليه السلام . ونقلوا معنى كلمة الصابئين من الصبغ فى الماء إلى لقب عباد الأوثان فى زمان الخليل إبراهيم عليه السلام ليضللوا الناس فى دعوة يحيى ، وليصدوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وكان اليهودى يعبد الصنم جهارا ، ويقول للناس : أنا لست يهوديا وإنما أنا من أتباع يحيى، أنا صابئى . فظن الناس أن أتباع يحيى ؛ عباد أصنام . وهم ليسوا عباد الأصنام .

ومثل ما فعلوا مع الصابئين ، فعلوا مع العرب بنى إسماعيل . فإنهم كذبوا عليهم ، وقالوا : إن العرب عبدوا الأصنام ووضعوها عند الصفا والمروة وعند الكعبة . والحق : أن العرب لم يسجدوا لصنم قط ، ولم يضعوا الأصنام فى ديارهم . وسبب قولهم هذا عليهم : هو أن الله لما رفض اليهود من السير أمامه ؛ علّل الرفض بأنهم عبدوا الأصنام . فوضعوا عبادة الأصنام فى العرب ؛ ليقولوا للعالم : إن العرب مثلنا . فلماذا رفضنا ؟ لماذا اختار النبى الآتى من العرب عباد الأصنام . ولم يبعثه فينا ؟ ألأننا عباد أصنام ؟ فهم مثلنا فيها . فلماذا الرفض ؟ وقد

كانوا معنا على شريعة موسى ، وأبونا هو إبراهيم ، وعلماؤنا كانوا يعلمون الشريعة في ديارهم . فإما أن نُرفض جميعا ، ويظهر النبى فى أمة طاهرة . وإما أن يبعثه فينا ، لأننا أهل العلم وهم أميون .

ثم ما كان فيهم من الصفات القبيحة والأفعال الذميمة كالزنا والسرقة والقتل والربا ، وأكل مال الغير ، وما شابه ذلك . نسبوه إلى العرب ؛ للحط من شأنهم ، والتقليل من قيمتهم . والعرب برماء من ذلك كله . وهم إلى هذا اليوم أبرار وبرماء .

ففى القرآن الكريم : أن إبراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة هو وإسماعيل ولم يكن له ولد غيره فى ذاك الزمان ؛ طلب من الله أن يجنب نسله عبادة الأصنام وأن يبعث فيهم نبيا منهم . وقد استجاب الله له وبعث فيهم النبى ﷺ فيكون الأمر الاول وهو إبعادهم عن عبادة الأصنام : قد تم وحصل . وفى القرآن ؛ أن الله عقد عهدا بينه وبين إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا الكعبة من الأصنام ، ولم يذكر الله فى القرآن أنهم نقضوا العهد . فيكونون قد وفوْا به ، والتزموا به . فكيف مع هذا يقول السفهاء من الناس : إن العرب تعدوا على حرمات الله ، وعبدوا الأصنام من دونه ؟ إن اليهود قد كذبوا عليهم لينكروا نبوة محمد ﷺ .

نص نشيد موسى :

«انصتى(1) أيتها السموات فأتكلم ، ولتسمع الأرض أقوال فمى . يهطل كالمطر تعليمى ، ويقطر كالندى كلامى . كالطل على الكلإ وكالوابل على العشب . إنى باسم الرب أنادى . أعطوا عظمة لإلهنا . هو الصخر الكامل صنيعه . إن جميع سبله عدل . إله أمانة . لا جور فيه . صدِّيق وعادل هو .

أفسد له الذين ليسوا أولاده . عيبهم . جيل أعوج ملتو . الرب تكافئون بهذا يا شعبا غبيا غير حكيم ؟ أليس هو أباك ومقتنيك . هو عملك وأنشاك ؟ اذكر أيام القدم وتأملوا سنى دور فدور . اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك .

حين قسم العلى للأمم . حين فرق بنى آدم ؛ نصب تخوما لشعوب حسب عدد بنى إسرائيل . إن قسم الرب هو شعبه . يعقوب حبل نصيبه . وجده فى أرض قفر وفى خلاء مستوحش خرب . أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة عينه . كما يحرك

(1) تثنية ٣٢ .

النسر عشه وعلى فراخه يرف ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه . هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي . اركبه على مرتفعات الأرض فأكل ثمار الصحراء وأرضعه عسلا من حجر وزيتا من صوان الصخر . وزبدة بقر ولبن غنم مع شحم خراف وكباش أولاد باشان وتيوس مع دسم لب الحنطة . ودم العنب شربته خمرا .

فسمن يشورون ورفس . سمنت وغلظت واكتسيت شحما . فرفض الإله الذي عمله وغبي عن صخرة خلاصه . أغاروه بالأجانب وأغاظوه بالأرجاس . ذبحوا لأوثان ليست الله . لآلهة لم يعرفوها . أحداث قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤكم . الصخر الذي ولدك تركته . ونسيت الله الذي أبداك(١) .

فرأى الرب ورذل من الغيظ بنيه وبناته . وقال : أحجب وجهي عنهم وأنظر ماذا تكون آخرتهم . إنهم جيل متقلب . أولاد لا أمانة فيهم . هم أغاروني بما ليس إلها . أغاظوني بأباطيلهم . فأنا أغيرهم بما ليس شعبا . بأمة غبية أغيظهم . إنه قد اشتعلت نار بغضبي فتتقد إلى الهاوية السفلى وتأكل الأرض وغلتها وتحرق أسس الجبال . أجمع عليهم شرورا وانفذ سهامي فيهم . إذ هم خاوون من جوع ومنهوكون من حمى وداء سام . أرسل فيهم أنياب الوحوش مع حمة زواحف الأرض. من خارج السيف يثكل ومن داخل الخدور الرعبة . الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأشيب . قلت : أبددهم إلى الزوايا وأبطل من الناس ذكرهم . لو لم أخف من إغاظة العدو من أن ينكر أضدادهم من أن يقولوا : يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه .

إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم . لو عقلوا لفطنوا بهذه وتأملوا آخرتهم. كيف يطرد واحد ألفا ويهزم اثنان ربوة لولا أن صخرهم باعهم والرب سلمهم ؟ لأنه ليس كصخرنا صخرهم ولو كان أعداؤنا القضاة . لأن من جفنة سدوم جفنتهم ومن كروم عمورة . عنبهم عنب سم ولهم عناقيد مرارة . خمرهم حمة الثعابين وسم الأصلال القاتل .

أليس ذلك مكنوزا عندي . مختوما عليه في خزائني ؟ لي النقمة والجزاء . في وقت تزل أقدامهم . إن يوم هلاكهم قريب والمهيآت لهم مسرعة . لأن الرب

---

(١) ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ .

يدين شعبه وعلى عبيده يشفق . حين يرى أن اليد قد مضت ولم يبق محجوز ولا مطلق يقول : أين آلهتهم الصخرة التى التجأوا إليها التى كانت تأكل شحم ذبائحهم وتشرب خمر سكائبهم . لتقم وتساعدكم وتكن عليكم حماية . انظروا الآن **أنا أنا هو وليس إله معى**[(١)] . أنا أميت وأحيى . سحقت وإنى أشفى . وليس من يدى مخلّص . إنى أرفع إلى السماء يدى وأقول : حى أنا إلى الأبد . إذا سننت سيفى البارق وأمسكت بالقضاء يدى ؛ أرد نقمة على أضدادى وأجازى مبغضى . أسكر سهامى بدم ويأكل سيفى لحما . بدم القتلى والسبايا ومن رءوس قواد العدو .

تهللوا أيها الأمم . شعبه . لأنه ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أضداده ، ويصفح عن أرضه عن شعبه »[تث ٣٢:١ ـ ٤٣] .

وفى النص اليونانى: « تهللى معه أيتها السموات،واسجدوا له يا جميع الآلهة . تهللى أيتها الأمم مع شعبه ، ولتُعلن قوته ملائكة الله[(٢)] جميعا ؛ لأنه يثأر لدم عبيده ، ويرد الانتقام على خصومه ، ويجازى مبغضيه ، ويكفر عن أرض شعبه»

كلام النصارى فى نبوءة نشيد موسى ، ونبوءة إشعياء

يقول بولس فى الأصحاح العاشر من رسالته إلى أهل روما :

إننى أتمنى من الله أن ينقلب اليهود إلى مسيحيين ، مؤمنين بعيسى ربا مصلوبا عن الخطايا ، وبذلك يخلصون من عقاب الله . والإيمان به ربا مصلوبا عن الخطايا؛ يدخلهم الجنة التى وعد بها الله المتقون ، ولو لم يعملوا بأحكام التوراة ، وإذا هم انقلبوا إلى المسيحية ، وقبلوا الأمم معهم ؛ فإنهم يكونون مع الأمم شعبا جديدا هو شعب المسيح . لكن اليهود لن ينقلبوا إلى مسيحيين مع علمهم بأن الله سيرفضهم من السير أمامه فى حال ظهور النبى الأمى المماثل لموسى . يقول بولس :« لكنى أقول: ألعل إسرائيل لم يعلم ؟ أولا : موسى يقول :« أنا أغيظكم بما ليس أمة . بأمة غبية أغيظكم » ثم إشعياء يتجاسر ويقول :« وُجدت من الذين لم يطلبونى ، وصرت ظاهرا للذين لم يسألوا عنى » أما من جهة إسرائيل فيقول :« طول النهار بسطت يدى إلى شعب معاند ومقاوم » [رو ١٠ : ١٩ ـ ٢١]

---

(١) ﴿ قل : هو الله أحد ﴾ .   (٢) ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم ﴾ .

والرد على بولس :

هو أن الدين أ ـ عقيدة ب ـ وشريعة . أو إيمان وأعمال . والمسيح عيسى عليه السلام من بنى إسرائيل . ولم يؤسس ديانة ؛ لأنه كان على شريعة موسى لقوله :« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء »

وكان يبشر بمحمد رسول الله ﷺ ذلك قوله فى النص :« ما جئت لأنقض بل لأكمل» ومعنى التكميل : هو أن أحكام التوراة الفقهية فيها حكم الإيمان بنبى سيظهر مثل موسى . له يسمعون . واليهود لا يقدرون على العمل بهذا الحكم من قبل ظهور هذا النبى ؛ فيكون عملهم بالتوراة ناقصا . وإذا جاء وآمنوا به؛ فإن عملهم بالتوراة يكون كاملا . فلذلك قال المسيح : أنا جئت لأدعو إلى إكمال الشريعة وذلك بإرشادكم إلى محمد وصفاته . وفى هذا المعنى جاء فى القرآن الكريم: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾

وكان المسيح هو ويحيى ـ عليهما السلام ـ يدعوان إلى اقتراب ملكوت السموات . وقد ضرب المسيح أمثلة كثيرة لبيان معناه . وهو ملكوت محمد ﷺ وصرح بأن الأعمال شرط صحة فى الدين لا شرط كمال . ومن كلامه :« كل من يأتى إلىّ ويسمع كلامى ويعمل به ؛ أريكم من يشبه ؟ يشبه إنسانا بنى بيته ، وحفر وعمّق ووضع الأساس على الصخر . فلما حدث سيل ؛ صدم النهر ذلك البيت ؛ فلم يقدر على أن يزعزعه ؛ لأنه كان مؤسسا على الصخر . وأما الذى يسمع ولا يعمل ؛ فيشبه إنسانا بنى بيته على الأرض من دون أساس . فصدمه النهر فسقط حالا ، وكان خراب ذلك البيت عظيما » [لو ٦ :٤٧ ـ ٤٩]

ثم ناقض بولس نفسه فقال :«**ألعلّ الله رفض شعبه ؟** »

إنه صرح بالرفض واستدل عليه . فكيف يقول بعد ذلك : إن الشعب اليهودى غير مرفوض؟

هذا تناقض . وسبب قوله إن الشعب اليهودى غير مرفوض : هو أنه عمل دينا وسماه المسيحية . ونسب كلامه إلى المسيح بقوله : أنا تلقيته منه من بعد موته فى رؤيا (١)، والمسيح من اليهود .

(١) أعمال الرسل ـ الأصحاح التاسع

وقد ذكرتُ نص كلامه كله وفسرته ورددت عليه في كتابنا « اقتباسات كتاب الأناجيل من التوراة »

الشرح والبيان :

١ ـ « أنصتى(١) أيتها السموات فأتكلم ، ولتسمع الأرض أقوال فمى »

من المتكلم ؟ هل هو نبى الله موسى ؟ ليس هو . لأن بنى إسرائيل لم يكونوا قد زاغوا وفسدوا . هل هو نبى الله محمد الآتى من بعد موسى الذى يقول عنه الله بصيغة الالتفات « تهللوا أيها الأمم مع شعبه » ؟

هذا هو الحق . وذلك لأن داود عليه السلام تخيّل محمدا متكلما ، ونقل كلامه إلى الناس فى الزبور . فالمتكلم فى الظاهر داود . وهو بظهر الغيب ، بقوة الروح ، ينقل كلام محمد ﷺ للناس . ومثال ذلك : « قال الرب لسيدى : اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك » [مز ١١٠ : ١] إنه يقول : إن الله قال لسيدى النبى الآتى . كن معى ، وأنا أنصرك على أعدائك .

وداود لم يسمع كلام الله مباشرة ، ولم يخبره سيده بما قاله الله له . ولم يحدث ذلك على الحقيقة ؛ لأن محمدا لم يكن موجودا بجسمه قبل داود .

ومثال ذلك أيضا : كلام محمد لله فى المزمور المائة والتاسع عشر: « أحسن إلى عبدك فأحيا . اكشف عن عينى فأرى عجائب من شريعتك . غريب أنا فى الأرض . لا تُخف عنى وصاياك . انسحقت نفسى شوقا إلى أحكامك فى كل حين. انتهرتَ المتكبرين الملاعين الضالين عن وصاياك . . . »

فقد تخيله داود وهو يقول هذا الكلام لله ، ونقل للناس قوله ؛ ليعرفوا حقيقته . وهو إذا جاء . إذا قال فى القرآن ما قاله داود عنه؛ فإنه يكون هو النبى المنتظر . ولما جاء محمد ﷺ قال عن نفسه الكلام الذى قاله عنه داود .

ولا يمكن أن يكون داود هو المتكلم عن نفسه ؛ لأنه ليس غريبا فى الأرض . وفى القرآن الكريم: ﴿ لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾ واللاعن لهم هو محمد رسول الله . وقد نقل لعنته لهم داود ، وعيسى بن

---

(١) راجع تفسير التوراة المسمى « السنن القويم فى تفسير أسفار العهد القديم » ـ الجزء الثانى

مريم ، لا أنهما هما اللاعنان (١).

وفى النص « ولتسمع الأرض أقوال فمى » إشارة إلى أن المتكلم هو النبى الذى قال عنه موسى : « وأجعل كلامى فى فمه » وفى بدء سفر إشعياء :« اسمعى أيتها السموات ، واصغى أيتها الأرض ؛ لأن الرب يتكلم » ثم سرد أفعال بنى إسرائيل الذميمة ، وقال بعدها : « ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجرى إليه كل الأمم ، وتسير شعوب كثيرة ويقولون : هلم نصعد إلى جبل الرب . . .»

ثم تكلم عن رفض بنى إسرائيل من السير أمام الله فقال : « فإنك رفضت شعبك بيت يعقوب ؛ لأنهم امتلأوا من المشرق . . . وامتلأت أرضهم أوثانا »

وآخر الأيام : هو آخر أيام بركة بنى إسرائيل ، وبدء بركة بنى إسماعيل من محمد ﷺ

والنبى المتكلم نيابة عن الله يقول عن نفسه :« إنى باسم الرب أنادى . أعطوا عظمة لإلهنا »

من المتكلم باسم الرب ؟

فى قول موسى عن النبى الآتى :« ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى ؛ أنا أطالبه» [تث ١٨ :١٥+]

ولا يمكن أن يكون المتكلم موسى عليه السلام . لأن الله يوحى إليه بكلامه. وهو يبلغه بقال الله . ولا يقول أنا نائب عنه ، وأتكلم بالنيابة عنه

إن الله تعالى كان لليهود كالأب لأبنائه . فى الشفقة والرحمة . وقال لهم : « أنتم أولاد للرب إلهكم » [تث ١٤ : ١] وقال لهم :« ليس مثل الله » [تث ٣٣: ٢٦] وكلمهم عن نفسه بلسان بنى آدم ؛ ليفهموا مراده . ورزقهم من الطيبات. ومع ذلك لم يقابلوا الإحسان بالإحسان ، وإنما قابلوه بالإساءة .

٦ ـ « اذكر أيام القدم ، وتأملوا سنى دور فدور . اسأل أباك فيخبرك ، وشيوخك فيقولوا لك »

---

(٢) راجع البداية والنهاية لأمة بنى إسرائيل ـ أحمد حجازى السقا

هذا يدل على أن النبى المتكلم هو النبى الآتى عوضا عن الله مثل موسى عليه السلام . وذلك لأنه يقول لليهـود : اذكروا الأيام القديمة . وهى لا تكون قديمة إلا فى وجـود أيام جديدة . هى أيام النـبى الآتى . وقوله « سنى دور فـدور » لا يدل على اليـهـود المعـاصـرين لموسى . لأن الأدوار الـكـثيـرة فى الزمـان لا تدل على المعاصرين لموسى . ويدل على زمان كثيـر أيضا : قوله : اسأل الشيوخ . ولم يكن فى عصر موسى شيوخ معلمون .

٧ ـ « حين قـسم الـعلىّ للأمم ، حين فرق بنى آدم ؛ نصب تخـوما لشـعوب حـسب عدد بنى إسرائيل . إن قسم الرب هو شعبه . يعقوب حبل نصيبه »

لما تفرق المؤمنون بالله فى الأرض بعـد نجاتهم فى سفينة نوح عـليه السلام . وصـاروا شعـوبا . جعل لكل شـعب جزءا من الأرض . فـشعب إيران له جـزء ، وشعب الرومـان له جزء ، وشعب مـصر له جزء . وهكذا . ويقـال : إنهم كانوا سبعين شعبا يتكلمون سبعين لغة ، من بعد بناء برج بابل وهدمه ، وبعدد نفوس بنى إسرائيل التى جاءت إلى مصر مع يعـقوب ؛ يُعطى الله مدنا فى العالم لبنى إسرائيل ليعلّموا فيـها شريعة موسى . وبنو إسرائيل لم يكونوا شـعبا لهم جزء من الأرض . فلمـا نزلت شريعة مـوسى ، وأمرهم الله بـنشرها بين الشـعوب أعطاهم مـدنا عدد النفوس ، فإنهم إذا فتحوا بلد شعب لنشر الشـريعة فيها ؛ يسكنون فيها ؛ ليكونون مالكين لأراضى الشعوب . وملكهم على الشعـوب هو فى الحقيقة ؛ ملك الله على الشعوب. ولذلك يسمى « بملكوت الله » أو « بملكوت السموات »

فإذا جاء النبى المنتظر ، وفتح شعبه بلاد العالم ؛ فإنهم يكونون ساكنين فيها. ويكونون مالكين لأراضى الشعوب ، وملكهم على الشعوب هو فى الحقيقة ؛ ملك الله على الشـعوب . ولذلك يسـمى بملكوت الله أو بملكوت السمـوات ، وفى هذا المعنى يقول عيسى عليه السـلام لعلماء بنى إسرائيل :« إن ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمّة تعمل أثماره »

وهذا هو معنى قول بُولُس لأهل أثينا(١) :« أيها الرجال الأثينيون . أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيـرا . لأنى بينما كنت أجتاز ، وأنظر إلى معبوداتكم ؛ وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه :« لإله مجهول »

فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه . هذا أنا أنادى لكم به . الإله الذى خلق العالم

(١) أعمال الرسل ١٧ .

وكل ما فيه هذا هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة الأيادى ، ولا يُخدم بأيادى الناس ؛ كأنه محتاج إلى شئ . إذ هو يعطى الجميع حياة ونفسا ، وكل شئ . وصنع من دم واحد من الناس يسكنون على كل وجه الأرض ، وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم كل أمّة . لكى يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه . مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيدا ؛ لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضا : « لأننا أيضا ذريته » فإذا نحن ذرية الله لا ينبغى أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر . نقش صناعة واختراع إنسان . . .» { أعمال ١٧ : ٢٤ ـ ٢٩ }

وواضح من كلامه : أنه كان يدعو الأمم إلى الله ، كما كان يدعو اليهود من قبل سبى بابل .

٨ ـ « وجده فى أرض قفر ، وفى خلاء مستوحش خرب . . .»

الأرض القفر . هى وطن بنى إسماعيل . والكاتب يشيربالقفر وبالخلاء إلى النبى الآتى منه . لأن يعقوب مولود فى مدن مأهولة بالسكان ، وتحيط بها الحدائق والبساتين من كل جانب . ثم ابتدأ فى الكلام عن يعقوب فقال :« هكذا الرب وحده اقتاده ، وليس معه إله أجنبى » وإذا نحينا هذا المعنى جانبا وفسرنا بحسب ظواهر النصوص . فإن الكلام كله يكون عن يعقوب وبنيه جميعا هكذا : وجده فى أرض قفر ، فأحاط به ورباه تربية حسنة . ثم اقتاده إلى مصر ، ثم أخرجه منها ليقيم له على الشعوب ملكا . من موسى عليه السلام . والإشكال على هذا المعنى هو القفر والخراب ، وهو لا يزول إلا بأسلوب الالتفات ، أو بأسلوب تحريف الكاتب للكلم عن مواضعه .

٩ ـ « فسمن يشورون ورفس »

كلمة « يشورون » ترجمت فى السبعينية بالمحبوب ، وفى ترجمة بإسرائيل والمعنى : أن الله لما أكرم بنى إسرائيل صاروا كالفرس الذى من كثرة العلف وجودته؛ يرفس من البطر .

١٠ ـ « هم أغارونى بما ليس إلها . أغاظونى بأباطيلهم ؛ فأنا أغيرهم بما ليس شعبا . بأمة غبية أغيظهم »

يفسر بولس الأمة الغبية بقوله : « كل أمة من الامم الوثنية » والتفسير الصحيح : أنها أمة واحدة فقط . وهى أمة بنى إسماعيل عليه السلام المبارك فيه من الله . وأمة بنى إسماعيل ليست أمة وثنية ؛ لأنهم كانوا على شريعة التوراة ، ولأنهم طهروا الكعبة من الأصنام . ولم يقل فى هذه النبوءة إنه سيغيرهم بأمة وثنية، بل قال بأمة جاهلة وغبية . أى غير متعلمة .

١١ ـ ثم تكلم عن بغض الله لليهود وإهانته لهم ونصره إعداءهم عليهم. فقال: « أجمع عليهم شرورا »

١٢ ـ ووصف علماء بنى إسرائيل بالغباء فقال : « إنهم أمة عديمة الرأى ، ولا بصيرة فيهم »

لأنهم لو كانوا حكماء ؛ ما ردّوا إرادة الله . وهى التمكين لمحمد فى الأرض.

١٣ ـ « تأملوا آخرتهم »

اى أنهم فى آخر أيام بركة بنى إسرائيل ، سيهلكون على يد النبى الآتى . وقد تم هذا الهلاك فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ٦٣٨ م

١٤ ـ « لأنه ليس كصخرنا صخرهم ، ولو كان أعداؤنا القضاة »

يقول المفسر اليهودى « راشِى » فى هذه العبارة :

« لأن صخرهم . أى إله الأعداء ليس كصخرنا » أى الرب . ومع ذلك أعداؤنا قضاة . أى أسياد يسودوننا » أ.هـ

من هم الأعداء ؟ هم شعب بنى إسماعيل التى ستبدأ بركته من محمد ﷺ . لأنه يتكلم عن أمة أمية ستأتى لتنزع من اليهود الملك . وعبر عن النبى الآتى منها بقوله : « تهللوا أيها الأمم مع شعبه » وقال : إن الله الذى كان صخرة لهم «اباءهم» و « أسلمهم » وانضم إلى الشعب الآتى الذى سيهلك اليهود هلاكا رديا . فكلام الحَبر راشى المفسر هو الصحيح . ومعناه : أن أعداء اليهود سيتسلطون على اليهود.

١٥ ـ « أليس ذلك مكنوزا عندى . مختوما عليه فى خزائنى ؟ »

ومعناه : أن أعمال بنى إسرائيل رديئة .

١٦ ـ « لى النقمة والجزاء » أى لله الأمر من قبل ومن بعد .

١٧ - « فى وقت تزل أقدامهم »

ما هو الوقت الذى سيهلك فيه اليهود لقوله :« إن يوم هلاكهم قريب » ؟ هو الوقت الذى سيظهر فيه محمد رسول الله . وسيكون هلاكهم على يديه . وقوله «وقت» يشير إلى وقت يعلمه . فيكون ظهور محمد ﷺ غير معلوم سنينه . وإن كان معلوما أنه « قريب » إذ هو الذى سيهلك اليهود هلاكا رديا . ويوم الهلاك على يديه يسمى بيوم الانتقام ؛ فيكون يوم الانتقام : هو يوم الهلاك على يديه . فإذا قلنا «وقت» أو قلنا « يوم الانتقام » فإن المعنى واحد . ولكن السامريين يفرقون بينهما بقولهم : إن يوم الانتقام هو يوم القيامة من الأموات ، وإن وقت . قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة .

١٨ - « لأن الرب يدين شعبه ، وعلى عبيده يشفق » ههنا يقارن بين شعبين . شعب سيدينه الله ويهلكه . وهم شعب اليهود . وشعب سيرحمه الله . وهم شعب بنى إسماعيل . والدينونة : هى العقاب ؛ لقول بولس :« وأيضا : الرب يدين شعبه ، مخيف هو الوقوع بيد الله الحى » [عب ١٠ : ٣١] فأبان أن الدينونة هنا تستلزم العقاب .

١٩ - « تهللوا أيها الأمم شعبه . لأنه ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أضداده ، ويصفح عن أرضه . عن شعبه »

وفى النص اليونانى :

« تهللى معه أيتها السموات ، واسجدوا له يا جميع الآلهة . تهللى أيتها الأمم مع شعبه، ولتُعلن قوته ملائكة الله جميعا ؛ لأنه يثأر لدم عبيده، ويرد الانتقام على خصومه، ويجازى مبغضيه ؛ ويكفر عن أرض شعبه » [تث ٣٢: ٤٣ - ٤٤]

تهللى معه : أى مع النبى الأمى الأتى من الأمية الأمية . وهو محمد ﷺ واسجدوا له يا جميع الآلهة : أى تخضع سادة الأمم لشريعته .

تهللى أيتها الأمم مع شعبه : أى شريعته لشعبه ولجميع الأمم .

ولتعلن قوته ملائكة الله جميعا : أى أن ملائكة السموات تساعده فى حربه ضد أعدائه من اليهود وغيرهم .

يثأر لدم عبيده : لأن الأعداء سيحاربونهم ويقتلون منهم ، والله هو الذى سيثأر لهم .

وقد تحقق هذا مع محمد ﷺ فإن الملائكة نصرته على أعدائه فى غزوة بدر . وما تزال مع المسلمين .

التطابق مع القرآن الكريم :

قد بينا وجوها للتطابق من قبل وههنا نركز على كلام كريم فى سورتين :

أولا : التطابق مع سورة المدثر :

فى سورة(١) المدثر يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر ﴾ كناية عن أن النبى وقومه كانوا بعيدين عن السير أمام الله . وكان بنو إسرائيل هم الذين يسيرون أمامه بشريعة موسى . فكأنهم كانوا نائمين ، وهم يقظين . فلما جاء دور بنى إسماعيل فى السير أمام الله عوضا عن بنى إسرائيل ، قال له :﴿قم فأنذر﴾ ثم بين لهم فى شخصه : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ لأن اليهود الذين نزع الله منهم الملك ؛ لن يكفوا عن إيذائكم .

ثم تكلم عن هلاك اليهود فى الساعة التى أنبأ دانيال والمسيح أنهم سيهلكون فيها على يديه . فقد بين دانيال فى الأصحاح التاسع أنه بعد أربعمائة وتسعين سنة يزول ملك اليهود من العالم بالحرب على يد النبى الآتى . ذلك قوله :« سبعون أسبوعا قُضيت على شعبك ، وعلى مدينتك المقدسة ؛ لتكميل المعصية ، وتتميم الخطايا ، ولكفارة الإثم ، وليؤتى بالبر الأبدى ، ولختم الرؤيا والنبوة ، ولمسح قدوس القدوسين . فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس ... الخ »

واستدل المسيح بكلام دانيال هذا على أن النبى الآتى،الملقب بالمسيح الرئيس سيهدم هيكل سليمان،وسيخرب أورشليم،ومن كلامه:« فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس » إلى أن قال :«وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات » [متى ٢٤]

---

(١) راجع كتابنا البداية والنهاية لأمة بنى إسرائيل .

ثم تكلم عن هلاك اليهود فى الساعـة هذه ، وبين شدة وطأتها بأسلوب كنائى هو ﴿فإذا نقر فى الناقـور . فذلك يومئذ يوم عسـير ، على الكافـرين غيـر يسيـر﴾ والكافـرون هم اليهـود . لأن الألف واللام تدل على قـوم معـروفين للمخـاطب . والمراد بالنقر فى الناقور : الكناية عن تجمع الجيوش للحرب . كما هى العادة فى دق الطبول ،والنفخ فى الأبواق.

ثم ابتدأ فى إنذار اليهود فقال : ﴿ذرنى﴾ أى أنا الذى سأقود الحرب ضدهم . وقد كنت من قبل ، أنصرهم على أعدائهم ، وأجعلهم تحت أقدامهم .

وبين لهم أنه أكرمهم وأنعم عليـهم وجعلهم ملوكا على الشعوب . فـقد كان يعقوب أبوهم مع يوسف وإخوته فى أرض مصر . وقـد كانوا يعيشون فى البادية ، ثم أرسل إليهم موسى فأخرجهم من مصر بقوة الله وجعلهم ملوكا على الشعوب ، فأكلوا خيرات الأرض ، ولما كثر عددهم وثما مالهم ؛ لا يريدون لغيرهم أن يتمتع بما تمتعوا به . إنهم بعنادهم لله كـأنهم يريدون أن يقولوا له : دعنا مالكين ، ولا تملك بنى إسمـاعيل . وإنه إذا لم يملكهم ؛ يكونون قد أخذوا أكـثر من حقهم . وهل يوجد إله غير الله ؟ أنا خلقته وحدى . يعنى : هم وآباؤهم . خاطبهم فى شخص أبيهم . ولما خلقته ﴿ جعلت له مالا ممدودا﴾ أى أكثـرت المال لبنى إسرائيل ﴿وبنين شهودا﴾ وجعلتـهم أكثر أمـوالا وأولادا . والأولاد يشهدون على مـا حصل لهم ، وما سـوف يحصل ، مما هو مدون فى كتب التـوراة عن هذه الأمور ﴿ثم يطمع أن أزيدا﴾ له مدة من مدة بركـة بنى إسماعيل . أو يريد كل مـدة بركته وهذا هو المعنى الصحيح للزيادة . ﴿كلا﴾ لن أزيدهم . والزيادة معناها : أن لا أرسل محمدا ، وأنا قد وعدت به ، ونبهت عليه، ولأنهم شعب معـاند كما قال إشعياء :« تركوا الرب ، واستهانـوا بقدوس إسرائيل . ارتدوا إلى وراء » [إش ١ : ٤] « بسطت يدى طول النهـار إلى شعب متمرد » [إش ٦٥ : ٢] وقـد نقلها بولـس فقال :« طول الـنهار بسطت يدىّ إلى شـعب معـاند ومـقاوم» وفى القـرآن الكريم ﴿كـلا إنه كـان لآياتنا عنيدا﴾

ثم هدده بقوله : إنه من اليوم فصاعدا ﴿ سأرهقه صعودا﴾ لماذا ؟ لأنه تخلف عن الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ وقال عن القرآن : ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشـر﴾

وقد وصفهم الله بالظلم ، وأجرى هذا القول على لسانهم فقال : ﴿وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا﴾

ثم قال عن جهنم : ﴿عليها تسعة عشر﴾ليبين اختلاف اليهود فى عدة أهل النار، وليظهر لهم الصواب فيها ، وليستيقن الذين أوتو الكتاب أن محمدا رسول الله حقا وصدقا ؛ لأنه وهو أمي لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان قد أخبر بكثير مما عندهم . كأنه دارس للكتب . وما هو بدارس .

وهذا يدل على أن الله هو الذى علمه من فضله ومن كرمه

* * *

ثانيا : التطابق مع سورة آل عمران :

يقول الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ؛ لتؤمنن به ولتنصرنه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾.

نص الميثاق من التوراة :

« إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما ، وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا : لنذهب وراء آلهة أخرى ، لم تعرفها ونعبدها ؛ فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم ؛ لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم. وراء الرب إلهكم تسيرون ، وإياه تتقون ، ووصاياه تحفظون ، وصوته تسمعون ، وإياه تعبدون ، وبه تلتصقون . وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم ؛ يُقتل ؛ لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ، وفداكم من بيت العبودية ؛ لكى يطوحكم من الطريق التى أمركم الرب إلهكم أن تسلكوا فيها ؛ فتنزعون الشر من بينكم » [تثنية ١٣ : ٥٠] .

ومحمد ﷺ من وسط اليهود بمعنى أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام وذرية إبراهيم جماعة واحدة . وهو من نسل إسماعيل ، واليهود من نسل إسحق أخيه . فهم جميعا أولاد عم . وهو المشار إليه فى سفر التثنية بقوله : « أقيم لهم نبيا من

وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه . فيكلمهم بكل ما أوصيه به » وهو مصدق لما معهم . لم يؤثر عنه أنه قال لهم :« لنذهب وراء آلهة أخرى » فلا يكون جزاؤه القتل . وهو مع التصديق مهيمن ؛ لقوله : « فيكلمهم بكل ما أوصيه به».

نص الإقرار من التوراة :

وقد أخذ الله الإقرار على بنى إسرائيل - فى الأصحاح السابع والعشرين من سفر التثنية - بأن وقف ستة أسباط على جبل جرِّيم ، وستة على جبل عيبال . واللاويون يقولون لهم جميعا بصوت مرتفع : « ملعون الإنسان الذى يصنع تمثالا منحوتا أو مسبوكا . ويقولون : آمين » « ملون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها ، ويقول جميع الشعب : آمين » وقد أقروا بأن يعملوا بكل كلمات التوراة . ومن كلماتها : أنه إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم ويدعو إلى الله ؛ فإنهم يقبلونه ؛ وإذا جاءهم رسول غير مصدق ؛ فإنهم يقتلونه . وهذا حكم شديد من أحكام التوراة الشديدة . ولذلك عبر عنه بقوله :« وأخذتم على ذلكم إصرى » أى تشديداتى بقتله .

نص الشهادة :

وقوله تعالى : ﴿ قال : فاشهدوا ﴾ جاء فى معناه فى نشيد موسى عليه السلام:

أ - « فالآن اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد ، وعلم بنى إسرائيل إياه . ضعه فى أفواههم ؛ لكى يكون لى هذا النشيد شاهدا على بنى إسرائيل »[تث ٣١ : ١٩] .

ب - « قال لهم - أى موسى - : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التى أنا أشهد عليكم بها اليوم ؛ لكى توصوا بها أولادكم ؛ ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة » [تث ٣٢ : ٤٦] فقائل اشهدوا ؛ هو نبى الله موسى عليه السلام .

* * *

وفى هذا القدر كفاية .

والله أعلى وأعلم ، وأعز وأكرم . وصلى الله على محمد نبى الرحمة وعلى

آله وصحبه وسلم .

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

***

تم الكتاب . ولله الحمد . وكان الفراغ من تأليفه فى شهر ربيع الثانى من سنة ألف وأربعمائة وإحدى وعشرين من الهجرة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة